

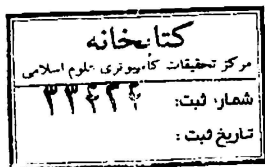
هاشم معروف الحسيني

الإنفاضا
الشيعي
عبر التاريخ

دار الكتب الشيعية
بيروت - لبنان

الاتفاقيات الشيعة
عبر التاريخ

هَاشِم مَرْوَفُ الْحَسَنِي



الْأُتْفَاضَاتُ الشَّيْعِيَّةُ عَبْرَ التَّارِيخِ

جمعا
مرکز تحقیقات
ش-اموال:

وَلَدُ اللَّهِ التَّعِينِي
بيروت
بنان
۲۸۷۱

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الانتفاضات الشعبية في التاريخ

يقدم هذا الكتاب صورة صادقة عن تاريخ التشيع بما تعنيه هذه الكلمة من ان النبي (ص) قد اختار عليا اماما وخليفة من بعده بأمر من ربه . واصالة التشيع بهذا المعنى اصالة غير ما جاء به محمد بن عبد الله (ص) من أصول ومبادئ وتشريعات ، كما يقدم صورا عن مسيرة الخلافة الاسلامية وآراء الشيعة وغيرهم في الحاكم الجائر وما ارتكبه الامويون منذ استيلائهم على السلطة من الجرائم وما قاموا به من محاولات جادة لتحريف الاسلام وتشويه معاله ، وعن الانتفاضات الشعبية بقيادة العلويين وغيرهم التي رافقت العهد الاموي من مطلعه حتى لفظ آخر أنفاسه، وحاولت جهدي ان اكون حياديا ومجردا للحق والواقع، وأرجو ان اكون قد وفقت لذلك .

هاشم معروف الحسني

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الرسول الامين وعلى آله الائمة الهداة الميامين الذين اجتباهم الله من خلقه وجعلهم الدعاء الى طاعته ورحمته وبركاته .

لقد كان التشيع لعلي (ع) بالمعنى الذي تعنيه كلمة الخليفة ، لا يعدو كونه المختار لاتمام المسيرة بالاسلام في انحاء هذه الدنيا الواسعة وبهذا الاعتبار كان جزءا من الرسالة التي أنزلت على محمد بن عبد الله ليبلغها الى البشر كغيرها من الاصول والمبادئ والتشريعات ما دام بين الاحياء ويتولاها من بعده من اختاره الله لها ، ولا تعني شيئا آخر وراء متابعة المسيرة بالاسلام لتحرير الانسان من الوثنية ومن سيطرة الاهواء والميول والشهوات، وتخليص الضعفاء والمعذيين والمستضعفين من سلطان السادة والحاكين والمستغلين .

ولما اختار الله رسوله اليه وانحرفت الامة عن الخط الراسالي
 باختيارها لادارة شؤون الامة اولئك الذين تعاقبوا على الحكم
 واستخدموا سنة الرسول (ص) التي كان الكذبة من انصار الحاكمين
 يعيشون بها . ستارا تخفي وراءها ما كانوا يضمرونه من سوء الرسالة
 ومسيرتها ، وراحوا يعملون على اظهار التشيع لعلي وآله وكأنه حزب من
 الاحزاب ويذهب كل فريق مذهبا في تاريخ ولادته يختلف عن مذهب
 الآخرين ، ولو أنصف الباحثون وتجردوا عن نزعاتهم وأحقادهم الموروثة
 واستخدموا العقل والمنطق في بحوثهم بدلا من اجترار ما تناقلته المجاميع
 من مصنوعات ابي هريرة وابن جندب وابناء الزبير والزهري وغيرهم
 لاتجهوا الى البحث والتنقيب عن مصدر التسني وكيف نشأ وترعرع في
 ظل اولئك الذين استخدموا السنة لتضفي على عروشهم صفة الاسالة
 والتبعية لدعوة الرسول ورسالته ، وجذبت اليهم تلك الاموال التي كانت
 تندفق على المدينة من غنائم الحروب جماهير المسلمين طمعا في برهم
 وصلاتهم ، ولكن القسم الاكبر من تلك الاموال كان يذهب الى القرشيين
 وحاشية الخليفة ولا يصل لغيرهم من عامة الناس وسوادهم الا النزر
 القليل وبخاصة عندما اتهمت الخلافة الى عثمان واستغل الحزب الاموي
 خلافته وجميع موارد الدولة ومقدرات الامة ، وأصبح مع ذلك يتجاهر
 بالاستهتار بالقيم والمقدسات وبكل مظاهر الاسلام ، مما أثار غضب
 الجماهير وشعورهم بالحرمان ، وأخذ ذلك الشعور يتفاعل في الحجاز
 وخارجها ، وبدلا من ان يقابل الخليفة تلك النعمة العارمة بمحاولة الإصلاح
 والحد من اسراف اسرته في الاستغلال والاستهتار وعدم المبالاة ، بدلا من
 ذلك وقف الى جانب اسرته وحواشيه ومضى يتبع قادة المعارضة ويلاحقهم
 بالضرب والتعذيب والطرده الى خارج المدينة كما فعل مع جماعة من وجوه
 الصحابة وأعيانهم، مما دعا المسلمين في خارج المدينة الى اعلان الثورة
 عليه واحتلال المدينة الذي انتهى بمصرعه ، وكان الرابع الاول من تلك

الثورة معاوية بن هند وأبي سفيان الذي يجسد أحلام أمية وعداءها
السافر للبيت الهاشمي وللرسالة التي انطلقت منه لتجمع الناس على صعيد
واحد وهو الايمان بالله والعمل لخير الجميع ، تلك الرسالة التي كان
يشلها علي(ع)، والتف حوله العرب والموالي يومذاك لانهم كانوا يرونه المنفذ
الوحيد من تسلط القرشيين واستغلالهم . ولكنهم سرعان ما بدأوا
ينقضون من حوله بعد ان ساوى بينهم وبين الموالي والعبيد وأراد ان
يطبق الاسلام بدون تفضيل او محاباة فكانت سيرته السياسية والاجتماعية
بداية نضال جديد، نضال المؤمنين بالقيم الاسلامية والشعارات التي رفعها
الاسلام ضد الجاهلية الجديدة التي كان يجسدها الحزب الاموي وأعلنها
حربا لا هوادة فيها على أنصع الوجوه في مسيرة الثورة ضد الشرك
الذي تستر بالتوحيد وبطلاء خفيف من الاسلام .

لقد وقف طلحة والزبير وعائشة الى جانب معسكري الشرك
والجاهلية الجديدين اللذين قادهما الامويون واشتركوا في حرب علي
وكان ما كان من امر تلك المعارك في البصرة وصفين والنهروان وكانت
تائجها لصالح الامويين فانتقلت السلطة اليهم يتداولونها تداول الكرة
كما كان يتمنى لهم ابو سفيان بن حرب ورآهم النبي (ص) من وراء الغيب
ينزون على منبره نزو القردة فراعهم ذلك المشهد وجاءت الآية الكريمة
لتؤكد له رؤياه :

وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة

في القرآن .

واتجه الامويون بكل طاقتهم ينفسون عن احقادهم على بيت محمد
ابن عبد الله الذي قهرهم وضعف كبرياءهم خلال معاركهم معهم فتبعوا
دريته بالقتل والاسر والتشريد وسبه بسب ابن عمه علي (ع) الذي قال
له اكثر من مرة بحضور حشد من صحابته : يا علي من سبك فقد سبني
ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله فقد كفر بالله ، فكانت المجازر

وقوافل الشهداء في العراق وغيره تتلاحق على أيديهم وسيوفهم المصلطة على المطالبين بالحق وتطبيق العدالة التي دعا اليها الاسلام وضحي علي وبنوه بأنفسهم وبكل ما يملكون من اجلها ومن اجل الانسان وكرامته وتطبيق العدالة التي تحفظ لكل انسان حقه وكرامته وكانوا القدوة الخيرة المعطاء لكل نائر على الظلم والظالمين وفراغة العصور وتستمر بهم حتى اولئك الذين قاوموا الحكم الاموي والعباسي لمصالحهم الخاصة وطمعا في السلطة كالزبيريين وابن الاشعث والعباسيين وغيرهم وقد عرضت في كتابي هذا المراحل التي مرت بها الخلافة الاسلامية ومواقف الشيعة وأئمتهم منها وآراء المسلمين في الحاكم الجائر وموقف الشيعة منه والاسباب التي قفت على الشيعة ان يكونوا مستهدين للحكام في مختلف العصور واتفاضات الشيعة في وجه الحاكمين منذ ان أتيح للحزب الاموي ان يتسلم مقاليد السلطة وحتى لفظت الدولة الاموية آخر أنفاسها وما احدثته مجزرة الطف من الهزات العنيفة في جميع الاوساط الاسلامية وما الى ذلك مما يتصل بموضوع الكتاب واعتمدت في جميع ذلك على المصادر التي تعتمد في بحوثها على المنطق والمحاكمة أكثر من المرض والنقل وأرجو ان أكون قد وفقت الى حد ما لاعطاء صورة صحيحة عن تلك الاتفاضات التي رافقت العهد الاموي حتى لفظ أنفاسه الاخيرة بسواعد الشيعة الذين انتزعت منهم ثورة الحسين روح التواكل والخضوع للظالمين وعلمتهم كيف يعيشون احرارا ويموتون كراما في مملكة الملادين . ومنه سبحانه أستمد العون والتوفيق والسلامة في الدين والدنيا وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم انه سميع مجيب .

اطالة التشيع وموافقة الدعوة منذ مطلعها

لقد تحدث القدامى والمحدثون من الكتاب والمحدثين والمؤرخين عن التشيع وتاريخه وأسرفوا في احاديثهم عن تاريخه اسرافا أقل ما يقال فيه انه يعتمد على التحيز العقائدي والانجراف مع التيارات المذهبية المعادية للشيعة منذ أقدم العصور الإسلامية التي تداول القرشيون فيها الخلافة بعد النبي (ص) قرونا طويلا ، معتمدين في بداية معركتهم مع الانصار الذين تطلعوا اليها بعد ان وجدوا ان كفة الرجحان اوشكت ان تكون الى جانب المهاجرين المتأمرين على انتزاعها من اصحابها الشرعيين ، معتمدين مبدأ القرابة القرشية التي كانت تشدهم من ناحية النسب لا غير السي النبي (ص) ، في مقابل الانصار الذين تسلحوا بصلتهم بالرسول عمن طريق العقيدة والايمان والجهاد والتضحيات التي بذلوها في سبيل الاسلام والمسلمين .

لقد تسلح المهاجرون بقرشيتهم التي كانت تشدهم الى الرسول وتجمعهم واياه على صعيد واحد ، صعيد الاسرة والقبيلة التي حاربها الاسلام في عشرات المناسبات وألفى جميع ما لها من الامتيازات العرقية ليجمع المسلمين كلهم على اختلاف اجناسهم وألوانهم وقبائلهم وما الى

ذلك على صعيد واحد وهو الايمان بالله ورسوله والعمل لخير الناس
اجمعين .

لقد استخدم المهاجرون في مقابل الانصار لغة القرابة البعيدة المتشعبة
الفروع والاهواء والنزعات وتجاهلوا الاقرب الى الرسول (ص) في
النسب والروح والعقيدة والجهاد وكل ما جاء به من عند الله ، وظل
القرشيون من امويين وعباسيين بعد انقراض عهد الراشدين الذي لم
يتجاوز الثلاثين عاما يتداولونها لمئات السنين يستخدمون الحديث المزعوم
في مقابل من يدعيها من غيرهم ويعملون بكل ما لديهم من جهد
وامكانيات هائلة للتعتيم على التشيع بكل وسائل الارهاب وبشراء
الفسائر وتسخير المحدثين وغيرهم للكذب والافتراء ووضع الاحاديث
التي تصور التشيع لطفي وبنيه (ع) وكأنه من اسلحة الهدم والتخريب لكل
ما جاء به الاسلام من قيم ومبادئ وتشريع وتنظيم شامل لكل نواحي
الحياة ومراحلها .

وكان من جملة ما افرزته جهود الحاكيمين والحاquدين على التشيع انهم
اعتبروه ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي ، وقطاعا من جسم الامة
الاسلامية تكون على مرور الزمن نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية
معينة أدت الى تكوين افكار وآراء في جزء من ذلك الجسم الكبير . ومن
ثم اتسع ذلك الجزء في ظل ظروف معينة وأصبح مذهباً لفرق في عداد
المذاهب والفرق التي افرزتها الاحداث والتقلبات خلال القرون الاولى
من التاريخ كما يزعمون .

وبعد هذه الافتراضات المزعومة راح جماعة من الباحثين يبحثون عن
تلك الاحداث والتطورات التي انتجت تلك الظاهرة وولادتها من ذلك
الجسم الكبير يمينا وشمالا، واختلفت آراؤهم في ذلك اختلافا لا يعتمد
على المنطق ولا على دليل يمكن الاطمئنان اليه ، فأسندها بعضهم السي

اليهودي المزعوم عبد الله بن سبأ مدعيا بأن السبئية قامت بنشاط واسع لهدم الاسلام وتخريبه وهتفت بأحقية علي في الخلافة عن طريق الوصاية وتكثرت حول السبئية جماعة من المسلمين ومن هؤلاء تكوّن ظاهرة التشيع بين المسلمين الأوائل .

وهناك من يرد تلك الظاهرة الى الفترة القصيرة التي اتهمت فيها الخلافة الى الامام علي (ع) وما هيأته تلك الفترة من أحداث وحروب ومشاكل كادت ان تستوعب سني خلافته القصيرة ، وجاء التشيع فيها لعللي كرد على مواقف الناكثين والقاسطين والمارقين وما رافق ذلك من افكار ظهرت في تلك الفترة عن طريق الخوارج كقولهم بأن امامة المسلمين لا تختص بفئة دون فئة ولا بفريق من الناس دون فريق ، ولا هو من الواجبات على الله وعلى الناس الى غير ذلك من افكارهم ومقالاتهم بما فيها ما ينسب اليهم من تكفير علي (ع) ، ودعوته الى التوبة من خطيئة التحكيم ، وكان ما لا بد منه بنظر الدكتور احمد صبحي وغيره من الدكاترة وجماعة من المستشرقين ، ان يقابل ذلك بتقديس علي (ع) ورفع مقامه الى مرتبة وصي النبي وخليفته بالنص الالهي .

ويبضي أنصار هذا الرأي في اسفافهم ومغالطاتهم الى القول : بأن الذين ارجعوا بداية التشيع الى وفاة الرسول (ص) ليس لديهم ما يعتمدونه سوى انهم وجدوا من بعض المهاجرين القلائل كأبي ذر وعمار وسلمان الفارسي ونفر قليل غيرهم تصلبا في مناصرته وموالائته وتأيدهم له ، كما وان الذين ارجعوه الى الفترة التي استولى بها على الخلافة يعتمدون في ذلك على وقوف اكثر المسلمين بجانبه في المعارك التي نشبت يوم ذاك بينه وبين الخارجين عليه في البصرة وصفين والمنشقين من جيشه في النهروان وكان هو يسمي المناصرين له في تلك المواقف بالشيعة ، في حين ان المناصرين له في تلك المعارك على كثرتهم لم تكن

تجمعهم عقيدة واحدة ولم تكن مواقفهم من اخصامهم نتيجة لهدف واحد، فلقد كان من هؤلاء الذين وقفوا الى جانبه مع المؤمنين بحقه في الخلافة جماعة يخشون على مصيرهم من الامويين فيما لو استقامت لهم الامور. وامل اكثر الانصار الذين وقفوا الى جانب علي (ع) كانوا يحسبون ان الامويين سوف لا يقفون موقفا كريما من كل من ناصر محمدا بعد هجرته الى المدينة خوفا من قريش وقادتها، والامويون يوم ذاك من ابرز القادة المناوئين لمحمد (ص) ودعوته وغللوا على موقفهم المعادي لها طيلة القرون التي أتت فيما ان يتسلطوا على الناس في الشرق والغرب باسم الاسلام .

وهناك من يرد ظاهرة التشيع الى مصرع الحسين (ع) في كربلاء ، وهؤلاء كما يبدو من كلماتهم حول هذا الموضوع يزعمون ان استشهاد الحسين (ع) كان نقطة تحول عامة في التاريخ الفكري والعقائسي للتشيع ، لان آثار تلك المجزرة لم تقتصر على اذكاء نار التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم ، حيث انهم كانوا قبل مقتله متفرقي الكلمة والاهواء ، كما وان التشيع قبل مقتله لم يكن سوى رأي سياسي لسم يمتزج بدمائهم ، فلما قتل (ع) امتزج بدمائهم وتغلغل في أعماق نفوسهم وقلوبهم وأصبح عقيدة راسخة عميقة الاثر دفعتهم الى التضحية والجهاد في سبيله .

ومضى أنصار هذا الرأي الى القول : ان دم الحسين (ع) قد ترك فيما تركه من الآثار ما جعل التشيع بعد مقتله حركة انشاقية على نطاق واسع بين المسلمين ، ومن ثم انفصل الشيعة عن الاسلام السنة انفصالا يكاد ان يكون تاما في الآراء والمعتقدات .

وقد أيد هذا المضمون جماعة من المستشرقين ، والدكتور علسي الخرطولي في كتابه : تاريخ العراق في ظل العهد الاموي .

ونحن لا ننكر على هؤلاء ولا على غيرهم ان دماء الحسين بن علي (ع) أحدثت في الكوفة وحتى في العالم الاسلامي يومذاك هزة من أعنف الهزات ما كانت لتحدث لولاها بالرغم من النقمة العارمة على حكومة الامويين الذين استغلوا الخلافة الاسلامية لاعادة سيطرتهم وتسلطهم وعدائهم السافر للإسلام وعودة الروح الجاهلية الاولى باسم الاسلام ، وقد مهدت دماء الحسين (ع) للشيعة وهياتهم للشورة على الظلم والظالمين متخذين من مصرع الحسين مثلاً كريماً للصبر على البسلاء والاستشهاد في سبيل الحق والمظلومين والمستضعفين في الارض بالرغم مما أحيط بالمسلمين من اضطهاد فكري وسياسي بلغا أقصى الحدود في العصرين الاموي والعباسي . وكانت الانتفاضات الشيعية التي نهد لها في هذا الكتاب تستمد شرعيتها وقوتها خلال القرون التي تلت مصرع الحسين من مبادئ الاسلام ودعواته الى الاستشهاد والتضحيات لانقاذ المستضعفين والمعذبين من تسلط الحاكمين وجورهم ، وفي الوقت ذاته فان موقف الحسين (ع) في كربلاء كان ولا يزال المثل الاعلى لكل ثائر ومناضل في سبيل حرية الانسان وكرامته .

ولكن الذي ننكره على هؤلاء وأمثالهم ممن يرون ان التشيع من الاحداث الطارئة الدخيلة على الاسلام كغيره من الفرق التي ظهرت في عهد متأخر عن وفاة الرسول وفي ظل ظروف معينة لم تكن اصابع الحاكمين بريئة منها لاسباب تمكن لهم الاستقرار وتقييم شرور الهزات والانتفاضات التي كانوا يتعرضون لها بين العين والآخر ممن كانوا يطالبون بتطبيق العدالة واصلاح شؤون الدولة وأنظمتها الفاسدة .

الذي ننكره عليهم هو ادعائهم بأن التشيع لم يكن قبيل مصرع الحسين وان كلمة التشيع لم تكن تعني المفهوم والمحتوى الذي ظهر لها بعد ذلك وانه قد انفصل عن الاسلام السني انفصالاً تاماً في الآراء

والمعتقدات ونصر على انه قد رافق الاسلام منذ مراحلہ الاولى بمقتضى نصوص الرسول (ص) على علي للقيام بمهمات الخلافة وشؤونها من بعده تصريحاً تارة وتلميهاً اخرى في عشرات المناسبات والمواقف منذ بعثه الله وحتى اللحظات الاخيرة من حياته وقد جعل له كل ما جعله الله له من الصلاحيات الروحية والاجتماعية والسياسية وانه لا يختلف عن الاسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله في شيء، لا من الاصول ولا من الفروع وعلى اساس ذلك تقول ونصر على انه أصيل اصالة الاسلام وغيره كان من الاحداث الطارئة التي فرضتها الالهواء والمصالح .

وفيما اظن ان الذي دعا اكثر الباحثين في هذه المواضيع الى افتراض التشيع من الظواهر الطارئة في المجتمع الاسلامي هو ان الشيعة لسم يكونوا يشلون في صدر الاسلام الا مجسوة محدودة من الجسم الاسلامي لان الاكثرية الغالبة من المسلمين بعد وفاة النبي قد وقفت السى جانب الحاكمين ، والذين ثبتوا الى جانب علي (ع) كانوا محدودى العدد بالنسبة الى غيرهم ، وبعد ان تعاقب الطامعون في الحكم على الخلافة من أمويين وغيرهم وصرفوها عن اصحابها الشرعيين خلق الحاكمون بساندة انصارهم من الفقهاء والمحدثين والمرتزة فكرة التسنن التي تعنسي الانتساب لسنة الرسول فيما رجع الفريق الثاني الشيعة الى الائمة اثريين باعتبارهم يجسدون الاسلام وسنة نبي الاسلام؛ ليس يبعد ان يكون ذلك هو الذي دعاهم الى افتراضه من الظواهر الطارئة ، فراحوا يبحثون عن اسبابه من خلال ما طرأ على الاسلام من أحداث وتطورات أدت الى ولادة التشيع لعلي (ع) ومن بعده للائمة الاحد عشر حسب التسلسل المعروف لدى الامامية .

وبلا شك فليس من المنطق ولا من المألوف في معرض البحث والفحص عن واقع الاشياء الاعتماد على الكثرة العددية او قلتها واعطاء الاكثرية

صفتي الاصاله والواقعية ، والاقل عددا صفة الظواهر الطارئة المنشقة عن ذلك الجسم الكبير لاسباب واحداث كما يدعيها بعضهم زورا وبهتانا في حين انها لا تمت الى الاسلام والدين بصله من الصلات ولا يجوز بحال من الاحوال ان يكون ذلك من جملة التصورات التي بنى عليها بحثنا عن الانقسام العقائدي في الرسالة الاسلامية الى شيعة وغير شيعة كما لا يجوز ان نقرن ولادة التشيع في اطار الرسالة الاسلامية بولادة كلمة الشيعة كمصطلح او اسم لفرقة معينة من المسلمين لان ولادة الاسماء والمصطلحات لا ترتبط بنشوء المحتوى والاتجاه ، فاذا لم تكن هذه الكلمة متداولة في عهد الرسول وعند وفاته كما يزعم اولئك الذين يتعلقون بالالوهام والافتراضات ليفصلوا التشيع عن الاسلام كغيره من الاحداث الطارئة والفرق التي انتشرت في مطلع القرن الثاني لاسباب وظروف معينة، اذا لم نجد لها كما يزعمون فلا يعني ذلك ان النبي (ص) قد اهل هذا الجانب من جوانب رسالته ولم يهيء من يتابع المسيرة بها الى جميع انحاء العالم الذي ارسل لانقاذه مما كان يتخبط فيه انسان ذلك العصر وغيره .

وحينما نتعرض لتلك الثورة التحرورية التي قادها محمد بن عبد الله (ص) خلال ثلاثة وعشرين عاما من حياته بجميع نواحيها الروحية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والادبية والتي تشمل جميع جوانب الحياة الانسانية في شبه الجزيرة وخارجها من بقاع الارض ، وما عاناه في هذا السبيل من قومه وغيرهم قبل ان تنتقل رسالته الى ما وراء شبه الجزيرة التي كانت تحكمها بالاضافة الى الدول الكبرى يوم ذاك دويلات تناخم حدود الحجاز منطلق الدعوة ، وفي الوقت ذاته كان الكثير من عرب الحجاز وقبائله قد دخلوا مع المسلمين وانخرطوا في صفوفهم ولما يدخل الاسلام قلوبهم وكان هو نفسه (ص) يحاذر من انقلابهم على

الدعوة بعد وفاته كما تؤكد ذلك طائفة من المرويات الصحيحة . حينما يستعرض الباحث كل ذلك وما كان يحاك لعرقلة مسيرتها حتى في حياته يخرج وهو على يقين من انه (ص) منذ مراحلها الاولى كان يهيء لها من يتابع السير بها كما اراده الله لها ويمده اعدادا صالحا للقيام بكل ما تفرضه الظروف والمناسبات وما يخبئه المستقبل من تطورات وأحداث على جميع الاصعدة التي تعرقل مسيرتها ، ولعل المناسبات التي كان يشير فيها الى من اختاره الله لتلك المهمة تارة ويصرح باسمه ووصفه للجماهير الاعظم وبحضور من كان يطمع فيها بالذات تارة اخرى ، لعل تلك المناسبات التي كانت من هذا النوع تعد بالعشرات كما احصتها مجاميع التاريخ والحديث السنية والشيعة .

وقد تحدثت عن التشيع ومراحله وما قيل فيه من الآراء والافكار الحديثة منها والقديمة في الفصل الاول من كتابي (بين التشيع والتصوف) وعرضت فيه مجموعة من الارقام التي تؤكد ان الولاية التي جعلها النبي (ص) لعلي (ع) من بعده هي عين الولاية التي جعلها الله له وعلى اساسها كان يمارس جميع الشؤون الدينية وغيرها ويخطط لانقاذ العالم من الوثنية ومما كان يعانيه من ظلم الحاكمين والمتسلطين خلال المدة التي اقامها في المدينة بعد هجرته اليها من مكة ، بل هي في واقعها امتداد لولايته لتبقى المسيرة التي استقطبت ثلاثة وعشرين عاما من حياته في مكة والمدينة لتحرير العالم بأسره مما كان يتخبط فيه في طريقها الصحيح ، ومن هذه الولاية ولد التشيع لعلي منذ ان جعلها له النبي (ص) بمعنى اسناد الزعامة اليه من بعده واعطائه الصلاحيات التي كان يمارسها ويقوم بها من روحية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من الشؤون والمهام التي لا مجال لتجريد الولاية عنها وأصبح اكثر المسلمين لا يرون لقيادته بديلا ، وظلت فكرة الولاية تتفاعل في نفوس المسلمين الى جانب غيرها

من أصول الاسلام ومبادئه والنبي (ص) يتعاهدها ويغذيها بوصاياه ونصوصه بين الحين والآخر في مختلف المناسبات .

وتنتيجة لتلك المواقف التي وقفها النبي (ص) ظهر الشيعة على المسرح منذ وفاته مباشرة متمثلا في المسلمين الذين خضعوا لقيادته عمليا منذ اللحظة الاولى لوفاته في مواقفهم من الطامعين في الخلافة ومن تحركاتهم للاستيلاء على السلطة والنبي لا يزال جثة هامدة في بيته بين اهله وذويه، ولم يكن اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة الا نتيجة لتلك المساعي التي كانت تبذل حينذاك لانجاح تلك المؤامرة، وكان بالامكان ان يكون له تأثير مباشر على مسيرة المؤامرة التي كان من ابرز أبطالها ابو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لولا انهم استطاعوا اثارة النعرات القبلية والاحقاد الكامنة بين الحيين الأوس والخزرج والتي كادت ان تتلاشى بعد دخول النبي (ص) الى المدينة وانتشار الاسلام فيها وقد وقف جماعة من اوس الانصار الى جانبهم لا لشيء الا لان سعد بن عبادة الخزرجي من ابرز مرشحي الانصار وأقواهم ، ولم ينته مؤتمر السقيفة على النحو الذي انتهى اليه الا بعد ان نسب ابو بكر وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح الى النبي (ص) انه قال : الخلافة لا تكون الا في قریش . لقد نسبوا الى النبي هذه المقالة بعد ان عجزوا عن مقارعة الانصار بالحجج التي كانوا يتبارون بها ، وكان الانصار يحتجون بجهادهم وبخدماتهم وتضحياتهم في سبيل الاسلام فهل تجددهم الحجج والحديث المزعوم ينادي بأن الخلافة لا تصلح الا لكسل من يفترض فيه ان يكون قرشيا ينتسب الى فهر بن كلاب كما يرى ذلك اكثر المؤلفين في احوال العرب قبل الاسلام . ولعل اكثر المسلمين من الانصار وغيرهم يعرفون ان الحديث غريب وبعيد عن منطق الاسلام

لانه يؤكد مبادئ الجاهلية القائمة على التفوق السلافي والعصبيات القومية والقبلية ويتناقض مع المبدأ الاسلامي الذي انى جميع هذه الامتيازات وحاربها فيما حاربه من نظم وافكار ومعتقدات لم تكن لخير الانسانية التي جاءت الشرائع السماوية من اجل عزتها وكرامتها وسعادتها وحمايتها من جور الحاكمين وجشع المستغلين والمتسلطين .

وكان النبي (ص) في اكثر مواقفه يؤكد على الغاء الفوارق والامتيازات التي تصنف الناس الى فئات وطبقات وشريف ووضع داعيا الى وحدة اسلامية عروتها الوثيقة الايمان بالله والعمل بما جاء به من عنده ، وكان آخر تلك المواقف التي كان يقفها من اجل تلك الوحدة لاجتثاث تلك النزعة الجاهلية من نفوس المسلمين ، موقفه في حجة الوداع بين عشرات الالوف من مختلف انحاء شبه الجزيرة ، حيث قال : ايها الناس ان ربكم واحد وأباكم واحد ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ، كلکم لآدم وادم من تراب ان اکرمکم عند الله اتقاکم .

ومما يؤيد عدم صحة الحديث بهذه الصيغة ان الذين احتجوا به في مقابل الانصار وكان من اوفر أدلتهم حظا في التغلب على الانصار قد تجاهلوه بعد ان استتبت لهم الامور وسارت كما يريدون وكأنه لم يكن بين المرويات عن الرسول (ص) فلقد روى اكثر المؤرخين ان عمر بن الخطاب قبيل وفاته وبعد ان أحس بخطر الموت كان يقول لمن يراجع بشأن من يتولى الخلافة من بعده : لو كان سالم مولى ابي حذيفة حيا لوليته ولو كان ابو عبيدة حيا لوليته مع العلم بأن سالما ليس بقريشي ولا عربي وانما هو من الموالي .

ان الذي كان يحتج به بالامس القريب لتثبيت البيعة لابي بكر لقد تراجع عنه بعد سنوات معدودات وقال ان بيعة ابي بكر كانت فلتة لم تقم على اساس سليم وتمنى لو كان سالم بين الاحياء ليسلمه خلافة كانت بعد

وفاة صاحب الرسالة لا تصح لقادة الانصار الذين بذلوا العالي والرخيص وحتى دماءهم في سبيل الاسلام لانهم لا يتسبون لقريش ، والخلافة لا تصح لغير القرشيين كعثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان ويزيد بن معاوية والوليد بن يزيد وأمثال هؤلاء ممن يمثلون الشرك ويجسدونه بكل اعمالهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم .

ولو افترضنا صحة الحديث وصدوره عن النبي فلا بد وأن يكون اشارة الى اشخاص معروفين عنده بصفاتهم وأسمائهم بنحو القضية الخارجية وهم الذين عناهم بقوله كما تؤكد الروايات عنه : الائمة بعدي اثنا عشر كلهم من ولد علي وفاطمة كما روى ذلك جماعة من المحدثين المعروفين بالثبوت والوثاقة، كما روى حديث الاثني عشر البخاري وغيره من محدثي السنة، وجاء في بعض مرويات البخاري للحديث ان النبي (ص) قال : لا ينقضي هذا الامر حتى يسضي فيهم اثنا عشر خليفة، وفي بعضها انهم من قريش . ورواه غيره من اصحاب الصحاح بصيغ متشابهة وأكثرها صريح في انهم من ولد علي وفاطمة فتكون كلمة قريش ان صح انها قد وردت على لسان النبي عنوانا للائمة الاثني عشر الذين اجتباهم الله من بين خلقه واختارهم لقيادة الامة من بعده بالتسلسل الذي ذهب اليه الامامية ونصت عليه مروياتهم عن اهل البيت (ع) لانهم يجسدون سيرته الكريمة وتعاليمه الخيرة بسيرتهم وسلوكهم وجميع تصرفاتهم لا لانهم من قريش ليكون الحديث مناقضا لما كان يأمر به ويدعو اليه من الغاء الفوارق القبلية والعنصرية وما الى ذلك من الامتيازات التي تضع الحدود والفوارق بين الناس .

ونظرا لشيوع الحديث وشهرته عند محدثي السنة وشيوخهم بنحو لم يجدوا سبيلا لتجاهله ذهبوا يمينا وشمالا بعد ان تجاوز عدد الخلفساء العشرات من الامويين والعباسيين وكانوا من اسوأ خلق الله في سيرتهم

وسلوكمم وتعاطيهم لكل انواع المنكرات ذهبوا يبحثون عن اثني عشر خليفة بين خلفاء الامويين والعباسيين واختلفوا في تعيينهم أشد الاختلاف في حين ان اكثر الاحاديث التي تعرضت لهذا العدد قد اقترنت بما يؤكد انه (ص) لا يعني سوى الائمة الاثني عشر من ولد علي وفاطمة (ع) .

ومهما كان الحال فلقد وقف جماعة من المسلمين منذ اللحظات الاولى موقفا سليما من خلافة ابي بكر وأصروا على بيعتهم لعلي (ع) وجاء في الاحتجاج للطبرسي عن ابان بن تغلب انه قال : قلت لجعفر بن محمد الصادق (ع) جعلت فداك هل كان احد من اصحاب رسول الله (ص) أنكر على ابي بكر فعله ؟ فقال نعم لقد أنكرها جماعة وعد منهم اثني عشر رجلا من أعيان المهاجرين والانصار ، ومن مجموع ذلك يتبين ان بيعة ابي بكر بالشكل الذي تمت عليه وبذلك السرعة لم تكن لتدخل في حساب اكثر المسلمين لاسيما والنبي لا يزال مسجى بين اهله وذويه .

وبعد النصوص الكثيرة من النبي (ص) على خليفته من بعده وبعد موقفه الصريح في غدير خم قبيل وفاته بأشهر معدودات الذي لا يزال ماثلا لهم ، ونبرات ذلك الصوت الكريم الذي يعبر عن ارادة الله سبحانه في وسط تلك الحشود الهائلة من مختلف انحاء شبه الجزيرة لا يزال صدها يعاودهم بين الحين والآخر .

ولم يشأ الانصار ان يبقى سبب موقفهم من خلافة ابي بكر سرا يمكن تفسيره على غير واقعه ، بل كشف عنه احد اقطابهم زيد بن ارقم بحضور تلك الحشود المجتمعة لتشيع الجثمان الطاهر الى مقره الاخير وقال : اما والله لو انها كانت لعلي بن ابي طالب لم يخالف منا احد كما جاء في رواية ابن ابي الحديد في شرح النهج عن الزبير بن بكار وكما نصت رواية الطبري في المجلد الاول من تاريخه صفحة ١٩٨ على انه خلال الحوار الذي جرى بين ابي بكر ومن معه من المهاجرين من جهة وبين الانصار من

جهة اخرى لما اقترح على المجتمعين في السقيفة ان ينسحب لابي عبيدة او لعمر بن الخطاب لاتمام ما اتفقوا عليه من انتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين ، قال الانصار : لا نبايع الا علي بن ابي طالب .

ورجح الاستاذ توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ان سعد بن عبادة لم يرشح نفسه لها الا بعد ان ايقن ان المتأمرين من المهاجرين مصممون على انتزاع الحق من اصحابه .

وبلا شك فان موقف الانصار هذا لم يكن لمجرد ان عليا (ع) كان افضل من غيره وأصلح لها من جميع اولئك الطامعين بها ، بل لانهم بالاضافة الى ذلك سمعوا النبي في عشرات المناسبات يؤهله لقيادة الامة من بعده تارة وينص عليه بصراحة لا تقبل التأويل اخرى ويؤكد على المسلمين ان يسمعوا له في ظل قيادته الحكيمة لنشر الاسلام وارساء أصوله وقواعده في شبه الجزيرة وخارجها ، ولم يكن باستطاعة احد ان يحد من حماسهم وينمنهم من اذاعة ما يعلمون من امر الخلافة ، فلقد وقف سهل بن حنيف بين المهاجرين وفيهم ابوبكر وعمر بن الخطاب بكل ما يسلك من جرأة وصراحة وقال : يا معشر قريش أشهد لقد رأيت رسول الله في مسجده وقد اخذ بيد علي (ع) وقال : ايها الناس هذا علي إمامكم بعدي ووصي في حياتي وبعد مماتي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأول من يضافحني على حوضي فطوبى لمن اتبعه ونصره والويل لمن تخلف عنه وخذله .

كما وقف نفس الموقف ابو ايوب الانصاري وقال : اتقوا الله عباد الله في اهل بيت نبيكم وردوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم فلقد سمعتم مثل ما سمع اخوانكم في مقام بعد مقام ومجلس بعد مجلس مسن النبي (ص) وهو يقول : اهل بيتي أئمتكم بعدي ويومئ الى علي (ع) وهو يقول هذا امير البررة وقاتل الكفرة مخذول من خذله ومنصور

من نصره •

ووقف ابو الهيثم بن التيهان من المهاجرين نفس الموقف وقال : اشهد ان رسول الله (ص) اقام عليا في غدير خم وان الانصار قالوا لقد اقامه خليفة ، وقال جماعة من المهاجرين : انه اقامه ليعلم الناس انه مولى من كان رسول الله مولاه ، ولما سألوا رسول الله (ص) عن مراده قال : انه ولي المؤمنين بعدي وأنصح الناس لأمتي ، الى غير ذلك من المواقف الجريئة التي تؤكد ان الذين وقفوا الى جانبه في المدينة كانوا من أعيان المسلمين ووجوههم ويقدررون بالثبات لا بالعشرات ، اما في خارجها فالقسم الاكبر ممن وصفهم المؤرخون بالارتداد من القبائل والأحياء العربية قد اذهلهم موقف تلك الفئة من المهاجرين وتجاهلهم للخليفة الشرعي وهم حديثو عهد بموقف النبي (ص) قبل اشهر معدودات من وفاته في غدير خم ، وجلهم يومذاك قد باركوا لعلي (ع) قيادته للأمة بعد رحيل قائدها الاعظم عن دنياهم المليئة بالشور والآثام ، ووقفوا من خلافة ابي بكر موقفا سلبيا حينما بلغتهم اخبارها وفي الوقت ذاته كانوا يمارسون فرائض الاسلام وأحكامه سوى ما يعود منها الى المصالح العامة التي يتولاها خليفة النبي كالزكاة ونحوها كما يشير الى ذلك أكثر المؤرخين •

وجاء في صفحة ٢٢٩ من المجلد الثالث من تاريخ الطبري ان جماعة ممن وصفوهم بالارتداد كانوا يقيمون الصلاة وامتنعوا عن تسليم الزكاة الى الجباة يومذاك ، وأضاف ان عشائر اسد وفزارة قالوا : والله لا نبايع ابا الفضيل ابدا يعنون بذلك ابا بكر ، كما وقف بنو حنيفة نفس الموقف بقيادة زعمائهم •

وجاء في بعض المرويات انهم قالوا : لا نسلم الزكاة الا لمن أمرنا رسول الله بمبايعته ، فأرسل اليهم ابو بكر جماعة بقيادة خالد بن الوليد وكانت المجزرة التي قتل فيها مالك بن نويرة وجماعة من أنصاره وتزوج

خالد بزوجة مالك بالاسلوب الذي لا يقره الاسلام مما أحدث ضجة في اوساط المسلمين وهالهم ان يحدث ذلك على حساب الاسلام في مستهل عهد جديد بعد دفن النبي بأيام معدودات وكان لابن الخطاب من مقتل مالك واستحلال خالد لزوجته موقف كريم تفرضه أصول الاسلام مهما كانت دوافعه كما يرى ذلك اكثر المؤرخين .

ومجمل القول ان عددا كبيرا من المسلمين في المدينة وخارجها ظلوا أوفياء لبيعة علي (ع) ووقفوا من الحكومة الجديدة موقفا سلبيا كاد ان يفرج عن ثورة عارمة في العاصمة وخارجها يستغلها اعداء الاسلام كأبي سفيان وأمثاله من المنافقين وبخاصة طلقاء مكة الذين اسلموا بعد انفتح وكان الاسلام لعق على ألسنتهم لم يخالط قلوبهم ولا اطأنت اليه نفوسهم بل حملت قلوبهم هما وحزنا مما انتهى اليه امر الاسلام في شبه الجزيرة من الانتشار ، فكانوا في حياة النبي (ص) يتربصون بالمسلمين الدوائر ويكيدون لهم ما وسعهم الكيد ويمليه عليهم الحقد وتنفسرج نفوسهم لكل ما تصاب به الدعوة من اتكاسة او هزيمة في معركة من المعارك .

هؤلاء وأمثالهم قد استغلوا موقف المسلمين في داخل المدينة من الخلافة وراحوا يعملون بكل ما لديهم من الوسائل لتأزم الموقف وتعقيدته، وبعد ان ظهرت وتسربت انباء هذا الصراع الى خارج المدينة ، خرج مسيلمة بن معه من بني حنيفة في اليمامة ، وطليحة بن خويلد بمن اجتمع اليه من غطفان واسد وطى وكنانة وغير هؤلاء ممن لم تبلغ الدعوة درجة الاختصار في نفوسهم . بعد ان رأى علي كل ذلك وأدرك الاخطار التي بدأت تلوح في الافق هنا وهناك ، وان اصراره على موقفه يحقق للمنافقين والطلائع وغيرهم ممن لم يكن الاسلام قد اختبر في نفوسهم وخالسط قلوبهم وعقولهم يحقق لهؤلاء وغيرهم ممن اعلنوا العصيان والتمرد كل

ما يصبون اليه ويعملون من اجله في الظلام تراجع عن موقعه وترك
الخلافة لادعيائها لان مصلحة الاسلام هي أعز وأعلى عنده من كل
شيء، وقد وهب حياته لها وهو في مطلع شبابه ، واذا كان يطالب بحقه
فيها فذاك لاجل الاسلام ولإتمام المسيرة في طريقها الصحيح السليم الذي
لم ير النبي (ص) اهلا لها غيره ، وهو القائل : والله لأسألن ما سلمت أمور
المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة . والقائل في حديث له يصف فيه
الموقف بعد وفاة الرسول (ص) : فما راغني الا اثيال الناس على ابي بكر
يباعونه فامسكت بيدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام
يدعون الى محق الدين فخشيت ان لم أنصر الاسلام وأهله ان ارى فيه
ثلما او هدما تكون المصيبة فيه اعظم من فوت ولايتكم التي هي متاع
ايام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب او كما ينقش السحاب .
وحينما وضع يده في يد ابي بكر ليقطع الطريق على مثيري الفتن
والمنافقين في الداخل والخارج الذين راحوا يندسون بين العزيمين الموالين
والمعارضين وحتى بين المرتدين كسيلمة وأمثاله حينما وضع يده في يده
لم تشأ له نفسه الكبيرة وصراحته في الحق الذي لم يترك له صديقا ان
يقف منه موقف الضعيف المهزوم او موقف من يستجدي رضا المخلوق
بمعصية الخالق بل صارحه بما انطوت عليه نفسه بدون مواربة او محاباة
وقال له : يا ابا بكر لم يمنعنا عن مبايعتك اننا ننافسك على خير ساقه الله
اليك ، ولكننا نرى ان هذا الامر هو حقنا وقد استبددتم بـ
علينا وحلمت بيننا وبينه وقد فرضت علي مصلحة الاسلام ان أتقاضى عنه
لدرء ما يعترضه من أخطار .

لقد تحدثت معه بتلك الصراحة ليعلم هو ومن حوله ممن تعاونوا معه
على الاستيلاء على السلطة انه اذا كان يطالب بحقه في الخلافة فذاك
لمصلحة الاسلام واذا تقاضى عن حقه فيها فلمصلحة الاسلام ايضا وعليهم

ان يتحملوا مسؤولية ما اقدموا عليه عند الله سبحانه .

وطويت بذلك صفحة من الصراع على الخلافة كانت من اعلى اماني المنافقين كأبي سفيان وأمثاله الذين قهرهم الاسلام على الخضوع له والتظاهر بقبوله ، وكان علي (ع) على صلة وثيقة بما كانوا يضربون له من سوء بتحركاتهم المعادية لخلافة ابي بكر وصارحهم بذلك اكثر من مرة فقال لابي سفيان احد قادتهم : والله ما زلت تكيد للإسلام يا أبا سفيان ان المؤمنين ينصح بعضهم بعضا والمنافقين قوم غششة بعضهم لبعض وان قربت ديارهم وأبدانهم .

وقال له مرة وهو يعرض عليه ان يناصره على ابي بكر : والله ما اردت بها الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للإسلام شرا لا حاجة لنا في نصرتك ، فانطوى على نفسه بعد هذه الصفحات القاسية ولم يعد له من سبيل الا ان يتملق للحاكسين ويتمرغ على أعتابهم ليحقق ولو شيئا من أمانيه ، وكان القوم يعرفون بأنه لا يضر الخير لاحد ولا يتعامل مع احد الا على اساس منفعة ، فقال ابن الخطاب لابي بكر : انا لا نأمن شر ابي سفيان فاترك له الصدقات التي كان النبي (ص) قد كلفه بجبايتها في الايام الاخيرة من حياته فلم يتردد الخليفة في تركها له كما نصت على ذلك رواية شرح النهج لابن ابي الحديد في المجلد الاول منه ، وبسفي أقل من سنتين تيسر له ان تكون بلاد الشام تحت سلطة ولديه يزيد ومعاوية على التناقب ، وبوفاة ابن الخطاب انتهت السلطة بكاملها الى بيته بيت أمية وعلى رأسها قريبه عثمان بن عفان فأحسن بأن مجد أمية قد عاد الى الحياة من جديد وان ما كان يراود احلامه بالامس وهو يحارب الاسلام ويشير الفتن والازمات بين المسلمين انفسهم وبخاصة بعد وفاة الرسول (ص) ليحصل ولو على ثغرة في صفوف المسلمين ينطلق منها للعمل لصالح الشرك والوثنية، تلك الاحلام التي كانت تراوده قد توفرت لديه بعد ان اصبحت

السلطة بيد قريبه بشكل اوسع مما كان يتمناه ويعمل من اجله ، وطفث عليه نشوة من الفرح والبهجة لم يعد يملك معها السيطرة على المطويات في نفسه من شرك وحقد على الاسلام وقادته فمضى الى المسجد يدب على عصاه وصاح بصوته الرفيع : تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة فوالذي يحلف به ابو سفيان ما من جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ، وطلب من قائده ان يمضي به الى مقابر الشهداء في أحد حيث الحمزة بن عبد المطلب سيد من استشهد بين يدي رسول الله (ص) فيها وما ان اوقفه قائده عليه حتى راح يركله برجليه ويقول : انهض يا ابا عمارة لقد صار الينا الملك الذي حاربنا عليه ، وفي رواية ثانية ان الذي تقاتلنا عليه لقد اصبح تحت اقدامنا ، وأيا تكن كلماته في ذلك الموقف فلقد قالها في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات اولغ منها بالحقد والتشفي .

ومهما كان الحال فقد ظهر الشيعة على المسرح السياسي بعد وفاة النبي (ص) ووقفوا الى جانب علي (ع) في المدينة وخارجها باعتباره هو الخليفة الشرعي للنبي الذي اختاره لقيادة الامة واتمام المسيرة بالاسلام الى ما وراء حدود الجزيرة العربية من بلاد الله الواسعة ، ولم يكن موقف من وقف الى جانبه من مهاجرين وأنصار وغيرهم ممن امتنعوا عن بيعته ابي بكر بانتظار ما يصدر اليهم من توجيهات وتوصيات من الخليفة الشرعي مرتجلا ومن نتاج تلك الفترة من التاريخ ، ومن غير المعقول ان تكون تلك الساعات القلائل التي افرزت خلافة ابي بكر هي نقطة الانحياز لعلي (ع) والتشيع له كما يحاول بعض المحدثين من الكتاب تحديده بتلك الفترة لبعض الاعتبارات لان الذين وقفوا الى جانبه في المدينة وخارجها كانوا يدعمون تشييعهم له بالمنطق والحجج البالغة مما يؤكد انه قد اختار في اذهانهم نتيجة لعشرات المواقف التي وقفها النبي من اختيار خليفته وكان آخرها يوم الغدير قبيل وفاته بأقل من ثلاثة اشهر بحضور حشد من

المسلمين من مختلف أنحاء الحجاز ينتمي الى عشرات القبائل التي رافقت النبي (ص) في طريق عودته من مكة بعد انتهاء موسم الحج حيث جمعهم الطريق لفترة من الزمن ، فاستغل تلك الصدفة التي جمعتهم بتلك الحشود قبل ان تفرق عنه كل الى بلده وناحيته ليعهد الى خليفته من بعده بلهجة الواثق بدنو أجله وكأنه كان على موعد مع الموت .

التشيع الروحاني والتشيع السياسي

لقد ذهب فريق من الكتاب الى تصنيف التشيع الى الصنفين التاليين
تشيع روحي لا يتعدى الشؤون الدينية كالعبادات والتشريع والارشاد وما
الى ذلك مما لا صلة له بادارة شؤون الامة من سياسية واقتصادية
واندارية وغير ذلك مما تدعو اليه الحاجة في جميع المجالات حسب
الزمان والمكان .

وتشيع اوسع من ذلك يتسع بالاضافة الى النواحي الروحية لكل
متطلبات القيادة من سياسية واقتصادية وغيرها ، وأضاف هؤلاء الى ذلك
ان التشيع الروحي أقدم عهدا من السياسي ، وان الذي جعله النبي (ص)
لعلي (ع) ومنه انتقل الى الأئمة من ولده هو التشيع بمعناه الروحي ، وقد
انصرف أئمة الشيعة بعد مذبحة كربلاء الى الارشاد والعبادات والتوجيه
الديني ، وأضاف بعضهم الى ذلك ان المتشيعين لعلي (ع) في عهد الخلفاء
الثلاثة الذين تعاقبوا على الحكم بعد وفاة الرسول (ص) كان تشيعهم
روحيا ولا صلة له بالسياسة وشؤونها ، ومضى يقول : ان التشيع الروحي
لعلي اقدم عهدا من السياسي وهو يقوم على الاعتقاد بامامة علي (ع)
المفروضة من الله ، وقد تطور هذا الاعتقاد وتبلور في عقيدة الامامية

المعصومة من الخطأ بعد ان اسند كلاميا بقضية القول بالنص على تلك
الامامة من النبي وبأمر من الله .

وظهرت بوادر التشيع السياسي والولاء لعلي في سقيفة بني ساعدة
حين وقف الى جانبه جماعة من المسلمين مؤيدين لحقه في الخلافة
الاسلامية أمثال الزبير بن العوام والعباس بن عبد المطلب وعمار بن ياسر
وابن التيهان وغيرهم ممن وقفوا الى جانبه ، وبلغ التشيع السياسي له
اقصى مداه حين بويج له بالخلافة بعد مقتل عثمان ، وكان رواد التشيع
الروحي يلتزمون بآراء علي الفقهية الى جانب الالتزام بمساندته سياسيا،
وقد نت بذور الفقه الشيعي ثم تطورت وعرفت في القرن الثاني للهجرة
بألفقه الجعفري ، الى غير ذلك مما يحاوله بعض الكتاب من المغالطات
والانحراف به عن معناه الاصيل الذي لا يقبل التصنيف ولا التجزئة^(١).

بهذا النوع من التصنيف القائم على الحدس والنظرة السطحية
للنصوص التي وضعت مبدأ التشيع وما رافقها من الاحداث والتطورات
ينظر جماعة من الدكاترة الى التشيع وتجريده من محتواه الذي يتسع
لجميع الصلاحيات التي كانت للنبي منذ وضع نواته يوم الدار وظل
يتعاهده ويرعاه حتى النفس الاخير من حياته ولم يكن يستعمل في سبيل
تنمية هذه البذرة سوى كلمة علي خليفتي فيكم من بعدي فاستمعوا له
وأطيعوا ونحو ذلك من الصيغ التي لا يستعملها المتكلم في مقام التعبير
عن ارادته الا فيمن يخلفه في القيادة التي كان يمارسها في جميع
المجالات من فكرية وسياسية وادارية وغير ذلك لتبقى الدعوة في طريقها
تقتحم الصعاب وعروش الطغاة والجبابرة وتستلهم منها الاجيال كل ما

١ - انظر تاريخ الامامية للدكتور عبد الله فياض ص ٤٤ ونظرية الامامة
للدكتور احمد محمود صبحي .

تصبو اليه من عزة وكرامة وسعادة ، ولا يمكن للتشيع ان يتجزأ الا اذا
فقد معناه كاطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي (ص) الذي هو في
أمس الحاجة الى من يخلف النبي فيها من الناحيتين المترابطتين .

وكان لعلي (ع) ولاء واسع النطاق في صفوف المسلمين باعتباره
الشخص الجدير بمواصلة الدور الذي كان يقوم به النبي (ص) ، ولعل
هذا الولاء هو الذي جاء به الى الحكم بعد مصرع عثمان على يد
المهاجرين والانصار والوافدين الى المدينة من بقية الامصار بعد ان
انحرفت به بطاقته عن سيرة سلفه الذين اتبعوا طريقا ونهجاً اقرب الى
الاسلام من طريقه ونهجه .

ولكن الولاء الذي جاء به الى السلطة ليس تشيعاً سياسياً ولا روحياً
وان نما التشيع الروحي والسياسي الذي اراده له النبي داخل اطاره ،
ولم تنشأ في الواقع النظرة الى تجزؤ التشيع الى روعي منفصل عن
السياسي ولم تولد في ذهن الانسان الشيعي الا بعد ان استسلم للواقع
وانطفاة جذوة التشيع في نفسه كصيفة محددة لمواصلة القيادة الاسلامية
في بناء الامة وانجاز عملية التغير الكبيرة التي بدأها الرسول (ص)
وتحولت الى مجرد عقيدة يطوي الانسان عليها قلبه ويستمد منها سلوته
وأمله .

وبخصوص ما قيل من ان أئمة الشيعة من ابناء الحسين (ع) بعد
مجزرة كربلاء قد اعتزلوا السياسة وانصرفوا بكل امكانياتهم وطاقاتهم
الى النواحي الروحية تاركين السياسة وغيرها مما يتصل بشؤون الدولة
لحاكمين فهو من الاخطاء ايضا ذلك لان التشيع الذي وضع نواته
النبي (ص) وظل يغذيه ويؤكدته حتى النفس الاخير من حياته بعد ان كان
لا يعني سوى القيادة الاسلامية التي كان يمارسها النبي لاتمام بناء الامة
على اساس الاسلام بمعناه الواسع الشامل لجميع نواحي الحياة من روحية

وسياسية واقتصادية وما الى ذلك من متطلباتها حسب الزمان والمكان ، وبعد ان كان التشيع الذي وضعه النبي لعلي والأئمة من بنيه بأمر من الله سبحانه لا يعني سوى القيادة الاسلامية بمعناها الواسع فن غير المعقول ان يتنازل الأئمة عن الجوانب السياسية او اي جانب منها الا اذا تنازلوا عن اصل القيادة مع العلم بأنهم لا يملكون الحق بالتنازل عنها كما لا يملك النبي ان يتنازل عن نبوته والامام عن امامته ، ولم ينصرف الأئمة بكل طاقاتهم الى الجوانب الروحية والفكرية من القيادة التي جعلها الله لهم الا لعدم تمكنهم من ممارسة السلطة التي حالت قوى الشر والبغي بينهم وبينها ، لا لانهم تنازلوا عنها ولا يصح ان يسمى ذلك تنازلا ، كما وان عدم قيامهم بعمل مسلح ضد الحاكمين الذين عاصروهم من الامويين والعباسيين لا يعني تنازلهم عن بعض جوانب القيادة التي جعلها الله لهم واختصهم بها بل كان نتيجة لعدم توفر الاجواء المناسبة لاي عمل من هذا النوع ، وبامكان الباحث في سيرة الأئمة ومبادئهم ان يستخلص منها ان كل امام في عصره كان مستعدا لخوض جميع المعارك اذا توفرت لديه القناعة بوجود من ينصره على استلام السلطة بنحو يستطيع ان يحقق الاهداف الاسلامية عن طريقها ، ذلك لان السلطة وحدها لم تكن من اهدافهم بل كانت وسيلة وطريقا للسير بالاسلام في طريقه الصحيح .

ولاكثر من مناسبة كان علي امير المؤمنين (ع) يقول يوم كانت جهود الحاكمين متجهة لنشر الاسلام ما وراء حدود الحجاز : والله لأسألن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة . وبعد ان انتهت اليه الخلافة وهبت في وجهه الأعاصير من هنا وهناك كان يقول : والله ان امرتكم لأهون عندي من هذه النمل الا ان أحق حقا او أبطل باطلا . وبما ان السلطة التي تحقق الاهداف الاسلامية تتوقف على القواعد

الشعبية الواعية التي تعمي تلك الاهداف وتصد في وجه الاعاصير لحمايتها وهذا النوع من القواعد الشعبية لم يتوفر لاحد من الأئمة (ع) بعد ان نشأت أجيال مائعة في ظل تلك الحكومات التي انخرقت فسي سيرتها وسلوكها عن سيرة النبي (ص) وجرفتها الالهواء والشهوات والاحقاد اللئيمة الى نزوات طائشة لم يعرف التاريخ أشرس وألأم منها . وفي ظل هذا الواقع الذي اصطدمت به القيادات الشيعية كان لا بد لتلك القيادات من عمليين احدهما العمل الهادىء من اجل بناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيم ارضية صالحة لتسلم السلطة ، ومن اجل تحقيق هذه الناحية انصرف الأئمة (ع) بكل الوسائل الى تربية الجماهير والاجيال تربية اسلامية توفر لهم القاعدة الشعبية التي لا يمكن لهم ان يعطوا النتائج المطلوبة بدونها .

والعمل الثاني هو تحريك ضمير الامة الاسلامية وارادتها والاحتفاظ للضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الصلابة والحياة فسي مقابل اولئك الحكام المنحرفين ، وقد مارس هذه الناحية ثائرون مسن الطويلين وغيرهم كانوا يحاولون بتضحياتهم اليائسة ان يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية خلال القرون الثلاثة الاولى من تاريخ الاسلام وفي الوقت ذاته كان الأئمة (ع) يساندون اكثر اولئك الثائرين على جور الحكام وطفيانهم وانحرافهم عن الاسلام وأصوله ومبادئه .

وقد جاء في رواية عن الامام الرضا (ع) في حديث له مع المأمون عن ثورة زيد بن علي بن الحسين (ع) انه قال : لقد كان زيد بن علي من علماء آل محمد غضب لله فجاهد اعداءه حتى قتل في سبيله ، ومضى الامام الرضا يقول : لقد حدثني ابي موسى بن جعفر انه سمع ابا جعفر ابن محمد يقول : رحم الله عمي زيدا انه دعا الى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بذلك ولقد كان يقول لمن يأتيه من الناس : اني ادعوكم الى

الرضا من آل محمد .

وجاء في السرائر لابن ادريس الحلبي ان جماعة ذكروا في مجلس الامام الصادق (ع) من خرج من العلويين على الحاكمين ، فقال : لا ازال انا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد (ص) ولوددت ان الخارجي من آل محمد خرج وعلي نفقة عياله .

وجاء في رواية داود المدني انه قال : حدثني علي بن الحسين عن ابيه عن علي (ع) انه يخرج في ارض الكوفة رجل يقال له زيد في ابهة الملك لا يسبقه الاولون ولا يدركه الآخرون الا من عمل بمثل عمله يخرج يوم القيامة هو واصحابه معهم الطوامير او شبه الطوامير حتى يتخطوا أعناق الخلائق تتلقاهم الملائكة فيقولون هؤلاء خلف الخلف ودعاة الحق ثم يستقبلهم رسول الله (ص) فيقول : يا بني قد عملتم ما امرتم به فادخلوا الجنة بغير حساب .

وجاء عن سدير السيرفي انه قال : كنت في مجلس الامام الباقر (ع) فدخل زيد بن علي (ع) فضرب ابو جعفر الباقر على كتفه وقال : هذا سيد بني هاشم اذا دعاكم فأجيبوه واذا استنصركم فانصروه .

الى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تؤكد ان الأئمة (ع) كانوا يساندون اولئك الثائرين ويدعون الناس الى مناصرتهم على الظلم والجور والظلم ، وفي الوقت ذاته كانوا يتمنون عليهم التريث والعمل الصامت لتصبح ثوراتهم اكثر انتشارا وعطاء كما يبدو ذلك للمتتبع في مواقف الأئمة من تلك الانتفاضات المتوالية على امتداد العصور التي اقلقت الحاكمين .

الخلافة بين النفس والاختيار

لعل اعتبار الامامة من الواجبات الرئيسية بعد النبوة من الامور المفروغ منها والمسلمة لدى عامة المسلمين ، ويرى اكثرهم بان ما كان من عقل ونقل على النبوة بالذات يصلح لان يكون من الادلة على الامامة ، لان النبوة بدونها لا تنفق مع جوهر الاسلام ، ولانها استمرار حي للنبوة فيما جاءت به وانطلقت من اجله ، فلو جوزنا ان تكون الرسالة محدودة ولفترة لا تتعدى حياة الرسول ولم يحتط لها من بعده بوصي امين وخير باهدافها وأسرارها يعمل بأمانة واخلاص وخبرة وتجرد على انتشارها الى حيث اراده الله لها بحسب الزمان والمكان لم تحصل الغاية منها ولم يقدر لها البقاء والانتشار الواسع الذي يوفر للبشرية على امتداد العصور ما اراده الله لها من الكرامة والسعادة وجميع مقومات الحياة ، وقد صح عن النبي (ص) انه كان يقول : في كل خلف من أمتي عدول من اهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وزيف المفترين ، ومؤدى قوله هذا ان عدول اهل بيته هم الذين يحرسون الدين وينفون عنه تحريف الضالين والملحدين والمشعوذين وينقلونه الى الاجيال على واقعه حيا سليما جيلا بعد جيل الى ان يرث الله الارض ومن عليها . وبناء لذلك

فالامامة بمعناها الصحيح السليم ليست الا امتدادا للنبوة فسي
واقع الامر جيلا بعد جيل ، من اجل ذلك كانت من الاصول الاسلامية
التي رافقت مطلع الاسلام وقد نص النبي عليها كما نص على غيرها من
الاصول منذ فجر الدعوة وظل يؤكد على المسلمين الى قبيل وفاته كما
أكدت ذلك النصوص الكثيرة المنتشرة في مجاميع الحديث وعلى لسان
الثقات من الرواة والمحدثين، وبالإضافة الى ذلك فالعقل يؤكد على بساطة
تأملاته لواقع النبوة وأهدافها التي تريد من الانسان ان يكون خليفة لله
في ارضه يشل ارادته ومشيته التي جاءت الرسالات من اجلها .

ولقد اختلف المسلمون بعد وفاة النبي (ص) فيمن يخلفه في الحكم
لإتمام المسيرة بالدعوة وإدارة شؤون الأمة متجاهلين جميع مواقفه
بشأن من أعده لهذه المهمة ووصاياه التي كان يكررها بين الحين والآخر
وكاد الصراع بينهم ان يؤدي الى حروب دامية لا يفيد منها سوى طواغيت
فريش من أمية وغيرها ، وانهى الصراع بانتزاعها من اصحابها الشرعيين
واستيلاء ابي بكر عليها ، وبعد جدال وحوار داما بضعة اشهر رأى
علي (ع) ان مصلحة الاسلام التي كان يطالب بالخلافة من اجلها تفرض
عليه بعد الاخطار التي احدثت بالاسلام ان يقف الى جانب غيره ويتعاون
معهم لدفع تلك الاخطار التي أضلت على المسلمين من داخل المدينة
وخراجها ، فترك السلطة لغيره ومضى مع القوم بكل ما لديه من جهد
وقوة ليقطع الطريق على المنافقين والمرتدين الذين استغلوا معارضته
لالحاكم الجديد ، واتجه المسلمون بعد القضاء على المرتدين وبعد ان
وضعوا حدا لتحركات المنافقين اتجهوا لخارج الحجاز وخلال سنوات
معدودات استطاعوا التغلب على أعنى الدول وأقواها ومضى الاسلام في
طريقه يقتحم الصعاب والاهوال ليذكر عروش الجبابرة والطفاة ويضع حدا
لاستعباد الانسان واستغلاله الذي استمر آلاف السنين .

وبالرغم من اتساع رقعة الاسلام بالشكل الذي اتهمت اليه واتصال المسلمين بغيرهم من الامم التي كان لها تاريخها الحافل بالصراعات الفلسفية والعقائدية ولها اديانها ومعتقداتها المختلفة والمتباينة، بالرغم من كل ذلك، ومن تجدد الحوادث والتقلبات التي طرأت على حياة المسلمين التي كان يفرضها الزمن ، واختلاط عرب الجزيرة بغيرهم من تلك الامم فقد استمر المسلمون على ما كانوا عليه في عهد الرسول (ص) يتجنبون الخوض والصراع في المعتقدات وفي ذاته سبحانه وصفاته وخلق الافعال وعصمة الانبياء والخلفاء وما الى ذلك من الصراعات التي شاعت وتشعبت في اواخر القرن الاول ومضت تتسع وتشعب خلال القرن الثاني حتى تناولت كل ما له صلة بالدين ، وذهب الشعويون الى أبعد من ذلك في تفسيرهم للدين بما يتفق مع المعتقدات التي ورثوها عن أجدادهم البوذيين والمناويين والزرادشتيين وغيرهم من الامم التي لم تستطع الصمود في مقابل الزحف الاسلامي ، هذا التطور الفكري في الاوساط الاسلامية كان من ابرز نتائج ذلك الصراع العقائدي الذي تحول فيما بعد الى احزاب وفرق لا عهد للمسلمين الاوائسل ولا لإسلام محمد (ص) بها .

لقد كان النبي (ص) يحرص على ان يصرفهم عن الجدل الديني والنزاع العقائدي لان هذا النوع من الصراع والجدل يفرق ولا يؤلف ولا يزيدهم الا حيرة وضلالا ، وكل ما كان يمه خلال تلك الفترة من حياته ان ينظم علاقة الانسان بربه وبالأخرين وما يجب عليه لنفسه وأسرته ولمجتمعه .

لقد اتجه الرسول العظيم (ص) الى اصلاح النفوس وتطهيرها من أدران الجاهلية ومن بذور النفاق والاحقاد اصلاحا عمليا يستمد قوته وأصاته من المبادئ التي وضعها القرآن الكريم وأكدها هو قولاً وعملاً

في سنته وسيرته ، وهذا التماسك والترابط الذي اوجده النبي (ص) بين أتباعه وأصحابه والذي يشكل وحدة متراسمة استطاع بسببها ان يتغلب على الصعوبات التي كانت تعترضه ويرفع لواء الاسلام عاليا خفاقا في شبه الجزيرة وعلى الحدود بينها وبين أعتى الدول وأقواها يومذاك لينتقل به الى ما وراء تلك الحدود عندما تحين الفرصة لذلك ، وكان قد أعد جيشا جهزه بكل الامكانيات المتوفرة لديه بقيادة اسامة بن زيد لهذه الغاية ، وتشاء الاقدار ان ينتقل الرسول الى الرفيق الاعلى قبل ساعات من تحرك الجيش نحو الحدود الشمالية وأن يرجع الجيش الى قواعده لمراقبة ما سيحدث في الداخل ولغير ذلك مما لا يعيننا امره في المقام ، وبعد ان تغلبوا على الصعوبات التي اعترضتهم في داخل البلاد اتجهوا لخارجها واستطاعوا خلال سنوات معدودات ان ينشروا الدعوة ويرفعوا نواها في عواصم الدول الكبرى التي كانت تسيطر على اكبر مجسوعة من العالم يومذاك .

اما الجدل الديني والصراع العقائدي على اختلاف أشكالهما ومواردهما فلم يحدث التاريخ عن وجود لهما في تلك الفترة من تاريخهم الحافل بالعمل لخير الاسلام ، ولم تصل الينا عن تلك الفترة سوى بعض الافكار والتساؤلات العابرة كانت تدور بينهم عن القدر وبعض الغيبات القرآنية احيانا ولكنها كانت تمر ولا تلبث ان تتلاشى وكأن شيئا من هذا النوع لم يعترض تفكير احد من الناس .

وجاء في المجلد الرابع من خطط المقرئزي ان من أمعن النظر ووقف على آثار السلف يخرج وهو على يقين في انه لم ترد قط من طريق صحيح او سقيم عن احد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم انهم سألوا رسول الله (ص) عما وصف به الرب نفسه في القرآن وعلى لسان النبي (ص) او عن غير ذلك مما شاع النزاع به بعد عصر الصحابة

واختلفت فيه الآراء والاهواء في مختلف المواضيع ، وبعد عصره ساروا على الطريقة التي رسمها لهم في حدود كتاب الله وسنته واجتهاداتهم فيما لا نص فيه من كتاب او سنة ، ولم تظهر بسواد الصراع الفكري والعقائدي فيما ظهرت فيه الا بعد ان انتهى عصر الصحابة واستمر يتسع مع الزمن حتى بلغ اقصى حدوده في العصر العباسي الاول وجرحهم ذلك الصراع الى التراشق بالتفسيق والتكفير مما اتاح للحاكمين ان يوفروا الاجواء لتلك الصراعات والخلافات التي مزقت المسلمين الى عشرات الفرق والمذاهب .

ومجمل القول ان عصر الصحابة كان أشبه بعصر الرسول من ناحية انصراف المسلمين عن الصراعات العقائدية والمذهبية ولم يحدث التاريخ الا عن تنف من الخطرات والافكار كانت تعرض لبعضهم بين الحين والآخر حول القدر والاختيار والصفات ، ومدى صلتها بذاته تعالى ، ولكنها خطرات وأفكار عابرة ما كانت لتولد حتى تموت في مهدها لانها لم تجد استعدادا من احد للجدل والخوض فيها وحتى في غيرها من المواضيع العلمية والفكرية عدا بعض المسائل التي كانت تفرضها الاحداث المتجددة والتي لم يعرفوا لها نظيرا من قبل ، ذلك لان المسلمين الاوائل بكل طبقاتهم قد انصرفوا لتأسيس الدولة الاسلامية وجندوا كل امكانياتهم وطاقتهم للقضاء على الدولتين الكبيرتين الواقعتين خارج الحدود الحجازية ، لان الدعوة الاسلامية لا يمكن ان ينتظم امرها ما دام الفرس والرومان يظهران العداء لها ويملآن للقضاء عليها .

وفي ظل هذه الظروف التي احاطت بالمسلمين بعد وفاة النبي (ص) لم تكن أجواء المسلمين بكل فئاتهم وطبقاتهم مهية للعمل والتفكير بغير النواحي السياسية والعسكرية والادارية ، ولكنهم بعد ان اطمأنوا على مصيرهم واجتاحوا المناطق المتاخمة لحدودهم واتصلوا بغيرهم من الامم

خلال العصر الاموي واطلع العرب على معتقدات تلك الامم وآرائهم في
الاديان والمعتقدات وأصبح كل انسان يعبر عما لديه من الافكار والآراء
بدون حرج ظهرت معتقدات تلك الامم في اوساط المسلمين وأخذ
اصحابها يقارنون بين عقيدتهم الجديدة وبين ما ورثوه عن آباءهم
وأجدادهم •

وكان من نتيجة هذا الاختلاط الواسع وغزو الشعوبيين للعقيدة
الاسلامية بفلسفاتهم وأفكارهم وما الى ذلك مما ادخلوه بين تعاليم
الاسلام كان من نتائج ذلك ان اتجه المسلمون الى دراسة القرآن والحديث
وتفسير بعض المبادئ الاسلامية وما الى ذلك من المواضيع والاصول بما
يلتقي مع نزعات الفلاسفة ومع بعض الآراء والافكار الغريبة التي انتشرت
في الاوساط الاسلامية للتوفيق بينها وبين الاصول الاسلامية •

وفي ظل هذه الاتفاضات العلمية الواسعة التي اجتاحت اكثر المواضيع
وعرضت الكثير منها للتحريف والتشويه وقف أئمة الشيعة مواقفهم
الحازمة الرشيدة من كل ما يسيء الى الاسلام ويعرض ولو بعض جوانبه
للخطر ، وقفوا يناظرون اولئك الفزاة والمنحرفين وصنائع الحاكمين
ويدحضون آراء الملاحدة والزنادقة والفرق الاسلامية التي انحرفت في
أصولها وفروعها عما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ، ولم تكن مواقف
الأئمة والمتخرجين من مدارسهم وجامعاتهم بأقل اثرا من ناحية خدمة
الاسلام من جهاد الكفرة والظالمين ، وفي الوقت ذاته كانت مواقفهم في
مجموعها تشكل تحديا ثوريا لاولئك الحكام وتكشف للملا الاسلامي عن
زيف حكمهم وأنظمتهم التي تحمل شعارات الاسلام ولا تختلف فسي
واقمها عن غيرها من الدول والحكومات التي اطاح بها الاسلام •

لقد كان الحكم الاموي والعباسي في تلك الفترة من تاريخ الاسلام
يشكل خطرا على الخط الرسالي الذي جاء به محمد بن عبد الله (ص)
لا يقل عن الاخطار التي تحيط به من الشرك والوثنية ولذا فقد كان النبي (ص)

في حياته متحبا ومتحمسا بتلك الاخطار وحريصا على ان يولي امور الامة من بعده من يتابع المسيرة بدون انحراف والتواء واختار لها الامناء على شرع الله ووحيه كما أمره الله ، وقد بلغ عن ربه ذلك في عشرات المناسبات كما كان يبلغ بقية التشريعات ويؤكد لها عليهم حسب المناسبات حتى لا يبقى عذر لمعتذر يوم يقف الناس بين يدي الله سبحانه ، ولكنهم ومع الاسف الشديد رفضوا اختياره وتجاهلوا وصاياه (ولم ينج منهم الا مثل همل النعم) على حد تعبير البخاري في صحيحه واختاروا لانفسهم فكان ما كان وبخاصة في ظل العهد الاموي من انتكاسات في النظام والتواء في المبادئ وما نجم عن ذلك من ردة اعادت المجتمعات الاسلامية الى احياء العصبية وتجاهل الكفايات واحتكار الصلاحيات ونسخ التعاليم الاسلامية او مسخها وتشويهها واستبدالها بالانظمة الطبقية والراسالية المستغلة .

هذا بالاضافة الى الفرق التي اتحلت الاسلام وراحت تفسر نصوصه وحتسى اصوله بما يلتقي مع نزعاتها واتجاهاتها . وكان للشمويين الذين دخلوا في الاسلام بعد انهيار حكوماتهم دور ملموس في تأسيس تلك الفرق وامتداد الصراع وشموله لأكثر المواضيع الاسلامية بما في ذلك الخلافة التي امتدت اليها الايدي وتباينت حولها الافكار والآراء والاتجاهات ، فالخوارج كانوا يرونها من الحقوق المشروعة لكل الفئات التي تتألف منها القوميات وجميع الطبقات فيما كان الجمهور بمساندة الحاكمين يحاولون اضعاف الشرعية والديمقراطية على الشكل الذي جرت عليه بين الصحابة الاوائل ويرون انها لا تصح الا للقرشيين الاوائل بالنص عليها من الرسول وبعد ان ذهب اكثرهم على وجوبها على الامة للقرشيين وحدهم في مقابل الشيعة الذين يرونها كالنبوة يختار لها الله من يشاء ولا رأي للامة فيها ، وفي مقابل الخوارج

الذين يرون انها من حقوق جميع الفئات وكل من توفرت فيه المؤهلات سواء كان من العرب او الموالي ، بعد ان ذهبوا الى ذلك اختلف الجمهور فيما تعنيه كلمة الامة وانها تعني جميع المسلمين او فئة معينة منهم وذهب الى ان اقل عدد يتم به الاجماع وتنعقد به الخلافة خمسة من المسلمين وقيل بأربعة وبأثنين وبواحد الى غير ذلك من الاقوال التي لا مصدر لها سوى فعل الصحابة الاوائل والاسلوب الذي اعتمدوه في استيلائهم على السلطة بعد النبي (ص) وأضافوا الى ذلك شروطا اخرى يرجع بعضها الى الخليفة والبعض الآخر الى الكيفية التي يتم فيها اختياره كما ستعرض لها بعد هذا العرض الموجز للشكل والاسلوب الذي تمت عليه خلافة الراشدين التي انتهت بمصرع الامام علي (ع) بعد اربعين سنة من هجرة النبي (ص) الى المدينة ، وبعد المقارنة بين تلك الشروط وبين الشكل الذي تمت عليه الخلافة بمراحلها الاولى كما وصل اليها بواسطة ثقات المؤرخين تبدو المسافة على واقعا بين خلافة الاوائل وبين تلك الشروط وان اولئك الذين صاغوها بالصورة التي وصلت اليها كانوا يتملقون الى الحاكمين في صياغتها ويستوحونها من رغباتهم وعصبياتهم لا من الواقع الذي مضت عليه بعد وفاة النبي (ص) .

مصير الخلافة

لقد ذكرنا فيما سبق لأكثر من مناسبة ان الشيعة يرونها كالنبوة لا رأي ولا اختيار لاحد فيها وأمرها يرجع الى الله وحده فهو الذي يختار للامامة من يراه صالحا لها كما يختار لرسالاته وليس للأمة شأن او رأي في ذلك لان مهمة الامام امتداد لمهمة النبي من حيث المسيرة بها وتنفيذها الى حيث يمكن من بلاد الله الواسعة بما فيها من انظمة وتشريعات تحد من طغيان الانسان وتسلطه على المستضعفين واستهتاره بالقيم والمقدسات، وتمده بكل المقومات لبناء الانسان الصالح والمجتمع الصالح حسب الزمان والمكان ، ومهمة هذا شأنها لا يمكن ان تترك للأمة او لفئة منها لان الامة مهما بلغت من الحيطة والحذر والتجرد للصالح العام والتنكر للاهواء والمصالح الخاصة لا تسلم في الغالب من الخطأ في الاختيار الذي يعرضها لاسوأ المخاطر كما نشاهد ذلك لدى أرقى شعوب العالم فسي مختلف العصور ، وقد اختار النبي (ص) لها بأمر من ربه عليا والأئمة من بعده منذ بعثه الله بشيرا ونذيرا وظل النبي يؤكد خلافة علي (ع) تصريحاً وتلميحاً في عشرات المناسبات وحتى النفس الاخير من حياته كما اشرنا الى ذلك خلال الفصل الاول من هذا الكتاب ، ولكن المتأمرين والطامعين

فيها من بعده استطاعوا التغلب عليها لا بالعدد الكبير والقوة التي لا
 طاقة لغيرهم بها بل بأساليبهم الخاصة المدروسة بالرغم من المعارضة
 القوية في العاصمة التي يمثلها أكثر الانصار الذين كانوا يرددون اسم
 علي (ع) ويقولون : لو كانت لعلي لا يختلف عليه منا اثنان ، هذا
 بالإضافة الى عدد ليس بالقليل من اعيان المهاجرين ، بما في ذلك الحزب
 الاموي الذي تظاهر بالوقوف الى جانب علي (ع) ولكن من زاوية اخرى ،
 وحتى في خارجها ممن وصفهم واضعو التاريخ الاسلامي في اواخر
 العهد الاموي بالارتداد لاسباب سياسية كان من اهمها الغاء الصبغة
 الشرعية عن معارضتهم واعتبارهم من المتبردين على النظام العام كبني
 حنيفة وغيرهم ، فسي حين ان الذين وصفوهم بالارتداد قد اعترفوا
 فيما روه عنهم بأنهم كانوا يمارسون جميع الطقوس والواجبات التي
 فرضها الاسلام ما عدا الزكاة التي امتنعوا عن تسليمها للجباة من حيث
 انها من شؤون الولاية التي جعلها النبي لعلي (ع) في منطقة تعسرف
 بالغدير قبل وفاته بأقل من ثلاثة اشهر ، وظلت المعارضة تمتد وتسع بالرغم
 من جميع الوسائل التي استعملها الحاكم الجديد وأنصاره لاستقطاب
 الجماهير ، وكاد الموقف ان يتفجر لولا ان عليا (ع) رأى ان ذلك قد
 يؤدي الى اتكاسة تسيء الى الاسلام وتؤثر على مسيرته لاسيما وان
 الاسلام لا يزال فتيا ورواسب الجاهلية لا تزال تسيطر على الكثيرين ممن
 قهرهم الاسلام على الخضوع والتسليم لسلطانه ، والمنافقون في المدينة
 الذين مردوا على النفاق كما وصفهم الآية الكريمة من سورة التوبة
 يتلففون على فرصة تتيح لهم ان ينفسوا عن حقدهم المكبوت على
 الاسلام ونبي الاسلام وقادته المخلصين .

لقد وضع علي (ع) في حسابه كل ذلك وتجسدت لديه الاخطار
 الجسيمة المحدقة بمواقفه السلبية من الحكومة الجديدة وما سينجم عنها

من ردة يمكن ان تعيد المجتمع الحجازي الى وثنيته وجاهليته ، بعد ان وضع في حسابه كل ذلك آثر ان يستسلم للواقع الجديد بصفته أهون الشرين ومضى في الطريق الذي يتفق مع مصلحة الاسلام التي وهبها حياته وجميع طاقاته كما يشهد له بذلك العدو والصديق متجاهلا جميع ما اقترفته تلك الايدي معه ومع زوجته سيدة النساء لا يدخر شيئا من امكانياته في مختلف الميادين بل وجود بها لصالح الاسلام ولل قضاء على المرتدين وعلى الذين حاولوا ان يستغلوا الوضع المتأزم كأبي سفيان ومن على شاكلته من المشركين والمنافقين ، لقد كان وجود بكل امكانياته بنفس ضيبة مطمئنة وهو يردد (والله لأسألن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة) وظل على موقفه هذا مشرق النفس بمسيرة الاسلام وانتصاراته المتتالية على أعنى الدول يومذاك ويتمنى لو يتاح لـه الاشتراك في تلك المعارك ولو بصفة جندي من جنود المسلمين ، حتى مضى الاول لسبيله وجعلها لابن الخطاب من بعده وكأنها من أملاكه التي يباح له ان يتصرف بها كما يشاء ولمن يشاء متجاهلا رأي الخاصة وقادة الفكر في المدينة عاصمة الدولة ، وكان في طليعة المعارضين والناقمين على العهد الجديد عبد الرحمن بن عوف في حديث له مع ابي بكر فسي الساعات الاخيرة من حياته بعد ان علم بأنه قد جعلها لابن الخطاب من بعده ، وقد عبر ابن عوف في موقفه هذا من اختيار ابي بكر لعمر بن الخطاب عن رأي الاكثرية من قادة المهاجرين والانصار ، وكان طلحة أشد عنفا وصراحة من عبد الرحمن بن عوف وقال له جماعة من المهاجرين بعد ان شاع بينهم نبأ استخلافه لعمر : لقد استخلفت علينا ابن الخطاب وأنت تعلم بوائقه فينا وماذا تقول لربك وهو يسألك غدا عن عملك هذا ؟ وقال بعض المهاجرين لعمر : أمرته عام اول وأمرك هذا العام ، وبالرغم من تلك المعارضة الشديدة من أعيان المهاجرين والانصار فقد مضى في طريقه

وكان ذلك مفروض عليه وكتب له كتابا أكد على المسلمين فيه ان يسموا له ويطيعوا امره وسلمه الكتاب ، وخرج عمر بن الخطاب من مجلسه وهو يصارع الموت وييده الكتاب المختوم ، وكان اذا سئل عن محتواه يقول : لا أدري لقد أمرني بأن لا أفصه الا بعد وفاته ، فيقولون له نحن نعلم ما فيه : لقد أمرته عام اول وأمرتك هذا العام ، الى غير ذلك من المواقف التي تؤكد ان استخلافه لعمر لم يقابل بارتياح قادة الفكر والرأي يومذاك وانه كان نتيجة لاتفاق سابق وعهود ملزمة بينهما على ان يتداولوها على هذا النحو ولو لم يكن لاحد من المسلمين رأي في ذلك .

ومع انه لم يستشر احدا فيمن يخلفه في ادارة شؤون الاممة وان اختياره لابن الخطاب لم يقابل بالارتياح وقد تعرض لاعنف الهجمات والاتهام من بعض القادة ووجوه الصحابة كما تؤكد ذلك الروايات التي تحدثت عن أحداث تلك الفترة من التاريخ ، مع كل ذلك فقد استسلموا للواقع الجديد على مضض كما استسلمت المعارضة القوية لسلفه بمسند اشهر من خلافته كما ذكرنا ، ولم يفكروا بالخروج عليه ولا بمعارضته . ولعل الحروب الطاحنة التي كانت على أشدها يومذاك بين المسلمين خارج الحدود وبين الفرس والرومان والانتصارات التي كانت توفر لهم الاموال ولذائذ العيش ومتع الحياة كانت من وراء ذلك الهدوء الذي رافق سني خلافته من المعارضين لها والموالين ، ومع ان المسلمين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم قد استسلموا للامر الواقع ووقفوا صفا واحدا طيلة سني خلافته ، فلم ينس للمعارضة موقفا من اختياره وكان رده عليها ان فرض على وجوه الصحابة وقادتهم الإقامة الجبرية الى جواره في العاصمة خاضعين لرقابته لئلا يفتنوا الناس ويفتنوا بالناس على حشد تعبيري ابي بكر في وصيته اليه بعد ان اطلع على مواقفهم الغاضبة لاختياره . لقد كان يخشى ان يفتنوا بالناس ويستغلوا ثقة الجماهير للخروج

عليه والعمل من اجل السلطة ، ولكنه لم يكن يصارحهم بها كان يخشاه ، بل يقول لهم عندما يطلبون منه الخروج من المدينة ولو للاشتراك في المعارك ، اني لا استغني عن توجيهاتكم فيما يعود لشؤون الدولة وتفقيه الناس ، وكان موقفا في ادارته وحازما في سياسته ، ولقد ساعدته الظروف على فرض هيئته على الجميع فالموالون والمعارضون قد ساهموا في بناء الدولة وتوطيد الحكم الاسلامي في جميع انحاءها ، وعلي (ع) منصرف الى تفقيه الناس وحل مشاكلهم والسير بهم على طريق الاسلام في جميع الميادين والاتجاهات ، وهو قرير العين ما دام الاسلام يسير بخطا واسعة الى الامام .

ومضى ابن الخطاب في سني خلافته حازما كبير الحظ بتلك الاتصارات التي حققت ما كان النبي (ص) يلوح لهم به وهم يخفرون الخندق حول المدينة وكانوا يومذاك ما بين ساخر ومستسلم لما لوح لهم به حين اخذ المعول ليقطع تلك الصخرة البيضاء التي اعترضتهم ولم تصنع بها معاولهم شيئا ، وحينما ضربها الضربة الاولى خرج منها بريق كأنه المصباح في البيت المظلم وفي الضربة الثانية والثالثة قضى عليها وخرج منها بريق اضاء ما وراء المدينة فكبر النبي (ص) وأشرقت له نفسه الكبيرة وراح يتحدث للمسلمين بعد ان سألوه عن اسباب تكبيراته الثلاث، فقال: لقد رأيت في البريق الاول قصور الحيرة ومدائن كسرى وأخبرني الامين جبرائيل بأن أمتي ستظهر عليها وفي البريق الثاني رأيت قصور الحر من ارض الروم وفي الثالث رأيت قصور صنعاء ، وقد استبشر يومذاك المؤمنون لانه لا ينطق عن الهوى ، وسخر منه المنافقون كما كانوا يسخرون من احاديثه عن مستقبلهم ، وراحوا يتحدثون فيما بينهم ويقولون : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبرنا بأنه قد ابصر من يثرب قصور الحيرة وصنعاء ومدائن كسرى وقصر وأحدنا اليوم لا يأمن على

نفسه لقضاء حاجته فنزلت الآية بهذه المناسبة كما جاء في أكثر مجاميع التفسير •

واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا •

المصير المحترم على يد الهدامين

وظل ابن الخطاب ممسكا بزمام الامور والدولة تسير كما ينبغي لها ان تسير وعلي ومن يأوي اليه من شيعته المخلصين للاسلام ياهمون بكل طاقاتهم وامكانياتهم في دفعها الى الامام ، اما الهدامون من المنافقين كأبي سفيان وكعب الاحبار وابن العاص والمغيرة بن شعبة وأمثالهم فقد اعتصموا بالهدوء وأرجأوا مطامعهم وما يضمرونه للاسلام ولشخص ابن الخطاب بالذات بانتظار الاجواء المناسبة وراحوا يفتشون عن وسيلة تتيح لهم التخلص من الخليفة ، لانهم كانوا يحسبون بأنه سيجعلها من بعده لعلي (ع) بعد ان تزوج بابنته أم كلثوم وقد سمعوه اكثر من مرة يقدر جهاده وتضحياته في سبيل الاسلام ويقول لولاه لما قام للاسلام عمد الى غير ذلك من الكلمات التي تنطلق منه على ملا من المسلمين ، هذا بالاضافة الى ما كان بينه وبينهم من نفور وملاحاة جملتهم يحققون عليه ، وكان المغيرة في طليعة الحاقدين عليه لاسباب كثيرة لعل من ابرزها انتزاع ولاية البصرة منه وتسليمها لغيره بعد ان اتهم بالرقطاء وشهد عليه ثلاثة بالجرم المشهود ، وقد سلم من الحد الشرعي بواسطة الشاهد الرابع لانه حاباه ولم يكن صريحا في شهادته وكان عمر بن الخطاب يقول

اه : كلما رأيتك خفت ان يرجمني الله بحجارة من السماء . اما ابن العاص فلقد كان كارها له وحينئذ ولاء بعض المقاطعات كان يقول كما يحدث عنه التاريخ : لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر بن الخطاب ، والله لقد رأيت وأباه وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب ، والعاص بن وائل في قرارة الديباج ، كما كان بينه وبين طلحة التيمي نفور كانت تظهر ملامحه بينهما بين الحين والآخر ، وقال له ابن الخطاب يوما بعد وفاة الرسول (ص) : لقد مات رسول الله وهو ساخط عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب وكان كما يروي المؤرخون قد قال : وما يغنيه حجابهن وسيموت غدا وتنكحهن من بعده .

اما ابو سفيان فمواقفه من الاسلام وقادته المخلصين لا يجهلها احد ولم يستطع حتى التاريخ المحايي للامويين والذي اختطه أيدي عملائهم وصنائعهم ان يضعوا ولو خبرا يستر حقه على الاسلام ونبي المسلمين وقادة المسلمين الذي رافقه منذ ظهور الاسلام وحتى النفس الاخير من حياته ، وكان من أشدهم حماسا ضد خلافة ابي بكر ، ولعله لم يهدأ الا بعد ان اخذ وعدا من القوم بالشكل الذي سارت عليه الخلافة الاسلامية، ولكنه كما يبدو قد استطال خلافة ابن الخطاب وخاف ان تتحول الامور لغير مصلحة بيته لاسيما بعد المصاهرة التي تمت بينه وبين علي بن ابي طالب (ع) وبعد التصريحات التي كان يعلنها ابن الخطاب في مجالسه ومحاوراته بحقه .

وأما كعب الاحبار فقد كان يعمل لصالح كل من يريد هدم الاسلام، والحزب الاموي من ابرز العاملين لهذا الاتجاه ، وكان له ولا مثاله من الهدامين والمخربين المكان الاول في قصور خلفائهم ومجالسهم ، ولم يكن سعد بن وقاص بعيدا عن هذه الفئة لانه يتصل بالامويين عن طريق أمه حمصة شقيقة ابي سفيان ، هذا بالاضافة الى انه في اسلامه لم يكن

افضل من هذه النشة انني كانت تسيرها الاهواء والمصالح . لذا فان اشتراكه في المؤامرة مع ابي سفيان والمغيرة وابن العاص وكعب الاحبار على حياة الخليفة عمر بن الخطاب لم يكن بعيدا لاسيما وان غلامه جفينة كان على صلة وثيقة بأبي ثؤلوة صانع الجريمة والهرمان ايضا الذي اتهم بالاشتراك فيها او التحريض عليها ، وقد قتله مع الهرمان وابنة ابي ثؤلوة عبيد الله بن عمر بدافع الثأر لاييه الذي قتل بخنجر ابي ثؤلوة ، وأنسى لغلام كأبي ثؤلوة ان يجرا على من أذل جبابرة العصور الاكاسرة والقياسرة اذا لم يكن مدعوما بقوة عظمى او مدفوعا بخصوم ابن الخطاب الأشداء في داخل المدينة . ولم تكن أسطورة الضريبة التي فرضها عليه مولاه ابن شعبة كما يدعي اكثر المؤرخين الا من وضع الامويين وصانمي الجريمة ، ولماذا لم يحقد ابو ثؤلوة على من وضع عليه الضريبة وكان يستغلها لصالحه لا لصالح الدولة التي كان يمثلها ابن الخطاب .

وليس يبعد على المخططين للجريمة ان يكونوا هم الذين دفعسوا عبيد الله بن عمر على قتل جفينة والهرمان وابنة ابي ثؤلوة بتلك السرعة الخاطفة حتى لا تتضح معالمها وأبعادها بعد التحقيق الواسع معهم بشأنها . والذي يرجح ذلك ان الحزب الذي تولى الحكم بعد الخليفة الراحل قد حماء من القضاء العادل بالرغم من مطالبة عدد كبير من قادة الصحابة وذوي الرأي والدين بمحاكمته لاقدامه على قتل طفلة لا يشك احد ببراءتها ولا يجوز ان تؤخذ بذنب ايها .

مهزلة الشعور

ومهما كان الحال فلقد لقي ابن الخطاب هذا المصير الذي كان ينتظره ، وانصرف في الايام الثلاثة التي كان يصارع الموت فيها بعد تلك الطعنة الى اختيار من يخلفه في ادارة شؤون الامة والدولة وراح يتلهف على الاموات ويتمنى بقاءهم أحياء ليولي احدهم شؤون الامة كسالم مولى ابي حذيفة وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وغيرهم ، وفي الوقت نفسه يقول : لو سألتني ربي كنت اقول له سمعت نبيك يقول : ان ابا عبيدة امين هذه الامة ، وان سالما شديد الحب لله .

لقد تمنى بقاء ابي عبيدة وسالم بين الاحياء ليستخلف احدهما لا لشيء الا لانه قد سمع النبي يشني عليهما ، ولم يتمن لها عليا (ع) وقد سمع النبي (ص) في عشرات المناسبات يشني عليه ويصفه بأطيب الصفات التي كان يحسد ويغبطه عليها القريب والبعيد والعدو والصديق وحتى هو نفسه يوم قال له : بخ بخ لك يا علي لقد اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، ونسي ما قاله هو لابن عباس اكثر من مرة : لو وليها علي لحمل الناس على المحجة البيضاء وعلى كتاب الله وسنة نبيه ، ولولا سيفه لما قام للإسلام عمد الى كثير من أمثال هذه الكلمات والتصريحات التي كانت

تبدر منه بين الحين والآخر من حيث يريد او لا يريد .

لقد تجاهل كل ذلك وتجاهل معه ما كان يصول به ويجول في مقابل الانصار الذين كانوا يرون انفسهم أحق بها منه ومن مرشحه ابي بكر اذا كان ولا بد من صرفها عن اصحابها الشرعيين ، لقد كان يحتاج عليهم يومذاك بحديث نسبه الى رسول الله (ص) انه قال : الخلافة لا تكون الا في قريش وقد صال وجال به على معارضيه من غير القرشيين ولسم يكن لديه غيره يومذاك ، وها هو اليوم يذهب بعيدا ويتمنى لها غير العرب من الموالي والعميد الدخلاء لا لشيء الا لانهم يحبون الله . ان امر هذا الرجل لغريب ولا شيء اغرب من انه وهو فسي الساعات الاخيرة من حياته يعمل في حدود سياسة مدروسة ومتفق عليها منذ الايام الاولى لانتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين بشكل واضح جاء يتلف على الاموات من الموالي وغير القرشيين ويتمنى حياتهم ليستخلفهم من بعده لتضليل الرأي العام عن تلك المؤامرة المتفق عليها والتي التزم بها منذ انتزاع الخلافة من اصحابها الشرعيين كما يبدو .

وقال الاستاذ عبد الفتاح عندما انتهى به الحديث الى موقف ابن الخطاب وتمنياته في تلك اللحظات الحاسمة قال : ان ابن الخطاب حينما تمنى حياة ابي عبيدة بن الجراح وأسامة بن زيد تذكر عليا وتذكر معه كل ما حدث به هو عنه من قبل ثم ذكر الى جانب هذا وذاك قدره لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه فحسب بل كما علمه هو وغيره وقدره القدر الذي يعلو به على الآخرين ، ولكنه في الوقت ذاته ذكر السياسة العليا التي استنتها لنفسها قريش. وقد ترسمها برغبته او دفع الى ترسمها مستكرها وقد عداها في كلا الحالين التوفيق ولم يلتزم النهج الاقوم . ومجمل القول لقد تمنى ابو حفص حياة الاموات ليوليهم الخلافة

وكأنها ارث له من ابيه الخطاب وهو يعلم ان عليا (ع) لا يعدله احد من الاموات والاحياء ، ومع كل ذلك فلم يتمناه لها ولا خطر له على بال لانه يسمى ويعمل من اجل تنفيذ مخطط كان قد التزم به من قبل ، وسمى ستة من المسلمين زعم ان عليا احدهم ، وفي الوقت ذاته وضع للانتخاب قيودا وشروطا تجعل عثمان بحكم المتعين ولا خيار لاحد فيها وكأنه يناوله اياها في عهد مكتوب كما ناولها ابو بكر من بعد لابن الخطاب ومن غير فرق بينهما الا بالشكل والمظهر .

لقد جعلها في ستة ، وجعل لابي طلحة الانصاري بصفته رئيسا للشرطة الحق في الاشراف عليهم مع خمسين من اعوانه وفرض عليهم الخضوع لوامره وتوصياته ، كما امره بأن لا يسلمهم اكثر من ثلاثة ايام وقال له : اذا اتفق خمسة وخالف واحد منهم فاضرب عنقه واذا اتفق اربعة وخالف اثنان فاضرب عنقيهما واذا انقسموا شطرين متساويين ثلاثة وثلاثة فهي لاحد الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وعلى الثلاثة الباقين الطاعة واذا خالفوا فاضرب أعناقهم . بهذا النوع من المداورة والتضليل جعلها لعثمان بن عفان تنفيذاً لمخطط قد التزم به هو ورفاقه للحزب الاموي من قبل .

وهذا النوع من الانتخاب المقرون بتلك الشروط لا بد وان يؤدي الى تلك النتيجة وابعاد علي (ع) عنها من غير ان يستخدم لفظا معينا لابعاده لاسيما وقد جعلها لمن يختاره لها عبد الرحمن بن عوف ، وهو يعلم بأن عبد الرحمن لا يفضل احدا على صهره ابن عفان ، كما وان سعد بن ابي وقاص قريب لعبد الرحمن وأموي النزعة من ناحية امه ، فلم يبق من الستة سوى طلحة والزبير وعلي بن ابي طالب ، ويعلم ابن الخطاب بأن طلحة كان يطمع بها لنفسه واذا يئس منها فمن غير الممكن ان يختار لها عليا لاسباب كثيرة ، كما يعلم بأن عليا سوف لا يحصل على غير صوت

الزبير وليس لهما الا السيف اذا خالفا من يختاره ابن عوف بمقتضى وصيته لابي طلحة الانصاري . وكان الامر كما قدره وخطه ، فلقد وقف الزبير الى جانب علي (ع) ووقف طلحة الى جانب عثمان بعد ان يش منها ، كما وهب سعد بن ابي وقاص نصيبه فيها الى قريبه عبد الرحمن ، وانتهت بذلك الجولة الاولى من مهزلة الانتداب ولعبد الرحمن صوتان كثيره وزاد عليهما ان صوته يعادل صوتين بحكم المرسوم العمري ، ثم اخرج نفسه منها على ان يجعلها لاحد الاثنين علي وعثمان بشروطه التي لا يقبلها سوى عثمان .

ومن غير البعيد ان يكون الواضع لتلك الشروط هو ابن الخطاب نفسه ، ومضى ابن عوف في الطريق المرسوم له فعرضها على علي (ع) بشروطه التي منها ان يعمل بسيرة الشيخين ، وهو يعلم ان عليا لا يمكن ان يخضع لرأي او شروط ولا يناقض نفسه ، وكان من الطبيعي ان يرفضها مع هذا الشرط وأن يقبلها ابن عفان بشوق ولهفة ويفتح لها عقله وقلبه ، وانتهت اخيرا كما اراده لها الخليفة الراحل بهذا الاسلوب من التفضيل والتمويه على الجماهير التي لم تكن ترى لعلي بديلا ولا ترى لعثمان ما يؤهله لابسطة القيادات في ماضيه وحاضره فضلا عن دولة فتية قد اكتسحت أعتى الدول وأقواها وأصبحت بحاجة لمن يجسد الاسلام في سيرته وسلوكه تجاه تلك الامم التي استجابت لنداء الاسلام باعتباره الدين الذي يحقق لها كل آمالها وأمانها ويعيد لها كرامتها .

ومما يدعو الى الغرابة بالاضافة الى ما تقدم هو انه قال للملا الذين كانوا يتدافعون على بابه ليعرفوا مصيره ومصير الخلافة من بعده : لقد اخترت لكم احد هؤلاء الستة لان رسول الله (ص) رحل عن هذه الدنيا وهو راض عنهم وحينما استدعاهم اليه قال لهم أفلا أخبركم عن انفسكم فقالوا له قل ما نشاء ، فالتفت الى الزبير وقال : أما انت يا زبير فوعق تمس

مؤمن الرضا كافر الغضب يوما انسان ويوما شيطان لو افضت اليك
 الخلافة ظلت يوما تلاطم في البطحاء على مد من الشعير فلعمري من يكون
 للناس يوم تكون شيطاننا ويوم تغضب . والتفت الى طلحة وقال له : اقول
 ام اسكت ؟ فقال له : قل فانك لا تقول من الخير شيئا ، فقال له : انسي
 اعرفك منذ أصيبت اصابعك يوم أحد والبا بالذي حدث لك ، ولقد مات
 رسول الله (ص) ساخطا عليك للكلمة التي قلتها يوم نزلت آية الحجاب،
 وكان قد قال يوم ذاك : وما يفنيه حجابهن وسيموت غدا وتنكحهن
 من بعده .

وقال لسعد بن ابي وقاص : انما انت صاحب مقنب من هذه المقانِب
 نقاتل به وصاحب قنص وقوس وأسهم وما لزهرة والخلافة ، وقيل
 لعبد الرحمن : اما انت فلو وزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح
 ايمانك به ولكن ليس هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما لزهرة وهذا
 الامر ، واتجه الى عثمان وكأنه يناوله الخلافة بكلتا يديه وقال : كاني بك
 وقد تقلدت هذا الامر وحملت بني أمية وبني ابي معيط على رقباب
 الناس وآثرتهم بالنبي فسارت اليك عصاة من نؤبان العرب فذبحوك
 على فراشك ، والله لئن فعلوا لتفعلن ولئن فعلت ليفعلن بك . ثم التفت
 الى علي (ع) وقال : اما انت فوالله لو وليتها لحملتهم على الحق الواضح
 والمحجة البيضاء .

والغريب في هذا الموقف الذي وقفه من الستة انه كان قد قال
 للحشود الواقعة على بابه لتعرف مصير الخلافة : لقد مات رسول الله
 وهو راض عن هؤلاء الستة في حين انه وصف اكثرهم بصفات لا يمكن
 لرسول الله ان يرضى عنها وبخاصة تلك التي وصف بها الزبير وعثمان بن
 عفان وطلحة . ووصف عليا (ع) بما يجب ان يكون عليه من يخلف النبي
 في اتمام مسيرته وقيادة الامة ولم يستطع ان يلصق به عيبا ومع ذلك فقد

وضع في طريقه الصعاب والعراقيل التي تحول بينه وبينها ، ومهد طريق ابن عفان اليها بكل ما لديه من الوسائل بعد ان وصفه بأقبح الصفات كالتلاعب بمقدرات الامة واىثار العصاة والمردة من شياطين بني أمية على غيرهم من صلحاء المسلمين وذوي الرأي والفكر من أقطابهم مع انه وصفه بتلك الصفات وأقسم بالله عليها فقد مهد له طريق الوصول اليها كما ذكرنا ، هذا بالاضافة الى ما وصف به طلحة من تحديه لرسول الله (ص) وغضبه عليه للكلمة التي قالها يوم نزلت آية الحجاب وما وصف به الزبير وابن ابي وقاص من الصفات القبيحة وكان قبل ذلك بلحظات قلائل قد قال بحضور حشد كبير من الناس : لقد مات رسول الله وهو راض عن هؤلاء الستة وأقل ما يصح ان يوصف به هذا الموقف هو الهذيان والهجر ، ومع ذلك لم يقل احد ممن سمع هذه المتناقضات منه ان الخليفة يهجر ، وقد غلب عليه الوجع كما قال الخليفة نفسه عن النبي (ص) حينما طلب دواة وكثفا ليكتب للمسلمين كتابا حتى لا يضلوا بعده وقد ايقن الجميع يوم ذاك ان الكتاب الذي كان سيكتبه لا يمدو ان يكون عهدا مكتوبا بالخلافة لعلي (ع) لكي يفوت على المتأمرين والطامعين ما اتخذوه من التدابير لاقصائه عنها وتلاعبهم بالنصوص والمراسيم التي اصدرها يوم الدار وفي غدیر خم وغيرها من المناسبات ، ولما ادرك ابن الخطاب الغاية من الكتاب وأهدافه ، قال : ان نبيكم ليهجر ، وفي رواية ثانية انه اضاف الى قوله هذا : لقد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله •

لم يقل ذلك احد من تلك الجماهير التي سمعت كل اقواله في تقرير الستة وهجائهم وذمهم في حين ان موقفه مما يسمونه بالشورى ومدحه وذمه لاجرائها في وقت واحد بالشكل الذي يرويه اكثر المؤرخين والمحدثين عنه لا يصح تفسيره منطقيا الا بالهجر والهذيان والغرابة حتى عن منطق السياسيين ومحترفي السياسة •

وانتهت مهزلة الشورى بخلافة عثمان واستسلام علي (ع) للواقع الجديد وهو يأمل ان تسير الامور ولو الى حد ما كما ينبغي لها ان تسير بانتظار ما سيحدث وما يتوقعه اكثر المسلمين في المدينة وخارجها من الحزب الحاكم بشخص ابن عفان ، ولم يكن الانتظار طويلا فما هي الا اشهر قليلة حتى بدأت معالم السياسة العمرية تقترب من الأفول وظهرت بوادر الاستغلال على اسرة الخليفة وحاشيته مما دعا وجوه الصحابة بقيادة عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الاسود وغيرهم من الحريصين على مصلحة الاسلام الى التحرك ، ولكن عليا (ع) فرض عليهم التريث في المعارضة ريثما تتضح الصورة على واقعها للجميع .

وكانت البادرة الاولى التي قام بها الحزب الاموي ان حملوا الخليفة على اكثافهم من غرفة الشورى بعد البيعة الى داره ليشرب نخب النصر مع خاصته وحاشيته بدلا من المسجد الذي اعتاد من سبقه من الخلفاء ان ينتقل اليه بعد تقلده السلطة ليعلن منه على المهاجرين والانصار وعامة المسلمين الخطوط العريضة لسياسته وادارته لشؤون الدولة ليشاركوه الرأي فيما يخطط في مستقبل عهده ، هذه البادرة لم تقابل بالارتياح من المسلمين وراحوا يتحدثون فيها حديثا لاغطا للمقربين من الخليفة وحاشيته على امل ان تبلغه احاديثهم ليرجع الى الناس ويعتذر اليهم بما يعيد الى نفوسهم الثقة والطمأنينة ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل اقترن تصرفه هذا بحدث آخر كان وقعه على المسلمين أشد وأوجع فلم ينصرف هذا الاجتماع العائلي المحتفل بالنصر وبأحلام هذا البيت منذ عشرات السنين حتى دخل عليهم ابو سفيان وهو اعمى يوم ذاك يقوده غلامه ليضع المنهج للحكم الذي وضع تصميمه منذ زمن لعله حين استطاع ان ينتزع وعدا او ما يشبه الوعد بعد حوادث السقيفة بوصول الخلافة الى بيته ، فدخل على القوم وقال : هل في مجلسنا احد تقيه ؟

ف قيل له انطلق لحاجتك يا ابا سفيان ، فقال : تلقفوها يا بني أمية فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت ارجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم ولسم يحدث التاريخ عن احد ممن كان في مجلسه ان عارضه بشيء مما تكلم به ، ولم يكتف بذلك بل هشت به أحقادہ القديمة التي لم يستطع ان يظهر شيئا منها بعد ان تظاهر بالاسلام لا في عهد الرسول ولا في عهد الخليفتين الراحلين ومشت به تلك الاحقاد التي تأسست من انتصار هاشم على أمية وتمكنت في نفسه من انتصارات سليل هاشم في بدر والاحزاب وحينئذ وغيرها من انتصارات الاسلام على الشرك والوثنية مشيت به الى قبر الحمزة بن عبد المطلب احد اقطاب البيت الهاشمي الذي انتصر على ابي سفيان وحزبه ، فركله برجله وقال : انهض يا ابا عمارة فقد صار الينا الملك الذي حاربنا عليه ، لقد قال ذلك في نزوة جاهلية لا تعرف النزوات أولع في التشفي والحقد والانانية منها كما ذكرنا من قبل .

وواجه الخليفة الجديد في السنة الاولى من خلافته مشكلة كانت من مختصات القضاء الاسلامي الذي احاطه الاسلام بقيود وحدود ووضع له من الموازين والشروط ما جعله مرجعا امينا وكفيلا باعطاء كل انسان حقه بدون محاباة او تمييز وبخاصة في مشاكل الدماء والاعراض والاموال . بعد اغتيال ابن الخطاب اقدم ولده عبيد الله على قتل الهرمزان احد امراء الفرس الذين وقعوا اسرى في يد الفاتحين من الجيش الاسلامي من غير ان يحاكمه بذنب ارتكبه او بجريمة ادانه بها القضاء ، ولم يكن الهرمزان يعرف لنفسه ذنبا يوجب العقاب ، كما لم ينسب اليه احد الاشتراك في الجريمة ، وكل ما في الامر ان احد المسلمين قد ادعى بأنه قد رآه قبل حدوث الجريمة مع جفينة وأبي ثؤلثة ، وهذا لا يكفي للادانة ولا يعد مؤشرا اليها ، وكما يبدو فان عبيد الله لم يقدم على قتله الا لانه مدفوع على ذلك حتى لا تظهر معالم الجريمة فيما لو بقي حيا وخضع

للتحقيق العادل بها ، وبعد قتله التجأ الى عثمان الذي حول القضاء لصالحه ولصالح حزبه فحماه من القضاء بالرغم من مطالبة الجمهور الاعظم بمحاكمته وكان على رأس المطالبين بذلك علي (ع) وذوو الرأي والبصيرة من وجوه الصحابة ، ولكن الخليفة لم يبال بغضب الجماهير ولا بنصح الناصحين وأصر على حمايته من القضاء العادل وظل عبيد الله في رعاية الخليفة وأعوانه محبوباً مدلاً كأعز ما يكون عليه لا يأبه للوم لائم ولا لنقمة ناقم ولا لحرمة العدالة والقضاء حتى اشتد الحصار وكانت نهايته ، فأيقن عند ذلك ان لا شيء يحميه من العدالة بعد ان اصبح القضاء بيد علي امير المؤمنين (ع) فالتحق بمعاوية مع من التحق به من الامويين الذين كانوا يعبثون بالقيم ومقدرات الامة وكانت نهايته في صيفين مع الفئة الباغية كما تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية .

كما واجه المسلمين في مطلع خلافته بشكيلة اخرى لعلها أسوأ مما سبقها فاثارت القلق والخوف في نفوس الخاصة من ذوي الفكر والرأي والمخلصين للاسلام العاملين على انتظام مسيرته ولو بالنحو الذي كان عليه في عهد الخليفين ولم تكن هذه المشكلة تحدياً للقضاء فحسب بل تحدياً لرسول الله (ص) وفي الوقت ذاته تتعلق بأمن المجتمع المدني الذي كان يبعث فيه آل الحكم من بني ابي العاص ، وكان النبي (ص) قد حاول اصلاحهم وتحديد نشاطهم بكل الوسائل ، فلم يجدهم جميع ما بذله في هذا السبيل لان فسادهم كان اعظم من ان تؤثر فيه النصائح والارشادات والتفاوض وجميع المحاولات لاتصاله بأحقاد قديمة موروثه تحولت الى مرض لا يزيده الدواء الا اتكاسا .

وبالاضافة الى هذا الداء واستفحاله فلقد كانوا يعملون على نشر الفوضى والسفه واللامبالاة وبلغ من غوغائيتهم ان أقدم الحكم اكثر من مرة على تمثيل النبي في مشيته ومحاكاته في تحركاته محاكاة ساخرة

دنيئة فكان اذا مشى خلفه يتغامز ويتخلع وأحيانا يدلح له لسانه الى غير ذلك من التصرفات الشاذة التي تتم عن مرض خبيث في النفس لم يجد النبي سبيلا لاستئصاله بالحكمة والتوجيه والموعظة الحسنة .

وقد التفت اليه مرة وكان يمشي خلفه فوجده يتغامز ويتخالسج ويتخالع وكأنه يمثله في تحركاته فلم يزد النبي (ص) على ان قال له : كن كما انت فبقي على الهيئة التي كان عليها وهو يمثل النبي كالمجنون ، وظل الناس بعد ذلك يسمونه الخالع والخليج ويسخرون منه ، وأحيانا كان يتجسس على النبي وهو في غرفته مع احدى زوجاته ورآه مرة يتطلع عليه من نافذة تطل على الغرفة فغضب وقال : من عذيري من هذه الوزغة ، ولما شاعت مقائلته هذه كان الناس اذا تحدثوا عنه وعن ابنه مروان قالوا الوزغ ابن الوزغ الى غير ذلك من ألوان المنفة التي لم يرتدع عنها الحكم ولا اولاده من بعده ولا عما هو أسفه منها وأقبح .

ولما رأى النبي (ص) ان بقاءه في المدينة ربما يجر العدوى والفساد لغيره نفاه هو وأسرته من المدينة الى مكان في الطائف معزول عن الناس (يدعى بطن وج) ونهى المسلمين عن معاشرته والاجتماع اليه حرصا على النفوس البريئة من ان تلوث بمرضه ولم يقبل فيه شفاعاة احد من الناس كما جاء في أنساب الاشراف للبلاذري وشرح النهج للمعتزلي وغيرهما ، وافتتح عثمان بن عفان خلافته بارجاعه هو وأسرته الى المدينة فأثار ارجاعهم غضب المهاجرين والانصار لاسيما وان الشيخين من قبله لم يقبلا بهم شفاعاة احد كما نص على ذلك عبد الكريم الخطيب في كتابه علي ابن ابي طالب ، ولم يكتف ابن عفان بذلك بل ولئى الحكم الطريد الذي كان يؤذي رسول الله ويتجسس عليه، ولاه صدقات قضاعة قبلت ثلاثمائة الف درهم فوهبها له ولما توفي الحكم ضرب عليه عثمان فسقاطا فقتل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لولده مروان :

ان اللين أباك فارم عظامه ان ترم ترم مخلجا مجنونا
يضحي خيص البطن من عمل التقى ويظل من عمل القبيح بطينا

وقال المحدثون والمؤرخون كما جاء في شرح النهج وغيره : ان رسول
الله تصدق بموضع سوق في المدينة يعرف بنهرون على المسلمين فأقطعه
ابن عفان الى الحرث بن الحكم شقيق مروان ، وأقطع مروان بن الحكم
فدكا وكانت لقاطمة الزهراء (ع) وأخذت منها قسرا بعد وفاة ايها ، ولما
افتتح المسلمون أرمينية استولى ابن عفان على خمسها وأعطاه لمروان بن
الحكم طريد رسول الله ، فأرسل اليه عبد الرحمن بن جنيده الجهشي
أبياتا جاء فيها :

ولكن خلقت لنا فتنة لكي نبتلي بك او نبتلى
وأعطيت مروان نفس البلاد فهيات سعيك فيمن سعى

وجاء في مجاميع التاريخ انه كان للمدينة حمى مباح لجميع المسلمين
ترعى به مواشيهم وتركه النبي والخلفتان من بعده لجميع المسلمين عملا
بمبدأ المساواة وحرصا على الثروة الحيوانية التي يعود خيرها على
الجميع ، فأقدم الامويون على تصوينه واستغلاله لمواشيهم ومنعوا اهل
المدينة وغيرهم من الانتفاع به فأثار هذا الحادث غضب اهل المدينة وعلى
رأسهم عمار بن ياسر ، ورأى الناس في الحادث وان كان صغيرا بالنسبة
الى ما ارتكبوه من الفظائع ، رأوا فيه غزوا يهدد اموالهم وممتلكاتهم
وموارد الدولة بالاغتصاب والاحتكار لصالح تلك الطغمة من حاشيته
الخليفة ، ولم يخطئوا النظر ولا التقدير فخلال السنين الاولى مسن
استيلائهم على السلطة رأى المسلمون قصورا للخليفة في داخل المدينة
اشبه ما تكون بقصور كسرى وقيصر ، ورأوا لمروان الوزغ بن الوزغ

مثلها في ذي خشب تطل على سوق يضارب به عماله بما اختلسه من اموال المسلمين والفقراء والمجاهدين وبالإضافة الى ذلك الجواهر والحلي تتوهج في ضوء الشمس كالجمر المتقد ولكن على صدور بنات عثمان ونسائه ونساء الامويين لا في ساحة المسجد كما كانوا يرونها في عهد الخليفة الراحل حيث كان يضعها ويأمر خازنه بتوزيعها على الجميع حسب المقادير التي خصصها لكل فئة من الفئات ، وقد هالهم ان يروها بالامس القريب مبعثرة على رمال المسجد ليأخذ كل واحد من المسلمين نصيبه منها ، ويروها الان مجمدة في تجسيد هازيء مخيف في ايدي الاسرة الحاكمة وعلى صدور بناتهم ونساءهم يتباهون بها على نساء المسلمين والمجاهدين الذين غنوها بسيوفهم ودمائهم خلال معاركهم الضارية مع الفرس والرومان ، وأينما اتجه المسلمون في المدينة وخارجها خلال العهد العثماني كانوا يرون الحزب الاموي وحاشيته خارجا على تعاليم الاسلام وسيرة الرسول والشيخين من بعده .

لقد رأوا الكثير الكثير مما لم يعهدوه ولم يألوه ولم يستطيعوا السكوت عنه والصبر عليه ، لقد رأوا الخليفة يصدق في العطاء على اخيه من الرضاة عبد الله بن ابي سرح فأعطاه جميع ما افاء الله عليه من الغنائم حينما فتح المسلمون افريقيا في المغرب وهي المنطقة التي تعرف اليوم بالمغرب العربي ولم يشرك احدا معه في تلك الغنائم على حد تعبير المعتزلي في شرح النهج وغيره من المؤرخين ، وابن سرح هذا كان قد اسلم قبل ان يدخل النبي (ص) مكة فاتحا والتحق بالنبي في المدينة ، ونظرا لانه كان يحسن الكتابة فقد اتخذ النبي كاتباً لمدة من الزمن ، ثم ارتد عن الاسلام ورجع الى قومه في مكة وجعل يحدث قريشا بأشياء لا عين لها ولا اثر ويفتري على رسول الله ، ومما قاله لهم : ان رسول الله كان يملئ عليه من الوحي احيانا فاكتب ما يخالف قول الرسول ثم اعرضه عليه

فيقره الى غير ذلك من الافتراءات التي كان يتقرب بها من المشركين
فأنزل الله فيه كما جاء في انساب الاشراف .

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا وقال اوحى الي ولم يوح اليه
شيء ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات
الموت والملائكة باسطو ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب
الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .

ولما كان عام الفتح اهدر رسول الله (ص) دمه فيمن اهدر دماءهم من
المشركين والمتناقضين فتشفع فيه عثمان وألح على رسول الله في امره
والنبي ساكت لا يتكلم ولما ادناه من النبي صرف وجهه عنه وهو يأمل ان
يسرع احد المسلمين الى قتله ، ولما استمر ابن عفان في الحاحه لم يزد
رسول الله على قوله نعم ، ولما انصرف به عثمان قال النبي لمن كان حوله:
أما كان فيكم من يقوم الى هذا الكلب ويقتله ، فقالوا لو اومأت اليها
لفعلنا ، فقال اني لا اقتل بالاشارة .

ومع ان رسول الله (ص) قد وصفه بالعداء لله ورسوله وأمر بقتله
ولو كان متعلقا بأستار الكعبة فقد كان الخليفة يفتدق عليه العطاء وولاه
مصر من سنة ٢٥ الى سنة ٣٤ وخلال ولايته على مصر استغلها للاستئثار
بغيرات النيل وثروات العمال والفلاحين وموارد الدولة مما أثار غضب
الجباهير المصرية بقيادة محمد بن ابي حذيفة ففر منها الى عسقلان وأقام
فيها الى ان قتل عثمان .

ومضى ابن ابي الحديد خلال شرحه للخطبة المعروفة بالشفقة يقول:
لقد اعطى ابا سفيان بن حرب مائتي الف من بيت المال في اليوم الذي
أمر فيه لمروان بمائة الف بعد ان زوجه ابنته ام ابان ، وجاءه ابو موسى
بأموال كثيرة من خراج العراق فوزعها على الامويين كما اعطى مبلغا
كبيرا من المال للحارث بن الحكم بعد ان زوجه من ابنته عائشة .

ولما وجد زيد بن ارقم المسؤول عن بيت المال ان موارد الدولة جفها يذهب لحساب البيت الاموي جاءه بمفاتيح البيت ووضعها بين يديه وبكى فقال له : أتبكي لانني وصلت رحمي ، فقال له : والله لو اعطيت مروان ابن الحكم مائة درهم لكانت كثيرة عليه ، وبالإضافة الى كل ذلك فلقد كان مروان بن الحكم وأبوه واخوته في المدينة يأمرؤن وينهؤن وعنهم تصدر الاوامر والمراسيم للداخل والخارج ومعاوية يحكم بلاد الشام بلا حسيب او رقيب ، وابن ابي سرح الذي انزل فيه «ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا» على مصر، والوليد بن عقبة شقيق الخليفة لأمه على الكوفة، وقد تولاهما قبله جماعة من أجلاء الصحابة كعمار بن ياسر وابن مسعود وسلمان الفارسي وابن ابي وقاص وغيرهم ، فولاهما عثمان في مطلع خلافته لشقيقه الوليد الذي كان يعرف هو واخوته بصيبة النار ، لان النبي (ص) عندما أمر بقتل ايهم عقبة بعد معركة بدر قالوا له: من للصبيّة يا رسول الله ؟ فقال لهم : النار ، فسامهم المسلمون بعد ذلك (صبيّة النار) وعقبة والد الصبيّة كان جده ابن ابي عمرو عبداً لأمية بن عبد شمس وتبناه أمية ، وقد تزوج من اروي بنت كرز فأولدها عثمان وتزوجها من بعده عقبة فأولدها الوليد وخالد وعسارة وبنتا تدعى ام كلثوم ، فنشأ الوليد في أحضان عثمان ، وكان سكيراً فاجراً لا يصحو من السكر حتى في ايام ولايته على الكوفة ، وقد بلغ به الحال ان سهر ليلة مع قيانسه وندمائيه يشربون ويعبثون حتى الصباح ، وخرج من مجلس الشراب الى المسجد ليصلي بالناس كما كانت عادة الامراء فصلى صلاة الصبح اربع ركعات ، فأدرك المصلون انه فاقد لعقله وادراكه ، وراح ينظر بعضهم بعضاً ، فالتفت اليهم وقال : اذا شئتم زدكم ، وتوات جرائمه حتى ضجت الكوفة من سوء تصرفاته وتوافدت حشودها على الخليفة شاكية فلم يجد بدا من استدعائه اليه ، وما ان دخل المدينة حتى احتوشه

المسلمون من كل جانب وهم يطالبون باقامة الحد عليه . ولما اشتد اللفظ وتصادعت النقمة سمح لهم الخليفة بجلده وتحركت شفتاه بذلك وكأن احدا كان يقبض عليهم ولكن ملامح وجهه كانت تأبى عليهم ذلك فلم يجرؤ احد على القيام بهذه المهمة وراح كل واحد ينظر الى الآخر ، هذا والخليفة مطمئن الى انه سوف لا يجرؤ على القيام بهذا الواجب احد منهم وفاته ان عليا (ع) الذي لا يرهبه غضب الحاكمين ولا يهادن احدا على حساب الحق مهما بلغ شأنه ، وكان الفاسق الذي وصفه الله في كتابه بهذه الصفة كما تشير الى ذلك الآية التي نزلت على النبي فسي حادثة تتعلق بالوليد نفسه «ان جاءكم فاسق نبأ فتيبنوا ان تصيبيوا قوما بجهالة» لقد كان يراقب عليا الذي تولى قتل ابيه عقبة بن ابي معيط بعد معركة بدر ولا يخشى احدا سواه ، ولما أحس بأن عليا تحرك لاداء هذا الواجب بنفسه بعد ان تهيب الحضور ادائه قام يحاول الهرب وكأنه أحس بوقع السياط قبل ان تمس جسده فتناوله علي (ع) وجلد به الارض وانفالت سياطه عليه وظلت تتساقط وتهوي عليه حتى بلغت الثمانين فتركه عند ذلك يتلملل ويتلوى من ألما ، هذا والخليفة المسؤول الاول عن تنفيذ حكم القضاء في مرتكبي هذا النوع من الجرائم قد أربد وجهه واعتبر ذلك تحديا لخلافته فأدار وجهه نحو الجماهير المحتشدة فوجد بواذر الاغتيال والارتياح بادية على كل وجه ، ومع ذلك فلم يستطع ان يكتفم ما في نفسه من مرارة وألم ، فاحتج على علي (ع) مدعيا بأنه قد تجاوز العقوبة المفروضة لمثل هذه الجرائم ، لانه قد جلد به الارض ، ولكن احتجاجة لم يقابل بغير السخرية من الجميع .

وظلت الاحداث المخالفة لانظمة الاسلام ومبادئه تتوالى من جميع الاجهزة الحاكمة وتعرض فريق من أعيان الصحابة كعمار بن ياسر وعبد الله ابن مسعود وأبي ذر الغفاري وزيد بن ارقم ، وحتى عبد الرحمن بن عوف

الذي سلمه الخلافة كما ارادها له الخليفة الراحل هؤلاء وغيرهم من اعيان الصحابة تعرضوا لاقسى العقوبات وأسوأ المعاملات كما تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية التي احصت أحداث تلك الفترة من التاريخ . لقد تعرض أجلاء الصحابة المقربين من رسول الله (ص) لغضب عثمان وحاشيته والتكيل الوحشي بهم لا لشيء الا لانهم اتقدوا مساوىء العهد واسراف حواشيه في المنكرات والطفيان وامتدت ايديهم الى ابن مسعود وتعاقبت سياطهم عليه حتى كسروا ضلعا من أضلاعه وظل يضرب بين ايديهم حتى غاب عن الدنيا وحمل الى بيته وهو يصرع الموت ، فمنعوا الناس من الاتصال به وعيادته ، ولما أحس بدنو أجله اوصى عمارا بالصلاة عليه ودفنه حتى لا يحضره الخليفة أو احد من حواشيه ، ونفذ وصيته عمار بن ياسر كما اراد فصلى عليه ودفنه هو وجماعة من المهاجرين في جو هادىء بعيد عمن الخليفة وحواشيه .

كما تعرض ابو ذر الغفاري لاسوأ المعاملات ، واستمر في معارضة غير مبال بتهديد الخليفة ووعيده فنفاه الى الشام وأوكل امره الى معاوية وأمره بالشدة عليه والعنف في معاملته ولكن تهديدات معاوية لم ترهبه وظل يمارس نشاطه ضد الحكم الاموي المنحرف واختار معاوية فسي امره بعد ان وجد ان الشدة لا تشنيه ولا تحد من معارضته بل تزيده صلابة ، وقد هاله ان يزج به في سجنونه او يقتله لان ذلك لا يعصمه من نقمة المسلمين الذين سمعوا النبي اكثر من مرة يقول : ما احلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق لهجة من ابي ذر، وسمعه يقول له : يا ابا ذر تموت وحدك وتحشر وحدك وتدفن وحدك ويسعد بك قوم من اهل العراق يتولون غسلك ودفنك .

وحينما وجد ان لا سبيل لاسكات ابي ذر وتفاضيه عن جرائمهم الامويين كتب الى عثمان يستغيث به ليخلصه منه فكتب اليه ان يرده الى

المدينة على اخشن مركب ، وكان ذلك من أعز أمانيه فأرجعه كما يريد
 الخليفة ولم يصل اليها الا بعد ان اكلت الاقتاب لحم فخذيه وتكسرت
 عظام ظهره من العنف الذي استعمله معه مرافقوه ، وفي المدينة عرضه
 ابن عفان على الجلادين فأغمي عليه اكثر من مرة وسيطهم تتوالى على
 جسمه النحيل بدون شفقة او رحمة ، وأخيرا نفاه الى الربرة وترك امر
 اخراجه من مدينة الرسول لمروان بن الحكم الطريد بن الطريد ، ولم يجرؤ
 احد من المسلمين على وداعه خوفا من سياط الجلادين غير علي والحسن
 والحسين وعمار بن ياسر وودعه علي (ع) بكلمات هون عليه فيها ما يلقاه
 من القوم وسوء صنيعهم ، وبعد غياب ابي ذر عن المسرح بقي عمار بن
 ياسر على موقفه المتصلب من الخليفة وحاشيته واتفق هو وجماعة من
 المهاجرين والانصار على كتاب لعثمان يعددون فيه مساويء العهد وما
 تعانيه الامة من اسرته وحواشيه ، ويطلبون فيه ان يرجع الى الاسلام او
 سيرة سلفه على أقل تقدير او اغفاء الامة من يبعته التي ارهقت
 المسلمين وجرعتههم ألوانا من العنف والجور ، ولم يجرأ احد على حمل
 الكتاب للخليفة غيره ، وبعد حوار دار بينهما تدخل فيه مروان بن الحكم
 وقال لعثمان : الى متى تصبر على هذا العبد الاسود الذي جراً الناس
 عليك وحملهم على ما ترى ، فلو قتلته ارهبت من وراه وجعلته نكالا
 وعبرة لغيره من المتبردين عليك ، ومضى يشحنه عليه ويهون على الخليفة
 ما يخشاه من عواقب التشكيل به حتى استبد به الغضب واشترك هو
 وغلماؤه بجلده وظلت سياطهم تنهوى عليه حتى أصيب بفثق وأغمي عليه
 فحملوه وألقوا به في الطريق ، ولما اصبح الناس ووجدوا عمارا بتلك
 الحالة ارتفع الضجيج والصراخ فأطلت زوجة النبي (ص) أم سلمة من
 غرفتها المجاورة للطريق لترى اسباب الضجيج فوجدت عمارا مغشيا عليه
 فأسرت اليه وكلفت من يحمله الى غرفتها وهو في غيبوبة مطبقة فاتته خلالها

ثلاثة من فرائض اليومية ، ولما أفاق من غشيته وملك وعيه واستعاد شيئاً من نشاطه اسرع ليؤدي ما فاته من الفرائض ، وبعد ادائها جمل يستعيد ويردد ما لاقاه من ابي جهل وأبي سفيان وغيرهما من عتات قريش حين آمن برسالة محمد (ص) ، وقال لئن ضربت وعذبت اليوم على يد سليل أمية فلقد لقيت من أسلافه اذى كثيراً وعذاباً مرا يوم آمنت بمحمد ورسالته وأنا الان الاقي ما لاقيت من اجل رسالته وعند الله أحسب ما ألاقه من عثمان وحاشيته .

وظلت الاحداث تتوالى حتى بلغت النقرة في المدينة وخارجها من تلاعب الامويين وأحلافهم بأموال الامة ومقدرات الدولة واستهتارهم بالقيم والمقدسات اقصى حدودها ، وبخاصة بعد ان امتدت الايدي الائمة الى اعيان الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم ممن بلغوا القمة في جهادهم وتضحياتهم في سبيل الاسلام وخير المسلمين ، ولم يعد صبر المسلمين في المدينة وخارجها يتسع لما حدث ولما كانوا ينتظرون حدوثه من الخليفة وحواشيه بعد مواقفهم المستهترة الساخرة وعدم الاعتداد والتقدير لما بذله علي (ع) وظل يبذله حتى اللحظات الاخيرة من النصائح والارشادات للخليفة وحزبه ليرجعوا لرشدهم وينظروا الى الموقف المتفجر من زاوية العقل ومصلحة الاسلام قبل فوات الاوان ، وعشاً كان يحاول ويكرر المحاولة بين جميع الاطراف المعنية بالامر كالبريد الساعي ، فبا كان يتبناه من مطالب الثوار العادلة كان اذا وافق عليها الخليفة ترفضه حاشيته وتعمل بتوجيهات الوزغ بن الوزغ على تأزم الموقف واتهى الصراع القائم بين المهاجرين والانصار ووفود الامصار من جهة وبين عثمان بن عفان وحزبه الاموي بمصر الخليفة الذي خذله عامله القوي من اسرته معاوية بن ابي سفيان عن قصد متعمد بعد ان استنجد به اكثر من مرة وكأنه كان مطمئناً لاتتقال الدولة

اليه اذا اتخذ من دم عثمان سببا لذلك كما فعل ، وانهى بمصرعه عهد
ثلاثة ممن يسمونهم بالراشدين .

وجاء دور الخليفة الرابع صاحبها الشرعي الذي اتفق عليه المهاجرون
والانصار بالاضافة الى تلك الحشود الهائلة التي زحفت على المدينة معلنة
عن سخطها على الحزب الحاكم ، وقد حاول علي (ع) ان يتهرب ، ولكن
محاولاته اصطدمت باجماع جميع الفئات الذين انهالوا عليه من كل جانب
 واجتمعوا حوله كرياضة الغنم على حد وصفه لموقف المسلمين على اختلاف
فئاتهم وطبقاتهم من خلافته كما جاء في خطبته المعروفة بالمشقة ، ذلك
الاتفاق الذي يعبر عن اجماع الامة بما لهذه الكلمة من المعنى الذي يتسع
لجميع أفراد الامة او لأكبر عدد منها كما اشارت الى ذلك اكثر النصوص
التاريخية التي وصفت موقف المسلمين منه يومذاك .

وجاء في انساب الاشراف للبلاذري ان عليا (ع) قد لزم منزله بعد
ان يس من اصلاح الامر بين الفريقين فلما قتل عثمان وفرغ الناس من
امره جاؤوا كلهم الى علي يهرعون ويقولون : اميرنا علي بن ابي طالب
فدخلوا عليه الدار وقالوا : امدد يدك حتى نبايعك ، فقال : ليس ذلك
لكم وانما هو لاهل بدر فمن اختاره البديرون فهو الخليفة ، فلم يبق احد
من البديريين الا اتاه وهم يقولون : لا نرى احدا أحق بها منك .

ووصف الطبري موقف المسلمين من خلافته كما جاء في الجزء
الخامس من تاريخه بما حاصله ان عليا (ع) بقي مصرا على رفضها
والناس محدقون بداره ويتوسلون اليه بالاشتر النخعي وغيره من أعيان
المسلمين الذين خوفوه من وقوع الفتنة اذا بقي مصرا على رفضها وبعد
حوار طويل بينهما وافق عليها بحضور جميع الطبقات والفئات ثم دخل
المسجد والناس محدقون به فأول من بايعه وجوه الناس من الصحابة
وغيرهم بما فيهم طلحة والزبير واثال عليه الناس من كل جانب .

كما وصف ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة وغيره ممن تحدثوا عن أحداث تلك الفترة موقف المسلمين من خلافته بمثل ذلك ، وأضاف ابن قتيبة الى ما تقدم بروايته عن ابي ثور انه حاول ان يتهرب من الناس فدخل حائطاً من حيطان بني مازن فلحقوا به وألجأوه الى نخلة وأخذوا ذراعه وجعلت الايدي تختلف عليها وما زالوا يتدافعون عليه حتى ادخلوه الجامع فبايعه طلحة والزبير وأصحاب النبي وجميع من في المدينة من المسلمين ، وكانت تفص بالجماهير التي زحفت عليها من مختلف العواصم والمقاطعات الاسلامية لانقاذ العباد من الحزب الحاكم .

ومهما كان الحال فالذي تؤكد المصادر الموثوقة ان المدينة بقيت بعد مصرع عثمان بن عفان خمسة ايام بدون خليفة وفي عهدة الفاطمي بن حرب زعيم الثوار المصريين ، والمسلمون بكل فئاتهم متفقون عليه ولا رأي لهم في غيره ، وخلال تلك الفترة كان يتهرب منهم ويفضل ان تؤول الى غيره حتى آل امره ان التجأ الى البساتين واعتصم بها وكانوا يلاحقونه أينما ذهب ، وبعد الالحاح الشديد عليه من عامة الصحابة والثوار والخوف على مصير الاسلام ان هو ظل مصراً على رفضها ، لم يجد بدا من قبولها ، ولم يتخلف عن بيعته سوى معاوية بالشام ونفر من الامويين وأحلافهم لا يتجاوزون عدد الاصابع قد استغفوه من البيعة فتركهم وشأنهم ، وأحس المسلمون في المدينة وخارجها بالانفراج وباتوا يتطلعون الى غد مشرق ومجتمع افضل ينعم بالحرية وسيادة الحق والعدالة .

وانصرف علي (ع) بكل طاقاته وامكانياته منذ الايام الاولى لخلافته يضع الخطط لاصلاح ما افسدته بطانة عثمان في جميع شؤون الدولة وأجهزتها وكانت الاولويات تستأثر بامكانياته وطاقاته ومن بينها مشكلة الولاية والسياسة الاقتصادية التي كانت متبعة قبله وأثارت غضب الجماهير في الحجاز وخارجه ، والتي استجاب واضعوها لمصالحهم وعواطفهم

وعنصرياتهم لا لمبادئ الاسلام وسماحته ، ووقف بين تلك الجماهير المتنفة حوله ليعلم على الملا تلك الخطوط العريضة لسياسته فقال : ألا وان كل قطعة أقطعها عثمان بن عفان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود الى بيت المال ، فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملكت به الإمام وفرق في البلدان لردته الى اهله ، وأيما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده فأتم جميعا عباد الله والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لاحد على احد الى غير ذلك ممن يانه التاريخي الذي وضع فيه جميع الفئات بما فيهم الموالي والعبيد في مستوى من كانوا يتمتعون بالامتيازات السياسية والاقتصادية على حساب غيرهم من الطبقات الكادحة والمستضعفين .

وعز على جماعة من المهاجرين والانصار ان يكونوا كغيرهم ممن سائر الطبقات وان تصدر ممتلكاتهم لصالح الدولة وبخاصة طلحة والزبير اللذين كانا يملكان ما تقدر قيمته بملايين الدنانير كما تؤكد ذلك جميع المصادر التاريخية وكانا بالاضافة الى أطماعهما الاقتصادية يطعمان في هذا العهد الجديد في ولاية مصرين البصرة والكوفة ، وحينما طلبا منه ذلك اجابهما برفق ولين : احب ان تكونا معي أتجمل بكما وأستأنس برأيكما، لان أطماعهما التي كانت تتسع لطلب الخلافة لم تكن لتخفى عليه وقد عرفهما صغيرين وكبيرين ، وبالرغم من ان ابن عفان كان يفتق عليهما العطاء فقد رآهما بالامس القريب يحرضان على قتله لا غضبا لله ولا حرصا على مصلحة الاسلام بل طمعا في السلطة من بعده ، اما وقد سمعا بيانه ورفض ان يجعل لهما ميزة على غيرهما وحتى في العطاء الذي سوف لا ينالان منه الا الشيء الهزيل اليسير ، هذا بالاضافة الى الاقامة الجبرية التي لوح في فرضها عليهما وعلى غيرهما من ذوي الاطماع ومطالب الجاه.

لقد أيقنا انهما لن يحققا شيئا من امانيهما ما داموا خاضعين لحكمه منضمين الى لوائه ، وما عليهما بعد ان تسرب اليأس الى نفسيهما الا ان ينضما الى الحزب الاموي المعارض ، وقد بدأ معاوية يغازلها منذ الايام الاولى لمصرع الخليفة الراحل ويعددها بالاموال وبكل انواع الدعم ان استمرا في معارضتهما لعلي بن ابي طالب واتمام البيعة لهما بالشام .

وجاء في كتاب كتبه الى الزبير بن العوام كما في رواية شرح النهج جاء فيه لعبد الله امير المؤمنين الزبير بن العوام من معاوية بن ابي سفيان لقد بايعت لك اهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب فدونك الكوفة والبصرة قبل ان يسبقك اليهما ابن ابي طالب وبايعت لطلحة من بعدك واستمر يشحنهما بوعوده ومغرياته ويضعهما في جو الخلافة وكأنها سهلة المنال لكل طامع فصمما على الثورة والتباعد عن الخلافة الشرعية الذي بايعاه بالامس طائعين غير مكرهين واستغلا عداة عائشة لعلي (ع) المتحكم في نفسها منذ الايام الاولى لزواجها من النبي (ص) ، وقد بلغ من عداتها له ان فقدت وعيها وخرجت عن المألوف حينما بلغها ان المسلمين قد اجتمعوا على علي (ع) وأصبح قريبها طلحة صفر اليدين منها وقالت ساعة بلغها امر الخلافة : ليت هذه اطبقت على هذه ، لقد قتل عثمان مظلوما ، وقبل قتله بأيام قلائل كانت من اكثر المسلمين عداة له وتحريضا على قتله وتسميه باسم يهودي قدر خسيس كان يسكن المدينة وتقولوا نعتلا فقد كفر وتعني عثمان بهذا الاسم الى كثير من موافقها المعادية له ولما بلغها مصير الخلافة راحت تندبسه وتبكيه وأخيرا ترجلت واشتركت مع الظالمين والمفسدين في حرب امير المؤمنين فأركبوها جبلا حملوها عليه الى البصرة ، وراحوا يعيشون في الارض فسادا ويقتلون الابرياء والصلحاء من عباد الله ، فاضطرب الامام (ع) للخروج في اثرهم قبل ان يستفحل خطرهم وكانوا قد دخلوها

من قبله واستولوا على بيت المال بعد ان قتلوا حراسه وجماعة من أنصار الامام ، وبعد وصوله الى البصرة ومحاولاته الكثيرة بارجاعهم الى رشدهم وانضمامهم الى عامة المسلمين التي باءت بالفشل لم يجد سبيلا سوى مقابلة تلك الطغمة بالمثل وكانت المعركة الحاسمة المعروفة بمعركة الجمل حيث نسبت الى جمل كانت تركبه عائشة في وسط المعركة والمقاتلون من أنصارها محدقون بها ، ولم تنته المعارك الضارية بين الطرفين الا بعد ان أصيب الجمل وسقطت عائشة مع هودجها في ارض المعركة وتفرق عنها من بقي حيا من أنصارها بعد مصرع طلحة والزبير ، وبدلا من ان يقف منها ومن الذين غرروا بها الى هذا المصير السيء موقف المنتصر الذي تأخذه نشوة النصر على اعدائهم ، وقف موقف الحزين الكئيب لانه لم يكن يتمنى لهم هذا المصير السيء الذي لا يتمناه لاحد ، وأرسل الى صاحبة الجمل اخاها محمد بن ابي بكر ليتولى رعايتها حتى لا تمتد اليها أيدي الذين وترتهم حربها باخوانهم وعشائهم . واتجه بعد معركة الجمل الى حرب معاوية الذي استغل مصرع قريه عثمان بن عفان وراح يطالب بدمه وبالثأر له في حين انه قد خذله في اخرج ساعات المحنة وهو يستغيث به ويستنصره على الثائرين من داخل المدينة وخارجها .

لقد اتجه علي (ع) الى حربه بعد تبادل الرسل والرسائل بينهما يدعوه فيها الى الدخول فيما اجتمع عليه المسلمون ، ومعاوية يتمحل في اجوبته ويتذرع بدم عثمان وهو يعلم ان عليا بريء منه براءة الذئب من دم يوسف ، وبعد حوار عن طريق الرسل والرسائل دام اشهررا وبعد ان تكشف نوايا ابن هند للملا على واقعه اضطر الى قتاله في المكس المعروف بصفين ، وجرت بين الجيشين معارك ربما تكون من اشرس المعارك وأشدّها ضراوة كادت ان تلحق الهزيمة بمعاوية وجنده لولا ان ابن العاص اشار عليه برفع المصاحف والدعوة الى الاحتكام اليها ، فأدرك

الامام (ع) اهداف هذه العملية وما يكمن وراءها من الغايات الدنيئة الميئة .

وكان من الطبيعي ان يرفضها لاهل العراق ما تنطوي عليه ، ولكن اكثر القادة في جيشه المشتركين في وضعها رفضوا الانصياع لاوامره فاضطر الى قبول التحكيم بعد ان وجد ان المضي في القتال لم يعد لصالحه ، وكانت الهدنة التي انتهت بالتحكيم نتيجة لمؤامرة واسعة بالاشتراك مع الاشعث بن قيس وجماعة من قادة الجيش ورؤساء القبائل نتج عنها ان تترد جماعة من الجيش وراحوا يمشون ويفسدون حتى اضطروه الى قتالهم والقضاء عليهم في مكان يعرف بالنهروان ولم يفلت منهم سوى نفر قليل كانوا النواة الاولى لمن يسمونهم بالخوارج الذين نشطوا فيما بعد وأقضوا مضاجع الامويين والحاكمين قرابة قرن من الزمن ، وبعد القضاء على المنشقين عن جيشه في النهروان رجع الى الكوفة وعلامات التفكك والتخاذل بادية على اهل الكوفة، فاستغل معاوية ذلك ونشط أتباعه في التحرش بالحدود المراقية وبالمناطق الاخرى الموالية للحكومة الشرعية في بقية المقاطعات حتى بلغت الحجاز واليمن وقتلوا الارباء من الاطفال والشيوخ واعتدوا على الممتلكات والاموال فضج الناس من جرائمهم واستغاثوا بأمر المؤمنين (ع) فاستنفر الناس وحرضهم على الدفاع عن حدودهم والخروج لحرب معاوية بن هند ، وفيما هو يعد العدة لهذه الغاية ، واذا به يخر صريعا في محراب مسجد الكوفة في فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان بالذات سنة احدى وأربعين للهجرة بسيف عبد الرحمن بن ملجم المرادي تنفيذا لمؤامرة اتفق عليها معاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة مع جماعة من رؤساء العشائر وقادة الجيش في الكوفة أغراهم معاوية بالاموال كما اثبتنا ذلك في كتابنا سيرة الأئمة الاثني عشر .

وطويت بمصرعه صفحة نقية بيضاء من ابرز صحائف الاسلام العظمى
يتمد جوهرها الى كافة الابعاد الانسانية وتمثل اضخم طاقة من طاقات
الفكر الاسلامي والاخلاق والمبادئ الاسلامية تاركا للتاريخ وللعالَم
دروسا في المعرفة والاخلاق والعدالة وفي جميع الميادين الانسانية
والاسلامية والفكرية لا تزال عباقرة العصور تستلهم منها الكثير من
غوامض الحياة وأسرار الكون •

كما انطوى بقتله عهد الخليفة الاول من الخلفاء الاثني عشر الذين
اختارهم الرسول الاعظم بأمر من الله لقيادة الامة من بعده ، ولو قدر
للأمة ان تنفذ فيهم امر الله ورسوله وتختارهم لقيادتها لوجد المسلمون
في قيادتهم ضمانا لحياة اسلامية سعيدة ما عرف تاريخ البشرية أسعد منها
وظهر وجه الاسلام للعالم على واقعه المشرق الذي يستولي على العقول
النيرة والقلوب الصافية ويشدها الى انظمته ومبادئه وتعاليمه السحاء ،
وبدلا من ذلك فقد انتقلت الخلافة وقيادة الامة الى الامويين اعداء
الاسلام اولاد ابي سفيان وأحفاده وأحفاد الوزغ الحكم طريد رسول الله
يتوارثونها خلفا عن سلف كما يتوارثون متروكات آبائهم وممتلكاتهم ،
وراحوا يعملون باسم الاسلام لاعادة الوثنية والجاهلية بكل أشكالها في
شرق الارض وغربها وتركوا وراءهم وبخاسة في الاندلس وجهاتها صورا
من حكمهم باسم الاسلام لعلها من اقبح ما عرفته البشرية في تاريخ
الحاكمين وانقرضت دولتهم بعد ستة قرون او أكثر على تأسيسها ففي
المغرب وتلك البلاد لا تعرف صورة للاسلام غير الصورة التي تراءت لها
من خلال حكم الامويين وسيرتهم ، ولو انهم اعطوا العالم ولو مسورا
محدودة عن الاسلام وتعاليمه وسماحته لكان الاسلام كغيره في الغرب
ان لم يكن أكثر انتشارا وشيوعا •

ومهما كان الحال فلقد قدمت للقراء بهذا العرض الموجز صورة عن

الخلافة الإسلامية في المرحلة الأولى من مراحلها كما وصفتها المراجع
المعتمدة في تاريخ السلف وآثارهم بقصد المقارنة بين الواقع الذي سارت
عليه الخلافة وبين الصورة التي وضعوها للخلافة الإسلامية في عصر
الصراع العقائدي والمذهبي لإضفاء الشرعية على خلافة الثلاثة الذين
تعاقبوا على الحكم بعد وفاة الرسول (ص) •

شروط الخلافة في المذاهب الإسلامية

ومجمل ما قيل حولها كما جاء في المذاهب الإسلامية لابي زهرة وغيره، هو ان جمهور اهل السنة بعد ان اتفقوا على وجوبها على الامة واختلفوا فيما تعنيه كلمة الامة، أجمعها ام اهل الحل والعقد منها او غيرها ؟ بعد ان اختلفوا في ذلك اتفقوا على ان الخليفة لا بد وأن تتوفر فيه اربعة شروط لتكون امامته خلافة نبوية ولا تكون ملكا عضوضا ، القرشية والبيعة العامة والشورى والعدالة ، واستدلوا للشروط الاول بما رواه الشيخان ابو بكر وعمر في سقيفة بني ساعدة حينما ادعاهما الانصار لانفسهم في مقابل الحزب القرشي الذي رشح لها ابا بكر فنسبا له انه قال : الخلافة في قريش وأضافا الى ذلك انه كان يقول : لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي في الناس اثنان ، والناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم ، وجاء في رواية البخاري عن معاوية بن هند انه سمع النبي (ص) يقول : ان هذا الامر في قريش لا يعاديهم احد الا آكبه الله على وجهه ما اقاموا الدين ، وروى الشيخان هذه الرواية بعد ان اخرجهما الانصار وكثر اللفظ والتهريج بعد ما نسبوا الى النبي ذلك استغل الموقف عمر بن الخطاب وصفق هو وأبو عبيدة على

يد ابي بكر وساد الموقف جو من الفوضى وهتف جماعة من العامة باسم ابي بكر على سبيل المحاكاة التي تندفع الجماهير في مثلها غالبا، والباقون من ذوي الرأي والفكر لم يجدوا مجالا للتعبير عن آرائهم في تلك البيعة التي تمت على هذا النحو الذي لا يخفي ما وراءه من التخطيط لها منذ زمن لعله يعود الى ما قبل وفاة النبي (ص) .

وأغرب ما في الامر ان الذين استطاعوا الهيمنة على الانصار بما رووه عن النبي (ص) من انه نص على ان الخلافة للقرشيين مع انهم كانوا يدعون ان امرها لا يعود للنبي وقد رحل عن هذه الدنيا وترك للأمة ان تختار لنفسها من تراه لم يجدوا سبيلا للاستيلاء عليها الا بهذا النص الذي يجسد الروح القبلية التي حاربها الاسلام بكل الوسائل ورجعوا الى النص الذي انكروه على اهل بيته ولكن بهذا الشكل المشين .

ويبدو ان الحزب القرشي قد اضطره الانصار لان ينسب الى الرسول هذه المقالة كما اضطر الخوارج معاوية لان ينسبها الى الرسول بتلك الصيغة التي تهدد وتتوعد غير القرشيين ان تعرضوا لها لان الخوارج كانوا يرونها من الحقوق المشروعة لكل مسلم عريبا كان او من الموالي ، وقد تعرضنا لهذه الرواية في اوائل هذا الفصل وقلنا بأن الصيغة التي وردت على لسان الشيخين على تقدير صدورهما من النبي (ص) جاءت لتأكيد ما تواتر عنه من ان خلفاء اثنا عشر وانهم من ولد علي وفاطمة ، كما يجوز ان تكون على تقدير صدورهما منه اخبارا عما وقع في المستقبل من استيلاء الامويين والعباسيين عليها كما أخبر عن غيرها من الاحداث بما في ذلك ارتداد اصحابه من بعده وليست في معرض الجعل والتأكيد على انها من حقوقهم التي لا يجوز الاعتداء عليها والتفريط بها كما حاول الشيخان التمويه على الجماهير بذلك .

اما الصيغة التي رواها البخاري عن معاوية بن ابي سفيان الذي كان

يتحدث بها في مقابل الخوارج الذين كانوا يرونها من الحقوق السائفة لكل من تتوفر فيه المؤهلات لإدارة شؤون الأمة حتى ولو لم يكن عربيا فلا سبيل الى افتراض صحتها وصدورها من النبي (ص) بعد اشتغالها على تلك الفقرة «لا يعاديهم احد الا آكبه على وجهه في النار» .

وقد ذكرنا ان الشيعة يدعونها لعلي والأئمة من بنيه (ع) ولا يدعون ذلك على اساس قرشيتهم او قرابتهم القريبة من الرسول اللذين يرجعان الى تحكيم النظام القبلي الذي حاربه بكل الوسائل ولا على اساس بنوتهم له والعمل بمبدأ الوراثية بل على اساس الجعل الالهي الذي بلغه النبي الى الأمة بأمر من ربه كما بلغها غيره من التشريعات والفرائض والسنن وغير ذلك مما يتعلق بشؤون الدين والدنيا لذلك كان التشيع لعلي بمعنى الالتزام بامامته وخلافته من بعده اصيلا اصالة غيره من التشريعات وجزءا من الاسلام وكانت خلافة غيره وما تشعب عنها من الاحداث الطارئة التي فرضتها الاهواء والاطماع والخروج عما خطط له الرسول وظل يؤكد منذ ارسله الله الى ان فارق الدنيا كما تؤكد ذلك اكثر مجاميع الحديث والتاريخ . وما ادري كيف جوز هؤلاء ان يذهب النبي الى مثواه الاخير بدون ان يستخلف من يقوم مقامه ليتابع مسيرته مع انه كان يرى الاخطار محدقة برسائلته من الداخل والخارج والوصي يحذره منهم وينسذره بارتدادهم من بعده كما نصت على ذلك الآية .

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . وهل يجوز عليه مع ذلك ان يتركها مشاعة لذوي الاطماع والاهواء وشياطين بني أمية بدون وصي امين يتمتع بنفس الخصال والمزايا التي كان يتمتع بها النبي حتى لا تتعرض للتلاعب والتشويه من اعدائها الألسداء الذين انضموا الى المسلمين خوفا وطمعا من غير ان يخالط الاسلام

نفوسهم وقلوبهم ، هذا بالإضافة الى ان أعتى الدول وأقواها يومذاك كانت ترابط على حدود الحجاز وتنتظر الوقت المناسب لغزو المسلمين في ديارهم وأوطانهم قبل ان يتحركوا برسالتهم الى ما وراء حدود بلادهم وقد حاولوا ذلك أكثر من مرة في حياة الرسول (ص) وكانت غزوته التي جمع فيها اكبر عدد من المسلمين لتبوك ردا على بعض تلك المحاولات كما تؤكد ذلك اكثر المصادر التي تحدثت عن سيرته ، وفيها قد استخلف عليا على المدينة ، وعز عليه ان تفوته غزوة على رأسها النبي لمقابلة دولة من اكبر الدول يوم ذاك وأغناها بالعدد والمتاد ، وقد وضع علي (ع) فسي حسابه ان النبي (ص) سيكون مستهدفا اذا حصل صدام بين الطرفين وليس باستطاعة احد ان يقوم بدوره ويفديه بنفسه كما كان يصنع هو في معارك النبي مع العرب وقريش في بدر وأحد والاحزاب وحنين وغير ذلك من معارك الاسلام مع الشرك والوثنية ، ومع انه (ع) كان يتملل بين يدي النبي (ص) ليكون معه في تلك الغزوة فقد أصر النبي على بقاءه في المدينة وقال له : أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى ولا ينبغي ان أذهب الا وأنت خليفتي كما جاء في مسند احمد بن حنبل وسنن النسائي وفي الموافقات للحافظ الدمشقي ومجمع الزوائد للهيتمي وغير ذلك من المصادر التي اشتملت على هذا النص .

ومن كان يرى ان الاخطار المحدقة برسالته لا تسمح له ان يتغيب عن عاصمته لايام معدودات بدون ان يستخلف عليها من يقوم مقامه ويتابع مسيرته فكيف جوز عليه هؤلاء ان يرحل عن دنياهم ويتركها لذوي الاطماع والاهواء ولا يختار لها من يحميها من التحريف والتخريب والتشويه او يجعلها من الحقوق المشاعة لجميع القرشيين بما فيهم مروان ابن الحكم ومعاوية بن ابي سفيان وأمثالهما من شياطين بني أمية .

الشرط الثاني من الشروط الاربعة البيعة العامة من أولي العسل

والعقد وذوي الرأي ، اي ان اهل الحل والعقد والجنود وجماهير المسلمين يعطون الخليفة عهدا على السمع والطاعة راضين غير مكرهين وهو بدوره يعاهدهم على اقامة الحدود والفرائض واحقاق الحق والقيام بمصالحهم في مقابل طاعتهم والزامهم بكل ما تفرضه مصلحة الدولة ، وأضاف الى ذلك الشيخ ابو زهرة في الجزء الاول من كتابه تاريخ المذاهب الاسلامية : ان علماء المسلمين في ظل الفترة الاسلامية المستقيمة والنظم الاسلامية المقررة في الاسلام قد انتهوا الى هذا العقد وجعلوه واقعة عملية ولم يكن فرضا مفروضا ، ومضى يقول في صفحة ٩٧ : ان المسلمين تتابعوا على بيعه ابي بكر عندما قال له عمر بن الخطاب فسي السقيفة : امدد يدك ابايعك وكان الامر كذلك عندما عهد ابو بكر من بعده لعمر بن الخطاب وأخذ البيعة له وتتابع الناس على بيعته ، وكذلك كان الحال عندما اختار الستة عثمان بن عفان ، وأضاف ان بيعتهم كانت تقوم على الرأي الحر والتزام الطاعة اختيارا الى غير ذلك مما جاء في مؤلفات السنة عن الخلافة الاسلامية لاعطائها الصفة الشرعية في مقابل الشيعة الذين ذهبوا الى انها لا تكون الا بالنص عليها من الله ، لان الخليفة كالنبي يجب ان تتوفر فيه كل صفاته ومميزاته ، والذي يرسل النبي ويحمله تلك المسؤولية الكبرى التي تقرر مصير الانسانية بأسرها هو الذي يختار لها من يتابع المسيرة بها بعد تكاملها بواسطة الرسول (ص) .

ولو افترضنا ان خلافة الثلاثة الذين تقمصوها بعد النبي على التوالي وقعت على النحو الذي اشترطوه للخلافة في العصور المتأخرة بعد مضي اكثر من مائة عام على وفاة النبي (ص) لو افترضنا انها قامت بالاختيار الذي يمثل الرأي الحر والرضا من الجميع او من ذوي الرأي والفكر والحل والعقد وبعد افتراض ان النبي (ص) قد رحل عن هذه الدنيا وترك

للمسلمين حرية الرأي في اختيار من يتولاها ويتابع المسيرة بالرسالة في انحاء الدنيا، لو افترضنا ان النبي لم يعين خليفته من بعده وان الأمة قد التزمت طريق الاختيار والانتخاب القائمين على الرضا وحرية الرأي وانها تمت بناء لرغبة الاكثرية المطلقة لكانت خلافة الثلاثة شرعية ولا سبيل للاعتراض عليها، ولكن ذلك مجرد افتراض بعيد عن الواقع بعد السماء عن الارض والحق عن الباطل بشهادة التاريخ الذي احصى أحداث تلك الفترة من حياة المسلمين وتحدث عن خلافة ابي بكر والاسلوب المرتجل الذي تمت عليه ولم يكن نتيجة لتحصيل الآراء ولا لاستفتاء شعبي ضم اكثر الفئات الشعبية وذوي الرأي والبصيرة في الدين ، لقد تمت والنبي لا يزال مسجى في يته بين اهله، وفريق من الصحابة من مهاجرين وأنصار كانت وفاته قد اذهلتهم عن كل شيء وانصرفوا الى تجهيزه الى مقبره الاخير لا يعرفون شيئا مما كان يجري حول خليفته من مقررات وتدابير، ولانها لم تقم على أسس ديمقراطية صحيحة ولم تكن نتيجة لتحصيل الآراء والافكار ولا لاستفتاء شعبي ، ورافقتها مع ذلك موجة من الارهاب والتضليل كما تحدثنا عنها في الفصول الاولى من هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا ، ولانها كانت على هذا النحو قال عنها عمر بن الخطاب الذي كان من ابرز العاملين من اجلها ، قال عنها بعد ان انتهت الخلافة اليه كما نص على ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج وغيره من المؤرخين : كانت بيعة ابي بكر فلتة وفى الله المسلمين شرها وأقل ما تعنيه كلمة الفلتة انها كانت مرتجلة وفي غير محلها .

وبعد الدراسة الواعية لظروفها وملابساتها قال عنها الاستاذ علي عبد الرزاق في كتابه الخلافة وأصول الحكم : واذا رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية عليها كل طوابع الدولة الجديدة المحدثه وانها قامت كما تقوم الحكومات الجديدة على

اساس القوة والسيف .

وقد تنبه جماعة من المؤلفين الى النتائج المترتبة على اعتبار هذا الشرط ، وأدركوا ان اعتباره لاجل تصحيح خلافة الثلاثة يؤدي الى عدم هذه النتيجة لعدم توفر هذا الشرط في خلافتهم كما تؤكد ذلك الارقام التاريخية التي لا يمكن تجاهلها او التهرب منها ، ومن هؤلاء الايجي في مواقفه حيث قال : ان اجماع اهل الحل والعقد على الخليفة لم يقم عليه دليل من العقل او السمع بل يكفي في صحة الخلافة وانعقادها الواحد والاثنان لعلنا بأن الصحابة مع صلابتهم في الدين قد اكتفوا بذلك فقد عقدها ابو بكر لعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان، ولم يشترطوا اجماع من في المدينة ولا غيرها ^(١) .

كما جاء في المذاهب لابي زهرة وغيره ، ويعنون بها ان خلافته لا تكون شرعية وناقذة الا اذا كان اختياره ناتجا عن تمحيص الآراء بنحو لا تستقل باختياره فئة دون اخرى ولا فرد او افراد دون غيرهم ، واستدلوا على ذلك بالآية «وشاورهم في الامر» وبالاية الثانية «وأمرهم شورى بينهم»، وبأن النبي كان يستشير اصحابه احيانا في بعض الامور التي لا وحي فيها ، واذا كان الحكم الاسلامي يقوم على اساس الشورى فاختيار الحاكم لا بد. وأن يكون بعد التشاور وتمحيص الآراء اذ لا يمكن ان يكون الحكم عن طريق الشورى والخليفة مفروضا بحكم الوراثة على حد تعبير الشيخ ابو زهرة في صفحة ٩٩ من كتابه تاريخ المذاهب الاسلامية ، وأضاف الى ذلك ان عمر بن الخطاب قال : من بايع رجلا بغير مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه ، ومضى يقول : ان القرآن قد امر بالشورى وألزمها السنة ولكن لم يبين طريقة الشورى ولا اهلها وترك للناس

١ - انظر صفحة ٣٥٣ من المواقف .

تنظيمها وتمرف طريقها. واستطرد يقول: ان المسلمين في اختيار خلفائهم استعملوا ثلاثة طرق من طرق الشورى .

الاول الاختيار الحر بدون عهد من احد ، ويتمثل ذلك في اختيارهم لابي بكر بعد النبي (ص) مباشرة . الثاني ان يعهد الخليفة لشخص لم تكن بينه وبينه قرابة ويتمثل ذلك في اختيار ابي بكر لعمر بن الخطاب ، فقد كان عهده اليه بمثابة اقتراح منه لم يكن الدافع اليه نسب او سبب بل الاخلاص لدينه وللمؤمنين ، وقد بايعه المؤمنون طائعين مختارين .

الثالث من طرق الشورى ان يعهد الخليفة لواحد من ثلاثة او اكثر يعدون افضل القوم ويتمثل ذلك على حد تعبير الشيخ ابو زهرة فيما فعله ابن الخطاب حيث جعلها في ستة من المسلمين يختارون واحدا منهم وقد اختاروا لها عثمان بن عفان ، ونقل عن ابن حزم انه قال : ان هذه الطرق الثلاثة هي التي ينحصر فيها طريق اختيار الخليفة ولا يجوز لاحد ان يتدع طرقا غيرها لانه يكون خروجا على اجماع الصحابة (١) .

والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب ان الذين وضعوا شروط الخلافة الاسلامية في عصور الصراع العقائدي واعتبروا الشورى من الشروط الاساسية وفسروها بالرجوع الى اهل الحل والعقد وذوي الرأي والفكر ليختاروا لانفسهم من يرونه صالحا لها بعد التداول وتمحيص الآراء بنحو لا تستقل بالامرفة دون اخرى واستدلوا لها بمقالة عمر بن الخطاب التي تتضمن عدم شرعية البيعة اذا لم تكن برأي المسلمين وموافقتهم وبعد ان فسروها بما ينسجم ومعناها ذلك المعنى الذي يعرض شرعية الخلافة الاسلامية في مراحلها الاولى للانبياء لان المعارضين لخلافتهم من ذوي الرأي والفكر ووجوه الصحابة كانوا اكثر من الراضين

بها والمقتنعين بجدواها • هذا بالإضافة الى ما كان يرافق استيلاءهم عليها من الاساليب التي لا تخفي ما وراءها من تخطيط مدروس للوصول اليها سواء رضي المسلمون ام كرهوا ، ويدل على ذلك ما رواه في شرح النهج خلال وصفه للكيفية التي تمت عليها خلافة ابي بكر فقد جاء في روايته انه بينما الناس خارج السقيفة واذا بأبي بكر ومعه ابن الخطاب وأبو عبيدة وجماعة من اصحاب السقيفة معتمرون بالازر لا يبرون بأحد الا خطبوه وقدموا يده ومسحوها على يد ابي بكر ليبايعه شاء ذلك ام ابي ، كما لم يحدث التاريخ بأن ابا بكر قد استشار احدا في اعطائها لعمر بن الخطاب، والذين اطلعوا على ما كان قد صمم عليه قد انكروا عليه كما تحدثنا خلال هذا الفصل عن ذلك وعن الشورى التي تستر بها ابن الخطاب لإيصال الخلافة الى البيت الاموي وكأنها عهد مكتوب •

لقد اعتبروا الشورى من شروطها الرئيسية بما لها من المعنى الصحيح ، ولكنهم بعد ان وجدوا ان الجمود على معناها الصحيح يعرض خلافة الثلاثة للانهايار وعدم الشرعية توسعوا في معناها محتجين لذلك بأن القرآن والسنة لم يجعلها معنى معيناً ولا كيفية محددة بل تركا للناس تنظيمها وتعريف طريقها، وبما ان خلافة ابي بكر تمت باختيار عمر ابن الخطاب وأبي عبيدة وبعض المهوشين ، وخلافة عمر تمت باختيار ابي بكر وحده، وخلافة عثمان باختيار عبد الرحمن بن عوف لم يعد لهم من مجال لتفسير الشورى الا بما يتلاءم مع الشكل الذي تمت عليه خلافة الثلاثة حتى ولو لم يتفق ذلك مع اللغة والاعراف والمناسبات التي كان النبي (ص) يشاور فيها اصحابه ليطلع على آرائهم ، ويستخلص منها الاصلاح لمصلحة الاسلام والمسلمين •

لقد كان النبي (ص) يشاور ذوي الرأي والفكر ووجهاء الصحابة في بعض الاحيان حتى في الامور الصغيرة لاسباب تفرضها المصلحة ويستتقطب

العدد الاكبر منهم ، ومن هنا انطلقت فكرة الشورى كما يدعي واضعو هذه الشروط في عصر الصراع العقائدي ولكن الشورى عندهم تتم باختيار الخليفة لشخص لم يكن بينه وبينه قرابة لان ابن الخطاب قد اختاره ابو بكر واختار هو عبد الرحمن بن عوف ليسلها لابن عفان كما ذكرنا .

صحيح ان ابا بكر وعمر لم يسلمها لاحد من اولادها وأحفادها كما كان يصنع الامويون والعباسيون ولكنهما لا يختلفان عنهم من ناحية الاستقلال والاستبداد بآرائهم وعدم الاعتداد بآراء المشيرين والناصحين وتجاهل ذوي الفكر والرأي من الحريصين على مصلحة المسلمين ومسيرة الاسلام .

لقد اشتهر عن عمر بن الخطاب انه كان يقول في مختلف المناسبات : لولا علي لهلك عمر ولا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن ونحو ذلك مما كان يصدر منه بين الحين والآخر عندما كان لا يرى للمشاكل التي يستعصي حلها على الجميع غير علي (ع) ومع انه كان لا يرى لمشاكله غيره ويتمنى لنفسه الموت اذا اعترضته مشكلة وأبو الحسن غائب عنه ، فلم يرد عنه في حديث صحيح او ضعيف انه فكر في مراجعته وتداول الرأي معه في مشكلة الخلافة التي يرتبط بها مصير الامة ومصير الرسالة ، وقد فوجيء علي (ع) حينما بلغه انه اختار لها هذا الاسلوب وأدرك كل نتائجها وما سينجم عنها ولكنه آثر ان يمضي معهم الى النهاية ليكشف للملا زيفها وأهدافها .

الشرط الرابع من الشروط التي يجب ان تتوفر فيمن يخلف الرسول في ادارة شؤون الامة العدالة . وجاء في تحديدها كما يدعي الشيخ ابو زهرة وغيره من المؤلفين في هذه المذاهب والمعتقدات الاسلامية ، انه لا بد وأن يكون عدلا في ذاته بحيث لا يؤثر قرابة في حق من حقوق

الله ولا يقدم احدا على احد لهوى في نفسه من صحة ونحوها وما الى ذلك من جهات القرب والبعد بنحو يكون مصداقا للآية الكريمة «يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا او ان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خيرا» .

وأضافوا الى ذلك ان عدالة الامام تفرض عليه ان يولي الامور من يصلح لها من اهل العدالة والرفق لان النبي (ص) كان يقول : من ولي من امر أمتي شيئا فأمر احدا محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وأضاف (ص) : من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو ارضى منه لله فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

ومضى الشيخ ابو زهرة في عرضه لرأي الجمهور ان على الامام ان يعامل حتى اعداءه بالعدل كما تؤكد ذلك الآية «ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى» ، وتتسع عدالة الامام عندهم للعدالة الاجتماعية التي تنظم التكافل الاجتماعي والعدالة الاقتصادية التي تمكن كل قادر من العمل وتوفره له ، فمن تجوز له الامامة هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد له ويقودهم وهو كالاب الحاني على ولده يسمى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتب لهم في حياته ويدخر لهم بعد ماته ، وكالام الشفيقة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعت كرها وربته طفلا تسكن بسكونه وتفرح بعافيته وتغتم لشكاياته وكالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، الى غير ذلك مما ذكره في تحديد عدالة الامام الذي يخلف الرسول ويتولى ادارة شؤون الامة .

لقد اشترط اهل السنة في الخليفة العدالة في مقابل الشيعة الذين يشترطون عصمة الامام لان الدواعي التي اقتضتها للانبياء المرسلين تقتضي

ثبوتها لمن يتولى شؤون الامة وتنفيذ الرسالة، وفسروها بما لا يختلف عن العصمة التي اثبتها الشيعة للائمة والانبياء زاعمين بأنها بكل أبعادها وشروطها ومقوماتها كانت من ابرز صفات الخلفاء الثلاثة ، في حين ان اكثر تلك الشروط لم تتوفر فيمن تعاقبوا على السلطة بعد النبي وبخاصة ثالثهم الذي قرب اعداء الاسلام الذين لعنهم النبي (ص) وطردهم من جواره وسامهم الازواج ، ولم يكنف بارجاعهم مكرمين مخالفا وصية رسول الله فيهم بل جعل لهم من الامتيازات ما لم يجعله لاحد من قادة المهاجرين والانصار وأغدق عليهم العطاء من بيت المال ، وولى أرحامه (صبية النار) أمور المسلمين في المقاطعات الاسلامية وكانوا يتجاهرون بالمنكرات ويعذبون الصلحاء بأوامره بالضرب والتشريد والقتل لا شيء الا لانهم كانوا ينكرون عليه اسرافه في تبذير الاموال على اسرته وذويسه وحاشيته من الحزب الاموي ، وكان في سيرته وسياسته لا يختلف عنحكام الامويين المتأخرين في شيء .

في حين ان مجاميعهم تروي عن النبي (ص) انه لعن الولاة والحكام انذين يحاربون احدا في توليته او يستعملونه على عصابة وفيهم من هو ارضى منه لله ولرسوله ، ومع كل ذلك فقد وصفوه بالعدالة والقداصة كما وصفوا معاوية ومن خرج لحرب امام المسلمين في البصرة وغيرها بذلك، وبدلا من ان ينزلوا على حكم الكتاب فيمن بغى وأفسد في الارض وخالف الحق وأهله ذهبوا يميننا وشمالا يتلمسون الاعذار والمبررات لعثمان وحزبه وللناكثين والقاسطين لتغطية جرائمهم فقالوا : بأن ما صدر عنهم من نوع الاجتهاد الذي لا يضر في عدالتهم وقداستهم ، وذهبوا فسي أصولهم الى ابعد من ذلك وقالوا ان الصحابة كلهم مجتهدون والمجتهد لا يخطئ في شيء لان الواقع مرهون باجتهاده اما لانه لا شيء في الواقع وراء ما يؤدي اليه اجتهاد المجتهدين ، او لانقلاب الواقع الى ما يتوصلون

اليه باجتهادهم كما هو مذهبهم في التصويب .

وعلى اساس ذلك فلا مجال لوصفهم بالعصيان مهما احدثوا وغيروا وبدلوا حتى ولو كانت أحداثهم من النوع الذي اقترفته حاشية الخليفة الثالث وقريه معاوية بن ابي سفيان وغير هؤلاء ممن حاربوا إمام المسلمين في البصرة وقتلوا الالوف من الابرياء والصلحاء ومن عرضوا سنة رسول الله (ص) للتحريف والتزوير واستخدموها لمصالحهم وأهوائهم .

وقد ادرك جماعة ممن تأخروا عن العصر الذي وضعت فيه هذه الشروط للخليفة ان اشتراط العدالة في الخليفة لا يمكن تغطيته بشيء ولا الدفاع عنه بعد المخالفات الفاضحة والتجاوزات المنكرة التي حصلت من عثمان وحواشيه ومن معاوية ومعاونه ولازم اشتراطها بطلان خلافته وعدم شرعيتها فيتعين القول بعدم اشتراط العدالة في الخليفة ، وجاء في الفصل بين اهل الاهواء والبدع لابن حزم ان الصحابة وفقهاء التابعين وأحمد والشافعي لم يشترطوا العدالة في الخليفة ، ومن صرح بعدم اشتراطها وشرعية امامة الفاسق صاحب العقائد النسقية ، حيث قال : لا ينزل الامام بالفسق والخروج عن طاعة الله والجور على عباده لان الفاسق من اهل الولاية عند ابي حنيفة على حد تعبيره، وأضاف الى ذلك ان الفسق والجور لقد ظهرا من الخلفاء والامراء بعد الراشدين ومع ذلك فالفلسف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجمع والاعياد باذنه ولا يرون الفسق مبررا للخروج عليهم ومخالفتهم .

ومن التزم بهذا المضمون من علماءهم ومؤلفيهم الباجوري فسي حاشيته على شرح الفري حيث قال وهو يعدد شروطها ثالثا استيلاء شخص مسلم ذي شوكة على الامامة ولو لم يكن اهلا لها كصبي وامرأة وفاسق وجاهل فان امامته تمنعقد لينظم شمل المسلمين وتنفذ أحكامه وتجب طاعته على الرعية ولو كان فاسقا ، ومن أكد هذا المضمون كل من

الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة وزين بن نجيم في كتابه الاشباه والنظائر والشرييني في كتابه المغني المحتاج .

وكما قلنا من قبل ان هؤلاء بعد ان وجدوا ان الالتزام بتلك الشروط التي نسبها ابو زهرة لجماعة من المسلمين الاوائل يعرض خلافة عثمان وغيره للخطر وعدم الشرعية ، لم يجدوا بدا من الغائها واقتصر بعضهم على اشتراطها ابتداء عند استلامه للخلافة بمعنى ان الخلافة لا ترتبط ببقائها فلو فسق بعد انعقادها واستعمل جميع المنكرات وجار وتمادي في البغي والجور لا ينزل ولا يصح الخروج عليه .

وكان معاوية كما ذكرنا قد سخر جماعة ممن وضعوا انفسهم في صفوف الصحابة والرواة لاحاديث الرسول لوضع طائفة من الاحاديث تحذر المسلمين من الثورة على الحكام مهما بالغوا في الجور والظلم وتزين لهم الرضوخ والانقياد للحكام مهما كان حالهم وتوهمهم بأن الثورة على الظلم والسعي لاقامة نظام سليم وعادل لا يتفق مع الدين . ومن تلك الاحاديث التي وضعها له المرتزقة من المحدثين ما رواه جماعة عن عبد الله بن عمر كما جاء في البخاري وغيره من مجاميع احاديث السنة ان رسول الله (ص) قال : انكم سترون بعدي اثرة وأمورا تنكرونها ، قالوا : فماذا تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم ومن رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة شبرا ومات مات ميتة جاهلية ، ورووا عنه انه قال : ستكون هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائنوا من كان .

وحدث العجاج عن ابي هريرة انه قال له : ممن انت ؟ فقال له : من اهل العراق ، قال : يوشك ان يأتيك بقعان اهل الشام فيأخذوا صدقتك فان اتوك فتلقتهم بها فاذا دخلوها فكن في اقاصيها وخل عنهم وعنهما

واياك ان تسبهم فانك ان سببتهم ذهب اجرک وأخذوا صدقتك وان صبرت
جاءتك في ميزانك يوم القيامة الى غير ذلك من الاحاديث التي تدعو الى
الخضوع للظالمين والصبر على جورهم وطفئانهم .

ومجمل القول ان الشروط التي وضعها المسلمون السنة للخلافة
الاسلامية يوم تفرق المسلمون شيئا واحزابا بعد عصر الخلافة الراشدة
بما يقرب من مائة عام لتصحيح خلافة الاوائل في مقابل القائلين بأن
النبي (ص) قد نص على خليفته من بعده ، هذه الشروط لا تتفق بحال من
الاحوال والواقع الذي مضت عليه خلافة الثلاثة كما تؤكد ذلك جميع
المصادر التي تعرضت لاحداث تلك الفترة من تاريخ الاسلام ، كما تؤكد
تلك المصادر ان تلك الشروط بكاملها قد توفرت على الوجه الاكمل في
خلافة علي (ع) ذلك لان القرشية التي تعني الاتصال بالنبي نسابا هو من
ابرز المتصفين بها وبالإضافة الى ذلك لقد كان من اقرب الناس الى النبي
نسبا وروحا ، ولذلك فقد قال حينما بلغه ان الطامعين بالخلافة قد
اعتمدوا القرابة خلال مواجعتهم للانصار قال : لقد احتجوا بالشجرة
وتركوا الثمرة وينسب اليه انه قال مخاطبا لابي بكر :

فان كنت بالقربى ملكت أمورهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب
وان كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب

وأما البيعة العامة التي لا تحقق الا باعطاء اهل الحل والعقد وجماهير
المسلمين عهدا بالسمع والطاعة في النشاط والمكره على حد تعبير الشيخ
ابو زهرة فالبيعة بهذا المعنى لم تحصل لاحد من الثلاثة كما ذكرنا ولقد
كان اكثر اهل الحل والعقد كارها لخلافتهم كما تؤكد ذلك اكثر المصادر
السنية ، واستسلامهم للواقع المرير على ما بينهم من الاختلاف فسي

دوافعه لا يعبر عن الاختيار الحر الذي تعنيه كلمة المبايعة ولم تتحقق
بمفهومها الصحيح الواسع لغير علي (ع) كما ذكرنا وقد بقيت المدينة بعد
مصرع عثمان خمسة ايام بدون خليفة والمسلمون بكل فئاتهم لا رأي لهم
بغيره وهو يتهرب منهم حتى التجأ الى احد بساتين المدينة وهم يلاحقونه
أينما حل وذهب ، وقد وصف هو (ع) اجتماع الناس على بيعته كما جاء
في شرح النهج بقوله : وبسطم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم
تداكتمت علي تذاك الهيم على حياضها حتى انقطعت النمل وسقط الرداء
ووطىء الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياي ان هدى اليها
الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت اليها الكعاب وابتهج بها الصغير .
والكلام نفيه بالنسبة للشورى التي يجب ان يترك فيها الرأي الحر
لاهل الحل والعقد وذوي الرأي والفكر من اقطاب المسلمين وقادتهم
المخلصين لا بالشكل الهزيل الذي وقعت عليه وكانت في واقعها لا تختلف
عن العهد المكتوب لعثمان الا بالشكل والمظهر كما ذكرنا خلال حديثنا
عنها من قبل ولو ان ابن الخطاب استفتى المهاجرين والانصار وقسادة
المسلمين استفتاء حرا نزيها بعيدا عن الهيمنة والتشويش لم يكن لعثمان
نصيب في غير اصوات الحزب الاموي ولا احسب ان احدا غيرهم كان
يقدم على علي احدا ومن المؤكد انه كان سيفوز بالاكثريّة المطلقة من
الاصوات ان لم يكن بجميعها . اما العدالة التي يرونها من اهم شروطها
كما يدعي ابو زهرة وغيره فالمسلمون بكل فئاتهم وطبقاتهم بين قائل
بمعصته وانه كالنبي من هذه الناحية في جميع ادواره ومراحل حياته وبين
من وضعه في القمة وأثبتوا له مرتبة من العدالة ليست لاحد سواه وحتى
ان ألد اعدائه وأشرس خصومه لم يستطيعوا ان يجدوا ولو ثغرة في
تاريخه الحافل بالاحداث الجسام في حين ان اكثر المسلمين قد وقفوا من
غيره موقفا مليئا بالحدر والتشكيك بل ادانهم جماعة من المهاجرين

والانصار ولم يجدوا سبيلا لتبرير ما ارتكبوه من اخطاء ومخالفات صريحة
لسنة الرسول وسيرته وراح المتأخرون يتعللون لتفطيتها بالاجتهاد
والمجتهد بزعمهم لا يؤاخذ على شيء من تصرفاته مهما بلغ حجمها ومن
هذه الزاوية عدوا معاوية وطلحة والزبير وابن العاص وابن شعبة وغيرهم
من عدول الصحابة مع العلم بأنهم قد ساهموا في اكثر الجرائم والمفاسد
التي وقعت في تلك الفترة من التاريخ كما يؤكد ذلك تاريخهم المليء
بالاخطاء والمخالفات والمنكرات .

وفي مقابل هذه الشروط التي لا تتم الخلافة بدونها عند الجمهور
ذهب الامامية الى ان الامامة من أصول الاسلام لا من فروعه والمرجع
الاول والاخير في أصول الدين هو الله ورسوله ولا رأي للأمة في ذلك
ولا يتعين الامام الا بالنص عليه من النبي او من الامام الذي نص النبي
عليه وله نفس السلطة التي كانت للنبي (ص) وقد نص النبي على الأئمة
بأسمائهم كما نص كل امام على خليفته ولا بد مع ذلك من كونه افضل من
غيره في جميع الصفات الكريمة كالعلم والشجاعة والحلم والزهد والكرم
وما الى ذلك من الصفات التي يتفاوت الناس بها ويتفاضلون على
اساسها وانه لا بد وأن يكون معصوما من صغار الذنوب وكبارها
بنحو يكون الامام في مرتبة من السمو النفسي والخلقي يجعله قدوة
لتابعيه ورمزا حيا للشرعية التي يمثلها ومثلا اعلى لمن يمثلهم ويحكمهم ،
ولو جاز عليه ان يفعل المنكرات والقبائح وأن يظلم ويعتدي كان في
حاجة لمن يرشده ويرده الى الطريق الصحيح والنهج السليم ، هذا
بالاضافة الى ان الدعوة التي جاء بها وجاهد من اجلها جهادا مريرا لما
كانت بحاجة لمن يتابع المسيرة بها الى حيث اراده الله لها لا بد وأن يكون
لمن يمثل هذه المهمة من الصفات ما يؤهله لان يملأ الفراغ الذي أحدثه
برحيله عنها ، ومن لم يكن بهذا المستوى من السمو النفسي والخلقي

الذين يجملان منه قدوة لتابعيه ورمزا حيا للشريعة لا يملأ فراغ النبي ولا يحقق الغاية من اختياره .

وليست العصمة التي يدعيها الشيعة للنبي والامام من الامور التي تجعل منه انسانا آخر لا يحس بما يحسون من لذات وآلام ولا يلتقي مع غيره من بني الانسان في الخصائص والآمال والاحلام ، بل هي عبارة عن ملكة نفسية قوية تمكنه من التغلب على ما يختلج في نفسه من أهواء وشهوات ونزوات وتحركه على فعل الطاعات والطيبات في حال كونه قادرا على ارتكاب ما يختلج في نفسه من لذة زائلة او نزوة طائشة ، ولعل هذا هو الذي يعنيه الامام زين العابدين (ع) بقوله في جواب من سأله عن العصمة ، انها الاعتصام بحبل الله ، ثم تلا الآية الكريمة : «واعتصموا بحبل الله جميعا» .

والعصمة بهذا المعنى ليس فيها من الشذوذ والغرابة ما يبرر نللك الحملات المسعورة على الشيعة والاتهامات القاسية التي يذهبون فيها الى ان الشيعة يرفعون أئمتهم الى مرتبة الآلهة بالصاق العصمة بهم على حد تعبير بعضهم ، ذلك لان عصمتهم لا تعني اكثر من انهم يملكون قسوة تغلب على ما يختلج في نفوسهم ويتحرك فيها، وهذه القوة تستمد فعاليتها من وعيهم الكامل بما للطاعة من خير وصلاح، وبما للمعاصي والمنكرات من عيوب ونقائص يجب ان يتسامى عنها كل من يشعر بكرامته كإنسان وبمسؤولياته تجاه اوامر الله ونواهيه ونعمه التي لا تحصى ، وفي الوقت ذاته لا يخرج عن كونه انسانا كعامة الناس يحس بما يحسون من لذة وآلام وتمترضه احلام وأمانى وخطرات لا تتفق مع الخلق والدين ولكنه يستطيع التغلب عليها في جميع الحالات ويملك القدرة والسيطرة على جميع ما يعترضه وما يمر في خاطره في حالات الرضا والغضب والحب والكراهية وغير ذلك .

لقد أنكروا العصمة واستغربوها على علي والأئمة من بنيه الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وجعلهم النبي (ص) كالكتاب وكسيفه نوح لا يضل من تمسك بهم ومن التجأ اليهم ، هذا بالإضافة الى تاريخهم الغني بالادلة والشواهد على انهم فوق مستوى المخلوقات بكل صفاتهم ومواهبهم وحتى ان ألد اعدائهم وأنكد خصومهم كما ذكرنا لم يستطيعوا ان يلصقوا بهم عيبا مشينا او سيئة من السيئات ، لقد أنكروها على علي والأئمة من ذرية النبي الذين كانوا يجسدون الاسلام بكل فصوله وخطوطه في تصرفاتهم وتحركاتهم السياسية والاجتماعية والتربوية والخلقية وغيرها وأثبتوها من حيث يريدون او لا يريدون لاعداء الاسلام ممن أسموهم بالصحابة كالروائيين والعثمانيين والناكثين والامويين ومن كان يدور في فلكهم كالمغيرة وابن العاص وغيرهما من الكذبة على الله ورسوله والمتسترين بالاسلام الذين وصفهم النبي بالارتداد عن الاسلام من بعده في عدد من الاحاديث رواها عنه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما كما رواها غيرهما . لقد وصفوا جميع هؤلاء وغيرهم ممن رأى النبي وسمع حديثه حتى ولو رآه قبل التكليف وهو في سن الطفولة بالصحبة وكل صحابي عادل ومعذور في أخطائه ومنكراته لانه مجتهد والمجتهد لا يتصور في حقه الخطأ كما ذكرنا خلال الصفحات السابقة .

ان هذا الافراط في الغلو بالصحابة بما فيهم معاوية ومن على شاكلته يفوق مستوى العصمة التي يؤمن بها الشيعة للانبياء والأئمة الاثني عشر بمسافة لا يكاد يدرك حدودها وخطورها على الاسلام ومسيرته الا من كان رائده الحق والحقيقة من الباحثين المجريين ، وما أقل هذا النوع من البشر في كل زمان .

موقف المسلمين من الحاكم الجائر

بعد هذا العرض لشروط الحاكم فإذا لم تتوفر فيه تلك الشروط كما لو استولى على السلطة بالقوة والغلبة وكان من غير القرشيين وجائرا في حكمه فقد ادعى الشيخ ابو زهرة في كتابه المذاهب الاسلامية ان الجمهور لا يعتبرون ولايته خلافة نبوية بل ملكا دنيويا ومن هؤلاء يزيد بن معاوية وغيره من الامويين على حد تعبيره وأضافوا الى ذلك كما نسب اليهم ان هؤلاء الملوك ان كان في مقابلهم إمام عادل قد استوفى شروط الولاية والخلافة والتف حوله جماعة من الناس وبايعوه عليها مبايعة حرة يجب اطاعته ويكون المتغلب على الملك في مقابله باغيا يجب قتله او ارجاعه الى الحق وتجب مساعدة العادل عليه لقوله تعالى :

وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله .

غريب امر هؤلاء انهم يذهبون الى انه اذا كان في مقابل من لم تتوفر فيهم شروط الولاية امام عادل قد استوفى شروط الولاية والامامة يجب على المسلمين مساعدته على المتسلط على الامة بدون رضاها واختيارها بمقتضى الآية التي تعده باغيا ظالما ، ويعترفون في الوقت ذاته بأن

عليها (ع) قد توفر لخلافته من الشروط ما لم يتوفر لمن سبقه فضلا عن معاوية الذي استولى عليها بالقوة والاحتياط ولم يتوفر له شيء من شروطها وقد خرج على الخليفة الشرعي وقتل آلاف الأبرياء والصلحاء وكان من الباغين بحكم الآية وقد جعلها لولده يزيد من بعده بالمال والسلاح وهو وحده يتحمل مسؤوليتها ومسؤولية من جاء بعده ممن طواغيت بني أمية ، مع انهم يعترفون بأن معاوية لم يتوفر فيه شيء من الشروط وكان في مقابلة إمام عادل توفرت فيه جميع الشروط وتسم اختياره للخلافة باجماع الصحابة والوافدين على المدينة من مختلف الامصار ، وقد بنى عليه معاوية وقاتله ومع ذلك لا يعتبرونه باغيا وظالما ، بل عدوه من الصحابة الذين عناهم النبي (ص) بقوله : اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم كما نسب اليه ابو هريرة راوية معاوية وقريبه عثمان بن عفان .

ومهما كان الحال فاذا جار الحاكم وخرج عن العدالة فقد ذهب جمهور السنة الى وجوب الصبر على ظلمه وجوره وعدم جواز الخروج عليه ، ونسبوا القول بذلك لكل من الفقهاء الثلاثة الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل لان الصبر على طاعة الجائرين اولى من الخروج عليهم لما في الخروج عليهم من استبدال الخوف بالامن وإهراق الدماء وشن الغارات والفساد وذلك اعظم من الصبر على جورهم وفسقتهم ، وأضافوا الى ذلك ان الاصول تشهد والعقل والدين ان اقوى المكروهين اولى بالترك .

ومضى ابو زهرة يقول : ان الامام احمد صرح بوجوب الصبر عند الجور ونهى عن الخروج على الجائرين والالتقاء الى الخارجين نهيبا صريحا وقال : لا يجوز الخروج على الامراء بالسيف وان جاروا لان النبي (ص) قال كما جاء في صحيح مسلم والبخاري : انكم سترون بعدي اثره وأمورا تنكرونها قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : تؤدون

الحق الذي عليكم وتسالون الله الذي لكم ، وقال : ومن ولي عليه وأل
فراه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزع
يدا عن طاعة (١) .

ونسب النسفي في شرح العقائد الى ابي حنيفة عدم جواز الخروج
على الجائر ايضا لانه من اهل الولاية ، ومضى يقول : لقد ظهر الفسق
واشتهر الجور من الأئمة والامراء بعد الخلفاء الراشدين والسلف كانوا
ينقادون اليهم ويقيمون الجمع والاعياد معهم ولا يخرجون عليهم .

وجاء في نظام الحكم والادارة في الاسلام ان الباجوري في حاشيته
على شرح الغزي وأحمد الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة ، وابن نجيم
في الاشياء والنظائر ، والتفتازاني في شرح جامع المقاصد وغيرهم صرحوا
بعدم جواز الخروج على الجائر ووجوب الصبر على ظلمه وجوره مهما
بالغ في الظلم وأسرف في الجور والعدوان ، وأضاف الى ذلك الدهلوي
في كتابه حجة الله البالغة ان الخليفة لا يزل الا بالكفر وبانكار ضروري
من ضرورات الدين ، فلو فسق وظلم وتعدى حدود الشريعة لا يضر ذلك
في خلافته (١) الى غير ذلك من النصوص التي تعبر عن اتفاقهم تقريبا على
ان الخليفة لا ينزل اذا ظلم وجار وارتكب جميع المعاصي والمنكرات، ولا
يجوز الخروج عليه بحال من الاحوال، وأكثرهم يصرح بأن الخارج على
الخليفة الذي تتم خلافته ولو بالقهر والغلبة والاحتياط يجب قتاله حتى ولو
كان الخارج عليه عادلا لاحقاق الحق ، وقد ذكرنا بعض المرويات
المنسوبة الى النبي (ص) حول هذا الموضوع في الفصل السابق .

١ - انظر ص ١١١ من المذاهب الاسلامية .

١ - انظر ص ٩٨ و ٩٩ من نظام الحكم والادارة للشيخ محمد مهدي
شمس الدين .

اما الامامية وأكثر المعتزلة فقد ذهبوا الى وجوب منازعة الجائـر ومقاومته بكل الوسائل اذا لم يضع حدا لجوره وجور عماله وحواشيـه بالطرق السلمية ، ولا يجوز السكوت على ظلمه وجوره والتفاضي عنه مهما كانت النتائج ولو أدى ذلك الى قتاله وإراقة الدماء ، والدماء على حرمتها وكرامتها ترخص في سبيل احقاق الحق والعدل على حد تعبيرهم ، ولأن القتال في سبيل الحق والعدالة من جملة ابواب الجهاد الذي اعتبره الاسلام ركنا من أركانه وأصلا من أصوله ، وقد بني عليه الاسلام وحـث عليه القرآن والحديث بمختلف الاساليب التي اقترنت في الغالب بالترغيب عليه والترهيب على تركه .

وجاء في لآية من سورة التوبة « ان الله اشترى من المؤمنين اموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

الى غير ذلك من الآيات التي أكدت رجحانه ووجوبه في سبيل الحق والمستضعفين في الارض من الرجال والنساء والولدان .

وقال الشيخ النجفي في كتاب الجهاد من موسوعته الفقهية المعروفة بالجواهر : بعد ان تحدث عن موارده وعد منها جهاد الكافرين بالله وبرسالاته والباغين والجائرين من الحاكـمين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ، بعد ان تحدث عن موارده قال : وهو ذروة سنام الاسلام ورابع أركان الايمان وباب من ابواب الجنة وأفضل الاشياء بعد الفرائض وسياحة امة محمد التي جعل الله عزها بسنابك خيلها ومراكز رماحها ، ومضى يقول : لقد جعل الله الجهاد من افضل اعمال البر ولو قتل المجاهد في سبيل الله فليس فوق ذلك بر او معروف ، والخير كله فسي السيف وتحت ظل السيف ولا يقيم الناس الا السيف ، وأضاف الى ذلك ان

السيوف مقاليد الجنة ، وللجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون اليه وهم متقلدون سيوفهم ، ومن غزا غزوة في سبيل الله فما اصابه قطرة من السماء او صداع الا كان ذلك له شهادة يوم القيامة وان الملائكة تصلي على المتقلد بسيفه في سبيل الله حتى يضعه ، واستطرد يقول : ان الآية ان الله اشترى من المؤمنين أموالهم انفسهم ، والاية لا يستوي القاعدون ، والاية كتب عليكم وهو... كره لكم وغيرها من الايات التي فرضت الجهاد اكثرها وارد في قتال الكفار على الدخول في الاسلام وألحق الفقهاء به قتال من داهم بلاد المسلمين من الكفار ، وقاتل الباغين ابتداء ليرجموا الى الحق ، ويتسع لفظ الباغي للظالم ولكل من خرج عن الحق وطاعة الامام (ع) ، ومضى الشيخ النجفي يقول : ان رسول الله (ص) قال ان الله قد كتب على المؤمنين ان يجاهدوا في الفتنة كما كتب عليهم جهاد المشركين معي ، فقال له السائل : يا رسول الله ، وما الفتنة التي كتب فيها الجهاد ؟ قال : فتنة قوم يشهدون ان لا اله الا الله واني رسول الله وهم مخالفون لستني منحرفون عن ديني ، فقال له : يا رسول الله فعلام نقاتلهم وهم يشهدون ان لا اله الا الله وانك رسول الله ؟ قال : نقاتلونهم على احداثهم في ديني وفراقهم لامري واستحلالهم دم عترتي ، وقال (ص) : ما من مسلم يظلم مظلمة فيقاتل فيقتل الا قتل شهيدا ، وقال : اذا رأيت أمتي تهاب الظالم ان تقول له : انك ظالم فقد تودع منها .

ونص الفقهاء كما جاء في جواهر النجفي على انه لو كان لاهل البغي فئة يرجعون اليها جاز الاجهاز على جريحهم وقتل اسيرهم وملاحقة مدبرهم ، واذا لم يكن لهم فئة يرجعون اليها فقاتلهم انما هو لتشتيت امرهم وتفريق جمعهم وكلمتهم ، ولا يجوز ملاحقة مدبرهم ولا الاجهاز على جريحهم وأسيرهم بلا خلاف في ذلك على حد تعبير الشيخ فسي جواهره .

وفيما جاء عن الأئمة (ع) فيمن خرج على حكام الجور ، جاء عســن
الامام ابي عبد الله الحسين (ع) انه قال : حدثني ابي انه سيكون منا
رجل اسمه زيد يخرج ويقتل فلا يبقى في السماء ملك مقرب ولا نبي
مرسل الا يتلقى روحه ويبعث هو وأصحابه يتخللون رقاب الناس فيقال
هؤلاء دعاة الحق .

وجاء عن الامام علي بن الحسين (ع) انه قال : حدثني ابي عن ابيه
علي (ع) انه قال : يخرج بظهر الكوفة رجل يقال له زيد بن علي في أمة
الملك لا يسبقه الاولون ولا يدركه الآخرون الا من عمل بمثل عمله
يخرج يوم القيامة هو وأصحابه معهم الطوامير او شبه الطوامير حتى
يتخطوا أعناق الخلائق فتتلقاهم الملائكة فيقولون هؤلاء خلف الخلف
ودعاة الحق ثم يستقبلهم رسول الله (ص) فيقول يا بني قد عملتم بما أمرتم
به فادخلوا الجنة بغير حساب .

وجاء في رواية عن الامام الصادق (ع) انه كان يقول : من خرج على
هؤلاء وقتل فعلي نفقة عياله ويريد هؤلاء حكام الجور من العباسيين
والامويين وغيرهم ممن يستهترون بالاسلام ومقدساته وحقوق الانسان
وكرامته .

كما جاء عنه انه قال : من ارضى سلطانا جائرا بسخط الله خرج من
دين الله ، وقال الامام الباقر (ع) لا دين لمن دان بطاعة من عصى الله ،
ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي عهد الرشيد كان صفوان الجمال احد اصحاب الامام وثقافته
يملك عددا من الجمال ويكرها لهارون الرشيد حين يذهب لحج بيت الله
فدخل يوما على الامام موسى بن جعفر (ع) ، فقال له : يا صفوان كل
شيء منك حسن وجميل ما خلا شيئا واحدا ، فقال : جعلت فداك ، اي
شيء هو ؟ فقال : كراء جمالك من هارون ، فقال : والله ما اكريته أشراً ولا

بطرا ولا لصيد او لهو ولكني اكرهه اياها لطريق مكة ولا اتولاها بنفسي بل أبعث معها غلماني ، فقال : يا صفوان أيقع كراؤك عليهم ؟ قال : نعم جعلت فداك ، قال : أولست تحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك ؟ قال : نعم ، قال : من احب بقاءهم فهو منهم ومن كان منهم فهو في النار ، فذهب صفوان وباع جماله عن آخرها ، فبلغ ذلك الرشيد فاستدعاه اليه وقال له : بلغني انك بعثت جمالك ، فقال : نعم ان الغلمان لا يقومون بالاعمال وأنا شيخ كبير لا اطيق خدمتها ، فقال له : هيهات ، اني لاعلم من اشار عليك بذلك انه موسى بن جعفر ، فرد عليه قائلا : مالنا ولموسى ابن جعفر يا أمير المؤمنين ، فقال له : دع عنك هذا والله لولا حسن صحبتك لقتلتك .

وكتب المنصور الى الامام الصادق (ع) لم لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ فأجابه الامام : ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوكم به ولا انت في نعمة فنهتك ولا في نقمة لتعزيك ، فكتب اليه المنصور : تأتينا لتنصحننا ، فأجابه الامام (ع) : من اراد الدنيا لا ينصحك ومن اراد الآخرة لا يصحبك ، فقال المنصور : والله لقد ميز عندي منازل من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة .

وجاء في رجال الكشي عن عبد الرحمن بن سبابه انه قال : دفع الي الامام الصادق مبلغا من المال وأمرني بتوزيعه على عيالات من أصيب مع عمه زيد بن علي (ع) فقسمتها عليهم وأصاب عيال عبد الله بن الزبير الرسان أربعة دنانير وكان الامام الصادق يقول : ويل لمن سمع داعيته ولم يجبه .

وأحاديث الامامية في هذا الباب لا يبلغها الاحصاء ومن اجل ذلك نجد السر في مقاطعة علماء الامامية في مختلف العصور لرجال الحكم وابتعادهم عن السياسة وتجارها فلقد توارثوا ذلك خلفا عن سلف عن

الأئمة الاطهار (ع) .

لقد قاطع علماء الامامية الحاكمين وأفتوا بتحريم التعامل معهم ولم يستثنوا الا ما فيه النفع للمؤمنين ودفع الحيف والظلم عن المظلومين ، ولم يكتفوا بذلك بل أفتوا بأشياء تتصل مباشرة بأعمال الحاكم ، فلقد اشترطوا العدالة في امام الجمعة والجماعة وكان الحاكم في الغالب هو الذي يؤم الناس وبخاصة في يوم الجمعة ولازم ذلك ان صلاة المؤمنين به باطلة لا يتقبلها الله مع علمهم بنفسه وجوره ، هذا بالاضافة الى ان اشترطوا العدالة في امام الصلاة يشعر بأن القيادة في كل شيء وبخاصة فيما يتعلق بقيادة الامة وادارة شؤونها لا تصلح الا لمن كان معروفا بالاستقامة والامانة والاخلاص . ومجمل القول : ان الخروج على الظالم الجائر من افضل انواع الجهاد الذي فرضه الله وان الجائر الظالم المستتر بالاسلام اسوأ حالا من الحاكم المشرك اذا كان معتدلا في سيرته وسياسته .

وجاء عن امير المؤمنين حول هذا الموضوع انه كان يقول : الكافر العادل خير من المسلم الجائر ، ولعل هذا الموقف السلبي من الحاكمين في جميع المراحل من تاريخ الشيعة كان من ابرز الاسباب التي جعلتهم يتجهون بكل ما لديهم من قوة للتنكيل بالشيعة ومطاردتهم وزجهم في السجون والمعتقلات وبلغ الحال بهم ان صفة التشيع ولو كانت منجولة تجر على المتهم بها اسوأ انواع التعذيب والقتل احيانا ومصادرة كل ما يملكه المتهم بالتشيع . وبلغ بهم الحال في مطلع العهد الاموي كما ذكرنا من قبل ان الرجل كان يتمنى ان يوصف بالزندقة والكفر ولا يوصف بالتشيع الى كثير من انواع العنف والجور التي لا نظير لها في تاريخ الامم والحاكمين وتوالت عليهم النكبات والاحداث ممن تعاقبوا على الحكم من امويين وعباسيين ولم تكن مواقف الامويين بأشد وأقسى من

مواقف غيرهم •

وروى الرواة عن المنصور الدوانيقي انه كان يقول : قتلت من ذرية
فاطمة الفا او يزيدون وتركت سيدهم وإمامهم جعفر بن محمد •
وجاء في كتاب التخاصم بين أمية وهاشم عن المقرئ وغيره ان
المنصور في سفرته الاخيرة قال لزوجة خليفته المهدي ربيعة : اذا انا مت
في سفرتي فلا تفتحي تلك الغرف ، وأشار الى بعض الغرف في قصره الا
بحضور زوجك المهدي ، ثم سلمها مفاتيح الغرف فظنت انها تحتوي على
كميات كبيرة من التحف والاموال والمجوهرات ، وتشاء الصدف ان
يتوفي المنصور في رحلته تلك ، ولما اخبرت زوجها المهدي بوصية والده
اليها تقدم الى الغرف ليفتحها وهو يظن انها مملوءة بالاموال ، ولكن
أمانيه وآماله العراض قد خابت عندما وجد مئات القتلى من العلويين في
تلك الغرف وفي أذن كل قتيل منهم رقعة من النحاس بنسبه واسمه ،
فأمر المهدي جماعة من خاصته وحواشيه بأن يخفروا لهم حفيرة واحدة
تسع للجميع ودفنهم فيها ، وتوالت الاحداث على العلويين وشيعتهم من
العباسيين وأعوانهم في مختلف العواصم والمقاطعات بنحو لم يعرفوا له
مثيلا من قبل وقال قائلهم :

يا ليت جور بنسي مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

وقال ابو فراس الحمداني مخاطبا حكام العباسيين وأعوانهم :

ما نال منهم بنو حرب وان عظمت تلك الجرائم الا دون نيلكم

وقد بلغ من جورهم على العلويين والشيعه ان المتوكل العباسي قد
استعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الراجحي وفيهما عدد كبير من

العلويين وأوصاه بالشدة عليهم والتنكيل بهم . ونفذ الراجحي اوامر الخليفة فمنع الطالبين من سؤال احد كما منع الناس من البر بهم والاحسان اليهم ، وبلغ به الحال انه كان اذا بلغه عن احد أحسن السى علوي او طالبي عاقبه ونكل به ليكون عبرة لغيره حتى بلغت الحاجة اقصى حدودها وأصبحوا لا يملكون ما يستر نساءهم ، وأعد النسوة ثوبا للصلاة يصلين فيه الواحدة تلو الاخرى ثم يرفعنه ويجلسن على مغازلهن حواسر ليلهن ونهارهن .

ولما انقضى عهد المتوكل وقام من بعده ولده المنتصر كتب الى واليه على مصر ان لا يلزم ضيعة لعلوي وأن يمنعهم من ركوب الخيل واتخاذ العبيد ، ومضى يقول في وصيته اليه : ومن كان بينه وبين احد من الطالبين خصومة فاقبل قوله بدون بينة ولا تسمع لطالبي بينة او قولاً ، وكتب الى عماله في مختلف الاقطار بذلك ^(١) .

وكان المتوكل قد منع الناس من زيارة الحسين وهدم قبره وحرث محله حتى لا يبقى له سم ولا اثر وفي ذلك يقول البسامي احد شعراء الشيعة :

تا الله ان كانت أمية قد اتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد اتاه بنو ابيه بمثله هذا لمرك قبره مهدوما
أسفوا على ان لا يكونوا شاركوا في قتله فتبعموه رميما

لقد وجه الامويون والعباسيون كل امكانياتهم وجل طاقاتهم من سياسية واقتصادية واعلامية للقضاء على العلويين وشيعتهم وأوسعوههم

١ - عن الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٥٢ .

ارهاقا وعسفا وجورا وسخروا فريقا من العلماء والمحدثين لوضـع
 الاحاديث التي تخدم عروشهم وتحريف النصوص التي تحملهم مسؤولية
 تماديهم في البغي والظلم والجور ومسح الاسلام من خلال الاحاديث التي
 وضعها ابو هريرة وعروة بن الزبير وسمرة بن جندب ومحمد بن شهاب
 الزهري وغيرهم ممن كانت تدفق عليهم هبات الحاكـمين بدون حساب، حتى
 اصبح الاسلام وتعاليم الاسلام آلة يستعملها المجرمون لخدمة الجاهلية
 السفاحة التي يمثلها الحاكـمون من العباسيين والامويين ورجالات الاسلام
 قد تطوعوا لخدمة الحاكـمين في صور من الزهد والتعبد والعفة والحشمة
 ليس لها ادنى حظ من الصدق والشرف ، وساحة الدفاع عن الحقيقة
 والعدل والحرية والاسلام الحق خالية الا من المتطوعين لخدمة الحكام
 باسم الدين والاسلام فالمنابر تخالل وتخادع وتزور في دينا الاسلام
 شرقها وغربها ، والزهاد والرواة اشبه بعجل السامري ينتحلون ويزورون،
 والمساجد أشبه بمسجد ضرار محطات للتؤامرات والجماعة المصلية
 كالاضاحي بيد الجهاز الحاكم يصنعها كالانعام تردد في المطارب مسبة
 علي وآل علي (ع) وتحرض على قتل شيعته ومحبيه ، ولم يكن بمقدور
 الأئمة الذين اختارهم الله للقيادة والذين رافقوا تلك الظروف التي بلغت
 اقصى حدود البغي والجور والظلم والظفر بالقيام بأي محاولة عسكرية للاطاحة
 بتلك الانظمة الجائرة ، لان كل محاولة من هذا النوع ستؤدي الى
 استشهادهم ، والشهادة اذا لم تجعل من دماء الشهداء ثورة على الجلادين
 والجائرين كما صنعت ثورة الحسين (ع) لا تكون شهادة بالمعنى المطلوب
 من الشهادة ، بل تصبح ميتة لا تعطي الثمار المطلوبة من دماء الشهداء ولا
 يستفيد منها سوى الاعداء الذين يسمونهم أمراء المؤمنين ، وهم في
 واقعهم لا يختلفون عن أمراء الكافرين الا في المظاهر والطقوس والشعائر
 الشكلية ، وكانوا مع ذلك محاطين بالفقهاء والوعاظ والمحدثين الذين

يؤيدونهم في كل ما يفعلون ويدعون لهم بطول البقاء ويتحطون لهم
المبررات والمسوغات لكل عمل من اعمالهم حتى ولو كان دينيا وجائرا،
واذا اصطدموا مع عالم او واعظ احيانا وصارحهم بالحقيقة وحذرهم مما
يتخطون فيه من الجرائم وظلم العباد كما حصل للرشييد مع سفيان
الثوري وغيره يتظاهرون بالخطأ والندم ولا يفضبون لانهم يجدون غيره
من مئات الوعاظ والفقهاء يتزلقون اليهم بتزكية جميع تصرفاتهم واسرافهم
في البغي والمنكرات .

لقد كان الأئمة يدركون كل ذلك ويعلمون ان الثورة الثقافية انفسع
للإسلام وأجدى له من جهادهم بالسيوف والرماح لذلك فقد انصرفوا
الى الجهاد الفكري والعقائدي ليقطعوا الطريق على مخططات العاملين على
تشويه الإسلام في الداخل والخارج من الشيوعيين وغيرهم ، وبلا شك
فان مواقفهم هذه كانت أنفع وأجدى من استشهادهم في تلك الفترة من
التاريخ ، كما كان استشهاد الحسين في وقته هو العلاج الوحيد للحد من
استرسال الامويين في جورهم واستهتارهم بالإسلام وقيمه ومقدساته .
ولولا مواقف الأئمة وشيعتهم وتجسيد التشيع للإسلام كانت نهايته
محتومة ، لان جهود الحاكيمين من امويين وعباسيين كلها كانت متضافرة
للقضاء عليه ، ومع كل ذلك فقد ظل شامخا يناطح جميع الحكام دون ان
يخمد له اوار وثورة على الظلم والظالمين ، والثوار في كل زمان ومكان
يعرفون بأن فساد المجتمع ينشأ في الغالب عن فساد حكامه ولا سبيل الى
الاصلاح الا اذا تولى امور الامة اناس صالحون يحسون بالآلام الامسة
ومشاكلها ويعملون من اجلها .

ويقول الاستاذ علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين : ان التشيع
في وضعه الراهن اشبه بالبركان الخامد وكان نائرا ثم خمد على مرور
الايام وأصبح لا يختلف عن غيره من الجبال الراسية الا بفوهته والدخان

المتصاعد منه ، والبركان الخامد لا يخلو من الخطر رغم هدوئه الظاهر ،
 انه يمتاز عن الجبل الأصم بكونه يحتوي في باطنه على نار متأججة لا
 يدري احد متى تنفجر مرة اخرى ، ومضى يقول ان عقيدة الامامية التي
 آمن بها الشيعة جعلتهم لا يفكرون عن انتقاد الحكام ومعارضتهم والشغب
 عليهم في كل مرحلة من مراحل تاريخهم الطويل وهم يرون كل حكومة
 ظالمة طاغية غاصبة مهما كان نوعها ولا تتصف بالشرعية الا اذا تولى امرها
 إمام عادل او معصوم من آل علي بن ابي طالب (ع) وعلى اساس ذلك
 كانوا ثورة متصلة لا يهدأون ولا يفكرون ويقسسون كل حاكم بما عندهم
 من مقاييس الامامة المعصومة ويروونه ناقصا وغاصبا وأدت هذه العقيدة
 الى استفحال العداء بين الشيعة والفتات الحاكمة منذ فجر الاسلام وحتى
 عصرنا الحالي واتهموهم بالزندقة والالحاد والرفض لهذا السبب وأصبحت
 صفة الرفض تؤدي ضمنا معنى الرفض للدين والدولة معا ، ولكثرة ما
 مر عليهم من الاضطهاد والتعذيب كانوا يفضلون ان يقال لاحدهم زنديق
 او كافر ولا يقال له شيعي او رافضي ، ولم يترك معاوية ومن تلاه من
 الحاكمين الامويين والعباسيين أسلوبا من اساليب الاضطهاد والقهر
 والتنكيل الا وجربوه للقضاء عليهم وباءت جميع محاولاتهم وجهودهم
 بالفشل وصمد التشيع في وجه تلك الاعاصير الهوجاء وسيبقى يتحدى
 الجبابة والطغاة والعابثين بحقوق الانسان وكرامته ، في حين ان التاريخ
 تحدث عن فرق ظهرت في القرون الاولى وانتشرت يومذاك بين ذوي
 الفكر والرأي كما تحدث عن مذاهب فقهية وغيرها راجت في شرق البلاد
 وغربها برعاية فريق من أقطاب الفكر والعلم ومساعدة ذوي النفوذ من
 الحاكمين وأتباعهم ، ولكنها اندثرت وذابت وكأنها لم تكن لمجرد رفض
 الحاكمين لها وتبنيهم لغيرها من الافكار والمذاهب ، ولم يحدث التاريخ
 عن افكار وآراء ومذاهب ثبتت في وجه الاعاصير السياسية والضغط

الجائرة او العادلة ولو لفترة طويلة من الزمن ، كما جرى للتشيع الذي اصطدم بتلك الاعاصير الهوجاء العاتية منذ ولادته تقريبا ولا يزال ينمو ويسير بخطى واسعة وكان جميع القوى التي حاربتة بكل اسلحتها كانت تعمل على نشره وتسهيل مسيرته ، وبلا شك فان ذلك لم يكن عفويا وعن طريق الصدفة بل لابد لذلك من اسباب اقوى من تلك الضغوط والاعاصير الهوجاء التي رافقت ولادته تقريبا ولا تزال ، وهذا ما سنحاول بيانه في الفصل التالي .

الاسباب التي ساعدت على بقاء التشيع

لقد ظهرت في القرون الاولى الاسلامية فرق وأحزاب كان من أبرز اسبابها اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب التي غزاها الاسلام واضطرها للاستسلام والخضوع لسلطانه وغالى المعنيون بالحديث عن تلك الفرق غلوا مغرطا في وصفها واحصاء مقالاتها حتى وكأنهم لا يلتقون الا في عدد محدود من أصوله ومبادئه يتراشقون بالتكفير والتفسيق وتبادل التهم وما يمزق شملهم ووحدةهم التي بناها الاسلام بتعاليمه السهلة السمحاء، وقد انتهى أكثر المؤلفين في الفرق والمذاهب ما يسمونها بالفرق الشيعية الى سبعين فرقة او أكثر وحسب تقديري ان الباحث المنصف اذا درس المجاميع التي تعرضت لاحصاء تلك الفرق وما ينسب اليها من الاقوال والمعتقدات سيجد ان أكثرها من نسج أخيلة أولئك الذين تظاهروا على التشيع وكانوا يكيدون له بجميع ما لديهم من الامكانيات لمسخه وتشويه أصوله ومعاله ، وراحوا يلحقون به الغلاة والحلوليين وما الى ذلك من الفرق الضالة الدخيلة على الاسلام بواسطة الشيعيين والحاكمين الذين كانوا يسهلون انتشار تلك الافكار والآراء ليصرفوا الانظار عن جورهم واستهتارهم بالاسلام وتعاليمه وإلهاء المسلمين بتلك الصراعات الجانبية.

هذا في حين ان أئمة الشيعة يوم كان المندسون بين شيعتهم يتظاهرون بأفكارهم الشاذة ويلصقون بالأئمة ما لا يليق بغير الله سبحانه كانوا يعلنون براءتهم منهم وكفرهم في مجالسهم بجميع المناسبات ، وظل الغلو بالأئمة وما يستلزمه من الحلول والتناسخ والاتحاد من اسوأ انواع الكفر والاتحاد عند الشيعة منذ ظهور تلك الفرقة او الفكرة وحتى يومنا هذا كما يبدو ذلك من اوضح الواضحات في مؤلفات الشيعة في الاصول والفروع منذ اقدم العصور .

اما بقية الفرق الاخرى التي تنسب الى التشيع ، فلو افترضنا وجود بعضها في عصر من العصور فقد كانت لفترة او فترات محدودات لاسباب سياسية او لناحية استتار الامام الشرعي من حيث الضغوط التي كانت ترافق حياة الأئمة (ع) وتفرض عليهم التستر والتكتم حتى على المعروفين بالتشيع لهم ، وقد انقرضت تلك الفرق خلال أعوام قليلة من ولادتها ولم يبق منها سوى البعض من فرق الزيدية والاسماعيلية وهؤلاء ليسوا من الشيعة بالمعنى الذي تعنيه كلمة التشيع التي ترادف كلمة الامامية اي امامة الاثني عشر حسب الترتيب الذي ورد النص فيه من النبي والائمة (ع) .

هذا بالاضافة الى ان للاسماعيلية والزيدية في ماضيهم وحاضرهم من الاصول والمعتقدات والطرق وبخاصة بعض فرق الاسماعيلية ما لا يتفق مع أصول الاسلام فضلا عن التشيع الذي يراها اقرب الى الاتحاد منها الى الاسلام . ولو تفاضينا عن كل ذلك فالفرق المنسوبة الى الشيعة بما فيها الغلاة ليست بأسوأ حالا وأبعد عن الاسلام وأصوله ومبادئه من الفرق الاسلامية السنية كالمجبرة والمفوضة والمجسمة والمرجئة والصوفية وغير ذلك من الفرق التي ليست بأقل خطرا على الاسلام من الفلسوف المنسوب لأدعياء التشيع . هذا بالاضافة الى الفرق الكبرى التي ظهرت

في اوساط اهل السنة كالخوارج والمعتزلة والاشاعرة وغير ذلك من الفرق التي كان لها اثرها في تاريخ المسلمين الاوائل وتوجيه معتقداتهم وآرائهم في أصول الاسلام وفروعه وادخال بعض الآراء والافكار الغريبة عن أصول الاسلام ومعتقدات المسلمين التي تجر من ورائها اشبع انواع الكفر والالحاد والزندقة كما سنشير الى ذلك .

وقد تفرق الخوارج والمعتزلة والاشاعرة والمرجئة والجهمية والبكرية والضرارية والكرامية الى اكثر من تسعين فرقة كما احصاها البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق وغيره من المؤلفين في الفرق والمذاهب .

ونص البغدادي في صفحة ٩٣ من كتابه الفرق بين الفرق ان المعتزلة قد افترقوا الى اثنتين وعشرين فرقة منهم فرقتا الحابطة والحمارية على حد تعبيره ألحقهما بالفلاة مع انهما من فرق المعتزلة والباقي وهو عشرون فرقة كل فرقة منها تكفر الاخرى على حد تعبيره، ومضى يقول : ان جميع تلك الفرق قدرية محضة يجمعها كلها في بدعتها أمور نفيا عن الله سبحانه الصفات الازلية وقولها انه ليس لله علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة ازلية ولم يكن له في الازل اسم ولا صفة ولا يرى نفسه ولا يراه غيره .

وأضاف الى ذلك البغدادي انه سمع اتفاقهم على ذلك فقد اختلفوا في انه هل يرى غيره ام لا فأجازه قوم منهم ونفاه آخرون ، ومضى يعدد آراءهم وسيئاتهم حتى انتهى الى الهذلية أتباع ابي الهذيل محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف ، وعد من فضائحه التي يوجب اكثرها كفره عشرة فضائح منها فناء مقدوراته تعالى بنحو يكون بعد فناء مقدوراته غير قادر على شيء ، وان نعيم اهل الجنة وعذاب اهل النار يفيان ويبقى اهل الجنة وأهل النار خامدين لا يقدرون على شيء ولا يقدر الله عز وجل في تلك الحال على إحياء ميت ولا على اماتة حي وتحريك ساكن أو تسكين

متحرك ولا على إحداث شيء او افئائه •

ومضى البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق يتحدث عن فضائح المعتزلة التي عدها من موجبات الكفر والزندقة حتى انتهى الى ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام ووصفه بالكفر تارة وبالفسق اخرى ونسب اليه الادمان على شرب الخمر والفجور وعد له اكثر من عشرين رأيا خالف فيها الاسلام والمسلمين على حد تعبيره •

وجاء في العشرين من فضائحه كما يدعي البغدادي وأكثر المؤلفين في الفرق والمذاهب ، جاء فيها ان العقارب والحيات والخنافس والذباب والجعلان والكلاب والخنازير وجميع السباع والحيوانات والحشرات تحشر يوم القيامة وتدخل الجنة وان ابراهيم ابن رسول الله وغيره من اطفال المؤمنين كثيرهم من الحيات والحشرات والخنافس والكلاب والخنازير في الجنة ، ولا فضل لاطفال المؤمنين من الانبياء وغيرهم على تلك المخلوقات على اختلاف انواعها ، ونسب اني الله العجز وعدم القدرة على تمييز اولاد المؤمنين والانبياء على الحيوانات والحشرات لتساوي الجميع في عدم العمل ، وأضاف كما يدعي البغدادي ان الله لا يتفضل على الانبياء الا بمثل ما تفضل به على البهائم •

كما نسب لبشر بن المعتمر احد زعمائهم في معرض حديثه عن فضائحه وآرائه المنافية للاسلام نسب اليه انه كان يقول : ان الله سبحانه قد يغفر للانسان ذنبه ثم يعود فيما غفر ويمعذب الانسان عليه اذا عاد لمعصية ثانية ، وانه سئل عن كافر تراجع عن كفره وآمن بالاسلام ثم شرب الخمر بعد توبته من كفره من غير استحلال لشربه ، وقبل توبته من شرب الخمر عاجله الموت ، فقال : ان الله يعذبه على الكفر السذي تاب منه •

وكان يلتزم بأن عذاب الكافر لا يختلف عن عذاب المسلم اذا عصى الله ولا يزيد عليه ، وان الله قد يعذب الطفل الصغير ظالما له في تعذيبه اياه وانه لو فعل ذلك يلزم ان يكون الطفل بالغا عاقلا مستحقا للعذاب .
كما نسب الى المردارية أتباع عيسى بن صبيح المعروف بأبي موسى المردار الذي كان يلقب براهب المعتزلة انه كان يقول : ان الناس قادرون على ان يأتوا بمثل هذا القرآن وبما هو أفصح منه كما يدعي استاذاه النظام .

ومن مقالات الحابطية أتباع احمد بن حابط القدري احد اصحاب النظام وكان هو وفضل الجدثي يذهبان الى ان للخلق ربين وخالقين احدهما قديم والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم ، وزعما ان المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة وهو الذي عناه الله بقوله : وجاء ربك والملك صفا صفا وهو الذي خلق آدم على صورته وهو الذي عناه الله بقوله : ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وان عيسى هو العقل الذي خلقه الله وقال له اقبل فأقبل وأدبر فأدبر وانه هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة .

وأما الحمارية من القدرية فيدعي البغدادي انهم من معتزلة عسكر مكرم وقد اختاروا من بدع أصناف القدرية ضلالات مخصوصة فأخذوا من ابن حابط قوله بتناسخ الارواح في الاجساد والقوالب ، وأخذوا من عباد بن سليمان الضميري قوله : بأن الذين مسخهم الله قردة وخنازير كانوا بعد المسخ ناسا على حد تعبيره وكانوا معتقدين للكفر بعد المسخ وزعموا بأن الانسان قد يخلق انواعا من الحيوانات كما لو دفن اللحم في التراب او وضعه في الشمس فان ما يتولد من الحشرات هو من خلق الانسان الى غير ذلك من المقالات والآراء التي نسبها البغدادي وغيره من

المؤلفين في الفرق والمذاهب للمعتزلة^(١) والتي تتنافى مع الاسلام وأصوله ومبادئه مما لا يعنيها احصاؤها في كتابنا هذا ولعلنا بمون الله وتوفيقه نضع جميع مقالات الفرق الاسلامية السنية من معتزلة وأشاعرة ومرجئة وقدرية وكرامية وشطحاتهم بين أيدي القراء في كتابنا نظرات في الفرق الاسلامية ومقالاتهم وترك للقراء الكرام تقدير المسافة التي تفصلها عن الاسلام ، ومما يلفت النظر في المقام وان كانت جميع مواقف السنة من الشيعة بكل فئاتهم من محدثين ومؤرخين وحاكمين تتسم بالحق والعداء والتحيز الذي لا مبرر له ولا تفسير له الا بالعداء السافر والمحاولات اليائسة للقضاء على الشيعة .

ومما يلفت النظر ان الباحثين والمؤلفين من القدامى والمحدثين قد تجاهلوا جميع بدع المرجئة والمعتزلة والقدرية والكرامية التي تتسم بالكفر الصريح والتحوير لتعاليم الاسلام وأصوله وتكذيب القرآن كما جاء في مقالات عيسى بن صبيح راهب المعتزلة ومقالات الحابطية والعلافية الى غيرها من مقالات بعض فرقهم ، لقد تجاهلوا وتركوا وراءهم جميع تلك المقالات وراحوا ينسبون الى الشيعة فرقا وأحزابا لا واقع لأكثريتها والواقع منها لا صلة له بالتشيع من قريب او بعيد ، وقد اعلن أئمة الشيعة كفرهم وخروجهم عن الاسلام في عشرات المناسبات كما تؤكد ذلك جميع المرويات عنهم ومواقف علماء الشيعة في مختلف العصور والمناسبات ، في حين ان مقالات تلك الفرق المزعومة وحتى ما ينسب منها الى الغلاة ليست بأسوأ ان لم تكن أقل سوءا وخطرا من مقالات الحابطية والهديلية والقدرية والمردارية والصوفية كما يبدو ذلك من الفرق بين الفسرق

١ - انظر ص ٩٣ وصفيحة ١٥١ و ص ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ من الفرق بين الفرق للبغدادي .

للبغداي وغيره من المجاميع التي أعدت لاحصاء مقالاتهم وآرائهم وما ادخلوه على الاسلام من البدع والتفاسير التي تجر من ورائها اسوأ انواع الكفر والالحاد والزندقة .

والذي يعنينا الان من هذا العرض اليسير لبعض الفرق والمذاهب الاسلامية التي اشتد الصراع بينها وبلغ اقصى حدوده خلال القرنين الثاني والثالث هو التمهيد لبيان الاسباب التي ساهمت في بقاء التشيع بالرغم من مطاردته في حين ان اكثر تلك المذاهب قد نشأت في أحضان الحاكمين وحصلت على تأييدها ومساندتها وبخاصة منها مذاهب الاعتزال والارجاء والجبر وعدالة الصحابة ، وظل الاعتزال برعاية الحاكمين اكثر من ثمانين عاما تعرض فيها أخصام المعتزلة لاسوأ انواع البلاء وأصبحت تعرف تلك الفترة بمهد المحنة .

وظل الاعتزال يتسع ويتشر حتى ظهر ابو الحسن الاشعري وراح يفند أفكار المعتزلة وآراءهم بمساندة الحاكمين الذين مثلوا مع أنصار الاعتزال نفس الدور الذي مثله الحاكمون قبلهم مع الفقهاء والمحدثين ومن كان يرى رأيهم .

وكما اتشرت وتعددت المذاهب العقائدية ظهرت المذاهب الفقهية في كل قطر ومدينة وأصبح لكل مذهب أنصار وأتباع وكثرت المذاهب حتى أصبحت تعد بالعشرات في مختلف الاقطار فكانت اكثر رواجاً من المذاهب الاربعة التي احتفظ بها الحاكمون الذين فرضوا الفناء بقيسة المذاهب الفقهية والعقائدية وعلى رأسها الاعتزال ، وظلت المذاهب الاربعة الفقهية والمذهب الاشعري من بين المذاهب العقائدية هي المذاهب الرسمية للدولة في الاصول والفروع ، اما بقية المذاهب الفقهية والعقائدية فقد اندثرت وذابت وكأنها لم تكن ، في حين لم يتعرض مذهب من تلك المذاهب التي لم تثبت امام ضغط الحاكمين لمثل ما تعرض له المذهب الشيعي بأصوله

وفروعه وظل قويا ينتشر ويتسع في جميع المراحل التي مر بها بالرغم من الصعاب والعقبات والمحن التي اعترضت طريقه وطريق المنتسبين اليه كما اشرنا الى بعضها خلال الفصول السابقة لا يبالي بكل ما يعترضه من ارهاق وعسف وجور متمردا على جميع تلك الادوار الصاخبة العاتية وعلى كل ما ألصقوه به من الخرافات وما رموه به من المفتريات والاضاليل التي لا تزال تجرّها اللسن وتزخر بها المؤلفات ويستغلها المتزلفون الى الحاكين من الكتاب والدكاترة في هذا القرن لقاء المبالغ التي تدفق عليهم من مدعي الاسلام وأعداء التشيع .

وكان من المفروض بالقياس الى غيره من عشرات المذاهب الفقهية والعقائدية والفرق التي كانت منتشرة هنا وهناك واندثرت بتلك السرعة الخاطفة ، كان من المفروض بعد ان كان مستهدفا بكل الاسلحة وفي جميع مراحلها من الحاكين والمؤلفين وغيرهم ان ينمات في ظل تلك الاعاصير الهوجاء المرهقة العصيبة التي احتوشته من كل جانب وأن يصبح أثرا بعد عين ويتلاشى كما تلاشت بقية المذاهب والفرق وبخاصة تلك التي كانت تستمد قوتها وأصالتها من الحكام انفسهم .

لقد امتاز التشيع لعلي والأئمة من بنيه بهذه الظاهرة التي تكاد ان تكون فريدة في تاريخ الاسلام وحتى في تاريخ غيره من الشعوب والامم، فلم يحدث التاريخ عن امة من الامم ولا عن فرقة من الفسرق تعرضت للمطاردة والارهاق والتعذيب والقتل وكل انواع التنكيل لمجرد الاتهام بالتشيع طيلة قرون من الزمن ومع ذلك فقد ظل يسير الى الامام بظامه الوهاج وفتوته المتدفقة بالحياة متمردا على الحاكين وأجهزتهم وعلى كل ما حيك حوله من مؤامرات وخرافات وأباطيل ومفتريات .

ويمكن تعليل ذلك بأن التشيع لعلي (ع) أصيل اصالة الاسلام ولا يختلف في شيء عما جاء به في كتابه وسنة نبيه ورافق مع ذلك الدعوة

الاسلامية منذ بدايتها ابتداء من يوم الدار الذي اعلن النبي (ص) فيه استخلاف علي من بعده وما تلاه من المواقف التي كان النبي (ص) يقدم فيها عليا على جميع اصحابه ويعدده للقيادة من بعده وكان مع ذلك في جميع مواقف الاسلام وحروبه مع الشرك والوثنية القوة الضاربة والفاعلة في جميع الانتصارات التي حققها الاسلام مع خصومه الألداء والاشداء ، وليس بإمكان احد من خصومه ومناوئيه ان يتجاهل هذه الناحية من نواحي عظمته ، ولاكثر من مرة كان عمر بن الخطاب يردد على ملا من الصحابة : لولاه لما قام للاسلام عمد .

وحتى ان معاوية نفسه الذي فرض سبه على المنابر وعاقب على تركه كان يعترف له بالفضل الذي لم يستطع احد مجاراته فيه من حيث لا يريد كما حدث له مع ضرار والاحنف بن قيس وبعض الوافدات عليه بعد عام الجماعة من النساء اللواتي اشتركن في معارك صفين وغيرهن .

وقد حدث الرواة عن عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان كما جاء في شرح النهج وغيره انه كان عندما يأتي الى ذكر علي (ع) وفي خطبة الجمعة ليشتمه كما كان يفعل الامويون في خطبهم ومناسباتهم الدينية ، كان يتعثر في حديثه ويتلثم وكأنه من أعيان الناس ، وكان ولده عمر بسن عبد العزيز يراقب فيه هذه الظاهرة ويستغرب ذلك منه ، فقال له يوما بعد ان فرغ من خطبته : انك من أفصح الناس وأبلغهم فما لي اراك اذا مررت بذكر هذا الرجل صرت ألكن عيبا ، فقال له : يا بني ان من ترى تحت منبرنا من اهل الشام وغيرهم لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه ابوك لم يتبعنا منهم احد^(١) .

وفي رواية ثانية انه كان يلعب مع الصبيان عندما يخرجون لقضاء

فترة من الوقت خارج المكان الذي يتعلمون فيه وكانوا يتلهون بسب علي وشتمه كما فرض معاوية ذلك ليثب على هذه السنة السيئة الصغير ويشيب عليها الكبير ، فمر عليه معلمه كما حدث هو عن ذلك وهمس في أذنيه قائلاً : يا بني متى غضب الله على اهل بدر بعد ان رضي عنهم ؟ فقال له الصبي : وهل كان علي من اهل بدر ؟ فرد عليه بقوله : وهل قامت بدر الا بسيف علي •

وظلت هذه الصور عالقة في ذهن الغلام الى حين استيلائه على الخلافة فراح يعيد النظر في كل ما أحدثه أسلافه من ظلم وجور وأنظمة كانت الامة بكل فئاتها تضج منها وكان في واقعه ثائرا بالمعنى السليم لهذه الكلمة على الانظمة الفاسدة اكثر منه خليفة بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة وكان مما غيره من مخلفات آبائه وأجداده ان اصدر اوامره الى ولاته وخطباء المنابر في الامصار بعدم التعرض في خطبهم ومجتمعاتهم لعلي وآله بسوء واستبدال الكلمات التي كان الخطباء يستعملونها عند ذكر علي وبنيه (ع) بالدعاء للمسلمين بأن يجمع كلمتهم على الحق والهدى الى كثير من الشواهد التي تؤكد بأنه قد كان لعلي (ع) في نفوس عامة المسلمين من شخصيته وعلمه الواسع ومواقفه الخالدة في سبيل الاسلام والمسلمين ما يفرض على المسلمين بكل فئاتهم وفي مختلف العصور تقديسه وإكباره في قرارة نفوسهم وفي الوقت ذاته لقد كانت مصالحهم السياسية وحقدهم الموروث على الرسالة وعلى الإمام والأئمة من بنيه الذين كانوا يجسدونها بكل فصولها ومراحلها ويجمونها من حقد الحاكمين وعبث الخريين تفرض عليهم تلك المواقف العدائية الظالمة ، فالأئمة الذين هم قادة الشيعة والمحور لنظرية التشيع ، لهم من نواحيهم الشخصية أمثلة قدسية تسو بطاقتها ومستواها على جميع من سواهم ولم يستطع الحكام بكل ما بذلوه من جهود ان يغيروا من هذا الواقع

الذي استحوذ على النفوس والقلوب ، مع ما لنظرية التشيع من الطابع السلبي بالنسبة لاولئك الحاكمين الذين كانوا يمارسون جميع المنكرات والشهوات على حساب الاسلام ، تلك النظرية التي كانت بقيادتهم الرشيدة تحامي وتدافع دفاع الزاهدين في الحياة عن بيضة الاسلام والوحدة الاسلامية العامة في ظل اولئك الحكام الذين كانوا يتخذونه اداة للحكم والتسلط وممارسة جميع المنكرات ، وليس أدل على ذلك من قول الامام (ع) بعد مؤامرة السقيفة : ان سلامة الدين أحب الينا من كل شيء ووقوفه الى جانب غيره من الحاكمين متجاهلا كل ما مضى منهم لسحق المرتدين ومطاردتهم ، وقوله بعد ان عهد ابو بكر الى ابن الخطاب بالخلافة تاركا وراءه آراء المشيرين والناصحين : والله لأسألن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة ، الى غير ذلك من مواقفه التي كان مسيرا فيها لمصلحة الاسلام .

ومن أمثلة ذلك وما اكثر الامثلة على عظمة علي والأئمة من بنيته وتفانيهم في خدمة الاسلام ان عليا كاد ان يقطع يد ابنته ام كلثوم لانها استعارت عقدا من بيت المال لثلاثة ايام عارية مضمونة برضا المسؤول عن تلك الاموال ، وأحمى حديدة لاخته عقيل ولذعه بها ليذكره بحرارة جهنم وأهوالها لا لسبب الا لانه طلب منه أكثر مما يستحق من العطاء . ومن ازوع الامثلة على مثاليته التي رافقته حتى النفس الاخير مسن حياته انه كان يعنى العناية الكاملة بتوحيد الصف وحفظ الدماء والعمل الجاد المخلص للمصلحة العامة ولو أدى ذلك الى القضاء على جميع اعتباراته الشخصية وحقوقه الخاصة وحقوق بنيته من بعده ، ولقد قال وهو على فراش الموت بعد تلك الضربة الفادحة التي كانت من نتائج التآمر على حياته قال : يا بني عبد المطلب لأفنيكم تخوضون دماء المسلمين خوفا تقولون قتل امير المؤمنين الا لا يقتل بي الا قتلي ، فكان

يتخوف من أسرته الاقربين اليه ان يتخذوا من قتله وسيلة للتشفيي والتذرع به الى المطامع الدنيوية وطلب الجاه والسلطان ويستغلون بقتله تلك الاهداف التي لا تخدم مصلحة الاسلام كما فعل معاوية بن هند ، حين استغل مصرع عثمان الذي وقع على أيدي المهاجرين والانصار، وسيلة لتحقيق ما كان يحلم به هو وأبوه وأسرته من قبل ، في حين انه كان في طليعة الذين خذلوه في أحلك ساعات المحنة بالرغم من الاستغاثات التي وجهها اليه لينقذه من الحصار المضروب عليه .

وما اكثر الامثلة على مثاليات الإمام والأئمة الاثني عشر الذين ينتسب اليهم التشيع وأروعها، تلك الامثلة التي لا نظير لها في جميع ما سطره لنا التاريخ وتناقله الرواة من السير الاخرى والتي تدل على ان الثقة بهم كانت متكاملة الحدود زاخرة بالمحبة والتقدير والتفاني في سبيلهم على نحو لم يتوفر لغيرهم من القادة وذوي الرسالات كما تؤكد ذلك مواقف الكثيرين من اصحاب الإمام والأئمة من بنيه كحجر بن عدي الكندي وميثم التمار ورشيد الهجري وسعيد بن جبير وعمرو بن الحنق الخزاعي والفقاري وعمار بن ياسر وغيرهم من اعيان الصحابة والتابعين كأصحاب الحسين والتوايين وألوف الثائرين من المسلمين الذين الهبت العقيدة نفوسهم وغلت فيها دماؤهم فأثروا الموت في سبيلها وأقبلوا عليه بنفوس مطمئنة وكأنهم يعانون عادة حسناء ، في حين انه كان من أيسر الاشياء عندهم ان يدفعوه عنهم ولو بكلمة لا تتجاوز ألسنتهم ويستترون بكل ما يعتقدون ولكن نفوسهم أبت الا ان تجهر بكل ما تؤمن وتعتقد ، فلقد حدث الرواة عن ابن السكيت اللغوي المشهور انه كان المعلم لولدي المتوكل العباسي فأراد ان يختبره المتوكل بعد ان اشتهر بتشيعه وولائه لاهل البيت والمتوكل يومذاك من الغالين في عدائه للعلويين ، فقال له

في بعض مجالسه معه : أولداي هذان أحب اليك أم الحسن والحسين ؟ فقلت العقيدة الصادقة في دمه ولم يعد يملك دفعها ، فقال له : ان قنبرا خادم الحسن والحسين خير عندي منك ومن ولديك . وبذلك كانت نهايته بعد ان استخرج لسانه ومثل به ، الى كثير من أمثاله الذين كان الحاكمون يسومونهم سوء العذاب على ولأئهم لاهل البيت (ع) ، في مختلف العصور ، ومن غير السير استئصال الولاء عندما يكون بالفا افضى حدوده وقائما على أسس متينة من العقيدة والعلم والمعرفة لا على الدوافع العاطفية النابعة من بغضاء الهاشميين للامويين من جهة والعلويين للعباسيين من جهة اخرى ولا على الدوافع المصلحية النابعة من الصراع على السلطة بما هي سلطة وتسلط كما جرت عليه سيرة الحاكمين كما يبدو ذلك للمتتبع في التاريخ الثابت للقيادات الشيعية وعلى رأسها أئمة اهل البيت (ع) الذي ينفي عنهم هذا الاتهام ويثبت ان حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام وانهم انما غلبوا مع خصومهم الامويين والعباسيين وغيرهم من الحاكمين في معاركهم السياسية والعسكرية لانهم كانوا يتبعون في تعاملهم مع الامة ومع أنصارهم مبادئ ومقاييس تنبع من شعورهم بمسؤوليتهم الاسلامية وحرصهم على الاسلام ومبادئه وتعاليمه في الدرجة الاولى .

ويكفي للدلالة على ذلك بالاضافة الى ما ذكرناه من الامثلة ، ان الإمام علي بن الحسين زين العابدين الذي شهد بنفسه فاجعة كربلاء وعاشها بجميع مراحلها وبكل آلامها وأحزانها ساعة بعد ساعة على يد الامويين ، كان يدعو لاهل الثغور جنود النظام الاموي الذي ارتكب جريمة كربلاء ، والذي أسره مع عماته وأخواته وغيرهم من نساء الانصار وأطفالهم الى الكوفة ومنها الى الشام عاصمة الامويين بناء لطلب يزيد

يومذاك ، ولم يكن دعاء الامام زين العابدين كما ورد في المجموعة المعروفة بالصحيفة السجادية الا وعيا وتقديرا منه لدور تلك الجيوش التي ترابط على الثغور الاسلامية لحفظ المجتمع الاسلامي من اعداء الاسلام الذين كانوا يجمعون فلولهم وقواهم للتسلل الى المناطق الاسلامية المتاخمة لحدودهم للتكامل بالمسلمين وإيقاع الاذى في صفوفهم .

لقد كان يدعو لتلك الجيوش لهذه الغاية وبهذا الدافع وان كانت في الوقت ذاته تحمي النظام الاموي وتعمل تحت لوائه ، ولكن ذلك لم يكن ليشي قادة الشيعة وعلى رأسهم الأئمة الاطهار عن العمل الجهاد المخلص لمصلحة الاسلام حتى ولو كانت فيه نهاية حياتهم اذا كانت التضحية بها تجدي الاسلام والمسلمين نفعا كما فعل الحسين بن علي (ع) الذي بذل نفسه وكل ما يملك من اسرته عندما رأى تيار الجاهلية بكل اشكالها يهدد رسالة الاسلام وتعاليمه .

هذا بالاضافة الى ان التشيع يمثل جوهر الاسلام وصفاءه تمثيلا صادقا وسليما في جميع أصوله وفروعه ولم يكن شيئا آخر وراء الاسلام، وقد سبقت دعوة النبي (ص) الى ولاء عليسي وقيادته من بعده اكثر التشريعات التي جاء بها الاسلام كما تؤكد ذلك اكثر المصادر الموثوقة ، وما أحدثه المهاجرون بعد وفاة النبي (ص) كان من الاحداث الطارئة التي فرضتها السياسة والاحقاد الجاهلية ، ولم يكن لدى علي وبقية الأئمة (ع) ومن كان يدين بالولاء لهم شيء غير ما جاء به الكتاب وما ثبت عندهم من اقواله وأفعاله ، واعتمدوا هذين الاصلين وحدهما اساسا للتشريع وليبان الاصول التي لا يتم الاسلام بدونها وأعلنوها حربا لا هوادة فيها على جميع الآراء والافكار التي ظهرت بين بعض المندسين في صفوف الشيعة وفي اوساط السنة ومحدثيهم كالقدرية والمجبرة والمرجئة والمشبّهة

والمُتصوفين وما الى ذلك من الآراء والافكار الغريبة التي غزت الاسلام
وأصوله عن طريق الشعوبيين وأعداء الاسلام من تلك البلاد التي
ارغمتها الجيوش الاسلامية الفارسية على الاستسلام للنظام الاسلامي الذي
كان قائما يومذاك وعادت التيارات الجاهلية والوثنية الى الظهور ولكن
بلون اخر وتحت ستار الاسلام .

التيارات الجاهلية الجديدة

لقد مضى اعداء الاسلام ممن أرغموا على الانضواء تحت لوائه يعملون لتشويه الاسلام ومعتقداته بشكل مستمر حيناً وأحياناً بشكل دعوات سافرة في العصر الاموي ، وتبنت بعد ذلك بعض فرق المعتزلة والاشاعرة الكثير من تلك الآراء والافكار كما اثرتنا الى بعضها خلال الفصول السابقة ، ولم يكن بوسع احد من فقهاء ذلك العصر ومحدثيه غير الأئمة وتلامذتهم ان يصمد في وجه تلك الهجمات التي كان قادتها يستخدمون الفلسفة تحت ستار العقل والمنطق حتى في تفسير القرآن والسنة النبوية للتوفيق بينها وبين تلك الافكار مما أدى الى انتشار تلك الافكار والآراء الغريبة عن الاسلام وأصوله حتى بين الفقهاء والمحدثين فقد نسب الاشعري في مقالات الاسلاميين القول بالارجاء والقدر الى كل من ابي حنيفة وحماد بن ابي سلمة ، كما نسب في مقالاته هــو والشهرستاني في الملل والنحل القول بها الى ابن ابي ليلى وغيره مسن الفقهاء ، وفي مقابل القول بالقدر انتشرت فكرة الجبر بين عامة الفقهاء والمحدثين ، هذا بالإضافة الى مقالات الدهرين والثوية والديصانية التي انتشرت لتشكيك المسلمين في دينهم ومعتقداتهم ، وكانت القيادات

الشيعة التي كان الأئمة (ع) يتعاهدونها بأفكارهم وتوجيهاتهم في طليعة المتطوعين لخوض تلك المعارك مع الفئات الغازية لاجباط محاولاتها التي كان الحكام انفسهم يساعدون على نجاحها ويمدون دعائهم بكل اسباب العون والمساعدة والرعاية .

لقد تجردوا لاجباطها بالمنطق والعقل وكل انواع المعرفة برعاية الأئمة واشرفهم ، وأحيانا كان الأئمة (ع) انفسهم يتولون مناظرة اولئك الفزة وتفنيد مزاعمهم ومفترياتهم مما أدى الى اقتناع الكثير منهم بالاسلام واعتناقهم لأصوله ومبادئه .

لقد ساعد الحاكمون أنصار تلك التيارات الجديدة التي كان يتلهمى بها المسلمون عن الواقع السيئ الذي اعتادوا على ممارسته ، لقد ساعدوهم وناصروهم على نشر تلك التيارات واشاعتها بعد ان وجدوا ان اسلحة البطش والقهر والقمع وحتى سلاح المال عاجزة عن توفير الهدوء والاستقرار وصرف الانظار عن استهانتهم بالقيم والمقدسات وكرامة الانسان فراحوا يروجون تلك الاسلحة التي تهدف الى زعزعة الايمان وتجميد الافكار وشل القيم واطلاق الرغبات والنزعات واشاعة الابتذال وخنق الحريات وجميع القيم التي فرضها الاسلام وطمس قواه ومعاله من النفوس والقلوب ، ذلك لأن مصادرة ارث الاسلام بالسيف والمال والتشريد وان كان يحقق لهم نوعا من الهدوء المحدود على جميع الجبهات الثورية الاسلامية كما حصل لهم في ثورة المهاجرين والانصار الاولى بقيادة ابي ذر وعمار بن ياسر وغيرهما من أعيان الصحابة ووجوههم الاوفياء لرسالة محمد (ص) وفي ثورة الحسين بن علي وحجر بن عدي وأصحابه الكرام البررة الذين وقفوا بحزم وصلابة في وجه معاوية وجلاديه وضحووا بأنفسهم من اجل الحق والعدالة وثورة الحسين بن علي (ع) وما تلاها من الاتفاضات التي كانت تقمع بالسيوف والاموال

وتحقق لهم الهدوء ، ولكنه كان هدوءا مرييا يضم في أعماقه شرارة لن تلبث ان تشتعل وتلتهم وتمتد لتولد الانفجار ، وما ذاك الا لأن الاسلام بالرغم من جميع تلك الوسائل بقي موجودا في معاقله داخل الاقنسة والقلوب والعقول ، وطلاب العدالة والحرية ما زالوا هنا وهناك على امتداد الوطن الاسلامي بقيادة أئمة الشيعة وغيرهم يستغلون المناسبات والظروف لاتنفاضة جديدة ، لان الاسلحة التقليدية التي كانت وسيلتهم الوحيدة لقمع الانتفاضات كالدرهم والدنانير وامارة الري والعراق ومصر وما الى ذلك من المقاطعات ودهاء ابن العاص وسيوف الجزائريين كبر بن اربطة وزياذ بن سمية وولده عبيد الله والحجاج بن يوسف وابن هبيرة وغيرهم لم تعد تحقق للحاكمين ما يريدون ما دامت العقول والقلوب هي المصادر للخطر والانتفاضات بين الحين والآخر ، فعليهم اذن ان يستعملوا اسلحة جديدة يستعمرون بها القلوب والعقول ، وهذه الحرب الجديدة ستتخذ من القرآن سلاحا ومن السنة متراسا ومن الايمان اداة ومن الفكر قاعدة لها ومن الاسلام راية تخفق في سماءها ، ومن العقول والقلوب ساحة ، وأصبحت العقول والقلوب وما يشتعل فيها من ضوء الاسلام وثورته الاصيلة مستهدفة بذاتها في هذه الحرب الجديدة .

وأعد الحاكمون لها جيشا من المفسرين والقراء والمتكلمين والفقهاء والقضاة ورجال الدين وما بقي من الصحابة وأولادهم قادة لهذا الجيش، وأصبح الاسلام وسيلة للسلطة ومبررا لكل اعمالها وسيئاتها وتجاوزاتها . لقد شاهد المسلمون مقالات المشبهة والمجسمة والذهرية والديصانية واليهودية والنصرانية تنتشر ويطول الصراع حولها بما يشغل عقول الناس وقلوبهم ، وأفكارا مستوردة من الصين والهند وفارس ومن غيرها مما حمله الشعوبيون وأدخلوها على الاسلام تحمل شعارات الزهد والتصوف ومحاربة الشهوات والفرائز بالالتجاء الى الكهوف والغابات ولبس

المركبات وما الى ذلك من الطرق والاعمال التي تؤدي بهم على حـد زعمهم الى الفناء المطلق والسيطرة على جميع الكائنات ، والاتصال بالمبدأ الاعلى مباشرة بدون حاجة الى الرسل والانبياء ، لان البحار التي يـخوضونها تقف الانبياء على سواحلها ولا تستطيع خوضها كما يدعي البسطامي وغيره من متصوفة القرنين الثاني والثالث .

وبالرغم مما تحمله افكار المشبهة والمجسمة والدهريين وغيرهم من الزنادقة والمشعوذين الذين أعدهم الحاكمون لترويج هذه الافكار وإشاعتها ليصرفوا الافكار والعقول عن تصرفاتهم وسيئاتهم ، بالرغم مما تحمله وتنطوي عليه من أخطار على الاسلام وأصوله وما توفره للحاكمين من طمأنينة واستقرار وبالرغم مما تنطوي عليه هذه الافكار والآراء من سموم وتحريف وتشويه لاصول الاسلام فالتصوف والجبر والارضاء أشد خطرا على الاسلام ومن اسوأ الاسلحة التي استعملتها الجاهلية الجديدة لتقويض روح الثورة والانتفاضات التي كانت تعصف في وجه الحاكمين وسياستهم الجائرة .

فالتصوفة الذين لبسوا ثياب الزاهدين في الدنيا وملذاتها والتجأوا الى الكهوف والغابات مكتفين بالقليل القليل مما يتنافس عليه الناس ليصلوا الى مرتبة الفناء المطلق التي تمكنهم من الاتصال بالله مباشرة والاتحاد معه او حلوله بهم وبالمستحسنيات من الصور وهم في جلايب الدروشة يفرون الناس بالرديلة والاستخفاف بتعاليم الاسلام وتأويلها كما يشاؤون ويشتهون وما الى ذلك من اساليبهم التي هيموا بها على الكثيرين بمساندة الحاكمين ، هذا النوع من التصوف الذي ظهر في الاوساط الاسلامية بعد مرور أكثر من ثمانين عاما على وفاة الرسول (ص) بواسطة الشعوبيين وبرعاية الحاكمين الذين وجدوا فيه كل ما يصبون اليه من تخدير للعقول والقلوب وتقويض لروح الثورة واستخفاف بالقيم

والشرائع السماوية وكل ما عجزت عنه سيوفهم وجيوشهم •
ولا شيء أجدى للحاكمين وأعز عليهم من ان ينصرف الناس عن
شؤونهم وتصرفاتهم وملذاتهم الى الكهوف والغابات والجوامع والمعابد
والاغراق في التفكير والتأملات في عالم السماء والغيبيات وفي الطرق
التي تشدهم الى هذه العوالم بالبعد عن دنيا الناس وما فيها من متع وملذ
تحول بينهم وبين السماء التي صعد اليها البسطامي والثبلي والسري
السقطسي والجنيد وغيرهم ممن أقيمت لهم الحفلات في السماء
بحضور إله الصوفية ورهط من الملائكة المقربين •

وجاء في الفتوحات المكية لابن عربي انه صعد الى السماء ونصب له
الملائكة كرسيا بين يدي الله وجلس حولهما عظماء الملائكة والانبياء وفي
هذا الاجتماع ختمت الولاية به ، ولم يكتف الصوفية جنود الحاكمين
باغراء الرجال وتضليلهم وإلهائهم بتلك الشعبذات عن تصرفات الحاكمين
وجورهم بل جعلوا يتسللون الى البيوت لإغراء النساء وتضليلهن وإفساد
المجتمع من كل نواحيه كما جاء ذلك في مؤلفات الصوفية ومن كتب عنهم،
ومن اراد الاطلاع على آرائهم وشطحاتهم فليرجع الى كتابي (بين التشيع
والتصوف) •

ولقد جاء في شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي ، ان امرأة من
نساء الملوك زهدت في الدنيا على طريقة ابي يزيد البسطامي في الزهد
وكانت والهة به وبذكره ، فقيل لها : اخبرينا عن كرامة الله لك ، فقالت:
فيما كنت ألهج بإشارة ابي يزيد سألت ربي ان يريني في الغيب ، وبينما
انا أسأله اذ أسري بي ذات ليلة الى السماء حتى جاوزت الهواء السابع
وصرت الى العرش فنوديت من جهته اقبلي اقبلي ، فتناهيت الى العرش
وطرت الى الحجب ، ثم نوديت ادني مني فخرقت الحجب ورأيت الحق
فقلت لمن كان معي : اين ابو يزيد البسطامي ؟ فقيل لي : ها هو امامك،

الى كثير من أمثال هذه الخرافات التي شاعت عن الصوفيين والصوفيات
واستجابت لها عقول البسطاء والمستضعفين من الناس .
وبلا شك فإن الحاكمين يرحبون بكل هذه المظاهر ويسهلون لها سبل
البقاء والانتشار ، لأن المجتمعات التي تظهر فيها هذه الاوبئة لا بد وأن
تنقسم على نفسها وتكون مسرحا للجدل والصراعات الفكرية واللفوضى
التي تشغل العقول وتصرفها عن الحاكمين وجورهم واستغلالهم لخيرات
الشعوب ومقدراتها وذلك أجدى لهم من السياط والسيوف كما ذكرنا .

الارجاء

ولم يكن الارجاء بأقل تأثيراً على تقويض روح الثورة ومسارها من التصوف ، بل كان له نفس التأثير والتأثير ، وكان أكثر دعائه من العلماء ورجال الدين والمتكلمين ، والذي تعنيه كلمة الإرجاء ان كل شرير وآثم وحاكم متسلط ظالم مهما بلغت جريمته عليه ان يرجو مغفرة الله وينتظر رحمته ولا يتنافى ذلك مع ايمانه ويصح وصفه بالايمان ، وان كان من الحاكمين يبقى من أمراء المؤمنين ، وقد اسند هؤلاء فكرتهم هذه الى القرآن مستدلين عليها بالآية الكريمة (وآخرون مرجون لأمر الله اما يعذبهم او يتوب عليهم) .

ولما كان كل مجرم ينتظر من الله العفو والرحمة وهو الغفور الرحيم كما وصف نفسه ، فعلى الناس ان لا يشجبوا عمل الظالم مهما تمادى في ظلمه وجوره ، ولا مقاومته ووصفه بالظلم والجور لان الله سبحانه قد ارجأ امره ليوم الحساب حيث تقام الموازين وهو الغفور الرحيم ، فمن حكم عليه في الدنيا بحكم يتنافى مع ايمانه فقد تدخل في صلاحيات الله سبحانه ، وعلى الناس جميعهم مهما بالغ الظالم في ظلمه وتمادى في سي جوره بنتيجة هذه الافكار التي خرجت من قصور الخلفاء وراح الخطباء

والعلماء يتداولونها في حلقاتهم ومن على منابر المسلمين ، ان يصبروا على الجور والظلم ولا يتحيزوا للمظلوم ضد الفئة الحاكمة الظالمة ويتركوا ذلك له وحده لانه هو الذي يقرر يوم الحساب مصير المؤمنين والعاصين والظالمين .

والنتيجة الحتمية لذلك ان على الناس ان يتركوا لبني أمية وغيرهم من الحكام حرية التسلط والحكم والسيادة مهما أوغلوا فسي البغي والظلم والتجبر ، وهذا هو الذي كان ينشده الحاكمون من الإرجاء الذي خرج من قصورهم ومهدوا لانتشاره عن طريق العلماء وخطباء الجوامع وغيرهم من الفئات التي كانت تتقاضى الثمن على نشر هذه الافكار وتقويض روح الثورة ومساها .

ومن نسب لهم القول بالإرجاء من العلماء ابو حنيفة وحماة بن ابي سليمان وابن ابي ليلى كما ذكرنا خلال الصفحات السابقة وأضاف الى ما ذكرنا جنود الإرجاء لتبزيير تصرفات الامويين ان الايمان هو التصديق بالقول دون العمل وان ما دون الشرك مغفور للانسان مهما كان نوع الجريمة وان العبد اذا مات على التوحيد لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات .

وقال الدكتور محمود اسماعيل في كتابه الحركات السرية : ان الإرجاء في واقعه تبرير واضح لاغتصاب بني أمية حق الامامة بوسائل التدليس والاختيال وأساليب الترغيب والترهيب ، ولذلك كان الارزاء دين الملوك، لان المرجئة لم يعارضوا الحكومة الاموية كسائر الفرق الاخرى ، بل اعترفوا بشرعيتها ونادوا بوجوب طاعتها ، ومضى يقول : ان شيوخ هذا المذهب لقد حظوا برعاية الامويين الاوائل وأقاموا الى جانبهم فسي عاصمتهم دمشق ، بينما تعرض غيرهم من الفرق الاخرى لضروب من التعذيب والاضطهاد .

اما الخوارج فقد لاقوا عنتا شديدا من ولاية العراق مما اضطرهم انى نقل مسرح نشاطهم الى بلاد المشرق ، وظل الشيعة في الكوفة وغيرها يتعرضون للمحنة والاضطهاد ، وأخيرا أرغموا على مساعدة ولايتها في قتال الخوارج كيما يضعف بعضهما البعض الاخر فيتخلص الامويون من العدوين في وقت واحد .

ومضى الدكتور اسماعيل يقول : ان المرجئة قد نعموا بالاقامة في البصرة دون ان يجدوا عنتا من ولايتها فعملوا على نشر هذا المذهب بين اهلهما وكان حسان بن بلال المزني اول من دعا الى مذهبه بينهم ولقيت دعوته قبولا حيث وجد البصريون في الارزاء ضالتهم المنشودة لانهم سئوا الحروب وآثروا السلامة والعافية من جراء ما لاقوه من أهوال في معارك الجمل وصفين والنخيلة ، وأصبح الإرجاء بمثابة الصيغة المذهبية التي تمنطق رغبتهم في المودة والركون الى الراحة وتحول معظمهم الى الإرجاء وانصرفوا لامورهم الداخلية دون نظر الى نوعية السلطة الحاكمة التي لم تكن حسب مذهبهم حكومة خارجة ضالة (١) .

ويبدو من اكثر المصادر التي تحدثت عن الفرق والمذاهب ان اكثر قادة المرجئة كانوا من الانتهازين الذين تسيرهم المصالح والاهواء فحيث كانت القوة تجد المرجئة الى جانبها يمهدون الطريق للحاكمين لمواصلة سياستهم وتبرير تصرفاتهم ، وحينما بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الاموية وأحسوا بأن سقوطها اصبح امرا لا مفر منه التحقوا بالتيارات المعادية للامويين التي تصدت للمدافع عن العدالة وتظاهروا بالتراجع عن

١ - انظر ص ٣٥ و ٣٦ من الحركات السرية للدكتور محمود اسماعيل .
وحسان بن بلال المزني من التابعين الذين رووا عن عمار بن ياسر وعن قتادة ، وكان يحيى بن كثير من اعلام المرجئة الاوائل كما جاء في خطط المقريزي وميزان الاعتدال للذهبي .

بعض افكارهم فيما يعود الى الايمان ، ولم يجدوا غضاضة في اقتباس بعض آراء القدرية أسلاف المعتزلة والتنكر لمعتقداتهم السابقة كما نسب ذلك اليهم بعض الكتاب ، وبعد انهيار الدولة الاموية كانوا ينضمون الى كل نائر فانخرطوا مع الخوارج والشيعة في بعض مواقفهم المعادية للحكام ، ولما ظهرت الدولة العباسية على المسرح وأصبحت الوريث الوحيد للامويين في المشرق كان لا بد لها وأن تستخدم المرجئة وغيرهم من الفرق بنفس الروح والدوافع التي استخدمتهم بها الدولة الاموية ، وقد لبس كثير من المرجئة ثوب الوعاظ فراحوا يرددون فسي خطبهم ومجالس القصص قول الله سبحانه : وأطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم . وأولو الامر هم السلاطين فتجب طاعتهم بحكم القرآن ولو كانوا ظالمين ، كما وجد الحكام من العلماء ، من استطاعوا ان يجدوا المسوغات الشرعية لكل اعمالهم مهما كان نوعها .

وكان الحكام في الغالب لا يقدمون على عمل الا بعد ان يجمعوا له الفقهاء ويعرضوه عليهم ، والفقهاء ينظرون حينذاك الى السلطان فسادا وجدوه مصمما على ذلك العمل اسرعوا الى ما في جعبتهم من الآيات والاحاديث المتناقضة فينفضونها امامه ليختار منها ما يلائمه والله غفور رحيم يوم يحاسب الناس على اعمالهم .

كما كان الوعاظ والفقهاء حين يذكرون الخليفة يدعون له ويشنون عليه ويرجون من الله ان يمد ظله على الارض ويبررون جميع اعماله وتصرفاته، اما حين يلتفتون الى عامة الناس ورعايا الخليفة يأخذون بالتهديد والتخويف والتحذير والتهويل كأن أفراد الرعية هم الظالمون والخلفاء هم المظلومون ، وكان الخليفة يشعر من جراء ايحاء المتزلفين له بأنه ظل الله في الارض له الامر والنهي وعلى رعاياه الطاعة فان عصوه كانوا من الزنادقة الملحدين يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

لقد كان الوعاظ يعطى من أموال المسلمين بمقدار ما يتحذلق به من

جيد الالفاظ والثناء على الخليفة والدعاء له ، لذلك فان عدد الوعاظ في الدولة العباسية اخذ يزداد وينمو نموا فظيعا ، وكل وزير وأمير كسان يخصص جزءا كبيرا من الاموال التي ترد لبيت المال من مختلف المقاطعات للترفيه عن هذه الطبقة من المرتزة الذين كانوا يآوون اليه ويباركون جميع اعماله وتصرفاته .

لقد كان الخليفة العباسي يتظاهر في مجالس الوعاظ والفقهاء بالدين والتقوى فيبكي ويتظاهر بالخشوع والتعفف والزهد ، وحين يجلس في ديوانه ينظر في امر الخراج والولاة وشراء الجواري لا يختلف عن جاثوث ونيرون بشيء ، واذا أكثر الواعظ من الحديث طلب اليه ان يختصر لينصرف الى مجالس المغنيات والجواري والتنكيل بمن يطالبون بالعدالة وانصاف المظلومين والمعذبين ، وكانوا في مجالسهم مع الوعاظ لا يختلفون عما جاء في بعض الامثال عن ذئب وقع في قبضة رجل فجعل يعظه ويقول له : اياك ان تأخذ أغنام الناس ومواشيهم لئلا تعاقب على ذلك ، فقال له الذئب : خفف يا اخي واختصر من حديثك فهناك قطع من الغنم اخاف ان يفوتني .

ومما يلفت النظر عند المقارنة بين المهدين الاموي والعباسي ان الامويين كانت تسيطر عليهم النزعة البدوية او القبلية ولا يبالون بما يقول الفقهاء والوعاظ كما كان يصنع العباسيون وجل اهتمامهم كان منصرفا الى تدعيم ملكهم ولو بحد السيف على الطريقة البدوية والقبلية وفي الوقت ذاته لم يجدوا بدا من اللجوء الى مصانع الحديث التي أسسها لهم ابو هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وعروة بن الزبير والزهري عند الحاجة في مقابل أخصامهم العلويين والى المرجئة والجبرية وما الى ذلك مما يضفي عليهم صفة الايمان ويضع عنهم مسؤولية اسرافهم فسي المنكرات والتنكيل بالشيعية والمستضعفين من الناس .

ولما جاء العباسيون الى الحكم حاولوا ان يظهرُوا بمظهر اكثر اتصافا

بالدين لأن أخصامهم الامويين قد تجاهلوه وكانت تغلب عليهم النزعة الجاهلية ، فتظاهروا لاسباب سياسية بالحرص على السنة وراحوا يتصلون بالفقهاء والوعاظ للتوفيق بين سياستهم التي لا تختلف عن سياسة الامويين وبين الذين يخدمون مصالحهم من تلك الفئات ، ووجدوا من يدعون لهم ويسألون الله ان يمد في ظلهم ويقول للناس : اطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم ، ثم يتجه الى الخليفة ويقول له : كأنك من بعد الرسول رسول ، وفي الوقت ذاته يطبقون جميع اعمالهم على الشريعة كما كان يفعل ابن ابي ليلى وأبو البحتري قاضي القضاة وأبو يوسف وأمثالهم من فقهاء القصور .

ومع ان فكرتي الإرجاء والجبر كانتا قائمتين فلم يعد الخليفة العباسي بحاجة اليهما ما دام يجد رتلا من الفقهاء والوعاظ والمحدثين يباركون جميع اعمالهم وتصرفاتهم وكأنها من وحي السماء ، هذه الظاهرة فسي مواقف الوعاظ والفقهاء من الحاكمين كانت اسوأ وأشد ضررا على الاسلام والمسلمين من مرجئة الامويين وأصحاب مصانع الحديث كما تؤكد ذلك الدراسات الواعية لمواقف الحاكمين وجنودهم من الوعاظ والفقهاء وانعكاساتها على الاسلام وأصوله ومبادئه ومسيرته وما خلفته تلك السياسة من صور كريمة للاسلام لا يزال اعداؤه يستغلونها للتشويه والافتراء وأكثرهم يدرسون الاسلام من خلال حكامه ، وصدق من قال: انهم لم يفعلوا شيئا غير انهم اقاموا امبراطورية مكان اخرى وقضوا على الاكاسرة ليضعوا محلهم اكاسرة آخرين .

سلاح الجبر

ومهما كان فالارجاء والتصوف يساهمان مساهمة فاعلة في تقويض روح الثورة ومسارها ومن افضل الاسلحة التي استغلتها الجاهليسة الجديدة المتجسدة في سياسة الحاكمين ومخططاتهم المعادية للإسلام ، فالمتصوفة يدعونهم الى الاعراض عن الدنيا وما فيها من متع وملذات بالالتجاء الى الكهوف والغابات ولبس المرقعات ورياضة النفس بترك حاجات الجسم ليصل الانسان الى اعلى مراتب الفضاء ويتصل بالله مباشرة ويتنعم بلقائه الى غير ذلك من طرقهم ، هؤلاء يحققون للحكام كل ما يريدون ، ومن اعلى امانهم ان يفرق الانسان في مثل هذا الظلام ويسرح في هذه المتاهات لينصرف عنهم وعن جرائمهم ومنكراتهم .

اما الارجاء فهو كما ذكرنا يدعو بصراحة الى عدم جواز تجرييحهم ووصفهم بالفسق او الكفر ، ويدعو الى وصفهم بالايمان ويمنيهم المغفرة وعفو الله الذي يسع المؤمنين العاملين والجبابرة الطغاة في وقت واحد والى جانب هذين الوباءين اتشر الوباء الثالث وباء الجبر ودعا اليه المرتزقة والمتزلفون للحاكمين وخرج دعائه من قصورهم ، واتخذ دعائه من القرآن الكريم وسيلة لصد الناس عن جهاد الحاكمين والظالمين وشل

الافكار والعقول المناهضة للحكم الاقوى ، واعتمدت مدرسة الجبر على ان الحاكم المطلق للعالم هو الله وكل ما يحدث فيه هو من ارادته ومقتضيات مشيئته ، والاعمال خيرا وشريرها من مظاهر مشيئة الله سبحانه ، والانسان خيرا كان ام مجرما ، بريئا ام مذنبا، حاكما مسيطرا ام محكوما مكبلا لا شأن له ولا اختيار في شيء من ذلك وكله من الله الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

وقد انتشر هذا الوباء بين متديني ذلك العصر وتسليح دعائه بظواهر بعض الآيات القرآنية والاحاديث التي كانت تنتجها باستمرار معاملة بعض الصحابة وتابعيهم كابي هريرة وعروة بن الزبير وسمرة بن جندب والزهري وأمثالهم من الاوفياء لقصور الخلفاء وموائدهم الشهية الطيبة . وقد وجد الحاكمون في هذا المذهب أعز امانهم وأغلاها لانه يبرر جميع تصرفاتهم واعتداءاتهم على الشعوب وخيراتهم لان الله اراد لهم الحكم وحيث يحكمون ويظلمون ويتسلطون على عباد الله يحققون ارادة الله سبحانه وجميع ما جرى على ايديهم من قتل الحسين وغيره من آلاف الصالحاء ومن المنكرات التي اقترفوها قد اراده الله لمصلحة لا يعلمها غيره واقتضتها حكمته التي لا ندرك كنهها ولا تقع في دائرة اختيارنا ومشيتنا ، وأي اعتراض على تسلط الحاكمين وبطشهم وظلمهم هو اعتراض على المشيئة الالهية والحكمة الربانية .

وقال الدكتور محمود اسماعيل في كتابه الحركات السرية في الاسلام: ان المعتزلة كانوا يضرمون العداء لبني أمية ويعتبرونهم من الجبابرة المقتصبين للخلافة وقد فرضوها بحد السيف وراحوا يبررون ظلمهم واغتصابهم لها بارادة الله وقضائه ، ومضى يقول : ان معاوية اول من قال بالجبر ودعا اليه ودافع عنه وسخر من اعوانه الرواة من يضع له الاحاديث التي تدعّمه ، وكان يرى ان ذلك عذره في كل ما جنته يده من

المنكرات والموبقات • وأضاف قائلا : وكما كان الجبر من اسلحتهم
الهدامة للإسلام ومبادئه كان الإرجاء من جملة تلك الأسلحة ذات
الحدين لأنها في الوقت الذي تعطي فيه للعصاة صفة الايمان تفتح لهم باب
الامل بالمغفرة على مصراعيه بالرغم من اسرافهم بالجرائم والمنكرات •



عدالة الصحابة

والى جانب التصوف والارجاء والجبر برز في مطلع العهد الاموي سلاح اخر لعل أثره على العقول والقلوب والافكار ومساندة الحكم الاموي لا يقل عن آثار الاسلحة الثلاثة ، ذلك السلاح هو عدالة الصحابة . لقد برزت هذه الفكرة في مطلع العهد الاموي بعد ان اكلت الحروب الكثير منهم ومات اكثر الباقيين بآجالهم .

وكان من الطبيعي بعد ذلك التاريخ الذي تركه الامويون الملسون بالشرك والجرائم والذي كان ماثلا لدى الجميع ان يحاولوا استبدال تلك الصورة الكريهة العالقة في الازهان عنهم نتيجة لمواقفهم المعادية للاسلام حتى بعد ان دخلوا فيه مكرهين ، كان من الطبيعي ان يحاولوا استبدال تلك الصورة بصورة تتناسب مع مراكزهم التي تسنموها باسم الاسلام فوضعوا فكرة العدالة لجميع من عاصر الرسول من المسلمين حتى ولو لم يره او يسمع منه شيئا ، وتوسع بعضهم فيها وأثبتها لكل من ولد في عصر الرسول ، وما دام ابو هريرة وزملاؤه من الوضاعين في تصرفهم فمن السهل عليهم ان يحصلوا على عشرات الاحاديث التي تدعّمها، وظلت فكرة العدالة لجميع الصحابة التي تسع للامويين وعلى رأسهم ابو

سفيان والحكم طريد رسول الله (ص) تسير وتتفاعل حتى اصبحت وكأنها من الضرورات عند السنة وحكامهم في عصر الصراع العقائدي لانها تخدم مصالحهم ومبادئهم التي اعتمدوها في سيرة الخلافة ، ومواقفهم المعادية لاهل البيت (ع) . ولم يكن الصحابة انفسهم يتصورون بأن الغلو بهم سينتهي الى هذه النتيجة وتكون لهم تلك الهالة التي استخدمها معاوية لخدمة الجاهلية التي تجسدت في البيت الاموي ذلك البيت الذي ظل يحارب الاسلام منذ ان بزغ فجره وحتى اللحظات الاخيرة من حكمهم . وتعني عدالة جميع الصحابة فيما تعنيه ، ان كل من عاصر الرسول او ولد في عصره لا يجوز عليه الكذب والتزوير ولا يجوز تجريحه ولو قتل آلاف الابرياء وفعل جميع المنكرات ، وعلى اساس ذلك فجميع الطبقة الاولى من الامويين كأبي سفيان وأولاده وعثمان بن عفان وحاشيته وجميع الروائيين بسا فيهم طريد رسول الله الوزغ وأولاده الاوزاغ والمغيرة بن شعبة وسمرة بن جندب وزباد بن سمية وعمسرو بن العاص وولده عبد الله الذي كان في حدود العاشرة من عمره حين وفاته النبي (ص) ومع ذلك فقد نسبوا اليه مجموعة من الاحاديث كتبها على النبي في صحيفة يسمونها الصادقة ، فجميع هؤلاء الذين هم من أشد الناس عداوة للاسلام ولله ورسوله من العدول ومروياتهم من نوع الصحاح حتى ولو كانت في تجريح علي وأهل البيت وفي التقييد والتقديس لعبد الرحمن بن ملجم .

وكل ما روه ولفقوه في فضل الصحابة الاوائل وفضل الامويين ومعاوية والشام وما الى ذلك من آلاف الروايات التي كانت تتجهها مصانع ابي هريرة وكعب الأحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده عبد الله وغيرهم من عشرات الرواة الذين استعملهم معاوية للفساد والكذب وتشويه الاسلام ، هذه المرويات يجب قبولها ولا يجوز ردها

لان روايتها من العدول والعاذل لا يعتمد الكذب ، والذين اتبعوا معاوية وسايروه طيلة ثلاثين عاما من حكمه ، هؤلاء كانوا على الحق والهدى وحتى الذين سموا الحسن بن علي وقتلوا الحسين وأصحابه وفعلوا ما فعلوا من الجرائم في الكوفة وغيرها كانوا محقين ايضا ومن المهتدين ، لان النبي (ص) قال على حد زعمهم : اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، ومن هو أولى بالاعتداء به من معاوية الذي كان الوحي كلما نزل على النبي يتفقده ويسلم عليه ويوصي به كما تدعيه مرويات تلك الطغمة من أنصاره الى كثير من أمثال هذه الاحاديث التي افرزتها مصانع ابي هريرة وابن العاص وابن جندب وكعب الاحبار وغيرهم في معاوية وبني أمية ومن سبقهم من الخلفاء وغير ذلك ، واختلطت بين الصحيح من حديث الرسول (ص) .

ولولا المخلصون من اهل البيت وشيعتهم وقليل غيرهم من بقية المحدثين لفقدت السنة ابرز سماتها وانطمست معالمها وكنوزها بسبب ما أدخلوه عليها من التحريف والبدع والمفتريات .

لقد كان الصحابة يفسق بعضهم بعضا ويشتم بعضهم بعضا واتفق اكثرهم على ضلال عثمان وحاشيته وأنصاره واستحلال دمه وكان طلحة والزبير وعائشة من اكثر الناس تحريضا عليه ، وبلغ الحال بعائشة ان كفرته واستعارت له اسما ليهودي كان من أقدر اهل المدينة يسمونه نعثلا وقالت اكثر من مرة : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، وأخذت بيدها قميصا كان لرسول الله (ص) وقالت : هذا قميص رسول الله لم يبل وقد ابلى عثمان سنته .

وبعد مصرع عثمان على يد المهاجرين والانصار تحريضا ومباشرة الوفود التي زحفت من مختلف الامصار اتجهت تلك الوفود الزاحفة من مختلف الجهات وجميع المهاجرين والانصار الى علي (ع) وانضمت تحت

لوائه وأكثر المهاجرين وجدوا انهم قد حققوا بهذه البيعة وصية رسول الله (ص) وأعز أمانيه وان جاءت متأخرة عن وقتها وراحوا ينتظرون فجرا جديدا مشرقا بتعاليم الاسلام ومبادئه وعدالته .

واتجه الفريق الذي اشترك في قتل عثمان وكسان من أشد الناس تحريضا عليه من الصحابة الى حرب الخليفة الشرعي الذي تمت خلافته بالاجماع والاختيار وبكل الشروط التي وضعوها للخلافة في عصر الصراع العقائدي الذي وضعوا فيه الشروط للخلافة الاسلامية لتصحيح خلافة الذين تقصوها بعد وفاة الرسول (ع) .

وبعد ان بذل لهم إمام الهدى جميع الوسائل ليرجعوا عن غيهم وضلالهم فلم يسموا له قولا ولا رعا له وللأبرياء حرمة . وكانت المعركة لغير صالحهم كما هو المعلوم من حالها ، واتجه بعدهم معاوية لحربه في اهل الشام ومعه فريق من يسمونهم بالصحابة حسب التحديدات التي وضعوها للصحبة لتستقطب اولئك المأجورين الذين كانوا يسيرون في ركابهم ويتمرغون على أعتابهم لقاء مبالغ من اموال الامة وضعها ابن هند في تصرفهم ليضعوا له الحديث في انتقاص علي وذويه (ع) وفضل الامويين والسائرين في ركابهم ، وكانت مصانع ابي هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده عبد الله تنتج لهم ما يشاؤون ويشتهون من مختلف الالوان ، ولعل ابا هريرة وابن جندب وكعب الاحبار كانوا من ابرز المقرين لمعاوية في صنع الحديث من بين من اسموهم بالصحابة ، وجاءت الطبقة الثانية وعلى رأسها عروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري وغيرهم من عشرات الرواة والمحدثين الذين اعتمدوا مصانع الطبقة الاولى ومضوا على نفس الطريق الذي يخدم مصالح اصحاب القصور وأهدافهم متسترين بقداسة الصحابة وعدالتهم وبما اتجنته مصانع ابي هريرة وكعب الاحبار وسمرة بن جندب وابن العاص وولده

عبد الله الذي اشتملت مروياته عن الرسول (ص) وهو يوم وفاته لم يتجاوز سن الطفولة ، فيما اشتملت عليه صحيفة عرفت في اوساطهم بالصحيفة الصادقة كما ذكرنا وظلت تلك الاحاديث الى جانب المرويات الصحيحة عن الرسول (ص) ومن أشد الاسلحة فتكا بيد الحاكمين اعداء الاسلام الذين تستروا به ليطعنوه من الداخل بتلك الاسلحة التي وفرها لهم عدول الصحابة ، وفي الوقت ذاته لإضفاء الشرعية على حكمهم الذي استمر قرابة قرن من الزمن .

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه وهو من اكابر المحدثين وأعلامهم كما جاء في شرح النهج للمعتزلي ان اكثر الاحاديث في فضائل الصحابة افعلت في ايام بني أمية تقريبا اليهم بما يظنون انهم يرغبون أنوف بني هاشم .

ومع ان تلك الاحاديث قد صنعها الوضاعون لمصلحة المروانيين والعثمانيين وأبي سفيان وولده معاوية وأنصاره فقد صاغوها بأسلوب يجعل من كل صحابي قدوة سالحة لاهل الارض وتصب اللعنات على كل من سب احدا منهم او اتهمه بسوء كما جاء فيما رووه عن انس بن مالك ان النبي (ص) قال : من سب احدا من اصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، ومن عابهم او اتقصهم فلا تواكلوه ولا تشاربوه ولا تصلوا عليه (١) .

مع انها جاءت بهذا الاسلوب ولم تفرق بين صحابي وصحابي ، فقد فرض معاوية سب علي (ع) واتقاصه في جميع المقاطعات التي كانت تخضع لحكمه بما في ذلك الكوفة وجهاتها التي تجرعت كل انواع الاذى والظلم لكثرة الموالين فيها لعلي وولده (ع) الذين تعرضوا للقتل والحبس

والتشريد ، وكان يقول في جواب ناصحيه من أنصاره الذين كانوا يرون ان هذا الاسلوب من السياسة الخرقاء يخدم عليا وشيعته اكثر مما يسيء اليهم : والله لا أدع سبه وشتمه حتى يهرم عليه الكبير ويشب عليه الصغير .

وقد بذل للصحابي سمره بن جندب خمسمائة الف درهم ليروي له عن النبي (ص) ان الآية : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد نزلت في علي ابن ابي طالب ، وان الآية : ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله نزلت في عبد الرحمن بن ملجم لانه قتل عليا (ع) الى غير ذلك مسن الموضوعات التي كان يبذل لسانعها بسخاء لا حدود له ، مع انه فعل ذلك باجماع المؤرخين فقد بقي من عدول الصحابة كما بقيت منتجات مصانع الوضاعين ممن كانوا يترغون على أعتاب قصر الحمراء وغيره من قصور الحاكمين التي كانت تعج بالفساد والظلم والمنكرات الى جانب غيرها من مرويات الثقات عن الرسول (ص) ومن صحاحها لانها من صنع الصحابة والصحابة كلهم من العدول ومن سبهم او اتقصمهم فعليه لعنة الله، ولم يستثن منهم سوى علي(ع) ومن وقف الى جانبه من صحابة الرسول الاوفياء لرسالة الاسلام وتعاليمه فهؤلاء بنظر معاوية وزبائنه كانوا يسعون في الارض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل والله لا يحب الفساد .

لقد بقيت الى جانب غيرها من مرويات عدول الصحابة مرجعا للمجهور في التشريع وغيره على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم الفقهية ، وعلى اساس ذلك غلب عليهم اسم السنة في مقابل الشيعة الذين رجعوا الى الأئمة من اهل البيت (ع) والى ما رواه ثقات الصحابة عن النبي (ص) بالاضافة الى كتاب الله في جميع ما جاء به الاسلام من أصول وفروع وتشريعات،

ولم يعرف الجمهور بهذا الوصف قبل اواخر القرن الاول ، وبهذا الاعتبار يمكن اعتبار التسنن من الاحداث الطارئة وبخاصة عندما نلاحظ ان مفهوم السنة خلال تلك الفترة من تاريخ المسلمين قد اصبح اوسع مما كان عليه في عهد الصحابة والطبقة الاولى من التابعين ، فبعد ان كان عند اوائلهم لا يتجاوز اقوال الرسول وأفعاله وكانوا يلاحقون الراوي للتأكد من صدقه وبعضهم يستحلفه ويتجنب اكثرهم مرويات ابي هريسة وكعب الاحبار وأمثالهما ممن كانوا لا يتورعون عن الكذب والافتراء على الرسول (ص) بالرغم من ان درة ابن الخطاب كانت لهم بالمرصاد . فبعد ان كانت لا تتعدى اقوال الرسول وأفعاله عند متقدمي الصحابة اصبحت في العصور التي تعددت فيها المذاهب وتوزعت في العواصم وبقية الاقطار بنظر العلماء وأئمة المذاهب تتسع لرأي الصحابي وفتواه اذا لم يجدوا نصا على حكم الواقعة في كتاب الله وسنة الرسول ، وأصبحت آراء الصحابة في احكام الحوادث التي كانت تعرض عليهم المصدر الثالث من مصادر التشريع بعد كتاب الله وسنة رسوله ، ولعل أئمة المذاهب الثلاثة وعلماءهم الاحناف والمالكية والحنابلة اكثر تعصبا لآراء الصحابة واجتهاداتهم من الشوافع كما يبدو ذلك من تصريحاتهم ومجاميعهم الفقهية ، ومع ان ابا حنيفة كان متحمسا للقياس ويراه من افضل المصادر بعد كتاب الله كان يقدم رأي الصحابة عليه اذا تعارضا في مورد من الموارد (١) .

وجاء عنه انه كان يقول : ان لم اجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله اخذت بقول اصحابه فان اختلفت آراؤهم في حكم الواقعة آخذ بقول من شئت وأدع من شئت ولا اخرج من قولهم الى قول غيرهم من

التابعين (١) .

وجاء في أعلام الموقعين لابن القيم : ان أصول الاحكام عند الامام احمد خمسة ، الاول النص الثاني فتوى الصحابة وان الاحناف والحنابلة قد ذهبوا الى تخصيص الكتاب بعمل الصحابي ، لان الصحابي العالم لا يترك العمل بعموم الكتاب الا لدليل فيكون عمله على خلاف عموم الكتاب دليلا على التخصيص وقوله بمنزلة عمله (٢) .

وما ابعد ما بين هؤلاء وبين القائلين بعدم جواز الاعتماد على السنة في مقام التشريع الا اذا تأيدت بآية من القرآن لان فيه تبيان كل شيء وقد نزل بلغة العرب وبأسلوب يفهمه كل عربي ، ذلك لان السنة رواها عن الرسول جماعة يجوز عليهم الخطأ والكذب وكانوا لا يقبلون مرويات بعضهم احيانا ويعمل كل منهم بما يوحيه اليه اجتهاده وقد تراشقوا بأسوأ التهم واستحل بعضهم دماء البعض الآخر (٣) . ومهما كان الحال فأقوال الصحابة وآراؤهم واجتهاداتهم كانت من ابرز أصول التشريع عند الجمهور بعد كتاب الله وفي الوقت ذاته يخصصون بها عموماته ويقيدون بها مطلقاته وكأنها من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن المعلوم ان هذا الغلو في تقديس الصحابة الذي لا يختلف عن العصمة في شيء ويتسع للمناققين منهم وحتى للمشركين ممن أرغموا على التظاهر بالاسلام كأبي سفيان وولده معاوية والمروانيين وغيرهم ممن كانوا يكيدون للاسلام ويعملون لإحياء مظاهر الجاهلية التي حاربوا من اجلها

١ - انظر ابا حنيفة لابي زهرة ص ٣٠٤ . والامام زيد له ايضا ص ٤١٨ .

٢ - المدخل الى علم أصول الفقه لمعروف الدواليبي ص ٢١٧ .

٣ - انظر تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف موسى عن كتاب

الام للشافعي ص ٢٢٨ .

نحو من عشرين عاما او تزيد ، هذا الغلو في تقديس الصحابة قد تحول في الفترة التي ظهرت فيها المذاهب الفقهية لمحاربة التشيع لأئمة اهل البيت في فقههم وأصولهم وجميع تعاليمهم التي تجسد الاسلام في جميع مراحلها وفصوله كما ورثوه عن جدتهم امير المؤمنين عن النبي (ص) الذي سماه باب مدينة العلم في حديث رواه محدثو السنة في صحاحهم جاء فيه انه قال : انا مدينة العلم وعلي بابها الا ومن اراد المدينة فليأت الباب ، وكان الأئمة (ع) يقولون : انا اذا حدثنا لا نحدث الا بما يوافق كتاب الله ، وكل حديث ينسب إلينا لا يوافق كتاب الله فاطر حوه ، كما كان الامام الصادق يقول : حديثي حديث ابي ، وحديث ابي حديث جدي ، وحديث جدي حديث رسول الله ، وحديث رسول الله قول الله .

لم يكتف الحاكمون وأئمة المذاهب الذين كانوا يسرون في ركابهم وبياركون جميع تصرفاتهم بثوب العدالة الذي ألبسوه حتى لمنافقسي الصحابة ومشركيهم حتى جعلوا لاقوالهم واجتهاداتهم نفس القداسة التي جعلها الله لاقوال رسوله وأحاديثه لا لشيء الا لان الشيعة يقدسون اقوال الأئمة من حيث انها تجسد اقوال الرسول وما جاء به من عند الله ويقفون عندها كما يقفون عند الروايات الصحيحة عن الرسول ، واذا لم يجد اهل السنة للصحابة قولاً او رأياً فيما يعرض لهم من الحوادث يرجعون الى القياس والاستحسان والاستصلاح والمصالح المرسله ، وقد انتهى الاستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه مصادر التشريع أدلة الاحكام عند فقهاء السنة الاوائل الى تسعة عشر دليلاً وعد منها بالاضافة الى ما ذكرناه الاخذ بالأخف وسد الذرائع والعوائد وغير ذلك مما لم يرد في كتاب او سنة ولا يعتمد على غير الاجتهاد المبني على الحدس والظن اللذين لا يفيان عن الحق شيئاً ، ولم يرجعوا الى الإمامين الباقر والصادق اللذين أسسوا مدرسة الفقه والفلسفة واجتمع اليها اكثر من اربعة آلاف طالب من مختلف الاقطار ، وكان التشريع الاسلامي من ابرز ما اتجته

تلك الجامعة التي غلب عليها الطابع الروحي ولم يستطع الحكام ان يتدخلوا في شيء من شؤونها كما وانهم لم ينقلوا مرويات الشيعة عن الرسول وغيره ويشترطون في الراوي ان لا يكون شيعيا وعند اكثرهم يشترط فيه بالاضافة الى ذلك ان لا يكون متهما بالتشيع لان التشيع والوثاقة لا يجتمعان ، ولما وثق يحيى بن معين سعيد بن خالد البجلي ، قيل له ان سعيدا يدين بالتشيع ، فقال عند ذلك : وشيعي ثقة مستغربا ان تجتمع هاتان الصفتان في واحد من البشر ، ولم يستغرب عدالة معاوية والحكم طريد رسول الله وأبنائه الاوزاغ وسمرة بن جندب وأمثاله من المنافقين والمشركين لانهم من الصحابة والصحابة كالنجوم بأيهم اقتدى الانسان يهتدي كما نسب الوضاعون الى الرسول (ص) ، هذا في حين ان الشيعة يأخذون برواية الراوي اذا كان ثقة ومستقيما في دينه مهما كان مذهبه ولا يشترطون في الراوي اكثر من ذلك كما تؤكد ذلك مجاميعهم التي وضعوها في احوال الرواية والرواة .

مواقف ائمة الشيعة من تلك الاسلحة

في هذه الاجواء المظلمة والمشحونة بالافكار الغريبة المستوردة التي استغلها الحاكمون لتخدير العقول والقلوب والتحلل من مسؤوليات تصرفاتهم واسرافهم في اراقة دماء الابرياء والصلحاء واستغلالهم لخيرات الشعوب ومقدرات الامة لصالحهم وكأن الناس كل الناس بستان لقريش وحكامها كما يدعون ، في هذه الاجواء المشحونة بالمخاطر على الاسلام وتعاليمه ومبادئه وقف الأئمة (ع) وشيعتهم موقفا في منتهى الصلابـة والحيطة في وجه تلك التيارات والمحاولات التي كانت تهدف فيما تهدف الى تحوير الاسلام وتجريده من محتواه يدافعون ويناضلون عن مبادئه وأصوله بالحجج الدامغة والمنطق السليم في مختلف الميادين ، وقد اعلنوا في مختلف المناسبات خروج المشبهة والمجسمة والمرجئة والجبرية والصوفية وغيرهم عن الاسلام بعد ان يسوا من ارجاعهم الى حظيرته بكل ما توفر لديهم من الوسائل كما تؤكد ذلك المؤلفات الشيعية المنتشرة في جميع انحاء العالم .

لقد تجرد الإمامان الباقر والصادق في المراحل الاولى من ولادة تلك الافكار واتشارها في الاوساط الاسلامية لخوض أعنف المعارك مع

دعاتها وأنصارها واحباط جميع محاولاتهم الهادفة الى تشويه الاسلام وتحويل مبادئه وأصوله لصالح الحاكمين وأعدائه ، بالمنطق والعقل وغيرهما مما تتج عنه تراجع جماعة عن تلك الافكار والحد من نشاط المغالين في تصلبهم وعنادهم ، ولم يكن لاحد من سبيل لانكار باعهم الطويل في الاطلاع والاحاطة بكافة فروع المعرفة والافادة منها وتسخيرها لخدمة الاسلام واتشاره ، وحينما كان يذكر التشيع في مطلع القرن الثاني وبعده كان يقترن بالمباحث النظرية والمذاهب الفلسفية ومدارس الحكمة وكل انواع المعرفة .

وقال السيد مير علي في كتابه تاريخ العرب وهو يتحدث عن تلك الفترة من تاريخ المسلمين : ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم الحركة العلمية في تلك الفترة التي كان فيها الصراع العقائدي على أشده، هو حفيد الامام علي بن ابي طالب جعفر بن محمد الملقب بالصادق ، وهو رجل رجب أفق التفكير بعيد اغوار العقل ملم كل الامام بعلوم عصره، ويعتبر في الواقع اول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام، ولم يكن يحضر حركته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من جميع انحاء العالم (١) .

وتؤكد المصادر القديمة والحديثة ان اكثر أئمة المذاهب كمالك الذي عاش الى جانبهم اكثر ايامه في المدينة وأبي حنيفة الذي التحق بمدرسة الامامين الباقر والصادق (ع) لمدة سنتين بعد ان فر من حبس المنصور ، وبهذه المناسبة كان يقول : لولا الستتان لهلك النعمان كما جاء في اكثر المصادر التي تحدثت عنه ، والشافعي في فقهه الجديد الذي ينسب

اليه خلال اقامته في مصر حيث كان يلتقي كثيرا باسحاق ابن الامام
 الصادق وزوجته السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن الحسن
 السبط (ع) ، وأضاف الى ذلك توفيق ابو علم في كتابه اهل البيت ، انها
 كانت مرجعا للربيع بن سليمان المرادي واسماعيل بن يحيى المزني
 وعبد الله بن الحكم الفقيه المالكي وغيره من فقهاء مصر في الحديث
 والفقه (١) . الى كثير من الامثلة التي تؤكد ان الشيعة وأئمتهم كانوا من
 اغنى المصادر في جميع المواضيع الاسلامية وعلى صلة وثيقة بمصادر
 الفلسفة التي انتشرت في تلك الفترة من تاريخ المسلمين ، وانهم وقفوا
 بحزم وصلابة في وجه تلك المذاهب التي استخدمها الحاكمسون
 والشعوبيون لتشويه الاسلام والسيطرة على العقول والقلوب التي كانت
 تخطط وتدبر للانتفاضات والثورات ضدهم بين الحين والآخر .

وقال الدكتور محمود اسماعيل في كتابه الحركات السرية فسي
 الاسلام : ان آل البيت كانوا يمثلون اقوى احزاب المعارضة لسياسة
 الحاكمين من حيث تبنينهم لقضية العدالة بالمفهوم الاسلامي كما أكدها
 الاسلام وكانت من ابرز دعواته ، ومضى يقول : ان آل البيت كانوا أقدر
 المسلمين على فهم الاسلام وأكثرهم اخلاصا لمبادئه وأشداهم حرصا على
 تطبيق تعاليمه ، وقد ورثوا مائة التفقه في الدين والاحاطة بأصناف
 العلوم من إمامهم الاول علي بن ابي طالب ، ولا سبيل لانكار باعهم
 الطويل في البحث والاطلاع على كافة فروع المعرفة والافادة منها في خدمة
 قضيتهم (٢) .

ولعل الباحث النصف من خلال مواقف الأئمة وشيعتهم وتبنيهم

١ - انظر ص ٥٩١ وما بعدها من كتاب اهل البيت لتوفيق ابو علم .

٢ - انظر ص ٦٧ من الحركات السرية للدكتور محمود اسماعيل .

لقضية العدالة بمفهومها الاسلامي يدرك اضالة التشيع الذي رافق مطلع الدعوة الاسلامية ولم ينحرف لا بقادته ولا بتعاليمه عن خطوطها وفصولها في جميع مراحلها وحتى في أحلك الازمات التي كانت تفرض مسيرته لانه كان يجسد الاسلام كتابا وسنة من جميع جوانبه برعاية الائمة من ذرية الرسول الذي قال فيهم كلمته المشهورة : اني تارك فيكم كتاب الله وعترتي اهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابداء ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

لقد تحولت الثورة التي قادها وحمل لواءها الحسين بن علي(ع) ضد الامويين الاوائل وعلى رأسهم حفيد ابي سفيان دعاة الشرك والوثنية والطغيان ، تلك الثورة التي شهدت اباداة اعظم قاعدة من قواعد الكفاح وأخلص كنيية من كنائب الجهاد ، لقد تحولت الى ثورة فكرية وروحية قادها الامامان الباقر والصادق (ع) بعد ان وجدا الاسلام ورسالة نبي الاسلام آلة بيد المجرمين يستخدمونها لخدمة الجاهلية السفاحية، ورجالات الاسلام وفقهاءهم قد تطوعوا لخدمة الحاكمين في زهد وتعبد وعفصة وحشمة ليس لها أدنى حظ من الصدق والشرف ، وبعد ان وجدا ساحة الدفاع عن الحقيقة والعدل والحرية والاسلام الحق خالية مظلمة الا من المنافقين والجلادين والفران التي تتعبد للفلس والبطن .

لقد تحولت تلك الثورة الى ثورة فكرية وروحية تولى قيادتها الائمة (ع) وشيعتهم الاوفياء لتعاليم الاسلام ومبادئ الاسلام التي يجسدها التشيع ووقفوا ذلك الموقف الحازم في وجه تلك الهجمات الوثنية التي تلبس ثوب الاسلام والتي هي أشد خطرا على الاسلام من سيوف المشركين والوثنيين في بدر وأحد والاحزاب ، يعرضون الاسلام ومبادئه للجماهير المسلمة على حقيقته وواقعه بعيدا عن تحريف المنحرفين وتشويه المشوهين وعبيد الحاكمين من الفقهاء والمحدثين ، الاسلام الذي

يلعن الظلم والظالمين ويتوعددهم بالعذاب والجحيم كما يلعن الساكنين والمتعاونين في القول والفعل وحتى انه يعتبر الساكنين عنهم من خرس الشياطين .

ان الاسلام الذي يضع عن الحاكمين وأعوانهم مسؤولية جورهم لانها لم تصدر بارادتهم ومفروضة عليهم كما ذهب الى ذلك الجبرية وتبناء المحدثون والفقهاء والاشاعرة الذين حاولوا التهرب من الجبر فالتزموا بالكسب اي بوجود ارادة للانسان حين العمل ولكنه مع وجودها يفعل ويصنع كل شيء بارادة الله سبحانه ، والاسلام الذي يرجىء الحكم عليهم الى يوم الحساب ويصفهم بالايمان والتقوى ويعدهم برضوان الله ومغفرته ، والذي يدعوهم الى الكهوف ولبس المرقعات وامانة الجسد بالجوع والتعذيب ليصل الى مرتبة الفناء مع الله او الاتصال به مباشرة من غير حاجة الى الانبياء ورسالاتهم وما الى ذلك من الافكار والآراء التي راجت في اوساط المسلمين بعد ان مهد لها الحاكمون وعملوا على شيوعها وانتشارها ، هذا بالاضافة الى عدالة الصحابة التي ليست بأقل خطرا من غيرها .

هذا النوع من الاسلام كان الائمة يرونه اكثر خطرا على اسلام محمد وعلي (ع) من جور الحاكمين وسيوف المشركين لانه اذا استمر في طغيانه يحتل العقول والقلوب ويوفر اسباب التسلط على العباد والتحكم في مصير الامة ومقدراتها وطاقاتها .

لقد وقف الائمة في مقابل هذه التيارات الحاقدة يجسدون الاسلام بصورته المشعة المضيئة التي تحدد للحاكمين صلاحياتهم ومسؤولياتهم وتقدم العدالة بأروع صورها وأشكالها متمثلة في المساواة بين الحاكم والمحكوم في الحق والقانون وتعطي الامة الحق المطلق في الرقابة الواعية التي تنطلق من مبادئه وتشريعاته حتى اذا انحرف الحاكمون تكون لهم

بالمِرصاد الى ما هنالك من المبادئ والتشريعات والانظمة التي كان الائمة
يجسدونها في اقوالهم وافعالهم في جميع الحالات والمناسبات .
لقد عايش الائمة أزمة من أعنف الازمات الفكرية والاجتماعية في
ظل الحكمين الاموي والعباسي حيث فقد الحكم عمق اصالته الدينية
وتجرد عن الصيغة الملائمة للاسلام وتكشف عن ملك عضوض فسي
الوقت الذي لم يبلغ الشعور الديني بين الغالبية العظمى من المسلمين
مرتبة تمكنه من التغلب على العثرات فاستغل ذلك الارتباك اناس من
محترفي الخيانة والفدر للمتاجرة بالحق والدين وأكثروا من البدع في
الاسلام وبخاصة بعد تغلغل الشعوبيين الذين حملوا الفلسفة الصينية
والهندوسية والبوذية والمناوية واليونانية ومعتقداتهم وآراءهم وترجموها
الى العربية فسرت في اوساط المسلمين وتسربت الى عقولهم وقلوبهم
وظهر من آثارها عدد كبير من الزنادقة والملحدين يضعون الشكوك
والشبهات حول الاسلام وما جاء به من أصول وتشريعات ، في هذه
الاجواء المتأزمة والمشحونة بالافكار والآراء الغريبة وقف الإمامان الباقر
والصادق وتلامذتهما الذين تخرجوا من جامعة اهل البيت التي رحل اليها
آلاف الطلاب والعلماء من مختلف العواصم والاقطار ، تلك المواقف
الخالدة يدافعون ويناضلون عن الاسلام ومبادئه وتعاليمه ويدحضون
شبهات الماديين والملحدين بالاساليب العلمية التي ترددهم على أعقابهم
خاصين .

وكان من الطبيعي لمواقفهم تلك التي وقفوها في مقابل تلك التيارات
الغريبة الدخيلة التي اظهر اصحابها الاسلام وانطوا على الكفر
والتخريب والالحاد ، كان من الطبيعي ان تقلق مواقفهم اولئك الطغاة
الذين استغلوا تلك التيارات وما نجم عنها من التضييل والارتباك الفكري
لإلهاء الجماهير عن واقعهم وسياستهم التي احاطوها بأسوار من الضغط

والارهاب ، وكانوا يدركون ويعلمون ان الضغط والارهاب وحتى القتل الجماعي وكل انواع العنف والجور لا تجديهم شيئاً ما دامت العقول والافكار والقلوب تعمل وتفكر وتراقب كل تحركاتهم وتصرفاتهم ، وهم يعلمون ان السيوف والسجون والسموم لا تقضي على الافكار والعقول ولا تحجب الاشعة الخيرة المنطلقة من افكار المصلحين وعقولهم مهما اثارت وحشدت حولهم من الفبار والضباب .

لقد كان الائمة وشيعتهم في حرب فكرية شرسة مع تلك الانحرافات ومحاولات التغير والتشويه للإسلام من قبل الحاكمين وجنودهم من بعض الفقهاء والشمويين والمحدثين ، لذلك كان كل من يتولى الحكم منهم يتجه بكل امكانياته لمقاومة الامام المعاصر له ويعمل بكل ما لديه من الوسائل للقضاء عليه وعلى الاصوات الخيرة التي تنطلق من حوله بالدعوة الاسلامية الصريحة بما فيها من الافكار الثورية التي كان الائمة بكل الاساليب يعملون على تركيزها في أعماق القلوب والنفوس من خلال مواقفهم السلبية من الحاكمين وأعوانهم وتحريم التعاون معهم لتضييق دائرة نفوذهم كما يبدو ذلك من خلال دعواتهم المتتالية الى المسدل كقولهم : العدل احلى من الماء يصيبه الظلمآن ، وقول الامام الصادق (ع) في حديثه عما يحتاجه الناس : ثلاثة اشياء يحتاج اليها جميع الناس : الامن والعدل والخصب ، وقوله : افضل الملوك من أعطي ثلاث خصال الرأفة والجود والعدل ، ولا يجوز لهم ان يفرطوا في ثلاث: في حفظ الثغور وتفقد المظالم واختيار الصالحين لاعمالهم ، وقوله : العامل بالظلم والراضي به والمعين له شركاء ، وقوله : ان أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار، الى كثير من مواقفهم الصريحة الواضحة من الحكام الظالمين الذين كانوا يحرمون التعاون معهم ويدعون الى تحطيمهم والاجهاز عليهم من غير ان يسموهم بأسمائهم حتى لا تستغل الجماهير وتستعبد الشعوب

ويقضى على اصابة الامة وكرامتها .

وكان من نتيجة مواقفهم من المنحرفين وأعدوان الحاكمين من الفقهاء والمحدثين والشعوبيين الذين كانوا يحاولون تشويه الاسلام وخنق الدعوات الثورية فيه ، وتنديدهم بالظلم والظالمين وعدم السماح لاحد من اصحابهم بالتعاون والتعامل معهم ، كان من نتيجة ذلك كله ان تعرض الائمة وشيعتهم للاضطهاد والتشريد والسجون المظلمة والقتل بمختلف الاسلحة ، ولكن اساليب العنف هذه التي استعملها الحاكمون باسم الاسلام لم تكن بأقل عنفا من الاساليب التي استعملها اجدادهم مع مؤسس تلك المبادئ التي تعهد التشيع وقادة التشيع بحمايتها من المخربين والعابثين وكما لم تستطع تلك المقاومة العنيفة ان تحجب الشعاع الخير الكريم الذي انطلق من محمد الرسول (ص)، لم يستطع ظلم الاحفاد ان يحجبوه وهو في رعاية ابناء الرسول والمترسمين لخطاه من شيعتهم وأتباعهم الاوفياء .

وغل ائمة الشيعة على صمودهم في وجه تلك الاحداث والهجمات الوثنية العاتية التي خلعت ثوب الشرك والوثنية لتستبدلها بثوب الاسلام بعد ان وجدت ان مقاومة الاسلام بهذا الثوب أجدى لها وأكثر نفعا . ومجمل القول ان ائمة الشيعة وشيعتهم كانوا يجسدون اسلام محمد (ص) كما جاء به من عند الله ، اما الاسلام الذي ظهر من بعده وتبناه الحاكمون لانه يدعم عروشهم ويمكنهم من التسلط على الشعوب ومقدراتها فهو من الاحداث الطارئة وقد ظهرت بوادره بعد وفاة الرسول مباشرة وراح يتسع وينتشر كما تشاء له سياسة الحاكمين الذين وجدوا حولهم اكبر عدد من المسلمين يباركون خطواتهم خوفا وطمعا ويفسرون لهم نصوص الاسلام بما يحبون ويرغبون وتفرضه سياستهم المستمدة من واقعهم لا من واقع الاسلام ، في حين ان ائمة الشيعة وشيعتهم منذ المراحل الاولى للخلافة الاسلامية التي يصفون حکامها بالراشدين كانوا

يعارضون هذا الاتجاه ويعتبرونه بداية لحملة جديدة لاعادة الروح الجاهلية التي حارب الامويون الاسلام من اجلها وظلوا يحاربونه حتى نهاية عهدهم تحت ستار الاسلام ، هذا الاتجاه كان الشيعة وأئمة الشيعة يحاربونه بحزم وصلابة ويتحدون الحاكمين والمرتزة من أعوانهم عندما يرون نصوص الاسلام تتعرض للتحويل والتحريف من اولئك المرتزة تلبية لرغبات الخلفاء وولاتهم .

ومن الامثلة على ذلك ما جاء في مروج الذهب للسعودي ان أبا ذر الغفاري رحمه الله حضر في بعض مجالس عثمان بن عفان وفيه كعب الاحبار وغيره من الروائيين ، فقال عثمان : أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره ؟ فقال له كعب الاحبار : لا شيء عليه يا امير المؤمنين ، فدفع ابو ذر في صدر كعب الاحبار وقال له : كذبت يا ابن اليهودي ، وتلا الآية : ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب (١) .

لقد قصد عثمان بن عفان بسؤاله هذا التعريض بأبي ذر الذي كان يتدد باسراف عثمان وحاشيته واستهتارهم بمقدرات الامة وحقوقها وكأنها من متروكات آبائهم وأمهاتهم ، وقد اراد ابو ذر ان يقول له ان مجرد ذلك لا يكفي ما دام يستغل اموال المسلمين ومقدرات الامة لصالح اسرته وحاشيته الذين يعبثون بحقوق العباد وكرامتهم .

ودخل عليه بعد رجوعه من الشام وعنده كعب الاحبار وجماعة من أعوانه وأقاربه وقد اتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف فنضت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : اني لأرجو لعبد الرحمن خيرا لانه كان يتصدق ويقري الضيف وترك ما ترون ، فقال كعب الاحبار : صدقت يا امير المؤمنين ، فشال ابو ذر العصا وضرب بها

رأس كعب الاحبار ، وقال : يا ابن اليهودية تقول لرجل مات وترك هذا المال : ان الله اعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت رسول الله (ص) يقول : ما يسرني ان اموت وأدع ما يزن قيراطا ، الى كثير من مواقفه ومواقف عمار بن ياسر وغيرهما مع الخليفة وحواشيه والمرزقة والمنافقين كأبي هريرة وكعب الاحبار وأمثالهما ممن تقمصوا الاسلام لخدمة الجاهلية الجديدة التي لا تختلف عن جاهلية ابي سفيان وأبي جهل الا بالشكل والمظهر ، وبما قدمناه في هذا الفصل من العرض الواسع للمراحل التي مر بها التشيع والاسلام من النكسات والهجمات الشرسة ، وما قدمه أئمة الشيعة من الخدمات الخاصة والتضحيات التي لا تتسع لها امكانيات احد من غيرهم في مختلف الميادين الى غير ذلك من الجهات الخاصة التي امتازوا بها على غيرهم من المسلمين ، هذه النواحي بمجموعها قد ساهمت في بقاء التشيع حيا قويا يتحدى جميع تلك الصعاب والجبابرة وجنودهم وأسلحتهم المختلفة التي استعملوها لتشويهه وطمس أضوائه ومعاله ، وسيبقى حيا قويا مشرقا يتحدى جميع الهجمات ومن أنصع الوجوه التي تعبر عن الاسلام الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، لانه يستمد اصله وقوته من اسلام محمد (ص) ويجسده بكل فصوله ومراحل وكنوزه ، ولم يكن كغيره من المذاهب العقائدية والفكرية التي استمدت وجودها وقوتها من الحاكمين وتخرج دعايتها وقادتها من قصورهم ومن على موائدهم وجندوا لها كل امكانياتهم المادية والسياسية لتستطيع ان تنهض وتثبت في مقابل أئمة الشيعة وشيعتهم الذين تخرجوا من مدرسة محمد وعلي (ع) لا من مدرسة ابي سفيان ومعوية التي كان يمثلها ابو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الاحبار وعروة بن الزبير وابن شهاب الزهري وغيرهم من المئات الذين جندهم الامويون للكذب والافتراء على الله ورسالاته .

المراحل التي مرت بها الانتفاضات الشعبية

لعل أول ثورة في الاسلام ضد الحاكمين كانت لوضع حد للتسلط الاموي في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد ان تسلم مروان بن الحكم وأنصارها استبدادا لم يعرف له المسلمون نظيرا في عهد الخليفين من قبله وكان لهذه الثورة بالرغم من اشتراك المهاجرين والانصار فيها الطابع الشيعي بنظر اكثر المؤرخين والمؤلفين ونسبوا خيوطها لعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي (ع) كما يزعمون وراح مع ذلك يتجول في الاقطار يحرض الناس على عثمان حتى توافدوا على المدينة فقتلوه وبايعوا عليا، وأضافوا الى ذلك انه ظل الى جانبه في معركة البصرة كأداة للتخريب والفتنة على حد تعبيرهم ، ووقف في طريق الصلح الذي كاد ان يتم في البصرة بين الفريقين لولاه وانهى دور ابن السوداء المزعوم بالرغم من ظهور معاوية على المسرح السياسي المعارض لعلي (ع) وتجدد المعارك بشكل أشد شراسة وعنفًا في صفين ولم يعد لابن السوداء على لسان المؤرخين ذكر فيها، وكان دوره المزعوم قد انتهى بمصرع عثمان ومعركة البصرة ، ونحن نؤكد

بأن الثورة التصحيحية التي اتهمت بمصرع عثمان واختيار علي (ع) باجماع المسلمين للخلافة من بعده كان الغالب عليها الطابع الشيعي بالرغم من اشتراك جماعة من المهاجرين والانصار بها ووفود العواصم الاسلامية الذين استفزتهم سياسة عثمان وظلم ولاته واسرافهم في المنكسرات والاستغلال لموارد الدولة بالرغم من ذلك فقد غلب عليها ذلك الطابع لان عمار بن ياسر وأبا ذر وغيرهما من الموالين لعلي (ع) كانوا اكثر حماسا وتصلبا من غيرهم ضد الانحراف والتسلط والاستغلال الذي رافق خلافة عثمان من المروانيين وبقية الامويين وأنصارهم .

لقد وقف عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري بحزم وصلابة ضد التسلط القرشي الذي كان يعتبر السواد بستانا لقريش، وقادا الحركة الثورية ضد الخليفة وأنصاره بعد ان عبثوا بكرامة الامة واستأثروا بأكثر المراكز الحساسة واستهتروا بالدين والمقدسات ، وكان ذلك من ابرز الاسباب التي حدت بوجهاء المقاطعات والعواصم الاسلامية الى التحرك الواسع لمطالبة الخليفة بتصحيح ما افسدته بطاقته او تنازله عن الخلافة وتسليمها لمن ترضيه الامة وتطمئن اليه ، وقد ادرك الامويون وعلى رأسهم معاوية ابن هند هذا الاتجاه وأدركوا الى جانبه ان خليفتهم لو استجاب لطلب المعارضة ومات على فراشه او تنازل عنها ستنهي الى علي بن ابي طالب (ع) الخصم العنيد لابي سفيان وبيته ولم يعد للامويين وسيلة للمطالبة فيها ، فراحوا يعملون لتعقيد الامور وتأزيمها لكي تنتهي الازمة الى ما اتهمت اليه ويتاح لهم استغلالها لصالحهم كما حدث بالفعل .

وظل عمار بن ياسر ومن كان يرى رأيه كأبي ذر وابن مسعود وغيرهم ممسكين بزمام الثورة ويلاحقون عثمان وحواشييه من الامويين وغيرهم، ولما تواتل أحداثهم وأدرك ذلك اكثر المسلمين في المدينة وخارجها ووجد المسلمون ان الامور تسير من سيء الى اسوأ وبخاصة عندما استعمل

اخاه الوليد بن عقبة على الكوفة وابن ابي سرح على مصر ووزع الامويين والاوزاغ من بني الحكم على الامصار كما كان يخطط له مستشاره الاول مروان بن الحكم وتوالت الاخبار من المدينة وبقية الامصار باستهتار حواشي الخليفة وولائه بمبادئ الاسلام واستغلالهم لموارد الدولة وشاعت اخبار الوليد الذي كان لا يترك الخمر في ليله ونهاره وانه قد صلى بالناس صلاة الصبح اربع ركعات وتهوع في المحراب ، ثم التفت الى من كان خلفه من المصلين وقال : ازيدكم ان شئتم ، وكان مع ذلك يجتمع الى السحرة والمشعوذين ويدعو الناس الى مجالسهم ليفسد عليهم عقائدهم الى غير ذلك من المنكرات والاستخفاف بالدين وحقسوق المسلمين .

وظلت الامور تسير من سيء الى اسوأ في المدينة وخارجها ، بعد ان وجد المسلمون كل ذلك واستعرضوا الاوضاع العامة على ضوء ما يجري وما تقوم به تلك الطغمة الحاكمة من استهتار بالقيم ومخالفات لكتاب الله وسنة رسوله وبعد التداول فيما يجب اتخاذه اتفقوا على ان يرفموا كتابا لعثمان بصفته المسؤول الاول عن كل ما يصدر من اسرته وعماله معززا بالارقام التي لا تقبل المراجعة ، وتولى عمار بن ياسر تسليمه الكتاب ، فلما سلمه اياه وقرأ شطرا منه سأله عن بقية الموقعين عليه ، فرد عليه عمار قائلا : لقد تفرقوا خوفا منك ، فقال له : لماذا اقدمت علي من بينهم ؟ فأجابه : لاني أنصحهم اليك ، فقال له عثمان : كذبت يا ابن سمية ، فرد عليه بقوله : والله ان امي سمية وأبي ياسر ، فأحسن عثمان بوطأة جوابه وبما يعنيه فتناول عصا وضرب بها عمار بن ياسر وأمر غلماناه فطرحوه وانحنى عليه يرفسه برجليه على مذاكيره بقسوة لا يعرف الحقد أشرس منها حتى أصيب بفتق ورضوض في بدنه وغاب عن الدنيا فأمر عثمان بن عفان غلماناه باخراجه من الدار فأخرجوه وألقوه على جانب

الطريق المحاذية لبيت ام المؤمنين ام سلمة فحمله جماعة من المسلمين
 وأدخلوه بيتها ، فأنكرت هذا التصرف وجعلت تستعرض مواقف عمار
 وجهاده في سبيل الاسلام وصلاته المثينة برسول الله (ص) وثناءه البالغ
 عليه ، وحينما بلغت أخباره عائشة أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله (ص)
 وقالت بحضور حشد من المسلمين : هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد ابلى
 عثمان سنته ، ووقف منه نفس الموقف مرة ثانية حينما اخذ سफطا مسن
 بيت المال ملووا بالحلي والمجوهرات ووزع ما فيه على نساءه فأنكر
 المسلمون عليه هذا التصرف الذي لم يمهده ممن سبقوه ، ولما بلغه
 استنكار المسلمين لهذا التحدي السافر لشعورهم خطب الناس وقال :
 انا سنأخذ حاجتنا من هذا المال وان رغمت أنوف أقوام ، وكان امير
 المؤمنين (ع) حاضرا. ومن انكر عليه هذا الاسراف والاستهتار بمقدرات
 الامة فقال له : تمنع منه ويحال بينك وبينه ، كما رد عليه عمار بن ياسر
 بقوله : ان أنفي لأول راغم من ذلك ، فقال له عثمان : أعلي يا ابن سية
 تجترى من بينهم ، وامر غلماناه فانهالوا عليه بسياطهم وجعل مروان
 يحرضه على قتله ويقول : ان هذا العبد الاسود هو الذي يجرى عليك
 الناس ، فقام اليه وجعل يرفسه برجليه حتى غاب عن الدنيا ، ولما أفاق من
 غشيته جعل يحمد الله ويردد ما كان يلاقه من ابي سفيان وأبي جهل
 وغيرهما من جبابرة قريش الذين اذاقوه كل انواع الاذى والعذاب لانه
 آمن برسالة محمد ونبذ أصنامهم وأزلامهم وانصرف الى عبادة الواحد
 الأحد الذي لا شريك له ولا ولد ، ويقارن بين مواقفهم منه ومواقف
 عثمان والجلادين من جلاوزته وما يلاقه منهم من التعذيب والتكيل لا
 شيء الا لانه يطالب بتطبيق العدالة التي فرضها الله وينكر على الخليفة
 وحاشيته اسرافهم في تبذير الاموال واستهتارهم بالقيم والمقدسات
 وكرامة الانسان .

لقد تذكر في تلك اللحظات التي كانت تنهال عليه فيها سياط عثمان
وغلسانه كل ما قاساه من جبابرة قریش وقال: ان هذا ليس بأول يوم أودينا
فيه من اجل الاسلام ومبادئ الاسلام ، ان عمار بن ياسر لم يستغرب ما
يلقيه هو ورفاقه الاحرار من أحفاد أمية وأبناء الحكم طريد رسول
الله (ص) لان الاحفاد يومذاك قد استغلوا الاسلام ليحققوا للاجداد
نفس الاماني والاهداف التي حاربوا محمدا وعذبوا اصحابه من اجلها ،
لذلك لم يجزع عمار بن ياسر لكل ما اصابه من الازى وأعلن استعداداه
لتحمل ما هو أشد وأقسى في سبيل الاسلام بقوله : ليس هذا بأول يوم
أودينا فيه من اجل الاسلام •

ابو ذر الغفاري

وكان من الطبيعي ان يتحرك الصحابة الذين رافقوا عمار بن ياسر في جميع مراحلهم مع الاسلام وسمعوا ما قاله الرسول فيه وثناءه البالغ عليه لما يلاقيه عمار من عثمان وغلمايه وأسرته وأن تستفزهم تلك المعاملة لصحابه الرسول الاوفياء لرسالاته وتعاليمها بالاضافة الى سيئات حواشيه وذويه ، ومع كل ما حدث لعمار بن ياسر فلم ينحن لسياطهم ولا لوعيدهم واستمر على موقفه من تلك الطغمة التي تعبت بخيرات البلاد وكرامة الانسان مستغلة عهد الخليفة وضعفه يكضمون مال الله كضم الابل نبتة الربيع كما وصفهم امير المؤمنين (ع) في خطبته الشقشقية يقود المعارضة والى جانبه ابو ذر الغفاري رحمه الله وكان من أجلاء الصحابة وأعيانهم المقربين الى الرسول (ص) بعد ان تجسدت فيه جميع طاقات الاسلام وعناصره ومقوماته ووعى حقيقته وواقعه ، وكان من السابقين الى اعتناقه والخامس في الاسلام كما جاء في طبقات ابن سعد ، وحينما تجاهر بالاسلام تعرض كغيره لسياط القرشيين وتعذيبهم حتى كاد ان يهلك من ذلك كما جاء في مسند احمد ومجمع الزوائد ، ولكن ذلك لم يغير موقفه من الاسلام وظل كالمارد الجبار يتحدى قريشا وسياطهم ، وراح يدعو

قومه الى الاسلام وهجر الاصنام والاثان ، فاستجابوا له ، ومضى في طريقه صادقا في اسلامه سخيا في البذل والعطاء من اجل الاسلام زاهدا في الدنيا ومظاهرها ونعيمها وقال فيه رسول الله (ص) : ما أظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر ، وقال فيه : من سره ان ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى ابي ذر كما جاء في سنن ابن ماجة ، وكان احد الثلاثة الذين احبهم الله وأمر نبيه بحبهم كما جاء في مجمع الزوائد ، وحينما عهد النبي (ص) لعلي (ع) بالخلافة كان في طليعة الملتزمين بها والموالين لعلي والمتابعين له والعالمين على اتشارها والتزام المسلمين بها وظل على ولائه وبيعته له يترسم خطاه وينهل من علمه ويلتزم بتوجيهاته يسالم من سالم ويعادي من عادى لا يمه الا ان يسير الاسلام في طريقه الصحيح السليم وتسمع رقته في انحاء هذه الدنيا .

ولم يحدث التاريخ عنه بأنه تعرض لاحد خلال خلافة الشيخين ابي بكر وعمر مع انه كان يراهما من الغاصبين ، ولم يكن ذلك الا لان عليا (ع) كان مسلما لهما ما دامت الامور تسير في طريقها الصحيح الى حد ما والاسلام يسير بخطا سريعة خارج الحجاز يتحدى أعتى جبابرة عصره وأقواهم عددا وعتادا وفي مثل هذه الظروف كان يرى ويعمل على توفير الهدوء في الداخل ويرى ذلك من الضرورات لكي تتوافر جميع الجهود نحو الاهداف الاصلية وتصدير الاسلام الى جميع انحاء العالم متجاهلا حقوقه الخاصة وما جنته أيدي القوم معه ومع زوجته بضمة النبي (ص) ، وكان يردد في مجالسه مع العامة والخاصة : والله لأسألن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة .

ولما انتقلت الخلافة الى الامويين حسب التخطيط المرسوم لها منذ وفاة النبي او قبلها واستغلها الامويون لصالحهم وراحوا يعبثون بخيرات

البلاد وحقوق العباد واستخدموا الاسلام لخدمة الجاهلية وأهدافها ، ورأى الغفاري ومن كان على رأيه صاحب الحق الشرعي في الخلافة يتذمر ويتلوى من تلك الظاهرة الجديدة والاضاع الفاسدة التي يوشك ان تعيد جاهلية ابي سفيان وأبي جهل وأمية بن صفوان وغيرهم من قادة قريش ، وسمع ابا سفيان حينما انتهت الخلافة الى سليل أمية يحلف باللات والعزى ان لا جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب وينادي قومه ان يتلقفوها كما يتلقفون الكرة لتعود الى صبيانهم أحفاد أمية والحكم طريد رسول الله ، لما رأى إمامه يتلوى من تلك الاوضاع وينصح عثمان وحاشيته ان يعودوا الى رشدهم ويسيروا ولو بسيرة من سبقهم ورأى القوم جادين معنيين في غيهم وضلالهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات وقف منهم مواقف المشهورة يطالب بوضع حد للتدهور الذي انتهت اليه الامور وبالمعادلة الاجتماعية والاحتفاظ بأموال الدولة لصالح المسلمين والعمل على ازالة شبح البؤس الذي خيم على اكثر الفئات وراح يدعو الى الثورة لتصحيح ما أفسده الحاكمون وإحياء النظام الاسلامي الذي يعطي كل انسان حقه بدون التواء او محاباة ولا يفرق بين الحاكم والمحكومين ولا بين القريب والبعيد وينظر الى الناس ، جميع الناس ، من خلال اعمالهم وخدماتهم وما يقدمه كل فرد لأُمته ومجتمعه لا من خلال أحسابهم وأنسابهم .

لقد أنكر ابو ذر رحمه الله على اولئك المعنيين في الترف والبذخ والاستهتار بالقيم وحقوق العباد واندفع بوجي من عقيدته ووعيه لواقع الاسلام ومبادئه وتعاليمه يندد بهم داعيا صحابة الرسول ورفاقه فسي الجهاد والتضحيات الى الوقوف صفا واحدا في وجه ذلك التيار الجاهلي المتمثل بتلك الغصابة الحاكمة بالرغم مما لاقاه هو وعمار بن ياسر وابن مسعود من العنت والجور والاذى الذي أودى بحياة ابن مسعود وكاد ان يودي

بحياتهما •

وحول مواقف ابي ذر ورفاقه الابرار من ابن عفان وزمرته الحاكمة قال السيد قطب في كتابه العدالة الاجتماعية : ان صيحة ابي ذر كانت دفعة من دفعات الروح الاسلامي انكرها عليه اولئك الذين صدمت عقولهم وقلوبهم ولا يزال ينكرها أمثالهم من مطايا الاستغلال في هذه الايام ، ومضى يقول: لقد كانت تلك الصيحة نقطة ضمير لم تخدره الاطماع امام تضخم فاحش في الثروات يفرق الجماعة الاسلامية الى طبقات ويحطم الاسس التي جاء هذا الدين ليقيمها •

لقد مضى ابو ذر في ثورته على الظلم والظالمين غير هباب لتهديدهم ووعيدهم ولا لسياطهم التي كانت تنهال على جسد عمار بن ياسر وعبد الله ابن مسعود ولا لغيرها من اساليب التعذيب والارهاب التي هيمنوا بها على الجماهير وكان يقف على ابواب اولئك الطغاة الذين مكثهم خليفة عمر بن الخطاب من التسلط على جميع مرافق الدولة ومواردها ويتلو الآية : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب ألیم •

ولما شكاه مروان بن الحكم الى عثمان ارسل اليه يهدده ويتوعده ، ولكن نفسه الكبيرة ابت ان ينحني او يخفف من حملته لتهديد عثمان ووعيده وراح يردد في المجتمعات ان عثمان يريد ان يمنني من قراءة كتاب الله فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب الي وخير لي من ان اسخط الله برضاه •

وقد ذكرنا سابقا انه حضر يوما في مجلس من مجالسه فقال عثمان : أيجوز للخليفة ان يأخذ شيئا من اموال المسلمين لقضاء حاجته واذا ايسر قضاء ورده الى بيت المال ، وكان يعرض بأبي ذر لانه كان ينكر عليهم التصرف والتلاعب بأموال المسلمين فأسرع كعب الاحبار الى الجواب

وقال : لا ارى بذلك بأسا يا امير المؤمنين • ورأى ابو ذر ان السكوت عن كعب الاخبار يشجعه على التدخل في أمور الدين لصالح الامويين وهو من المتهمين في دينه واسلامه بنظر اكثر الصحابة •

وكان يضع الاخبار التي تتفق مع ميول الحاكمين ورغباتهم وينسبها الى التوراة والكتب القديمة ولما وجد فيه الحاكمون معدنا غنيا بهذا النوع من الاخبار قربوه وأدنوه وأغدقوا عليه من اموال المسلمين والمساكين فلم يستطع ابو ذر ان يسكت عن كعب الاخبار وهو من المتهمين في دينه واسلامه فرد عليه قائلا : ما انت وهذا ، أتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية ، فاستبد الغضب بعثمان وجعل يفكر في امره وفي نوع العقوبة التي يمكن انزالها فيه وراح يستعرض أنواع العقوبات التي كان يستعملها مع غيره كالجلد والحبس والقتل ، ويستعرض في الوقت ذاته تاريخ ابي ذر وما له من المكانة الرفيعة عند صحابة الرسول على اختلاف نزعاتهم وميولهم الذين كانوا ينظرون اليه بمنتهى الاجلال والاكبار ويقدرّون اخلاصه للاسلام ولصالح المسلمين •

بعد ان استعرض كل ذلك وأدرك ان حبسه او قتله يفجران الوضع المتأزم لغير صالحه وصالح اسرته ، فلم يجد سبيلا أيسر عليه من اخراجه من المدينة التي كانت يومذاك كالبركان المهيب للانفجار بين حين وآخر ، ولكن الى اين يا ترى ؟ فالعواصم الاسلامية الكوفة ومصر والبصرة وان كان حكامها من البيت الاموي وأعوانهم ، ولكن ابا ذر سيجد بين سكان تلك الاقطار أعدادا كبيرة تدين بالولاء لعلي (ع) وسيلتفون حول ابي ذر ويناصرونه وبالتالي ربما تكون النتائج اسوأ من النتائج المترتبة على بقاءه في المدينة ، فلم يبق غير الشام التي احتلها الامويون منذ الفتح الاسلامي وتولى ادارة شؤونها اثنان من اولاد ابي سفيان يزيد ومعاوية الذي سلك فيها مسلك الاكاسرة والقياصرة وجعل من المجتمع الشامي

موثلاً للسيادة القرشية والاستثمار الطبقي الذي يؤمن بمبدأ الطبقيّة ويهمل مبدأ المساواة الذي جاء به الاسلام .

وقد رحل اليها معظم القرشيين الذين كانوا من طراز معاوية حيث وجدوا في المجتمع الشامي الذي أسسه معاوية ما يصبون اليه .

وقال الدكتور علي الوردي في كتابه وعاظ السلاطين : ولعلنا لا نغالي اذا قلنا بأن الشام قد اصبحت في عهد معاوية هي العاصمة الحقيقية لدولة الاسلام الناشئة ، ويصح ان نقول : بأن معاوية صار آنذاك الخليفة الفعلي ، وما يدل على ذلك ان جميع من كان ينفيهم عثمان وولاته فسي الامصار المختلفة كانوا يساقون الى معاوية ليرى رأيهم فيهم ، فأبو ذر وثوار البصرة والكوفة سيقوا الى معاوية وكانت بوادر الثورة على عثمان قد ظهرت في الكوفة ، وسببها المباشر هو تصريح سعيد بن العاص الاموي والي الكوفة حيث قال : السواد بستان لقريش ، فقام اليه أفراد من القبائل العربية يردون عليه قائلين : انما السواد فيء آفاه الله علينا وما نصيب قريش الا كنصيب غيرها من المسلمين ، وأخذ جماعة من الأعراب يتذمرون من هذا الاستغلال ويشاغبون فكتب الوالي بشأنهم الى عثمان فأمره ان يسفرهم الى معاوية بالشام فأرسلهم الى الشام ليرى رأيهم فيهم . وأضاف الى ذلك ان رجلاً من اهل البصرة كان متقشفا زاهدا حرم على نفسه أموراً أحلها الله لعباده واشتھر عنه انه كان لا يأكل اللحم ولا يرى الزواج ولا يشهد الجمعة فكتب الوالي في البصرة بأمره الى عثمان فأمره ان يسيره الى معاوية بالشام، وفي الشام امتحنه معاوية ووجد ان لا بأس منه وأبقاه عنده ، وهكذا كان بالنسبة لكل من يظهر بفكرة او رأي يخشى الحاكمون من عواقبه على سياستهم ونظامهم الطبقي الذي فرضوه في عهدهم الجديد .

ويبدو من ذلك ان معاوية كان هو المدير الفعلي لشؤون السياسة

الاسلامية منذ ان اصبحت السلطة في أيدي الامويين ، فكل من كان يتحرك لغير صالحهم او يدعو الى رأي جديد يساق الى معاوية ليرى رأيه فيه ويقرر مصيره ، فاذا لم يجد فيه ضررا على سياستهم الجديدة او كان يخدمها تركه وشأنه او ابقاه عنده كما فعل مع الصوفي ، لان التصوف بما يحمله من الافكار الهدامة لتعاليم الاسلام وأنظمتها من افضل الاسلحة التي توفر للحاكم الهدوء والاستقرار ، ولذلك عندما راج التصوف خلال القرن الثاني بواسطة الشعوبيين اعداء الاسلام رحب به الحاكمون ويسروا له البقاء والانتشار ، واذا وجده معاوية يشكل خطرا على سياستهم القائمة على الاستغلال الطبقي حاول بكل وسائله خنق الفكرة او الانتفاضة ولو بالقضاء على صاحبها او ابعاده عن الشام قبل ان تتسرب الى الجماعات والافراد لتبقى لهم الشام مركزا وطيدا يسيطرون من خلاله على بقية الامصار عندما تدعو لذلك الحاجة .

لقد كان معاوية يعمل لتوطيد امره في الشام وجهاتها ولا يبالي في الامصار الاخرى ، بل كان يتمنى ويعمل لانتشار الفوضى والشغب فيها حتى لا يتفقوا بعد عثمان على احد لاسيما وان الانظار كلها كانت متجهة نحو علي بن ابي طالب (ع) العدو الاول للقرشيين الذين وترهم بأبائهم وأجدادهم في معاركه مع النبي (ص) ، ولعل الباحث في أحداث تلك الفترة وما رافقها يجد اكثر من دليل على ان معاوية بن ابي سفيان كان من وراء تعقيد الامور ولولاه لم تنته الى النتيجة التي اتهمت اليها ، وانه كان على اتصال دائم بمرwan بن الحكم القابسي بجانب عثمان ليضرب الناس بعضهم ببعض ، والسياسيون في كل عصر اذا اصطدموا بانتفاضة شعبية لا يتورعون من استعمال عملائهم لتأزيم الموقف اذا كان يخدم مصالحهم ، وقديما قيل: الملك عقيم والسياسة لا دين لها ولا مبدأ . وقد ادرك معاوية ان حل الازمة بالطرق السلمية التي كان يضمها علي (ع) لا

تخدم القرشيين وستكون النتائج لغير صالحهم لان عثمان بن عفان كان يومذاك في حدود التسعين من عمره وأصحاب هذا السن ينتظرون الموت ساعة بعد ساعة ، وعندما يموت ابن عفان على فراشه فسوف لا يتردد احد في اختيار علي بن ابي طالب لها ولا يجد هو ما يبرر معارضته او مطالبته بها لاسيما انه وأباه من ألد اعداء الاسلام ، والمسلمون كلهم يعرفون ذلك ، ومن الصعب على رجل حارب الله ورسوله مع اهله وأسرته اكثر من عشرين عاما ان يصبح خليفة الرسول الذي حاربه بعد زمن قصير ما لم تتوفر له ظروف غير اعتيادية .

وجاء في كتاب ابي ذر الغفاري لعبد الحميد السحران ان معاوية زار عثمان ابان اشتداد الثورة عليه فنصحه ان يقتل عليا وطلحة والزبير وقال له : اذا لم تقتلهم فسيقتلونك فرفض نصيحته ، ولما أصر على رفضه قال له معاوية : اجعل لي الحق بالطلب بدمك اذا قتلت ، فأجابته الى ذلك وأعطاه ما يريد .

وهذه الرواية تؤكد ان معاوية كان يدرك مدى الفائدة التي سيجنيها من مقتل عثمان على يد الثوار وانه كان يساعد على قتله بواسطة مروان بن الحكم وغيره ممن كانوا يسيرون عثمان كما يريدون ويعملون على تأزيم الموقف وتمقيده لينتهي بقتل عثمان كما كان يخطط له معاوية بن ابي سفيان، وعندما قتل وبأقصى حدود السرعة ارسل له الامويون في المدينة قميصه وأصابع زوجته وعند وصولهما وضعهما على المنبر وجعل يندبه ويقول للشاميين : لقد قتل إمامكم مظلوما ، واجتمع حوله الناس ليكون ويندبون ، واستغل معاوية الآية القرآنية ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليهِ سلطانا فلا يسرف في القتل ، وراح يطالب بدمه من علي (ع) فكان هذا القميص من ابرز الاسباب التي اوصلته الى الخلافة ، ولم يحدث التاريخ عن قميص اشترك في تأسيس دولة كما حدث لقميص عثمان

ومهما كان الحال فلقد ارسل عثمان بن عفان ابا ذر الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية كما كان يرسل اليها غيره من منتقدي سياسته وسلوكه وسلوك عماله واسرافهم في البغي والمنكرات ، وفي الشام وقف ابو ذر رحمه الله من معاوية نفس الموقف الذي وقفه من عثمان وحاشيته في المدينة ، وأنكر عليه وعلى الحزب القرشي الذي أسس فيها عهده الجديد اسرافهم في استغلال موارد البلاد واستهتارهم بالقيم ومبادئ الاسلام لم ترهبه تحذيرات معاوية وسياطله ولا سجونه المظلمة وحاول معاوية تخديره بالاموال ، فأرسل اليه كما في رواية ابن الاثير الف دينار فوزعها على الفقراء في صبيحة الليلة التي قبضها فيها ، ولما صلى معاوية صلاة الصبح قال للرسول الذي ارسلها معه : اذهب الى ابي ذر وقل له انقذ جسدي من عذاب معاوية فانه ارسلني بالمبلغ الى غيرك وقد اخطأت وسلمته اليك ، والظاهر ان معاوية قد استغرب من ابي ذر قبوله للمبلغ وأراد ان يعرف ما اذا كان قد ادخره لنفسه ليحاول تخديره وشراؤه بالمال كما كان يصنع مع غيره ، او انه انفق على الفقراء والمحتاجين ليجث عن وسيلة اخرى لاسكاته ، ولما ذهب اليه الرسول قال له : ارجع الى معاوية وقل له لم يبق معنا من دنائرك شيء أخرنا ثلاثة ايام لكي نجتمعها لك ، ولما رجع اليه الرسول وأخبره بمقالة ابي ذر ادرك انه ليس من اولئك الذين تغريهم الاموال ويتنازلون عن مبادئهم من اجلها وراح يبحث عن علاج اخر يعالجه به ، وفي الوقت ذاته استمر ابو ذر رحمه الله على موقفه المتصلب من معاوية وحزبه ، ولما بني قصر الخضراء قال له يسا معاوية : ان كان هذا المال الذي أنفقته لبناء هذا القصر من مال الله فهو الخيانة وان كان من مالك فهو الاسراف ، وكان يقف في كل يوم على باب معاوية ويصرخ بأعلى صوته : بشر الذين يكتزون الذهب والفضة

بمكاوي من نار .

وجاء عن حبيب بن سلمة الفهري انه قال لمعاوية : ان ابا ذر سيفسد عليك الشام فتدارك الامر ان كان لك بالشام حاجة ، فاستدعاه معاوية اليه وحاول ان يستجلبه بكل ما لديه من اساليب الترغيب والترهيب فلم يجد الى ذلك سيلا ولما يس منه قال له : يا عدو الله لو كنت قاتلا احدا من اصحاب محمد بغير اذن من عثمان لقتلتك ، ولكني سوف استأذنه فيك ، فرد عليه ابو ذر بجرائته المعروفة على اعداء الاسلام قائلا : ما انا بعدو الله ورسوله بل انت وأبوك عدوان لله ولرسوله اظهرتما الاسلام وأبطنتما الشرك والنفاق ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرات عديدة ان لا تشبع ، وسمعته يقول : اذا تولى أمور الامة الأعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الامة حذرهما منه ، فقال له معاوية : ما انا ذلك الرجل ، فرد عليه ابو ذر بقوله : بل انت هو كما اخبرني بذلك رسول الله (ص) ، وسمعته يقول : است معاوية في النار ، فضحك معاوية وأمر بحبسه ، وكتب معاوية الى عثمان يستعفيه من امر ابي ذر وقال له : اذا بقي ابو ذر في الشام سيفسد علينا الناس وقد استنفدت جميع الوسائل لاسكاته فلم أتمكن فكتب اليه عثمان ان يرده الى المدينة على اسوأ حال ومركب فحمله معاوية على اسوأ حال وأمر من معه ان يسيروا به الليل والنهار حتى يصل الى المدينة فنفذوا فيه امر معاوية ووصل الى المدينة بعد ان تساقط لحم فخذه من الجهد .

ولما ادخلوه على عثمان قال له : لا أنعم الله بك عينا يا جنذب ، فقال له ابو ذر رحمه الله : لقد سماني رسول الله عبد الله واخترت اسم رسول الله على اسمي ، فرد عليه عثمان قائلا : انك لتزعم انا نقول : بأن الله فقير ونحن اغنياء ، فقال ابو ذر : لو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله على عباده وأشهد ان رسول الله كان يقول : اذا بلغ ولسد

ابي العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولا وعباده خولا ودينه دخلا ، وكان علي (ع) في المجلس يسمع الحوار بينهما ، فالتفت عثمان اليه وقال : أصحيح ان رسول الله (ص) قد قال ذلك ؟ فرد عليه بقوله : ان ابا ذر صادق فيما يقول لان رسول الله قد قال فيه ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من ابي ذر .

وجاء في رواية الواقدي ان الصراع قد اشتد بين عثمان وأبي ذر وحاول عثمان بكل وسائله ومغرياته ان يضع حدا لثسيرة ابي ذر واستجلابه ، ولكن ابا ذر لم يكن مستعدا لان يحابي احدا مهما كانت منزلته على حساب دينه وعقيدته فكان عند كل محاولة من عثمان يزداد تصلبا في موقفه منه ومن حواشيه الذين عاثوا في الارض فسادا وجورا . ولم يعد امام عثمان سوى احد امرين : اما القتل وهو الامر المفضل عند حواشي الخليفة الذين كانوا يرجحون له كل ما يزيد من غضب الجماهير ونفقتهم عليه كما كان يخطط لهم حاكم الشام الذي كان يتمنى له ان يموت على يد الثوار قبل ان يموت على فراشه .

ولكن فكرة القتل بالرغم من اجماع حاشيته عليها قد استطاع ان يتحاشاها لانه كان يقدر له مكاتته عند اكثر المسلمين ويرى انها ستجر عليه غضب الجماهير في الداخل والخارج واتساع النقمة عليه لاسيما وهو يرى ان اكثر الصحابة وأبنائهم كانوا يباركون مواقف ابي ذر منه ومن اسرته الحاكمة ، فلا بد اذن من اخراجه من المدينة ولكن الى اين يا ترى ؟ الى المدن والعواصم ؟ ان ذلك لا يحل المشكلة بل يزيدها تعقيدا وخطرا بعد التجربة الاولى التي اخبره فيها وراح يستعرض البراري المقفرة فاختار له الربذة من بينها وأمره بالرحيل اليها وأوكل امر اخراجه لمروان ابن الحكم طريد رسول الله (ص) .

وقد عز على المسلمين ان يروا طريد رسول الله يطرد من مدينة

الرسول صحابيا ممن اجتباهم رسول الله (ص) وفضلهم على الكثيرين
 ممن صحبوه وتابعوه ولكن المصلحة قد فرضت عليهم ان يصبروا ويقابلوا
 هذا الحدث العظيم بالحكمة الى ان تكتمل عناصر الثورة ومقومات
 نجاحها ، ولم يخرج لوداعه سوى علي (ع) وعقيل بن ابي طالب
 والحسان (ع) وعمار بن ياسر وأقبل عليهم مروان بن الحكم ليمنعهم من
 وداعه وقال : ألا تعلمون بأن الامير قد نهى عن وداعه ، فتقدم اليه امير
 المؤمنين (ع) وضرب بسوطه رأس راحته وقال له : تنح نحاك الله الى
 النار ، فرجع شاكيا الى عثمان صنيعه معه فلتقى عثمان عليا غضبا على حد
 تعبير المؤرخين ، وفي كلمة الوداع الموجزة حدد امير المؤمنين وعمار بن
 ياسر موقفه من القوم وموقفهم منه فقال له الامير (ع) : يا ابا ذر ان القوم
 قد منعوك دنياهم ومنعتهم دينك فما أحوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عما
 منعوك ، وقال له عمار شريكه الاول في الثورة ورفيقه في جهاد الظالمين:
 والله لو اردت دنياهم لأمنوك ولو رضيت عن اعمالهم او تفاضيت عنها
 لأحبوك ، وما منع الناس ان يقولوا بقولك الا الرضا بالدنيا والجزع من
 الموت ، كما تكلم الباقر بما يتناسب مع ضخامة الحادث .

وبكى ابو ذر عند وداعهم وقال : لقد ثقلت على عثمان بالحجاز وعلى
 معاوية بالشام ، وكره ان اجاور اخاه وابن خاله بالمصريين ، وهو يعني
 بأخيه وابن خاله الوليد في الكوفة وابن خاله ابن ابي سرح في مصر ،
 وكان ابو ذر قد طلب منه ان يسير الى الكوفة وفيها اخوه لأمه الوليد بن
 عقبة او الى مصر وفيها ابن ابي سرح . ومضى يقول: لقد سيرني الى ارض
 ليس لي فيها ناصر ولا دافع الا الله ، والله لا أريد غير الله صاحبا .

وعاش ابو ذر في الربذة ما بقي من حياته غريبا بعيدا عن الناس في
 ارض مقفرة من السكان وحتى من الطير والوحش الى ان وافته منيته
 ويسر الله له وفدا من اهل العراق كانوا في طريقهم لحج بيت الله الحرام

وفيما كانت زوجته تتلوى من اجله وفي حيرة من امرها تنتظر في تلك الصحراء المقفرة من يساعدها على تجهيزه الى مقره الاخير ، واذا بوفد من الكوفة في طريقهم لحج بيت الله الحرام وفيهم مالك بن الحارث والاشتر النخعي مع جماعة من أعيان الشيعة وبينها وبين الطريق الذي يسلكهما الوفد مسافة بعيدة فلوحت لهم بثوب في يدها وجعلت تصرخ وتولول فمالوا اليها وحينما عرفوا ان المسجى هو ذلك الصحابي الجليل الذي كان رسول الله (ص) يجله ويفضله على صحابته أصيبوا بالدهشة والذهول من استخفاف عثمان والحزب القرشي الحاكم بالاسلام وكرامة الانسان وأضافوا ذلك الى سيئات عماله واسرافهم في البغي والمنكرات، وتولوا تجهيزه لمقره الاخير، وبعد مواراته في قبره حملوا زوجته وابنته الى المدينة ، وصدق فيه قول رسول الله (ص) في غزوة تبوك بعد ان لحق بقافلة المسلمين : يا ابا ذر تعيش وحدك وتدفن وحدك وتحشر وحدك ويسعد فيك قوم من اهل العراق يتولون غسلك ومواراتك في قبرك .

لقد كافح وناضل ابو ذر رحمه الله طيلة حياته من اجل المثل التي جاء بها الاسلام ومن اجل العدالة والحرية وحقوق المحرومين والمعتدين التي اختلستها تلك العصابة الحاكمة لم ترهبه سياطها ولا سجونها المظلمة في المدينة والشام وظل يكافح ويناضل الى ان وافته منيته في صحراء الربذة ، ولم يكن في جميع مواقفه من الحاكمين قد تبنى رأيا او اعتمد أسلوبا لا يقره الاسلام ، بل كان هو وعمار بن ياسر ومن على رأيهما من أجلاء الصحابة يترسمون خطى علي (ع) وينهلون من معينه ولم تكن ثورتهم الا من اجل العدالة الاسلامية والاحتفاظ بموارد الدولة لصالح الاسلام والمسلمين والغاء جميع الامتيازات التي حاربها الاسلام وأعادها الحزب الاموي الحاكم بأبشع صورها وأشكالها ، اما ما قيل حول الموقفين موقف ابي ذر وعمار بن ياسر في تلك الفترة من حياتهما بأن

موقف ابي ذر كان يتجه الى الاشتراكية ويدعو اليها ، بينما كان عمار بن ياسر نائرا على المترفين من قريش لانهم كانوا ينظرون بيطنون الشرك ويتظاهرون بالاسلام ، ولم يكن متحمسا الى الاشتراكية كأبي ذر رحمه الله كما ذهب الى ذلك جماعة من الكتاب المحدثين ، وعزا بعضهم هاتين الظاهرتين في ثورتي عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري الى البيئة التي رافقت حياة كل منهما ، فأبو ذر من حيث كونه بدويا على حد تعبير الدكتور الوردي في كتابه وعاظ السلاطين ، وقد اعتاد حياة القبيلة التي كانت تقوم على المساواة بين ابناء القبيلة الواحدة والاشترك في غنائمها ومراقفها على اساس متعارف بينهم ، ومن اجل ذلك كان في ثورته على عثمان وحاشيته يتجه الى الاشتراكية واشار العدل والمساواة في توزيع المال . اما عمار بن ياسر فقد كان حضريا وعاش هو وأبوه وأمه في مكة تحت رحمة القرشيين ، وقد لاقوا جميعهم من الاضطهاد والتعذيب على أيدي القرشيين ما أودى بحياة أبويه ، ولم يكن مطمئنا لاسلامهم ، وكان يستنتج عدم ايمانهم بالاسلام من استهتارهم بتعاليمه واستغلالهم لجميع موارد الدولة ومقدراتها، لذلك فقد اتسمت ثورته عليهم بالحق ، ولم يكن متحمسا للاشتراكية في توزيع المال بقدر حماسه لدعوتهم السي تصحيح ايمانهم بالاسلام ومبادئه الى غير ذلك مما قيل حول اختلاف مواقف الطرفين من عثمان ومن احاط به من القرشيين ، هذا التصنيف لمواقف عمار وأبي ذر من عثمان وبطاقته في منتهى السطحية والفرابة ذلك لان ثورتها على الاوضاع الفاسدة يومذاك مستوحاة من الاسلام الذي افى جميع الامتيازات الطبقية والعنصرية التي كانت سائدة قبل الاسلام وأحل محلها العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع الناس في الحقوق والواجبات، وكما ان ابو ذر يطالب بحقوق الفقراء في اموال الاغنياء كما جاء في كتاب الله وتوزيع موارد الدولة توزيعا عادلا على جميع الطبقات

بالتساوي بين ما يسمونهم بالموالي والسادة والقرشيين وغيرهم ، ويندد باستغلال الخليفة وحواشيه لمقدرات الامة واستهتارهم بحقوقها ، كسان عمار بن ياسر يطالب بذلك ويندد بتلك الطغمة المحيطة بعثمان لانها استأثرت بالقسم الاكبر من تلك الاموال كما تشهد بذلك مواقفه مع الخليفة التي تعرض من اجلها لسياطهم وتعذيبهم ، وليس فيها ما يشير من قريب او بعيد الى انها كانت من اجل مواقف القرشيين منه ومن ابيه وأمه في فجر الدعوة ، وهو ارفع شأنًا من ان يستغل الظروف للتنفيس عن حقدته الدفين على القرشيين الذين قتلوا اباؤه وأمه وكادوا ان يلحقوه بها لولا انه انتقامهم وتظاهر بالبراءة من محمد واسلامه وأن يقتصر الحق من غير غرمائه ، بل كانت انتفاضتهما كما تؤكد جميع المصادر من اجل الاسلام والمسلمين وحقوق الفقراء والمحرومين والمعذيين ، وأين هذا من اشتراكية الشيوعيين الهوجاء التي تحارب اهل الملكية وتسخر الشعوب لفئات مخصوصة وتخفق الحريات والانتفاضات الشعبية التي تطالب بالتححرر من تلك الانظمة الجائرة التي فرضت على الشعوب بأسلحة الدمار والخراب •

ان ابا ذر رحمه الله كان يقف على ابواب الحاكمين في المدينة والشام يتلو الآية ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ، ولم يكن يعني بذلك من يملكون بجدهم وجهودهم وبالطرق المشروعة ، وانما كان يعني اولئك الذين كانوا يستغلون موارد الدولة وغنائم المجاهدين لشهواتهم ويتجاهلون آلاف الفقراء ممن كانوا يقاسون من آلام الحاجة والفقر والجوع •

لقد كان يعني اولئك الذين اعادوا الجاهلية ونزعاتها بأقبح صورها وأشكالها ويقولون : ان السواد بستان لقريش ، ويحتقرون الذين يسيئون اعتنقوا الاسلام من بقية الامة ويسمونهم بالموالي والنبط والحمراء وما

الى ذلك مما يشعر بتحقيهم ويرددون المثل القائل : لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : كلب او حمار او مولى ، وان السواد فيء آفاه الله علينا .
انه كان يعني هؤلاء الذين حكموا بهذه الروح اللئيمة العاقدة وكان عهدهم انتكاسا مكشوفاً للإسلام الذي ساوى بين السادة والعبيد والحاكم والمحكوم وجميع بني الانسان ، هذا الاسلام الذي دفن مع محمد وعلي في قبريهما ، وأصبح اسلامهم الذي تستر به لا يختلف عن الكسروية الا بطلاء خفيف من الطقوس كان هؤلاء يستعبدون الانسان باسمها وأولئك يستعبدونه باسم هرمز .

ان ابا ذر رحمه الله كان يعني اولئك الذين حاربوا محمدا ورسالاته السحاء اكثر من عشرين عاما وبعد ان قهرهم ودخلوا فيه مرغمين استغلوا لصالحهم واستعادة جميع ما كان في المجتمع البدوي من تراث وحاولوا ان يجعلوا من محمد (ص) بطلا قوميا أمثال جنكيزخان لا من اصحاب الرسالات الذين ارسلوا لجميع بني الانسان ولخير الانسانية جمعاء ورحمة للعالمين .

ومهما كان الحال فالمعادلة الاسلامية التي كان ينشدها ابو ذر وعمار ابن ياسر ورفاقهما الابرار الذين كانوا يترسمون خطا علي (ع) وينهلون من معينه معين الاسلام هي التي تحفظ لكل انسان حقه وتدفعه الى العمل المنتج الذي يحفظ له كرامته وغترته وتضع الحدود لصلوات الحاكمين بالمحكومين والمحكومين بعضهم مع بعض وبها وحدها تحل مشكلة البشرية من جوع واستغلال وحروب هوجاء تسيرها المصالح والانانيات لتقضي على الملايين من الابرياء لا بالرأسمالية المستغلة ولا بالشيوعية الضالة التي تحارب الاديان والقيم ، ولا بالاشتراكية التي يتاجر بها الحاكمون في عصرنا الحالي .

كما وان اسناد الثورة على عثمان وطفته الى عبد الله بن سبأ الدخيل

على الاسلام كما تزعم رواية سيف بن عمر التي اعتمدها اكثر المؤرخين والكتاب وكأنها من وحي الله المنزل وانه هو الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي (ع) على حد تعبيرهم وراح يتجول في الامصار يؤلب الناس على عثمان ويشحنهم بالحقد عليه حتى اجتمعوا على قتاله وكان على رأس وفد العراق السبئي مالك الاشتر على حد تعبير محب الدين الخطيب فسي كتابه العواصم من القواصم وقاد الثورة في المدينة ابو ذر وعمار بن ياسر، ومالك الاشتر وغيره ممن تسربت الى عقولهم فكرة الوصاية التي اخترعها اليهودي الدخيل عبد الله بن سبأ كما تزعم رواية سيف بن عمر الذي عاش كل حياته في النصف الاول من القرن الثاني ، لقد نسبوها لابن سبأ وعمار بن ياسر وأبي ذر بالرغم من اشتراك المهاجرين بالثورة على عثمان وتحسبهم بالواقع الاليم الذي اتهمت اليه الاوضاع الفاسدة في المدينة وخارجها من تصرفات مروان بن الحكم وبقية الامويين واسرافهم في البغي والمنكرات والتسلط ، وبالرغم من ان مواقف عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري والاشتر وغيره من وفود الامصار من عثمان كانت تتسم بالاعتدال اذا قيس بمواقف طلحة والزبير وعائشة لانهم لم يطلبوا من الخليفة اكثر من تطبيق العدالة ومحاسبة ذويه وأنصاره على تصرفاتهم ووضع حد لها ، او التنحي وترك الامر للمسلمين ليختاروا لانفسهم من يرونه صالحا للقيام بمهمات الخلافة ، ولم يحدث التاريخ عن علي (ع) وعمار بن ياسر وأبي ذر وغيرهما من الموالين لعلي (ع) ان احدا منهم كان يعمل للمصير الذي انتهى اليه ابن عفان بل كانت جهودهم متضافرة لاصلاح الاوضاع المتردية في المدينة وخارجها ووضع حد للفساد الذي استشرى في جسم الدولة من تصرفات الامويين الذين استغلوا خلافة عثمان وضعفه وأسرفوا في البغي والمنكرات . وقد وقف امير المؤمنين (ع) موقفا حازما في سبيل ذلك ، وكان كالبريد الساعي بين الخليفة

والثائرين من مختلف الامصار لوضع حد لتلك المأساة وحلها بالطرق التي تحفظ للخليفة حقه وحرمة وتناسب مع مصلحة المسلمين وكان كلما وضع حلا ووافق عليه الطرفان ينفضه مروان ويشحنه على المهاجرين والانصار ووفود الامصار فتزداد الامور تعقيدا وتأزما ، وأخيرا لم يجد سبيلا الا الانسحاب من المعركة هو وشيعته وأنصاره ، وفيما كان يعمل لحل الازمة حلا سليما ويذل كل ما لديه من جهد لانهاها كان طلحة والزبير وعائشة من أشد الناس تحريضا على قتل عثمان ، ومعاوية يضع المراقيل في طريق الصلح وعلى اتصال دائم بالمتطرفين من دعاة الفتنة كمروان وأمثاله حتى لا يخضع الخليفة لاي طلب يقدمه اصحاب النوايا الطيبة والاسراع في الاجهاز عليه ، وبلغ الحال بعائشة انها كانت تهتف بقيادة الوفود الزاحفة قائلة : اقتلوا نعتلا قتله الله .

ومع كل ذلك فقد اسند الامويون جميع ما حدث في تلك المعركة لعلي (ع) ولعبد الله بن سبأ الذي اخترع فكرة الوصاية وراح يتجول في الامصار ويحرضهم على مهاجمته وقتله . ويبدو من ملابسات تلك الاحداث ان الذين نسبوها الى عبد بن سبأ تارة وابن السوداء اخرى كانوا يعنون عمار بن ياسر لان الجاقدين عليه كانوا احيانا ينسبونه الى أمه تحقيرا له ، وقد اعتاد العرب ان ينسبوا أخصامهم الى اب وضعيع او أم وضيعة حتى ان قريشا في مطلع الدعوة كانت تنسب النبي (ص) الى ابي كبشة زوج مرضعته حليلة السعدية وتنسب عمر بن الخطاب الى جدته حنشة ، وكان عمار بن ياسر ثقيلًا على القرشيين لانه كان يندد بهم ويتهمهم بالتآمر على علي (ع) واقصائه عن الخلافة ، وقد سموه ابن السوداء وابن سمية وابن المتكأ ، وقد سماه عثمان بابن السوداء في حياة النبي وفي السنة التي دخل النبي (ص) فيها المدينة وشرع في بناء المسجد ، على أثر جدال دار بين عثمان وعمار ، وبهذه المناسبة قال النبي (ص) :

ما لهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار ان عمارا جلدة ما بين عيني وأنفي وكان هو يقلب عليه السواد ويوصف به احيانا .

وجاء في كتاب التخاصم بين أمية وهاشم ان يوسف بن عمرو عامل هشام بن الحكم على الكوفة كان يقول في بعض خطب الجمعة : ان اول من فتح على الناس باب الفتنة وسفك الدماء علي بن ابي طالب وصاحبه الزنجي ، كما وان تسميته بابن سبأ جاءته من ناحية كونه يمانى الاصل وكل يمانى كان ينسب الى سبأ ، هذا بالاضافة الى ان سبأ من جملة أجداده ويقع في سلسلتهم ، فقد جاء في طبقات ابن سعد انه ابن ياسر بن مالك بن عوف بن حارثة بن عامر بن مالك بن غريب بن كهلان بن سبأ ، وقد أكد اتسابه الى سبأ كل من صاحب فتوح البلدان وابن خلدون .

اما تسميته بعبد الله فقد كان التعبير ولا يزال عن الشخص بعبد الله سائفا ومستحسنا وكانت جميع الرسائل التي تصدر من الخلفاء والامراء والقادة تصدر غالبا بقولهم من عبد الله فلان لعبد الله فلان وأكثر الناس اذا لم يشأ ان يفصح عن اسمه يسمي نفسه بعبد الله ، هذا بالاضافة الى انه لو كان المصدر لتلك الاحداث ذلك اليهودي المزعوم لورد ذكره على لسان الذين دونوا التاريخ خلال النصف الثاني من القرن الاول الهجري كمروة بن الزبير وأبي بكر بن حزم والزهري وموسى بن عقبة وأبان بن عثمان وغيرهم في حين ان التاريخ الاسلامي لم يعرف عن ذلك البطل الاسطوري شيئا قبل النصف الاول من القرن الثاني الذي ظهر فيه سيف ابن عمرو الذي تفرد بتلك الاسطورة وعنه اخذها المؤرخون والمحدثون من اعداء التشيع والشيعة .

وتؤكد جميع المصادر التي تحدثت عن سيف بن عمرو بأنه كان معروفا بين المحدثين والباحثين في احوال الرجال والرواة بالكذب والتزوير والتملق للحاكمين من بني العباس الذين كانوا اسوأ من الامويين مع

أخصامهم العلويين وقد تحدثنا عن هذا البطل الاسطوري وما قيل حوله بشكل اوسع وأشمل في كتابنا بين التشيع والتصوف وقد جرننا الحديث عن تلك الثورة التي كان عمار بن ياسر وأبو ذر من أخلص قادتها الى اعطاء هذه الصورة الموجزة عن يسمونه ابن السوداء تارة وابن سبأ أخرى الذي اخترع فكرة الوصاية لعلي وجعله في مستوى الآلهة كما يزعمونه. ومهما كان الحال فلقد مضى ابو ذر لسبيله والثورة على الظلم والفساد آخذة في الاتساع والاستعداد لحسم الموقف وبقي عمار بن ياسر واخوانه من المهاجرين والانصار وقادة الثورة على مواقعهم من عثمان وبطاقته يطالبون بتطبيق العدالة وانصاف المظلومين ، وعلي (ع) كالبريد الساعي بينهم وبين الخليفة لا يرجو له ذلك المصير الذي انتهى اليه وهو على ابواب التسعين من عمره ، ولكن الامويين وعلى رأسهم معاوية يعرفون بأنه لو مات على فراشه يفقدون جميع الفرص التي تمكنهم من الاستيلاء على السلطة ، وستنتقل الى علي (ع) باجماع الامة نظرا لجهوده في سبيل الاسلام وتضحياته ومن غير الممكن ان يفكر احد منهم فسي معاوية وكلهم يعلم بأنه وأباه من ألد اعداء الاسلام ، وفي الوقت ذاته لا يبقى له سبيل للمطالبة بها والاستيلاء عليها ما لم يقتل على يد الثوار ليتخذ من قتله وسيلة للتشجيع على علي وأصحابه وكان قد طلب من عثمان ان يجعل له الحق في المطالبة بدمه اذا انتهت حياته على يد الثائرين على سياسته وبطاقته .

وكان مروان كلما رآهم مجتمعين يتداولون الامر فيما بينهم نحل النزاع الذي يحفظ للامة حقوقها وللسلطة كرامتها ورأى بوادى الانفراج تلوح في الافق يصرخ فيهم قائلا : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ، شأهت الوجوه لقد جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا ارجعوا الى منازلكم فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا .

لقد كان ابن الحكم وابن الوزغ يعتبران خلافة عثمان ملكا له ولأسرته ويعتبر المطالبين بالعدالة لصوفاً معتدين يحاولون فسي ظلمهم هذا ان ينهبوا ملك أمية والاوزاغ ، ومرة اخرى صاح بهم في وسط المسجد وهم يحاولون التفاوض مع الخليفة للتوصل الى حل سليم وعادل ، صاح بهم قائلاً : ان شئتم حكمنا بيننا وبينكم السيف ، وكان بالإضافة الى ذلك عندما يتم الاتفاق بين الطرفين بواسطة امير المؤمنين ويكتب لهم كتابا بمطالبهم يكتب ابن الحكم الى الولاة في الامصار بما يناقض كتاب الخليفة ويوقعه بخاتمه ويأمر الولاة بمعاينة الوفود عند رجوعهم كما يأمر حاملي تلك الرسائل بالسير الى جانب الوفود الراجعة واختراق صفوفهم بين الحين والآخر ليثيروا انتباههم ويطلعوا على ما معهم من الرسائل ، وتم لمروان بن الحكم ما اراد بعد ان استولت الوفود على تلك الرسائل الموقعة بخاتم الخليفة وكان لا بد للوفود ان ترجع وتجسد الحصار على الخليفة .

ان حواشي الخليفة لا يريدون من الولاة ان يقتلوا الثوار ولا يرضون بقتلهم لان الثورة اذا انتهت بالحلول السلمية لا يستفيدون منها وكانوا يتمنون لعائشة ان تقتل في البصرة بالإضافة الى قتل عثمان ليضعفوا قميصها الى جانب قميص عثمان على منبر معاوية في الشام وقد صارحها معاوية بذلك عندما دخل عليها بعد عام الجماعة كما جاء ذلك في المجلد الاول من تهذيب الكامل للمبرد ولما سألته عن اسباب تمنياته هذه قائلة ولم ذاك لا ابا لك ؟ فقال كنت تموتين وتدخلين الجنة ونجعلك من اكبر وسائل التشنيع على علي بن ابي طالب .

انهم لا يريدون ان يقتلوا الثوار ، بل يريدون من الثوار ان يرجعوا الى المدينة ليقتل الخليفة وهم فيها قبل ان يموت على فراشه اما من يقتله وكيف يقتل فمعاوية ومروان وبقية الامويين كانوا قد أعدوا لكل امر عدته ، لقد دنا شيخ صحابي من دار عثمان في اخر ساعات الحصار

وصاح بعثمان ينصحه بأن يخلع نفسه حقناً للدماء فرمي هذا الشيخ بسهم من دار عثمان وألقي عليه حجر فمات لساعته ، وبلا شك فإن الثوار لم يكونوا داخل الدار فمن الذي رمى السهم والحجر على الشيخ الصحابي الذي كان يحاول وضع حد للثورة؟ الظاهر كما يبدو من مواقف الامويين وحرصهم على تعقيد الامور ان الذي رماه هو مروان بن الحكم او غيره من الامويين ، وهم الذين فتحوا الباب للثوار لا عثمان بن عفان كما يدعي ابن العربي في كتابه المواسم من القواصم ، ولا مراء في ان الحصار كان معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ فالثوار لم يكونوا يريدون من عثمان اكثر من ان يتخلى عن مركزه ليتولاه غيره ممن يجتمع عليه المسلمون ، والحزب الاموي من قرش كما تؤكد الارقام والملابسات يريد ان يتأزم الموقف ليقتل عثمان ويحملوا عليا وأنصاره السياسيين على حد زعمهم مسؤولية قتله لكي يستعينوا بذلك على القضاء على نتائج الثورة الذي كان من ابرز اهدافها استتباب الامر لعلي (ع) واقضاء الامويين عن الحكم الى حيث لا رجعة ، ولكن شاء الله ان يتم لهم ما ارادوا .

بين الخلفاء والنزوة

لقد استحوذ الحزب الاموي على جميع شؤون الدولة ومواردها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وخلال العهد الاموي من بعده وراحوا يعملون ليجعلوا من الاسلام دولة قومية لمصلحة العرب ولقرش فسي المرحلة الاولى وجعلوا يتباهون بذلك ويحتقرون غيرهم ممن يدخلون الاسلام من تلك الدول المغلوبة ويسمونهم بالموالي وبالحمراء وما الى ذلك من الاسماء التي تشير الى اذلالهم واحتقارهم ومضوا على ذلك حتى مع العرب الذين لا ينتمون لقرش فضلا عن الحزب الاموي الحاكم ، وجعلوا يتباهون باسرافهم واستهتارهم بكرامة الانسان ويقولون السواد بستان لقرش وفيه افاء الله عليها ، لقد استحوذت قرش على الحكم بعد علي (ع) وجعلت من الاسلام دولة لا تختلف عن دولة جنكيزخان وتيمورلنك وهولاكو الا ببعض الطقوس وبلغت جيوشها تخوم الصين من جهة وسهول فرنسا من الجهة الاخرى وملكوا آلاف المبيد والجواري الى جانب البذخ والترف اللذين لم يشهد التاريخ نظيرا لهما في حياة الحكام وفراغة العصور .

لقد غنم موسى بن نصير من غزواته لافريقيا ثلاثمائة الف اسير ورجع

من الاندلس ومعه من السبايا ثلاثون الف عذراء فذهبن الى قصور الخليفة وحواشيه وأسرته وبقي الفقراء كما كانوا يفتروشون التراب ويطبخون الماء ، وأهينت امرأة مسلمة في بلاد الروم خلال عهد المعتصم قيل انها صاحت وامعتصماه ، فذهب لنجدتها بجيش عظيم فأخذ بثارها ورجع الى مقره يجر وراءه آلاف السبايا والاسرى مكبلين بسلاسل الحديد وكلها كانت تذهب لمصلحة القواد والامراء وقصور الخلفاء وظل الفقراء كما كانوا ، وفي الوقت ذاته كان اولئك الجنود الذين ذهبوا معه لنجدة تلك المرأة كانوا يتحرشون بالنساء المسلمات والعلماء في شوارع بغداد وينتهكون حرماهم ويؤذون الناس في الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك اذى كبيرا ويسقط الواحد بعد الواحد قتلا فسي الطرقات ، ويقال ان المعتصم كان يسير بموكبه في شوارع بغداد فاستوقفه شيخ وقال له : لا جزاك الله عن الجوار خيرا جاورتنا وجئت هؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك وأسكتهم بيننا فأيتمت صبياننا وأرعبت نساءنا وقتلت رجالنا •

فالمعتصم لم يكن يبالي اذا تسلط جنوده على نساء بغداد المسلمات وعلى شيوخها وضعفائها ، وفي الوقت ذاته نراه يسرع الى اغاثة امرأة في اقصى بلاد العالم ويحشد في سبيلها اولئك الجنود الفاشمين والله يعلم ماذا فعلوا بأهالي تلك البلاد التي مروا بها وفتحوها وكيف استطاعوا الاستيلاء على بناتها ونسائها وساقوها معهم لتباع في اسواق النخاسين في دمشق وبغداد لمصلحة الحاكمين كما تباع الأباعر والاغنام •

لقد توالى الفتوحات في العصر الاموي وبلغت جيوش اولئك الفزاة تخوم الصين وسهول فرنسا من الجهة الاخرى واستولى المسلمون على مئات الالوف من الجواري والعبيد والأباعر وذهب معظم تلك الفنائم الى قصور الحاكمين وجيوب المترفين من حواشي الخليفة وأسرته وبقسي

الفقراء كما كانوا بستانا لقريش .

وقد آن لكتاب العرب ودكاترتهم الذين يفتحون أعينهم وقلوبهم حينما يمرون بتلك الفتوحات لقد آن لهم ان يقرأوا تاريخهم ويدرسوه دراسة جديدة بلغة المنطق والعقل لا بلغة العاطفة التي كانت ولا تزال تسيطر عليهم .

لقد آن أوان اليقظة الفكرية التي تستلهم من التاريخ دروسا تستفيد منها الانسانية عبر تاريخها الطويل ومن العار عليهم ان يتبحروا بتلك الفتوحات التي تنسب لأجدادهم ، والتي لو درسوها بلغة المنطق والعقل لنكسوا رؤوسهم خزيا وخجلا من الاسلام ونبي الاسلام وقادته المخلصين ومن جميع ذوي الضمائر الحية من بني الانسان ، ومن المؤسف حقا ان نرى العرب حتى في ايامنا هذه وعصرنا الحاضر عصر الدكثرة لا يزالون يمجدون ذكرى بني أمية وفتوحاتهم وينسون علي بن ابي طالب وبنيه الذين كانوا يجسدون العدالة الاجتماعية والمثل العليا ولا يزال تاريخهم من أنصع الصفحات في تاريخ البشرية وأغناها بالقيم والمثل التي نادى بها الاسلام وحارب من أجلها ، ولولا سيرتهم ومواقفهم من الظلم والظالمين ومن الطغاة والمترفين لكان الاسلام من طراز تلك الاديان التي لا تهتم الا بالسيطرة على الشعوب واستغلالها لصالح الفئات الحاكمة وأعوانهم ولا تفتت عنه صفة الرحمة التي بعث الله من أجلها محمد بسن عبد الله حيث قال : وما ارسلناك الا رحمة للعالمين .

انهم يمجدون ذكر الامويين وفتوحاتهم واستعمارهم لتلك الشعوب المغلوبة واستعبادهم لسكانها بكل ما تعنيه هذه الكلمة ويتجاهلون عليا (ع) الذي لو قدر له ان ينجح فيما كان يعمل من اجله لसार الاسلام في طريقه الى أبعد الشعوب وأقصاها ووجد العالم فيه كل أمانيه وآماله . انهم يمجدون ذكراهم لانهم قد شيدوا على حد زعمهم امبراطورية

كبرى تستد الى تخوم الصين من جهة والى سهول فرنسا من الجهة
الآخرى ولا ينظرون الى ما فعلته تلك الجيوش الغازية بتلك البلاد وما
ارتكبته مع اهلها من شيوخ ونساء وأطفال من الجرائم التي لم يحدث
التاريخ بمثلا .

ان الذين لا يزالون يمجدون الامويين وفتوحاتهم وغزواتهم مع ما
رافقها من ظلم واستغلال واستعباد وتشريد نجدهم في الوقت ذاته
يكافحون المستعمر الفاشم وينددون باستغلاله وتسلبه على شعوبهم
وبلادهم في حين ان المستعمرين في عصر هؤلاء الذين يتباهون ويتفاخرون
بفتوحات الامويين وغزواتهم لم يرتكبوا في البلاد المستعمرة من الجرائم
والمنكرات شيئا يذكر بالقياس الى جرائم غزاتنا الاوائل من امويين
وعباسيين باسم الاسلام ولم يكن تنديد هؤلاء بالمستعمر ومكافحته
والتشهير به الا لانه موجه ضدهم ولا يلتقي مع مصالحهم ويمس
سيادتهم على ارضهم وبلادهم ، اما استغلال الامويين وغيرهم ممن
المسلمين للشعوب واستعبادهم للانسان وسوقهم عشرات الالوف من
الجواري الابكار الى قصور الخلفاء والقواد وأسواق النخاسين فلانه
منهم وعلى غيرهم ويعود بالفائدة عليهم فلا يجوز ان ينسأ لهم التاريخ .
ان هؤلاء الذين يمجدون الامويين وفتوحاتهم كما ينددون بالمستعمر
ينددون ايضا بغزوات تيمورلنك لبلادهم ويكيلون له اللعنات ويعمدونه
من أظلم خلق الله وألغهم وأخبثهم لانه قتل وضرب وأسر واستعبد
ويمجدون في الوقت ذاته غزوات بني امية الى افريقيا والاندلس وغيرها
وجميع سياساتهم الظالمة التي استعبدوا فيها الشعوب واتهكوا فيها
الحرمان والمقدسات ، انهم لا يمجدون اولئك ولا يكيلون اللعنات
لهؤلاء الا لان غزواتهم ملأت أسواق العرب بالجواري والعبيد والاسرى
بما لم تتسع له قصور الخلفاء والامراء وقادة تلك الجيوش الغازية
وينددون بغزوات تيمورلنك لانها ضدهم ولم يستفيدوا منها والانسان

في الغالب اسير لمصالحه ويتحدث ويعمل من زاويتها ، فأهالي سمرقند كانوا يرون انفسهم من السعداء في عهد مليكهم بما وفره لهم عهده من الغنائم والاسرى ، ولما مات شيدوا له قبره وبنوا عليه قبة خضراء لا تزال العامة يحجون اليه وينذرون له ويتبركون به ، وعندما تقارن بين الغزوات والفتوحات التي حدثت على أيدي الامويين والتي لا يزال العسرب يمجّدونها ويتباهون بها وبين غزوات تيمورلنك وجنكيزخان وغيرهما من الغزاة لا نجد فرقا بينهما ان لم تكن غزوات الامويين ومعاملتهم لتلك الامم المغلوبة اقسى وأسوأ من معاملات اولئك لاهالي البلاد التي دخلوها وسيطروا عليها •

ان الوحشية التي رافقت غزوات الامويين لم تقتصر على تلك البلاد التي كانوا يغزونها لادخالها في الاسلام بل كانت حتى لاي بلد اسلامي ولاقدس بلاد المسلمين اذا تحرك ضدّهم مطالبا بالعدل ووضع حد لظلم الولاة واستغلالهم لموارد البلاد ، لقد كانوا يعاملونهم بنفس الاسلوب والقسوة التي كانوا يعاملون بهما تلك الامم التي كانوا يسيطرون عليها باسم الاسلام •

لقد حدث المؤرخون والرواة ان اهالي المدينة بعد الصدمة التي أحسوا بوقعها لمصرع الحسين (ع) واخوته وبنيه وأنصاره على يد الامويين وأعدائهم عبيد المال والشهوات وبعد استهتار يزيد بالقيم والمقدسات الاسلامية وحقوق العباد وتجاهره بالاحاد والفجور اعلنوا العصيان وأخرجوا عامله من المدينة عثمان بن محمد بن ابي سفيان ومن فيها من الامويين كمروان بن الحكم وغيره ، وقاد حركة التمرد عبد الله ابن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة الانصاري المعروف بالفيل^(١)

١ - وانما يعرف حنظلة بفيل الملائكة لانه لحق بالمسلمين في معركة =

وذلك سنة ٦٤ من الهجرة فأرسل اليها يزيد بن معاوية جيوشه بقيادة مسلم بن عقبة المري وأوصاه بأن يستعمل معهم جميع اساليب العنف والقسوة ويأخذ منهم البيعة على انهم عبيد ليزيد ومن يأتي بعده من الامويين ، ولم يستطع اهلها ان يثبتوا في وجه ذلك الجيش المؤلف من عشرات الالوف اكثر من ساعات قلائل وانهزم الباقيون منهم ودخلت الجيوش المسلمة مدينة الرسول وسماها قائدهم تننة تحديا لرسول الله (ص) وكان قد سماها طيبة وأباحها بكل ما لهذه الكلمة من معنى لجيشه ثلاثة ايام ، واستعرض اهلها بالسيف جزرا كما تجزر المواشي حتى ساخت الاقدام بالدماء على حد تعبير بعض المؤرخين وقضي على اكثر من فيها من ابناء المهاجرين والانصار وسماه الناس مسرفا بمسند تلك المجزرة الرهيبة ، ويقول المؤرخون ان فتاة من بنات الانصار لاذت بمحارب رسول الله فلاحق بها جندي من اولئك الغزاة وافترشها بالمحراب كما يروي الرواة ان جنديا من جنود ذلك الجيش الذي لا يزال العرب يتغنون ويفخرون بفتوحاته وما قدمه للإسلام والمسلمين من الغنائم دخل على امرأة من نساء الانصار حديثة العهد بالولادة وعلى ثديها صبي لها فطلب منها مالا ، فقالت له : والله ما تركت لنا جيوش الشام شيئا ، فغضب ومد يده الى الصبي وهو في حضنها والثدي في فمه فجذبه من

= أحد وكان النبي (ص) قد اذن له بالتأخر ريشما تزف اليه زوجته ولكن نفسه الكبيرة أبت عليه ان يبقى الى جانب زوجته ورسول الله والمسلمون يحاربون في أحد جيش ابي سفيان وأكلة الاكباد زوجته ومشركي قريش فترك زوجته ليلة زفافها بعد ان اتصل بها والتحق بصغوف المسلمين قبل ان يقتل وكانت نهايته في تلك المعركة، ولما اخبروا النبي بحاله قال : لقد غسلته الملائكة ودفن مع القتلى بدمائه فصار يعرف بين المسلمين بغسيل الملائكة .

حجرها وضرب به الحائط فانتشر دماغه على الارض الى غير ذلك من
الفظائع التي لم يحدث التاريخ بأسوأ منها في تاريخ الحكام وفراعنة
العصور .

وبلا شك فإن الجنود الذين يفعلون مثل ذلك في مدينة الرسول (ص)
ومع الصحابة وأبنائهم ونسائهم يفعلون مثله وأسوأ منه فيما وراء المدينة
من البلاد التي كانوا يدخلونها فاتحين باسم الاسلام كبلاد الفرس
والرومان والاندلس وغيرها . وإن الثلاثين الف عذراء التي حملها معه
موسى بن نصير من الاندلس لم يقعن في اسره باختيارهن وارادتهن ولا
بد وأن يكون قد أوعز لجنده الفاتح بأسره من ييوتهن بعد ان ينهبوا
ييوتهن ويقتلوا كل من يعارضهم من الشيوخ والنساء والاطفال ، ويفعلوا
ما يشتهون بالنساء والعلماء .

ان وراء أسر كل فتاة من الثلاثين الف فتاة اللواتي دخلن قصور
ال خليفة وقادة ذلك الجيش قصة طويلة من النهب وسفك الدماء وانتهاك
الحرمان ، وقد فعل اولئك الفاتحون كل ذلك باسم الاسلام دين العدل
والرحمة والانسانية ، ولكنهم بما ارتكبوه في فتوحاتهم وغزواتهم من
الجرائم والمنكرات قد تركوا في أذهان تلك الامم المغلوبة صورةا كريهة
عن الاسلام لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل ألا ما أقبح منها، وبعد ان
استقر الاسلام في تلك البلاد واستسلم اهلها للواقع الجديد كان الحزب
القرشي الحاكم ومؤيدوه وأعداؤه ينظرون اليهم بازدراء واحتقار
ويسمونهم بالموالي تارة وبالحمراء اخرى وكأنهم أناس من نوع اخر .
لقد احتقرت قريش تلك الامم التي غزاها الاسلام وسيطر عليها
وفضلت عليهم حتى اعراب البادية الجفاة الغلاظ مع انهم كانوا من ذوي
الحضارات والمدنيات التي لم يكن العرب يحلمون بها وكان من نتائج
اضطهادهم واحتقارهم واستغلالهم لاولئك الذين أرغموا على الدخول في

الاسلام وتسميتهم بالعبيد تارة وبالحمراء والموالي اخرى ، كان من نتيجة ذلك ان اتجه اولئك الموالي الى العمل في شتى الميادين واشتركوا في اكثر الحركات السياسية والعسكرية التي كانت تظهر هنا وهناك نتيجة لظلم الحاكمين وطفانهم وتسلطهم على كرامة الانسان وخيرات الارض كالاتفاضات الشيعية وتحركات الخوارج وغيرها ، وكان الموالي يشكلون القوة الضاربة في ثورة المختار الثقفي التي غلب عليها طابع الاخذ بالثأر من قتلة الحسين (ع) واستمروا في تحركاتهم ومساندتهم لكل ثائر على الامويين الذين اضطهدوهم وكانوا يرونهم بستانا لقريش وفيئا أفاءه الله عليها ، كما انضم فريق منهم الى الخوارج وانصرف الباقيون الى طلب الحديث وجمعه ودراسته وأصبح اكثر علماء الامصار منهم ، وجاء في العقد الفريد ومناقب ابي حنيفة للمكي ان عيسى بن موسى سأل ابن ابي ليلى عن فقهاء البلدان فعد له جميع الفقهاء في بلاد المسلمين مدنها وعواصمها فاذا هم جميعا من الموالي فاسود وجهه ولاحت عليه علامة الشر ولما وصل الى ابراهيم النخعي والشعبي وهما عريان كبر لذلك وهدأت اعصابه ، وقد ارادوا في جميع تحركاتهم ان يستعيدوا كرامتهم وانسانيتهم التي كان الحزب القرشي الحاكم يحاول الاجهاز عليها ونجحوا في ذلك وساهموا مساهمة فعالة في القضاء على الامويين انفسهم الى جانب العلويين والعباسيين ، ولا احسب ان شيئا أنفع للافكسار والمبادئ من محاربتها ومطاردتها ، لقد كان الامويون يطاردون الشيعة ويحاربون التشيع وفرضوا على المسلمين في شرق البلاد وغربها سب علي ابن ابي طالب وأهل البيت على المنابر وفي جميع المناسبات ومسلوا السجون والمعتقلات بالمشيعين لعلي وآله حتى كان الرجل يتمنى ان يتهم بالفسق والزندقة ولا يتهم بالتشيع وكانوا بذلك يمكنون التشيع وحب علي وآله في النفوس والقلوب من حيث لا يريدون وكأنهم ينشرون

فضائله وآثاره الخالدة من على منابرهم ومجالسهم حتى امتلأت بها كتب الحديث ومجاميع التاريخ .

وفي ذلك يقول الشعبي لولده : انظر يا بني الى علي وأولاده فان بني أمية لم يزالوا يجهدون في كتم فضائلهم واحتقارهم وسبهم وكأننا يأخذون بصنيعهم الى السماء ، وما زالوا يذلون جميع امكانياتهم لنشر فضائل أسلافهم فكأننا ينشرون جيفة كما اشرنا الى ذلك خلال الفصول السابقة .

وجاء عن عبد الله بن عروة بن الزبير انه كان يقول لابنه : ألا ترى يا بني الى علي بن ابي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذمه وعيبه وغيبته ، والله لكأننا يأخذون بناصيته الى السماء ألا تراهم يا بني كيف يندبون موتاهم وترثيهم شعراؤهم ، وهم والله لكأننا يندبون جيف الحمير (١) .

وقال النسائي وأبو علي النيسابوري كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج لابن ابي الحديد : لم يرد في حق احد من الصحابة بالاحاديث الحسان كما ورد في حق علي بن ابي طالب (ع) الى غير ذلك من المقالات التي تنسب الى جماعة من المحدثين والفقهاء حول هذا الموضوع ، وبلا شك فان لمواقف الامويين من علي وبنيه اكبر الاثر في هذه الظاهرة كما وان نهضة الموالي وتغلغلهم في جميع الاوساط وتفوقهم على العرب فسي اكثر النواحي كان نتيجة للاضطهاد والاذلال اللذين نالا منهما النصيب الاكبر في العصر الاموي .

لقد اختار الحزب القرشي الحاكم لنفسه هذا النوع من السياسة العنصرية الجائرة ، وسار علي بن ابي طالب بالعرب وغيرهم مسيرته

الخالدة التي تجسد العدالة والمساواة بين جميع الفئات والطبقات وحارب
المنصرية والطبقية بكل أشكالهما وحينما سألته إحدى المرأتين الفقيرتين
ان يفضلها على المرأة الثانية كما كان يفعل الحاكمون من قبله لانها عربية
والثانية من الموالي مد يده الى الارض وتناول حفنة من التراب وجعل
ينظر فيها ، ثم قال : لا اجد في هذا التراب فضلا لاحد على احد الا
بالتقوى والاعمال الصالحات ، ولو ان الحزب الاموي قد اتبع هذه السنة
لارتفع مجدهم بارتفاع مجد الاسلام الذي سخروه لخدمة مصالح
القرشيين والامويين ، وأرادوا ان يجعلوا من محمد بن عبد الله (ص)
بطلا قوميا كيمورلنك وجنكيزخان كما ذكرنا من قبل .

واندفع الحزب الاموي مع القرشيين في احتقار الموالي واضطهادهم
بكل ألوان الاضطهاد ، والاضطهاد مهما طال امده لا بد وأن يولد
الانفجار ، وحينما وجدوا السبيل مهياً للانتقام لكرامتهم التي فقدوها في
ظل اسلام الامويين وثبوا مع العلويين والعباسيين ووقفوا الى جانبهم
بقلوبهم الحاقدة يطاردون الامويين وفلولهم من بلد الى بلد وقامت الدولة
العباسية على أكتافهم وبسواعدهم وحدث في مطلع عهدها رد فعل عنيف
لصالح الموالي وانتشر الشعوبيون انتشارا عظيما طغى على العرب
وعنصرتهم ورجعوا الى الصحاري يرعون الابل كما كانوا في عصورهم
الاولى قبل الاسلام .

وجاء في المجلد الاول من ضحى الاسلام ان ابراهيم الإمام زعيم
الدعوة العباسية ارسل الى ابي مسلم الخراساني رسالة جاء فيها : ان
استطعت ان لا تدع بخراسان احدا يتعلم العربية الا قتلته فافعل ، وأيما
غلام بلغ خمسة اشبار تنهه فاقتله ، وعليك بضرب فانهم العدو الغريب
الدار فأبد خضراءهم ولا تدع في الارض منهم ديارا .
وقد طبق ابو مسلم في خراسان هذه السياسة المعادية للعرب فقتل

كما جاء في المجلد الخامس من تاريخ ابن الاثير في بضع سنين ستمائة الف رجل من العرب غيلة بغير قتال ، وقال قحطبة قائد الثورة على الامويين وهو يخطب في اهالي خراسان كما جاء في صفحة ٣٥ في المجلد الاول من ضحى الاسلام : ان هذه البلاد كانت لأبائكم الاولين وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم فلما بدلوا وظلموا سخط الله عليهم واتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الارض عندهم وغلبوهم على بلادهم واسترقوا اولادهم فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالمهد وينصرون المظلوم ثم غيروا وبدلوا وجاروا في الحكم وأخافوا اهل البر والتقوى من عترة الرسول (ص) فسلطكم عليهم ليتقم بكم منهم .

وحينما استولى المنصور على الحكم نفذ سياسة اخيه ابراهيم ازاء العرب تنفيذا صارما وكان له خادم عربي لا يعلم بعروته فلما علم بذلك طرده من قصره وقال كما جاء في رواية الطبري : لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي اخرج عافاك الله واذهب حيث شئت .

ونعود بعد هذه اللمحات عن سيرة القرشيين وطفائهم الذين حاربهم علي (ع) على تأويل القرآن كما حاربهم مع ابن عمه رسول الله على تنزيله ، وعما تركوه للتاريخ وللآجيال من صور كريمة لم يحدث التاريخ بأسوأ منها، تلك الصور التي عرقلت مسيرة الاسلام بوجهه الناصع المشرق وانعكست على المسلمين وحكامهم في مختلف العصور، نعود الى الحديث عن خلافة علي بعد مصرع عثمان بن عفان باعتبارها في واقع الامر ثورة على الظلم والظالمين والمستغلين والطامعين ليس فيها من طبيعة السلطان شيء .

لقد التف المسلمون حول علي (ع) بعد مصرع عثمان بن عفان الذي افرزته ثورتهم على السياسة الجائرة التي كان يمارسها الحزب القرشي الحاكم ، وكان الشعار الذي رفعه العرب يومذاك وطالبوا به هو العدالة

الاسلامية التي لا تفرق بين انسان وآخر ولا بين الحاكم والمحكوم ، ولم يجدوا من يحقق لهم أمنيتهم هذه ويخلصهم من غطرسة القرشيين وجورهم غيره فتدافعوا نحوه كالسيل المنحدر من الاعالي وهو يحاول ان يتهرب منهم فلم يجد الى ذلك سبيلا .

وقد وصف هو سلام الله عليه تدافع الناس نحوه واصرارهم على بيعته بقوله : فما راعني الا والناس كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسان وشق عطفاي مجتمعين حولي كريضة الغنم ، وتمت بيعتهم له بشكل لم يحصل لاحد من قبله من جميع الفئات بلا استثناء .

وقال البلاذري في انساب الاشراف : لقد بايعه عرب الامصار وأهل بدر وجميع المهاجرين والانصار وظهرت على الجميع علائم الارتياح والتفاؤل بما ستحققه هذه البيعة للمسلمين من سيطرة القانون على الجميع والغاء جميع الامتيازات والفوارق الطبقة الجائرة التي طفت في عهد الخليفة الراحل واستأثرت باهتمام الحزب الاموي المحيط .

وقد وصف الامام (ع) سرور الجماهير ببيعته وارتياحهم لها بقوله : وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياي ان ابتهج بها الصغير وهدج اليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت اليها الكعاب .

ووقف كبار الصحابة وأعلامهم ممن كانوا يؤمنون بحقه في الخلافة منذ وفاة النبي (ص) ليعبروا له وللملا من حوله عن سرورهم واغبتابهم بتلك البيعة التي ستعيد للاسلام مسيرته السليمة العادلةة والمظلومين والمضطهدين حقوقهم السليمة وراحوا يتسابقون الى المنبر للتعبير عن شعورهم واعلان تأييدهم المطلق لجميع ما سيقوم به من الاعمال وما سيتخذ من القرارات الصارمة للحد من اطماع الطامعين ونشاط المفسدين والمخربين فوقف ثابت بن قيس الانصاري وقال : والله يا امير المؤمنين

لئن كانوا قد تقدموك في الولاية فلم يتقدموك في الدين ولئن كانوا قد سبقوك بالامس فلقد لحقتهم اليوم ، وأينما كانوا فإن موضعك لا يخفى ولا يجهل احد مكانك ، يحتاجون اليك فيما لا يعلمون ولم تحتج الى احد منهم .

ثم وقف خزيمة بن ثابت وقال : والله يا امير المؤمنين ما اصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب الا اليك ولئن صدقنا انفسنا فيك لانت اقدم الناس ايمانا وأعلم الناس بالله وأولى المؤمنين برسول الله ، لك ما لهم وليس لهم ما لك .

وقال صعصعة بن صوحان : والله يا امير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زاتك ورفعتها وما رفعتك ولهي اليك أحوج منك اليها ، ووقف بعده كل من مالك الاشتر وعبد الرحمن الجمحي وعقبة بن عمر وغيرهم من أعيان المسلمين والصحابة معبرين عن مدى سرور المسلمين وارتياحهم لهذه البيعة التي تعقد الامة عليها جميع آمالها وأمانيتها وترجو في ظلها للمسلمين فجرا جديدا يسيرون على ضوئه ويشدهم الى الاسلام الذي حاربتسه قريش بقيادة الحزب الاموي قرابة عشرين عاما .

وعندما شاع نبأ بيعته خارج المدينة توالى عليها الوفود من جميع انحاء الحجاز للتعبير عن اغتباطها وارتياحها لما انتهى اليه امر المسلمين يتقدمهم الوفد اليمني المؤلف من رؤساء القبائل اليمنية ووجوهها وقبائل همدان بقيادة زعيمها رفاعه بن وائل ووفود اخرى من جهينة وبجيلة وغيرها من عشرات القبائل ، يتقدم كل قبيلة شاعرها وخطيبها (١) . واستقبل الحزب الاموي الذي كان يتصرف بالسلطة كما توجه اليه

١ - انظر المجلد الاول من حياة الامام الحسن (ع) للقرشي ص ٣٧٩

أطماعه وشهواته وأحقاده في عهد سليل هذا البيت يبعة المسلمين للامام
وتهافتهم عليها والتفافهم حوله بالخوف والقلق والاضطراب ، لأن عليا
يجسد الاسلام من جميع نواحيه وقد وترهم بآبائهم وقادتهم في بدر
وأحد وغيرهما من المعارك التي خاضوها للقضاء على محمد بن عبد الله
واسلامه ، والاسلام الذي يجسده علي (ع) لا يقر بحال من الاحوال تلك
السياسة التي انتهجها ابن عفان وأسرته وأذنابهم من القرشيين خلال
حكمهم ، ويعلمون بأنه سيعمل قبل اي شيء اخر على تطبيق العدالة
الاجتماعية والمساواة بين جميع الفئات والغاء جميع الامتيازات والفوارق
التي كانت من ابرز منجزات عهدهم وسيحاسب ويعاقب جميع المستغلين
والغاصبين لاموال الفقراء والمساكين في عهد الخليفة الراحل .

وقد عبر عن كل مخاوفهم وما انطوا عليه الوليد بن عقبة شقيق عثمان
لأمه حينما جيء به وبالتخلفين ليبايعوا امير المؤمنين (ع) ، فقال في حديث
له مع الامام : انك قد وترتنا جميعا، اما انا فقد قتلت ابي صبيرا يوم بدر،
وكان ابوه عقبة بن ابي ميط من اكثر الناس ايذاء لرسول الله (ص) قبل
هجرته الى المدينة وقد خرج مع المشركين في معركة بدر فوقع في أيدي
المسلمين فأمر النبي بقتله وتولى قتله علي بن ابي طالب (ع) .

ومضى يقول : وأما سعيد بن العاص لقد قتلت اباہ يوم بدر وكان من
سادة قريش ، وأما مروان بن الحكم فقد شتمت اباہ ونددت بعثمان بن
عفان حين استرجعه من منفاه وضه اليه ، ومضى يعدد له صنيعه
مع قادة البيت الاموي خلال مواقفهم المعادية للاسلام ويساومه بيعتهم
له على ان يضع عنهم جميع ما ارتكبوه في عهد خليفتهم الراحل ويترك لهم
جميع ما في أيديهم من الاموال التي وهبهم اياها ابن عفان ويعاقب
قاتليه .

وكان من الطبيعي ان يرفض الامام (ع) جميع المساومات من الحزب

القرشي وغيره وأن لا يحابي احدا على حساب دينه وهو القائل لابن عمه عبد الله بن العباس وهو يخصف له نعله : ان امرتكم هذه لأهون عندي من هذه النعل الا ان أحق حقا أو أبطل باطلا ، والقائل : ما ظفر من ظفر الاثم به والغالب بالشبر مغلوب ، فرد عليه الامام قائلا : أما ما ذكرت من وتري اياكم فالحق وتركم وأما وضعي عنكم ما في ايديكم فليس لي ان اضع حق الله ، وأما اعفائي عما في ايديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتالهم اليوم لزمسي قتالهم غدا ولكن لكم علي ان احملكم على كتاب الله وسنة نبيه فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيّق ، وان شئتم فالحقوا بملاحقكم •

ومضى الامام (ع) لشأنه يعمل ليله ونهاره لترميم ما افسدته بظانة عثمان وحاشيته ووضع الخطوط العريضة لسياسة حكومته او لثورته التصحيحية كما هو الواقع، فقال عندما صعد المنبر ولأول مرة يتحدث فيها من على المنبر كمسؤول عن شؤون المسلمين او ككأثر على مخلفات من سبقه: ألا وان كل قطعة اقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود الى بيت المال فان الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيّق ، وما ان أتم خطابه حتى أمر بمصادرة جميع ما في دار عثمان من اموال المسلمين حتى سيفه ودرعه كما جاء في بعض الروايات وبهذه المناسبة يقول الوليد بن عتبة كما يروى عنه :

بني هاشم ردوا سلاح ابن اجتكم ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
 بني هاشم كيف الهوادة بيننا وعند علي درعه ونجائبه
 بني هاشم ان لم تردوا فانتنا سواء علينا قاتلاه وسالبه
 وقد اثارت هذه البادرة خوف الذين استباحوا نهب اموال الامّة واستاثروا بمقدراتها ومواردها •

وكتب عمرو بن العاص الى معاوية كتابا جاء فيه : ما كنت صانعا
فاصنع اذا قشرك ابن ابي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العيصي
لحاه ، كما أحس طلحة والزبير وغيرهما ممن أقطمهم عثمان بن عفان
ووهبهم الاموال الطائلة والثراء الواسع بالخطر وأيقنوا ان الامام (ع)
سيصدر ان عاجلا او آجلا حكمه الصارم بمصادرة جميع ما في تصرفهم
من الاموال والممتلكات وانه سيعاملهم كغيرهم من الناس ، وتبخرت احلام
طلحة والزبير في ولايتي البصرة والكوفة ، ولم يبق لهما بريق من الامل
في شيء مما كانا يحلمان فيه ، وأيقنا انهما قد اصبحا كغيرهما من سواد
الناس فانفضا الى الحزب الاموي واتفقوا على التمرد واحتلال البصرة
والانطلاق منها لحرب علي ومقاومته بعد ان اغراها جماعة من المواليين
لعثمان بالمساعدة وبقي عليهما ان يتصلا بمعاوية ليضمنا مساندته لهما
وتأييدهما على العدو المشترك ، فرحب معاوية بهذه البادرة ووعدهما ببذل
امكانياته كلها في هذا السبيل وأكد عليهما ان يستغلا عداة عائشة لعلي
ابن ابي طالب ويحملاهما معها الى البصرة ، ورجبت عائشة بهذه الفكرة
وانضمت اليهما ، وكان معاوية يهدف من وراء ذلك الى ان وجودها بين
المتمردين يثير الرأي العام ويحرك الجماهير على الانضمام الى المتمردين
بصفقتها زوجة للنبي وابنة للخليفة الاول واذا قدر لها ان تقتل كما كان
يتمنى يستغل قتلها للتشنيع على علي (ع) ويضع قميصها على منبر الشام
الى جانب قميص عثمان ولو استطاع ان يدس اليها من يقتلها في تلك
المعركة لم يتأخر ، ولم يغب ذلك عن علي (ع) فقد اتخذ جميع الوسائل
ليفوت على معاوية ما كان يضره لها ، وقد صارحها بأمنيته هذه وأهدافه
منها عندما زار المدينة بعد عام الجماعة كما ذكرنا ، وحينما سئل معاوية
عن سبب تحريضه لطلحة والزبير وعائشة على التمرد على علي بن ابي طالب
اجاب: ان ظفر بهم علي اتخذتهم وسيلة للتنديد به والتشنيع عليه ، وان

ظفروا به كانوا اهون علي شوكة منه .
لقد استخدم معاوية جميع الوسائل ليضع العراقيين في طريق الثورة
التي اعلنها علي (ع) على الحزب القرشي الذي كان يحاول استخدام
الاسلام لإحياء مظاهر الجاهلية ونزعاتها .

عزل الولاية واستبدالهم بغيرهم

وكما أعلن مصادرة الاموال التي كانت بحوزة انصار الخليفة الراحل بغير الطرق المشروعة واعادتها الى بيت المال أعلن عن تصميمه على عزل الولاية من الحزب القرشي الحاكم وغيرهم ممن يشكل بقاؤهم فسي مراكزهم خطرا على مسيرة الاسلام وعلى شؤون المسلمين ومصالحهم ، وكان اول من شملهم هذا التدبير معاوية بن ابي سفيان لانه من أشدهم خطرا على الاسلام وعداء لصاحب الرسالة والمخلصين لها من آلله وأنصاره ، وقد اشار عليه جماعة من اصحابه بالتخاضي عنه ريثما تستقر الامور وحذره من كيد وشره ومدى تسلطه وسيطرته على الجماهير في الشام وجهاتها التي كانت من نصيب الامويين منذ الفتح الاسلامي وقد تداولها هو وأخوه يزيد بن ابي سفيان، وفي عهد الخليفة الثالث تمكن معاوية وكان يتصرف وكأنه الخليفة الذي ليس فوقه احد واتجه الحزب القرشي نحو الشام لمساندته واعداه لتحمل المسؤولية بعد قريه عثمان ابن عفان الذي أشرف على بلوغ التسعين من عمره ، وقد ذكرنا فيما سبق ان عثمان بن عفان كان يرسل الى الشام كل من يعارض سياستهم وتصرفاتهم الجائرة او يحمل آراء وأفكارا يمكن ان تستغل لمعارضتهم

ليكون تحت رقابة معاوية او في سجنه ، وأكثر العواصم والمدن الاسلامية كان ولائها يخضعون للمراقبة والتبديل بين الحين والآخر الا بلاد الشام فقد تولاها بعد الفتح الاسلامي مباشرة يزيد بن ابي سفيان نحوا من سنتين وانتقلت منه الى اخيه معاوية وبقيت تحت سيطرته وسلطانه لا تعرف احدا غيره من الولاة ولا يعرف اهلها عن الاسلام ودعاة الاسلام الاوفياء الا صورا محدودة لا تتعارض مع اسلام معاوية والحزب الاموي الحاكم بشيء .

ان عليا (ع) كان محيطا بكل ذلك ويعرف ما تضره قريش له وللإسلام من العداء السافر ، ولم يكن من هواة الحكم والسيطرة ليستعين على توطيد حكمه وسيطرته بالطغاة والظالمين اللاهثين وراء الجاه والمال وليستعين على النصر بالجور وعلى الحق بالباطل .

ان عليا (ع) قبل ان يكون حاكما كان ثائرا على الفساد والظلم والظلمة وعلى التشويه والتحريف اللذين استهدفا رسالة محمد بن عبد الله (ص) وكان يرى كيف تجري خيانة الاسلام وكيف يمارس على قيمه الارهاب، والثائر لا يعمل للجاه ولا للسلطة ولا يضع في حسابه النصر العاجل وأكثر الثوار المخلصين يضعون في حسابهم الموت في سبيل المقيّدة والمبدأ وأهدافهم الشريفة ويعتقدون بأن موتهم سيكون ضمانا لحياة أمة وأساسا لبناء عقيدة وهتكا لاقتعة الخداع والزيف والظلم والقسوة ، وأداة لسحق القيم ومحوها من الازهان، وقدوة لمن يأتي من بعدهم ويريد ان يكون انسانا كريما على سطح هذه الارض .

لقد كان علي (ع) يرى ويعلم ان رسالة محمد بن عبد الله (ص) تنتظره ولا ترى منقذا لها من أيدي اولئك الشياطين غيره ، وان الزمن الذي يعود الى الوراء على يد الحزب القرشي الحاكم يتطلع اليه ليتقدم ، وان الناس المستسلمين لذلك الحزب في أمس الحاجة الى

فهضة والى صرخة وجميع الذين يطمحون الى الحرية والعدالة كلهم كانوا ينتظرون، ما سيصنعه بطل الاسلام الخالد (ع) الذي قهر طواغيت قريش في بدر والاحزاب وحينئذ من اجل الاسلام ورسالة الاسلام . انهم ينتظرون منه اليوم ان يقهر أحفادهم لينقذ تلك الرسالة من التحريف والتشويه والتلاعب ولينقذ الكرامة التي منحها الله للانسان من تسلط اولئك الشياطين .

لقد رفض علي (ع) جميع الآراء التي قدمها له اصحابه يطلبون اليه التريث وارجاء عزل الولاة وبخاصة معاوية بن ابي سفيان الذي كان قد مضى عليه يومذاك واليا على بلاد الشام اكثر من عشرين عاما ، لقد رفض عليه السلام آراء جميع المشيرين المخلص منهم والمنافق لعلهم بأن المساومة تجر وراءها عددا من المساومات والترضية الواحدة تؤدي في الغالب الى سلسلة متتابعة من الترضيات والمراوغات ، ويعلم في الوقت ذاته بأنه لو أقر معاوية اليوم على عمله مهما كانت دوافع هذا الاقرار وأسبابه فسيكون سلاحا بيد معاوية غدا عندما يأمره بالتخلي عن مركزه وسيكون يومذاك اقوى منه اليوم .

هذا بالاضافة الى ان عليا (ع) يعلم بأن البيت الاموي لا يرضى بالولاية ولا يكتفي بها وبخاصة عندما يكون المسؤول الاول عن شؤون الدولة كعلي بن ابي طالب الذي يحاسب ويعاقب من اجل درهم واحد يخرج من بيت المال لغير محله وقد اعتاد معاوية على البذخ والترف وشراء الذمم والضماير وأنفق على قصر الحمراء ملايين الدراهم من واردات الدولة ، ومنذ ان وضع ابن الخطاب السلطة في أيدي الامويين بنساء لتصميم سابق تم الاتفاق عليه مع ابي سفيان كما قيل يوم كان وصول ويجول ويذهب الى علي تارة والى العباس بن عبد المطلب اخرى ويعرض الانصار على الثورة ضد ابي بكر ويسميه ابا فصيل ويقول لأملأها عليهم خيلا ورجالا وانها قد اصبحت في أذل بيت في قريش ، منذ ان وضعها

ابن الخطاب في ايديهم وهم يعملون ويخططون لبقائها في هذا البيت كما تؤكد ذلك عشرات الشواهد ومن كان يحمل هذه الروح فهل يرضى بأن يكون واليا لعلي بن ابي طالب الذي حاسب احد عماله على وليمة دعوي اليها وأحمى حديدة لاخته عقيل عندما طالبه بأكثر من عطائه وهدد وتوعد احدى بناته لانها استعارت من بيت المال عقدا لبسته يوم العيد وأرجعته الى مكانه .

ان عليا (ع) يعلم بأن معاوية لا ترضيه الولاية ولا يمكن ان يقبل بها وسيستغلها ان هو أقره على عمله ولو شهرا واحدا ، لذلك كله فقد رفض آراء المشيرين وأصر على موقفه من الطغاة والجبابرة حتى ولو لم يكن في مقدوره قهرهم وهزيمتهم في ساحة الحرب والنضال ولكنه فضحهم وقهرهم عبر الموت والشهادة وترك للأجيال بمواقفه هذه صورا مضيئة عن الاسلام الذي يحاربهم من اجله الى جانب ابن عمه محمّد بن عبد الله (ص) وظل يحارب من اجله الى ان خرف في بيت الله صريعا بسيف ابي جهل وأبي سفيان وجبابرة قريش الذين وضعوه في تصرف ابن ملجم، وما كانت تلك الصور المضيئة عن الاسلام لتبقى لولا مواقفه وشهادته وشهادة الحسين (ع) وجهود الائمة من ذريته التي اقضت مضاجع الظالمين والحاكمين فيما مضى من العصور وحتى عصرنا الحالي .

المساواة بين جميع الناس

لم يكتف امير المؤمنين (ع) في ثورته التصحيحية بالاعلان عن تصميمه على مصادرة الاموال التي منحها عثمان بن عفان لاسرته وحاشيته وعزل الولاة عن الامصار التي كانت تعاني من جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات حتى اعلن المساواة في العطاء وغيره بين جميع الفئات وألغى جميع الامتيازات التي كان الحزب القرشي يعامل الناس على اساسها بعد تصنيفهم الى قرشي وعربي وعبد ومولى وما الى ذلك من الاصناف التي كانوا يعاملون المسلمين على اساسها ويستغلون غير القرشيين منهم كما يستغل الانسان ممتلكاته ، وكان سعيد احد أفراد الاسرة الحاكمة يقول يوم كان واليا على الكوفة لقريبه عثمان : السواد بستان لقريش مما أثار غضب اهل الكوفة الذين كانوا ينتمون الى عشرات القبائل العربية، وفي الوقت ذاته كانوا يعتبرون صنفا ثالثا من اصناف الانسان، وبلغ بهم الاسراف في تحقير الموالي الى حد إلحاقهم بالحيوانات فكانوا يقولون : لا يقطع الصلاة الا كلب او حمار او مولى ، الى غير ذلك من النزعات العنصرية التي اوشكت ان تطفئ على المجتمع الاسلامي .

في حين ان الاسلام قد ألغى جميع تلك المظاهر وأعلن عليها حربا لا

هوادة فيها ولم يفضل انسانا على انسان من اي صنف كان والى اي اسرة كان ينتمي الا بالتقوى والاعمال الصالحات والخدمات التي يقدمها لمجتمعه وغيره من بني الانسان ، ولاكثر من مناسبة كان النبي (ص) يقول : لبي هاشم وبني عبد المطلب اعملوا فلن اغني عنكم من الله شيئا ولا تتعاضموا على الناس بأنسابكم وصلتكم برسول الله فالناس سواسية كأسنان المشط وكلكم لآدم وآدم من تراب ، الى كثير من مواقفه التي كان يحارب فيها الفوارق الطبقية والنزعات الجاهلية .

وكما كان الاسلام ثورة على الشرك والوثنية ليضع مكانهما فسي العقول والقلوب عقيدة التوحيد كان ثورة على الاقوياء لتحرير المستضعفين من الاستغلال وعلى السادة لتحرير العبيد من تسلطهم وكبريائهم وعلى الذين يتحكمون بمصير الانسان وكرامته من جورهم وغطرستهم وهو يرى ان هذه المواقف الاسلامية من نوع واحد وتأتي في حلقة واحدة مترابطة كما أكدت هذا الترابط الآية الكريمة «ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم» .

لقد جمعت الآية الكريمة الكفر بآيات الله وقتل الانبياء والذين يدعون الى العدالة والمساواة بين الناس واعتبرتهما في مستوى واحد وحكمت عليهم بحكم واحد هو العذاب الاليم .

وكما تشير هذه الآية الى عظمة الانسان وكرامته على الله سبحانه وان التعدي عليه بالقتل او بغيره مما يسيء الى كرامته وحقه في الحياة بمنزلة الكفر بالله وجحوده تشير ايضا الى ان شعار التوحيد في الاسلام يرمز الى تحرير الانسان من العبودية والنزعات القبلية والعنصرية ، وقد توجه بهذا الشعار الى العبيد والمعتدين والجياع والمستضعفين الذين كانوا يؤلفون في مكة الطبقة المحرومة ومن اجل ذلك فقد اخذ عليه زعماء مكة

وقادتها بأن أتباعه كانوا من الأرذلين كما اشارت الى ذلك الآية : « ما أتبعك الا الذين هم أرذلنا » .

وكان هذا المأخذ شهادة تركية للاسلام وثورته وللخط الرسالي الذي مضى عليه رسول الحرية والسلام . لقد اخذ محمد بن عبد الله (ص) بيد العبيد الذين كانوا يعتقدون بأنهم باقون في اسر العبودية الى الابد ويبد المحرومين المسحوقين الذين كانوا يعتقدون بأنهم باقون تحت وطأة القوى السياسية والعسكرية وانهم مخلوقون للقهْر والذل والخنوع ، ويسد المستضعفين الذين كانوا يظنون ان اعداءهم من الآلهة كتبوا عليهم هذا المصير ليكونوا في خدمة الاقوياء .

لقد جاء لهؤلاء ولغيرهم ليعلم ان البشرية من جنس واحد وأصل واحد وذات إله واحد ، وبهذا المبدأ مبدأ المساواة استطاع خلال سنين معدودات ان يبني مجتمعا انسانيا جديدا قائما على ضوء عقيدة وطيدة ونهج اجتماعي متين واضح وذهب الى أبعد من ذلك في ترسيخ مبدأ المساواة والغاء الفوارق الطبقية ورفع من شأن الموالي والعبيد على سادة قریش وزوج صفية ابنة عمته عائكة لزيد بن حارثة وكان مملوكا هو وأبوه كما زوج جبر الحبشي وكان عبدا اسود من اجمل فتاة من بنات الانصار ، وقال لمن كانت تصيهم الرعدة من هيبتة : هون عليك فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة ، الى كثير من مواقفه التي لا تحصى في سبيل ترسيخ هذا المبدأ .

تلك هي مدرسة الاسلام التي تخرج منها علي بن ابي طالب ووضعها المسلمون تحت قيادته بعد خمس وعشرين عاما على رحيل قائدها ومؤسسها اخر نبي من الانبياء ، وقبل ان يتولاها كانت اداة في أيدي اولئك الذين وترهم الاسلام بأمجادهم ، وبواسطتها استعادوا قواهم وجمعوا امرهم واستردوا نفوذهم الذي قوضته ثورة الاسلام ، وصادفت

الردة نجاحا ما لبث ان اصبح اساسا للفواجع التي تلت ذلك العصر بل
قانونا استمر على مدى تاريخ الاسلام وحتى عصرنا الحالي .
لقد تولى علي قيادة الثورة فكانت سيرته السياسية والاجتماعية
والفكرية بداية نضال جديد هو نضال المؤمنين بالقيم الجديدة والشعارات
النبيلة التي رفعها الاسلام ضد الجاهلية الجديدة التي دبت فيها الروح
بفعل حرارة النفاق والكراهية الى سليل هاشم الذي اطاح بأمجاد أمة
فأعلنت حربها الخفية أنا والصريحة في آن اخر على أنصع الوجوه في
مسيرة الثورة .

لقد كانت معركة الاسلام في عهد الرسول بين معسكري الشرك
والتوحيد ، وفي عهد علي (ع) اصبحت المعركة بينه وبين أحفاد اولئك
واتخذت شكلا جديدا ضد الجاهلية الجديدة التي لبست لبوس الاسلام
ضد الشرك الذي اتخذ شكل التوحيد وضد الوثنية ذات المصاحف
المرفوعة على أسنة الرماح .

لقد خاضها بذلك الجيش الذي سقط اكثر قادته صرعى المغريبات
والوعود بأموال السلطة الاموية ، وأصبح اولئك القادة على استعداد
للساومة على قائدهم وعقيدتهم حيث صفقات بيع القيم والشرف تعقد
في قصر الخضراء الكائن في عاصمة الحزب القرشي الحاكم .

لقد كانت الصفقات تعقد في دمشق لشراء الضمائر ومصادرة ارث
الاسلام بالاموال تارة وبالسيف والسياف اخرى واخضاع الفكسر
الاسلامي الذي جاء ليبنى العقول والقلوب لتوجيه السلطة الاموية
فتفتشت روح الشقاق حتى بين اهل الكوفة واتسعت الشقة بين جميع
الاجنحة فانحرف الزعماء الذين ملئت غرائرهم وتخاذلت الجماهير
الكادحة تحت تأثير الزعماء والاشراف ، وبقيت الى جانب قائد الثورة قلة
من مناصريها والداعين لمبادئها ، وهذه القلة لا تغنيه شيئا امام تلك القوة

المعادية للشورة ، ومع ذلك فقد ظل على مبدئه لم يتزعزع ولم يتراجع عن خطته مستهيناً بالحياة وزخرفها وبالسلطة ومظاهرها وهو يردد لا أستعين على النصر بالجور والغالب بالشر والجور مغلوب . وجاءته طائفة من اصحابه تريد منه ان يصنع كما كان يصنع معاوية ، فقالوا له : يا امير المؤمنين اعط هذه الاموال وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم واستمل اليك من تخاف خلافه من الناس ، فقال لهم ووجهه الكريم يشير الى ملامح الغضب : أأمروني ان اشترى النصر بالجور والله لو كان هذا المال مالي لقسمته بالسوية فكيف وهو لجميع المسلمين .

لقد التف العرب حول علي (ع) في ثورتهم على الحزب القرشي الحاكم وأعوانه ، فكان قائدهم وشعار حركتهم الاجتماعية لان قريشا قد استبدت في ايام عثمان واستأثرت بكل شيء فنار عليها العرب يطالبونها بالمساواة ، ولما ادركت ان التفاف العرب والمسلمين حول علي (ع) كان من ابرز عوامله تطبيق مبدأ المساواة وان ذلك هو مصدر الخطر عليها غيرت سياستها مع العرب وأخذت تستميلهم بكل الوسائل فجعلوا ينفرون منه شيئاً فشيئاً .

لقد أحبوه اولاً والتفوا حوله لانه كان في جميع مراحل حياته ثائراً يجسد الاسلام في ثورته على الظلم والظالمين وكان الموجه والمرشد لثورتهم على الحزب القرشي المتعالي عليهم وحين وجدوه يساويهم بالموالي ووجدوا قريشا تحد من تعاليها عليهم وتفضلهم على الموالي نفروا منه وناصروا قريشا عليه .

وقد تبين من مجموع ذلك ان مشكلة المساواة بين جميع الناس بلا استثناء كانت من ابرز المشاكل التي اعترضت عليا (ع) وقد ذكرنا سابقاً موقفه من المرأتين حينما طالبتة العربية منهما ان يفضلها في المعطاء على

الآخري لانها ليست عريية فتناول حفنة من التراب ونظر فيها ثم قال : لا ارى في التراب فضلا لاحد على احد ، وكان يعني بذلك ان الانسان مخلوق من مادة واحدة ومعدن واحد والتصانيف المصطنعة للانسان لاسباب سياسية او قبلية او بيئية وما الى ذلك لا تغير من واقعه شيئا، فلما قاد الثورة وأخذ يساويهم بالموالي نفروا منه وخذلوه ، والانسان في كل زمان انما يطالب بالعدل حيث يكون محروما منه فاذا حصل عليه بخل به على غيره ، والعرب حينما كانت قريش تعاملهم معاملة الموالي ثاروا عليها وحاربوها فلما غيرت سياستها معهم وبقي علي (ع) مصرا على موقفه وماض فيه لا يفرق بين انسان وآخر انضموا اليها ولم يفكروا بالموالي الذين وقفوا معهم في جبهة واحدة ولا بقائد ثورتهم الذين كانوا قد عاهدوه على الماضي معه الى حيث يريد مهما كانت النتائج .

ويقول المدائني كما يروي عنه ابن ابي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج : ان من اهم اسباب تخاذل العرب عن علي ابن ابي طالب كان أتباعه لمبدأ المساواة بين الناس وتطبيقه لهذا المبدأ تطبيقا شاملا على جميع الفئات ، حيث كان لا يفضل شريفا على مشروف ولا عريبا على عجمي ولا يصانع احدا من الرؤساء وأمرء القبائل ، وكان يعاني أشد المعاناة من تخاذل الناس وتقاعدهم عن نصرته وأحيانا يبكي على من مضى مسن اخوانه المسلمين الاوفياء كعمار بن ياسر وابن التيهان وذي الشهادتين وغيرهم ممن كانوا يسرون معه لانتقاد شريعة الله من أيدي الشياطين كما حدث عنه نوف البكالي .

لقد مل الناس وملوه وملأوا قلبه قيحا كما كان يقول . وكانت ضربة ابن ملجم له بمنزلة الانتقاد مما كان يعانيه من قريش وأهل الكوفة واعتبرها فوزا كما جاء عنه انه قال حينها : فزت ورب الكعبة ، ومات حزينا كئيبا ولكن ذكره بقيت على مدى الاجيال تدفع الناس للثورة على

الظلم وطلب العدل ، ولئن اخفق في ميدان السياسة كما يدعي اكثر الكتاب والمؤرخين فلقد نجح في ميدان الثورة الاجتماعية التي لا يخذ لها اوار ، ولولاه لكان الاسلام من طراز تلك الاديان التي تدعو الى الفتح والسيطرة والاستعمار ولا تفت عنه صفة الرحمة التي بعث من اجلها محمد بن عبد الله كما ذكرنا من قبل .

ومن مجموع ما ذكرنا يتبين ان المدة التي قضاها علي (ع) بمصرع عثمان بن عفان كان فيها ثائرا اجتماعيا على مخلفات العهد الذي سبقه ليحقق العدالة التي جاء بها الاسلام ، ولم يكن في سيرته وسياسته من طبيعة السلطان شيء ، والذين يفاضلون بينه وبين معاوية انما يفعلون ذلك جهلا منهم بواقع الامام وبما كان يهدف اليه ويعمل من اجله ، فلقد فاضلوا بينهما باعتبار انهما قد تنافسا على الخلافة وغلب احدهما الاخر والغالب في عرف السياسيين وأصحاب النفوس المريضة والفهم المحدود لمباقرة العصور والمصلحين افضل من المفلوب .

هؤلاء الذين يقيسون الفضيلة بمقياس الغلبة والفوز في ميدان السياسة لا بد وأن ينتهوا الى هذه النتيجة ويفضلوا عليه معاوية ، ولكن هذه المقاييس انما تصح بين اثنين كل منهما كان يعمل للحكم والسلطان ويستبيح كل شيء للفوز به والوصول اليه كما كان يصنع معاوية وغيره من السياسيين في كل زمان وفي زماننا هذا ولا يختلفون في زمان وزمان الا بالشعارات والاساليب التي تختلف حسب الزمان والمكان . اما لو كان كل منهما يعمل لهدف وغاية ولا يجمعهما قاسم مشترك ، فالتفاضل يجب ان يكون من زاوية الاهداف التي يعمل لها كل منهما ويتحرك من اجلها ، ان عليا كان يعتبر الحكم وسيلة لتحقيق العدالة ولترميم ما أفسده الحاكمون من قبله ولم يكن من محترفي السياسة كغيره من السياسيين الذين يستبيحون كل شيء في سبيلها ، ومن هذه الناحية

يأتي في القمة بين الابطال الذين لا يشق لهم غبار ، ولا تزال ذكراه تدفع
الناس للثورة على الظلم والظالمين ، وقد فضح اخصامه وقهرهم من خلال
مواقفه وثورته تلك وترك للاجيال صورا مضيئة ومشرفة عن الاسلام ما
كانت لتبقى لولا مواقفه لانقاذ الاسلام من اولئك الطغاة ، ولم يترك
معاوية ومن على شاكلته من القرشيين وغيرهم من دهاقين السياسة سوى
صور مخزية من الغدر والمكر والاحتيال والتزوير ولا يزال تاريخه مثالا
كريها لأقبح صور الغدر والجور والخيانة في تاريخ الحاكمين .

ومن الظلم الفاحش قياس علي (ع) بمعاوية والمقارنة بينهما ، لان
معاوية كان من دهاقين السياسة ، والسياسيون يستبيحون كل شيء للظفر
بأخصامهم ، او لاحتلال رقعة من الارض ولو كان في ذلك ذهاب الملايين
من الناس . وكان يتمنى لعائشة ان تقتل في البصرة ليضع قميصها على
منبر الشام الى جانب قميص عثمان ويشنع بهما على امير المؤمنين (ع)
وطلب من عثمان ان يجعل له الحق في المطالبة بدمه من علي بن ابي طالب
وكان يحضر لقتله بشكل غير مباشر عن طريق الحزب الاموي المحيط
بعثمان كما ذكرنا .

اما علي (ع) فلقد كان تائرا على الظلم والجور والتزوير وما الى ذلك
من الجرائم التي كان يمارسها أنصار عثمان والحزب الاموي ، ولكنه
لم يكن يحاول او يفكر ان يستعين في ثورته بالجور والاثم والشر لان
الغالب بالشر بنظره مغلوب ، ولم يكن يعمل لإرساء مبادئه ودعوته في
العقول والقلوب الا في حدود الاسلام والمبادئ التي جاء بها ابن عمه
وحارب قريشا من اجلها لتبقى هي وحدها الحافز للاجيال على التضحيات
ومقارعة الظالمين .

ولو أنصف الباحثون والكتاب ودرسوا التاريخ دراسة واعية بتجرد
واخلاص لوجدوا ان عليا (ع) هو المنتصر في معاركه مع القرشيين

والامويين ، والذين حاربوه بكل الاسلحة هم الخاسرون ، لانه مضى في سبيل الحق والعدالة وخير الانسان وكرامته تاركا وراءه صورا مشرقة عنه وعن الاسلام ودروسا غنية بالبذل والمطاء في جميع الميادين بالرغم مما بذله الامويون من جهود لا حدود لها للقضاء على ذكره وتجاهله والصاق العيوب فيه فكانوا مع محاولاتهم هذه كأنما يدفعون به الى السماء ، وقد ذكرنا سابقا ما قاله الشعبي وعبد الله بن عروة بن الزبير لولديهما ، وجاء في المقاتلين ما مضمونه ان بني أمية بالرغم من اصرارهم على سب علي وبنيه ومطاردتهم لكل من يذكرهم ولا يتبرأ منهم فكأنهم كانوا يأخذون بناصيتهم الى السماء . وكانوا مع اغرائهم للمحدثين والخطباء للحديث عن أسلافهم ومديحهم واختلاق الاحاديث التي ترفع من شأنهم وحرصهم الشديد على ذلك كأنما ينشرون جيف الخير على حد تعبير الشعبي وعبد الله بن عروة لولديهما .

ولا أغالي اذا قلت ان الباحثين لو أنصفوا لقارنوا بينه وبين الانبياء والمرسلين وعباقره العصور ، وقارنوا بين معاوية وبين غيره من السفاكين والمجرمين وآكلة لحوم الآدميين .

لقد بكى علي بن ابي طالب (ع) على طلحة والزبير ومن قتل معهما في البصرة ولو انه قتل معاوية وابن العاص ومن معهما من القرشيين لبكى عليهم ايضا ، لقد بكى علي طلحة والزبير ومن قتل معهما لانه لم يتمكن من اقتناعهم بالتراجع عن غيهم الى حظيرة الاسلام والعمل معه صفا واحدا لصالح الاسلام والمسلمين ، ولم يقا تلهم يومذاك الا دفاعا عن النفس بعد ان اضطروه لذلك وحين وجدهم صرعى بكى لمصيرهم السيء الذي لم يكن يرجوه لهم لأن اصحاب الرسالات يعملون لاصلاح ما تفسده أيدي المجرمين والعاثين بكرامة الانسان وبناء المجتمعات بناء سليما يحفظ للانسان كرامته وحقه في الحياة واذا اقتضى الامر يضحون بأنفسهم من

اجل ذلك ، واذا قاتلوا وقتلوا أخصامهم لا يرون ذلك انتصارا ، وكما قلت لا أستبعد على علي ان معركة صفين لو انتهت بالشكل الذي انتهت به معركة البصرة ان يبكي لمصيرهم السيئ ولعدم تمكنه من ارجاعهم الى حظيرة الاسلام ، في حين ان معاوية كان قد اشار على عثمان بقتل علي وجماعة من أعيان الصحابة ووجوههم ، وحينما رفض رأيه ابن عفان طلب منه ان يجعل له الحق بالمطالبة بدمه من علي بن ابي طالب فيما لو قتله احد من الناس ، ويعمل بكل الوسائل لتأزيم الموقف بينه وبين المسلمين ليقتل عثمان في تلك المعركة ويتخذ من قتله سبيلا للعصيان والتسرد على امام المسلمين مستخدما في ذلك مروان بن الحكم وغيره من الامويين حتى لا تنفجر الازمة بين وفود الامصار وعثمان بن عفان عن حل سلمي لا يحقق لمعاوية امانيه ، وكان يتمنى ويعمل لكي تقتل عائشة في معركة البصرة ليستجدي بذلك غضب الناس على علي (ع) ويشحن طلحسة والزبير للمضي في تمردهم ويقول: لو قتلوا شنت بقتلها على علي بن ابي طالب وان انتصروا عليه كانوا أهون علي منه ، ويدس السم الى الاشر النخعي والحسن بن علي (ع) ولسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وغيرهم ممن كان يخشى منه على ولاية ولده الخليفة المشرك يزيد بن معاوية ويقول : ان لله جنودا من العسل .

ان جميع ما قام به علي (ع) منذ ان اجتمع الناس عليه وحتى اللحظات الاخيرة من حياته من الاعمال لا يقوم به عادة من يريد ان يحكم الناس ويستفيد منهم ، بل هي اعمال من يريد ان يترك للأجيال نماذج لتقتدي بها في مواقفها من الظلم والظالمين والطغاة المستبدين .

ومن يريد ان يحكم وينجح في هذه الحياة يتعين عليه ان يداري الرؤساء ويصانع ذوي النفوذ وأرباب الجاه والقلم والخطباء والشعراء ، وكان معاوية وغيره من السياسيين يغدقون الاموال على الشعراء والخطباء

من ناحية وعلى الرؤساء وذوي الجاه من ناحية اخرى ليلهج هؤلاء
بأُماديحه ونشر فضائله وينقاد اولئك لطاعته ومناصرته ، ومن تتبع الادب
العربي وتاريخ الحكام يجدهما مملوءين بأُماديح السفلة والطفاة الذين
وزعوا القسم الاكبر من اموال الناس على الشعراء والخطباء لا لشيء الا
لانهم ينفعون ويضرون ، اما الفقراء والمساكين الذين لا يستطيعون ان
ينفعوا ويضروا فكانوا منسيين ومهملين •

يقال ان جماعة من رؤساء العراق وفدوا على معاوية في الوقت الذي
كان يحاول فيه ان يفرض ولده يزيدا على الناس فأفرد لهم دارا المضيافة
ووضع عليهم العيون والجواسيس وكان احدهم شديدا وغنيفا في نقده
لمعاوية وتصرفاته ولما ارادوا الرجوع اعطى كل واحد خمسمائة الف درهم
وأعطى الذي كان غنيفا في نقده لتصرفاته مائتي الف درهم فاحتج الرجل على
تفضيلهم عليه فقال له معاوية : اني قد اشتريت من القوم دينهم وترك
لك دينك ، فقال له الرجل : وأنا مستعد لان ابيعك ديني ، فضحك معاوية
وساواه برفاقه واشترط عليه ان يأخذ البيعة لولده يزيد من بعده وكان
كما اراد ، ومدحه الاخطل الشاعر النصراني بأبيات جاء فيها :

وطدت لنا دين النبي محمد بحلمك اذ هرت سفاها كلابها

وبلا شك فان الاخطل النصراني الذي لا يؤمن بدين محمد لم
يصف معاوية بالحلم وتوطيد دين محمد للناس الا لانه كان يقبض من
معاوية مئات الالوف من الدنانير بين الحين والآخر من اموال المسلمين
والمساكين ، والاخطل وان كان نصرانيا ولكن الاموال التي وفرها له
معاوية جعلته لا يبالي اذا وطد معاوية دين محمد او اي دين من الاديان،
والناس حين يسمعون هذا الشعر من نصراني يصفقون له ويستهجون ولا

يكثرثون لدوافعه ولما يراد به .

لقد ظهر في تلك الفترة من تاريخ الاسلام رجلا متناقضان من جميع جهاتهما لا يلتقيان في صفة من الصفات ولا في جهة من الجهات احدهما يريد ان يؤسس ملكا على غرار ملك الأكاسرة والقيصرة وجنكيز خان وتيمورلنك وغيرهم من طواغيت العصور ، والآخر قام بثورة على الفساد والجور والتحريف والتزوير على غرار ثورة الانبياء والمرسلين وأصح ما يقال عنها : انها امتداد لثورة الاسلام على الوثنية والعنصرية واستغلال الانسان لآخيه الانسان .

وذهب الرجلان كما ذهب غيرهما من الناس وترك علي (ع) للتاريخ والاجيال صورا ناصعة مشرقة يستمد منها المصلحون وعباقره العصور والثائرون على الظلم والظالمين وجميع من يريد ان يعمل لخير الانسان وكرامته وحقه في الحياة الحرة الكريمة ، وترك معاوية صورا من الحقد والعنصرية والرذيلة بكل أشكالها وصورها ، ولا غرابة في ذلك فلقد أرضعته أم كانت لجسوم الاولياء وأنصار الانبياء وأكبادهم السذ لنفسها من جميع ما وفره الله لعباده من الخيرات والطيبات .

لقد حاول علي (ع) بكل وسائله ارساء قواعد العدل وانفاذ الاسلام من أيدي الامويين وأعوانهم وتصديره الى العالم بواقعه المشرق انذي يغزو العقول والقلوب بدون الاساطيل والجيوش .

لقد ارادها علي (ع) ثورة بيضاء ضد الظلم والوثنية الجديدة التي لبست لباس الاسلام وتفتعت بطلاء شفاف لا يستر زيفها ولم يرد لاحد ان يكون ظالما ولا مفسدا ولا مستهترا بكرامة احد من الناس ، ولكن ذوي الاطماع والذين كانوا يتمتعون بالامتيازات ويمتلكون القصور وملابن الدنانير، هؤلاء وغيرهم من الحزب الاموي وأنصاره قد اعلنوا العصيان والتمرد بعد بيعتهم للامام ومواثيقهم التي سجلوها على انفسهم،

وأغروا السيدة عائشة زوجة النبي (ص) بتوجيه من معاوية لان وجودها يساعد المتمردين ويفري البسطاء والمغفلين بالانضمام الى جانب طلحة والزبير لانها زوجة النبي وابنة الخليفة الاول ولو قتلت في طريقها هذا كما كان يتمنى ويميل لهذه الغاية يستغل قتلها للتشجيع على علي (ع) ويضع قميصها الى جانب قميص ابن عفان على منبر الشام كما صارحها بذلك في زيارة قام بها للمدينة بعد عام الجماعة .

واتجه المتمردون الى البصرة بقيادة طلحة والزبير وعائشة بعد ان اشار عليهم عبد الله بن عامر بالتوجه اليها وزعم ان له أنصارا ينقادون اليه ويشاركونهم قتال علي وأنصاره ، وكتب معاوية كتابا الى الزبير يعده بالخلافة وبمناصرته جاء فيه : من عبد الله معاوية بن ابي سفيان الى امير المؤمنين الزبير بن العوام ، اما بعد فاني قد بايعت لك اهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة قبل ان يسبقك اليهما ابن ابي طالب وبايعت لطلحة من بعدك فأظهرها الطلب بدم عثمان وليكن فيكما الجدد والتشهير أغفر كما الله وخذل منائكما ، واستبشر الزبير خيرا بالكتاب وتملكته نشوة من الزهو والاطمئنان لمنصبه الجديد المزعوم ، وتناول الكتاب لطلحة ولمن حوله من مؤيديه وأنصاره وعلامات البشر بادية على وجهه وراح هو وأنصاره يتصرفون في البصرة تصرف الفاتحين واعتقلوا واليها الصحابي الجليل سهل بن حنيف ومثلوا به وبأصحابه وكاد ان يتعرض للقتل لولا تدخل جماعة لانقاذه ، وفيما كان امير المؤمنين يخطط ويعمل بكل ما لديه من الوسائل السلمية لاستدراج معاوية واقتاعه بالرجوع الى حظيرة الاسلام والعمل معه للصالح العام الى جانب المسلمين ، واذا به يفاجأ بالتمرد الجديد وتوجه المتمردين الى البصرة ، فاضطر الى ارجاء الحوار مع معاوية ريثما تنتهي مشكلة هؤلاء المتمردين ، واتجه بمن معه من المسلمين وصحابة الرسول

ومن شهدوا معارك الاسلام مع النبي (ص) نحو البصرة ومضى يجد السير باتجاهها وفي نفسه بقية من الامل برجوعهم عن غيهم وضلالهم ، ومن مشارف البصرة ارسل اليهم رسائله وجماعة من الوسطاء يدعوهم السى التراجع والانضمام الى جماعة المسلمين وحذرهم من عواقب هذا التمرد وما يترتب عليه من المفاسد التي تسيء الى مسيرة الاسلام فأصروا على مواقفهم ورفضوا الانصياع لاوامره وتوجيهاته ، ومضى في طريقه الى البصرة والالم يحز في نفسه ونزل في المكان المعروف بالزاوية ف صلى ركعات ثم غفر خديه بالتراب والدمع ينهمر من عينيه ثم رفع رأسه ويديه داعيا الله سبحانه ان يحقن دماء المسلمين ويهديهم سواء السبيل وعاد يناشدهم الله في الاموال والدعاء ويذكرهم بمواقفهم مع الرسول (ص) . هذا وعائشة على جملها وسط المعركة تحرض الناس على القتال وتقول : ايها الناس لقد غضبنا لكم من سياط عثمان وعصيه أفلا تغضبون لعثمان من السيوف التي اناهلت عليه ، لقد قتل خليفكم مظلوما بعد ان استتابوه وتراجع عن سوء تصرفاته والاسلام لا يطلب من المسلم اذا اخطأ اكثر من ان يتوب ، واحتدمت المعركة بين الطرفين واقتتلوا قتالا شديدا لم يشهد تاريخ البصرة قتالا أشد منه ضراوة وعنفا وتدافع اصحاب امير المؤمنين لحسم المعركة فتضعضع جيش المرتدين، هذا وعائشة في هودجها يحيط بها جماعة من بني ضبة وتتوجه الى من على يمينها تارة ومن على شمالها اخرى تحرضهم على القتال والثبات وتمتد من هودجها ويدها بدرة من الدنانير وتصيح بصوت يسمعه القريب والبعيد قائلة : من يأتيني برأس الاصلع وله هذه البدرة والاجساد تتهاوى في ساحة المعركة وحسول الجمل فأصيب طلحة بسهم وخر صريعا تنزف جراحه فأقبل اليه مروان ابن الحكم وأجهز عليه لعلمه بأنه لو بقي بين الجرحى الى نهاية المعركة التي اشرفت على نهايتها لصالح عليا ومن معه من المسلمين وسيحفظ له

حياته ويمالجه من جراحه .

وكان عبد الملك بن مروان يقول بعد ان انتهت اليه السلطة : اولاً ان ابي اخبرني بأنه هو الذي قتل طلحة ما تركت تيمياً الا قتلته بعثمان ، وانتهت المعركة بمصرع الزبير وأكثر القادة ممن وقفوا الى جانبه وحينما عقروا الجمل وسقط هودج عائشة وقف عليها امير المؤمنين وقال : يا حميراء ألم يأمرك رسول الله ان تقري في بيتك والله ما انصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك ، وأمر اخاها محمد بن ابي بكر فأخذها بيدها وهي تتمش في مشيتها من الخيبة التي ألمت بها وأنزلها في دار صفية بنت الحرث بن ابي طلحة العبدى ووضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يتعرض لها احد بسوء وبلا شك فان أيدي اصحاب معاوية لو استطاعت ان تمتد اليها لحققت لمعاوية ما كان يتمناه ولكن عليا (ع) لم يسمح لاحد ان يتصل بها واتخذ جميع الاحتياطات لاجباط مساعي معاوية وحزبه ، وقد أمر مناديه ان ينادي في اصحابه بأن لا يجهزوا على جريح ولا يظنوا مدبراً ولا يتبعوا هارباً كما اعلن العفو العام عن كل من يلقي سلاحه ومن يدخل بيته ووقف بين قتلاه وقتلى المتمردين وهو في حالة من القلسق والتمزق وهو يعلم بأن بين خصومه وأنصاره جماعة قد ابلوا بلاء حسناً في معاركهم مع النبي (ع) . لقد حزن من اجل هؤلاء الذين قاتلهم والذين قاتل بهم ومن اجل رسالة الاسلام التي كان يتمنى لو يتاح له ان يتفرغ لانقاذها مما يحيط بها من الاخطار .

لقد بكى لأولئك الذين قادتهم المطامع والاهواء الى هذا المصير السيء الذي لم يكن يتمناه لاحد من المسلمين ولا من بني الانسان ، ومن اجل نفسه وقد وقت له قریش بالمرصاد كما وقت لابن عمه من قبل وقد كتب عليه ان يقاتلها على تطبيق الرسالة كما قاتلها على تنزيلها، وكان يتمنى ان يقاتل بتلك الحشود التي اجتمعت لقتاله اعداء الاسلام

تبقى مسيرة الاسلام في طريقها الى العالم بأسره ، وعاد يتأمل القتلى من
الجانبين وقلبه الكبير يتصدع لهذا المشهد الذي قتل فيه رفاقه في الجهاد
مع رسول الله (ص) صرعى الاطماع والاهواء وجعل يترحم على هؤلاء
وهؤلاء ولم يسمح لاحد ممن وترهم طلحة والزبير بأولادهم وعشائرتهم
ان يتحدثوا احدا او يأخذوا من اموال المنهزمين شيئا وقال : ليس في هذه
الحرب مغنم لمنتصر ، ثم امر من ينادي في شوارع البصرة من عرف شيئا
له فليأخذه ، وعندما طلب منه أنصاره ان يسمح لهم بمصادرة أموال
هؤلاء الخوارج قال : ان في المعركة امكم عائشة فمن يأخذها في سهمه .
وبلا شك لو كانت المعركة لصالح عائشة وجيشها لملثوا بجثث القتلى
من أنصاره وأباحوا لجيشهم جميع اموال المنهزمين وحتى نسائهم ودمائهم،
ولم يتركوا وسيلة من وسائل العنف والترويع والتشفي ألا ارتكبوها .
ان امير المؤمنين (ع) لم يكن في جميع معاركه التي خاضها مع من
خرجوا عليه لم يكن يحاول ان يصنع من تلك المعارك انتصار فئة على
اخرى بالسلاح والعتاد كما كان يصنع أخصامه بل كان يحارب ويقاوم
بنفس الروح التي كان يحارب بها محمد بن عبد الله قريشا وغيرها من
المشركين كان يحارب لارجاعهم الى حظيرة الاسلام ويصنع منهم جيشا
يستعين به على احقاق الحق وعلى الظلم والظالمين والطفاة المستبدين
وتصدير الاسلام بمبادئه المشرقة الناصعة الى العالم بأسره ، ولذا فانه لما
دخل البصرة بجيشه الفاتح المنتصر في تلك المعركة التي فرضت عليه فرضا
بكى وتصدع قلبه ولم يدخلها بزهو الفاتح المنتصر لانه لم يحقق الاهداف
التي كان يحارب من اجلها ، وأول عمل قام به بعدها هو ارسال عائشة الى
المدينة مع عدد من النسوة لخدمتها وجماعة من اصحابه لحمايتها وحراستها
حتى لا يطمع احد في الاساءة اليها بعد ان كانت ضليعة في تلك المعركة
التي لم يعرف تاريخ الاسلام اسوأ منها وقد ذكرنا سابقا ان معاوية كان

يتمنى لها القتل ليستغل قتلها لصالحه .

ويروي الرواة انها بعد ان استقرت في المدينة كانت تبكي حتى تبل خمارها من دموع عينيها وتقول : ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين عاما، وأحيانا تقول : والله ان قمودي عن يوم الجمل لو أتيح لي أحب الي من ان يكون لي عشرة بنين من رسول الله ، وبلا شك فان تمنياتها وبكاءها لم يكونا بدافع التوبة والرجوع الى الله سبحانه من مواقفها التي لطخت بها تاريخ المرأة المسلمة ، بل لانها فشلت في معركتها وفقدت قادتها ولم تحقق غير الخزي والعار وخرج منها علي (ع) التي كانت تراهن على رأسه لقاء بدرية من الدنانير منتصرا عسكريا وأقوى مما كان عليه قبل خروجها الى البصرة وهذا ما لم تستطع الصبر عليه صاحبة الجمل والبغل غفر الله لها ولا أظنه يفعل ، واذا كانت تائبة ونادمة كما يحاول بعض الكتاب ان يعتذروا عنها ويسدلوا الستار على جريمتها فلماذا ركبت بغلا وخرجت مع الامويين الحاقدين على الاسلام وأهل البيت (ع) يوم دفن الحسن ريحانة رسول الله لتمنعهم من دفنه الى جوار جده المصطفى (ص) مدعية ان البيت بيتها ولا ترضى بأن يدفن فيه من لا تحب على حد تعبيرها ، وقال لها احد المسلمين يومذاك وهي تزبد وترعد :

تجملت تبغلت	ولسو عشت تفيلت
لك التسع من	الثن وللكل تملك
يوما على جميل	ويوما على بفسل

لقد استغل معاوية مصرع طلحة والزبير وكان يتمنى لعائشة نفس المصير ويعمل من اجله لان قتلها سيكون أشد تأثرا على علي (ع) من قتلها ، وقد وضع له أنصاره حديث العشرة المبشرين بالجنة وعلي رأسهم طلحة والزبير ليشنع بقتلها على علي امير المؤمنين ويندبهمسا

كما يندب عثمان •

وتوات الاخبار على علي (ع) بأن معاوية يستعد للحرب والقتال ويحشد جيوشه لغزو العراق وان المارك ستكون على حدوده او فسي داخله فرأى ان المصلحة تفرض عليه في ظل هذه الظروف ان يتخذ الكوفة عاصمته ومقرا له لقربها من الحدود السورية ولأن سكانها من العشائر وينتمون الى عشرات القبائل التي انحدرت من العراق والحجاز واليمن وسوريا وغير هذه الاقطار ولا يزال النظام القبلي هو السائد بين سكانها بالرغم من انتمائهم للإسلام ، وسوف يتجه معاوية بكل امكانياته لتدعيم ذلك النظام وبث الفوضى وعدم الاستقرار فيها وشراء زعمائهم وقادتها بالاموال والمفريات ، والاموال تصنع ما لا تصنعه الاساطيل وأسلحة الفتك والدمار ، فقرر بعد ان وضع جميع هذه الاحتمالات في حسابه ان يترك عاصمة الرسول بيد احد ابناء عمومته ممن يثق بدينهم وادارتهم ، ويرحل بمن معه الى الكوفة تاركاً على البصرة عبد الله بن العباس احد اعلام المسلمين يومذاك •

واستقبلته الكوفة بكل فئاتها مرحبة ومستبشرة بقدومه وأعطوه المهود والمواثيق على مناصرته والتضحيات معه الى ابعد الحدود سواء في ذلك من اشترك في حربه لخوارج البصرة ومن تخاذل عنه فيها واجتمع رأيهم على قتال معاوية وغزوه قبل ان يتحرك هو لقتالهم ، ولكنه رفض ان يتحرك من الكوفة قبل ان يعيد الكرة على معاوية ومفاوضته بواسطة من اختارهم لهذه المهمة من ذوي الرأي والبصيرة راجيا ان يعود السى رشده وينتظم بذلك شمل الامة في وحدة متراسة تتجه بكل طاقاتها وامكانياتها للعمل لصالح الاسلام ، وتوات بينهما الاتصالات بالرسائل والرسائل ومعاوية يزداد تصلبا وصلفا من يوم لآخر ويتذرع بقتل عثمان وقتلته وما الى ذلك من وسائل المراوغة والاحتيال والمداورة •

ولم تكن أطماع معاوية في السلطة لتخفى على علي (ع) وعلى غيره من عارفه ، وكلهم يعلمون بأن الجيش الذي هياؤه وزوده بكل ما يحتاج إليه منذ أمد بعيد لم يكن الا ليحارب من يتولى أمور المسلمين بعد قريه ابن عفان كائنا من كان ، ولو قدر لطلحة والزبير ان يربعا معركة البصرة ويتولى الامور احدهما لوقف منهما نفس الموقف الذي وقفه من علي (ع) كما أفصح هو عن نواياه لمن سأله عن اسباب تحمسه ومساندته لهما على علي (ع) ، ولو افترضنا ان السلطة بعد عثمان كانت لاحدهما لم يكن لديه ما يمنع من ان يستحث عليا على مناهضتهما ويمرض عليه المساعدة بكل مقوماتها كما فعل معهما حينما تحركا الى البصرة ، وكما فعل ابوه في مطلع خلافة ابي بكر، فقد جاء الى علي (ع) يستحثه على الصمود في المعارضة ويعدّه بمناصرته الى ابعد الحدود ، ولو كانت الخلافة من نصيب علي في تلك الفترة لذهب الى ابعد الحدود في مناصرة الحزب القرشي المعارض وتأييل الناس عليه لان خلافة علي (ع) لا تعني سوى استمرار الرسالة بكل أبعادها وجهاتها التي حاربتها أمة منذ ان بزغ فجرها وظلت تحاربها جيلا بعد جيل متظاهرة بطلاء شفاف من الاسلام تستر به بمسد ان ارغمت على التخلي عن مواقفها المعلنة من الاسلام والاستسلام لقيادته المتمثلة في شخص الرسول (ص) .

أجل بعد فشل جميع المحاولات التي مارسها الامام (ع) لحقن الدماء واصرار معاوية على مواقفه المعادية وبعد ان توالى الاخبار وتواترت عن حشود معاوية وتحركاته نحو الحدود المراقية ، لم يجد الامام بدا من التحرك بمن معه من المسلمين باتجاه الحدود السورية قبل ان يجتاز معاوية بمن معه حدود العراق ، والتقى الطرفان على شاطئ الفرات في المكان المعروف بصنمين ، وكان معاوية قد سيطر على الماء قبل وصول العراقيين اليه وخطط لمنعهم من الماء كوسيلة للضغط والاحراج ، وحاول

الامام (ع) كمادته بالوسائل السلمية اقناع معاوية وحاشيته بالتخلي عن الماء لجميع المخلوقات كالهواء والاعشاب فلم يتوصل معهم الى نتيجة فاضطر الى استعمال القوة لانتقاذ عشرات الالوف ممن كانوا معه من الموت عطشا وأرسل الاشر النخعي في كتيبة من الجيش فسيطروا على الماء خلال ساعات قلائل ، فقال ابن العاص لمعاوية : ما ظنك لو منعك ابن ابي طالب عن الماء كما منعه أترالك تقدر على استرجاعه ؟

ان ابن العاص ومعاوية بن هند يعرفان عليا ويعلمان بأنه لا يسكن ان يقدم على العقوبة وهو يجد للعفو محلا وليس من خلقه ان يطلب النصر بالجور كما يطلبه معاوية وغيره من الحاكمين وهو القائل : اذا ظفست بخصسك فليكن العفو احلى الظفرين •

لقد حاول جماعة من اصحابه معاملتهم بالمثل ولو لفترة من الزمن فأبى عليهم ذلك وأتاح لاصحابه الذين هددوه قبل ساعات قليلة بالموت عطشا ورود الماء اسوة بأصحابه •

وهذه البادرة وحدها تكفي اهل الشام لو كان عندهم شيء ممن الحس والخلق ان يدركوا حقيقة كل من الرجلين ويعلموا انهم بمناصرتهم لمعاوية انما يناصرون الشر على الخير والباطل على الحق والظفيان على العفو والتسامح والرحمة •

وبقي الجيشان على موقعهما ينهلان من الماء على قدم المساواة ، وعلي (ع) يواصل جهوده المضنية ومسايعه المخلصة للسلام ويفتح لاهل الشام وقادتهم قلبه وصدره فلم يفلح في مسما هذا وفي الوقت ذاته كان معاوية يأمر اصحابه بسبه وشتته ، وحينما سمع علي (ع) اصحابه يبادلونهم السباب والشتائم أمرهم بالكف عن ذلك وقال : اني اكره لكم ان تكونوا قوما سبابين فاذا ذكرتموهم فاسألوا الله سبحانه ان يحقن دماءنا ودماءهم ويصلح ذات بيننا وبينهم ليعرف الحق من جهله ويرعوي

عن الباطل والغي من لهج به •

وكان لا بد من المعركة التي فرضها معاوية عليه واحتدم القتال بين الطرفين طوال اشهر معدودات سقط خلالها على ثرى صفين عشرين الالوف من الفريقين وكادت المعركة ان تنتهي لصالح امير المؤمنين (ع) ولكن معاوية ومن معه من معاويه وجماعة من قادة العشائر العراقية الذين يشكلون العدد الاكبر بعشائريهم من جيش العراق كانوا كما يبدو قد أعدوا لكل امر عدته فأمر اصحابه ان يرفعوا المصاحف على أسننه الرماح وطالبوا عليا بالاحتكام اليها بدلا عن السيوف والرماح ، وكان امير المؤمنين قد سبقهم الى ذلك وطلب من قادة الخوارج في البصرة الرجوع اليه بدلا من السيوف والرماح وتمناه على معاوية قبل ان يزحف الطرفان الى صفين ، وحينما استولى معاوية على الماء ومنع عليا وأصحابه منه ، الى غير ذلك من المواقف التي كان يطالبهم فيها بالرجوع الى حكم القرآن وتطبيق تعاليمه فكانوا يرفضون ويوجهون سهامهم ونبالهم الى حاملي القرآن ، وقد ذكرنا سابقا ان عليا لم يكن يعمل ويخطط ليحكم الناس ، بل كان نائرا من اجل القرآن وتطبيق أحكامه وتعاليمه ، ولم يكن يطالب بأكثر من ذلك ومن اجل طلبه هذا واصراره عليه وتجاهله لجميع الوسائل التي يستعملها طلاب الحكم ودهاقين السياسة هب في وجهه الطامعون والحاقدون تاركين القرآن ومن انزل عليه وراء ظهورهم وأعلنوها حربا عليه لا ترحم احدا فاضطر لقتالهم بعد ان أعيتة جميع الوسائل وفقد أضعف الاحتمالات بتراجعهم عن غيهم وضلالهم وعودتهم الى حظيرة الاسلام •

ومن المفارقات الغريبة ان يطلب ألد أعداء القرآن ومن حاربوه اكثر من عشرين عاما وما زالوا يحاربونه بأقوالهم وأفعالهم ممن نزل عليهم القرآن وتادبوا بأدابه وأخلاقه وواجباته وسننه الرجوع الى حكم القرآن،

انها لمهزلة من اسوأ انواع المهازل ولو كان فيمن يدعون الاسلام من جيش معاوية ومن تواطأوا معهم من اهل العراق قبس من وحي الاسلام وخلق الاسلام لما تواطأوا مع معاوية بن هند على عمل من هذا النوع ولما تجرأ هو وابن العاص وغيرهما على هذا الطلب من علي (ع) .

لقد ادرك علي (ع) منذ ان نظر الى القرآن مصلوبا على أسنة الرماح اهداف تلك المؤامرة وان القسم الاكبر من قادة جيشه ضالعون فيها وتأكد له ذلك عندما وجدهم يطالبونه بوقف القتال والرضا بالتحكيم وأدرك ان الغاية منها اما جره الى معركة جديدة مع معاوية والمتآمرين معه مسن العراقيين لا ناصر له فيها الا المخلصون من شيعة وأنصاره وستكون نتائجها لصالح معاوية وحزبه ، او ايقاف القتال الذي كاد ان ينتهي بقتل معاوية او هزيمته لو استمر عدوة فرس او حلبة شاة ، وعلى التقديرين فالرابح هو معاوية وأنصاره ، وما عليه بعد المقارنة بين مواصلة الحرب والنزول عند ارادتهم الا ان يختار أقلهما خطرا وضررا على الاسلام ودعائه ويقبل بتحكيم القرآن لا تحسبا وتهربا من الموت والشهادة التي كانت تنتظره لو مضى بمن بقي معه من اهل العراق وحارب بهم اهل الشام والمتآمرين معهم من اهل العراق ، لا هربا من ذلك لانه كان نائرا والثائر لا يهاب الموت وقد يطلبه عندما يطمئن بأنه سيكون من بعده حافزا للأجيال على الثورة وصرخة مدوية تقض مضاجع الظالمين وتقضي عليهم في كثير من الاحيان .

ان الثائر اذا مات شهيدا تصنع شهادته ثوارا آخرين وتتلاحق قافلة الثوار جيلا بعد جيل وكل قافلة من تلك القوافل تضيف الى شعلة النور لهيبا جديدا ، ومن المعلوم بأن عليا (ع) لو حارب واستشهد هو ومن بقي الى جانبه في مثل هذه الحالة وفي ظل هذه الاجواء فان استشهاده لا يؤدي الى ذلك وسوف لا يستفيد منه غير الحزب الاموي وأنصاره ،

وسيكون لموقف معاوية منه ما يبرره بنظر الجماهير التي تنخدع بالمظاهر وتندفع في كثير من الاحيان في اعمالها بدافع لاشعوري تستمده من ظروفها النفسية او الاجتماعية ، ثم تفكر بعد ذلك لتصطنع لاعمالها اسبابا تدافع بها عن نفسها .

لقد وضع امير المؤمنين جميع هذه الاخطار التي ستجني عن مواصلة القتال بمن بقي الى جانبه من اهل العراق في حسابه وأدرك انسه سيخوض معركة خاسرة لا تخدم غير معاوية وأنصاره فأعلن موافقته على التحكيم وهو واثق بعدم جدواه لأن المطالبين به والمختارين لتنفيذه من الجانبين من أبعد الناس عن كتاب الله وأحكامه ، ولم يوافق عليه الا لانه أقل ضررا على الاسلام من المضي في المعركة كما ذكرنا ، وفي جميع مواقفه كان يضرب اروع الامثلة على نزاهته وتفانيه في سبيل المبدأ والعقيدة ، مهما كانت الظروف بالغة التعقيد والقسوة .

وقد دأب على التعبير عن موقفه المبدئي وهو ايثار السلم على الحرب بأي ثمن كان على شرط ان لا يمس صفاء الاسلام ووحدة المسلمين وها هو يخاطب اصحابه الغاضبين من قبوله للتحكيم وامتناعه عن الاذن لهم بمواصلة القتال ويؤكد لهم بأن ذلك لم يكن كرها بالموت كما اتهمه بعضهم بذلك . فقال : أما قولكم بأنني شككت في اهل الشام فوالله ما توقفت عن الحرب يوما الا وأنا أطعم في ان تلحق بي طائفة لتهتدي بي وتعشو على ضوئي وذلك أحب الي من ان اقتلها على ضلالها وان كانت تبوء بآثامها .

وهذه الكلمات تؤكد ما اشرنا اليه من قبل وأنه لم يكن يسمى ويعمل من اجل السلطة وبسط نفوذه وسلطانه وان جميع حروبه ومواقفه كانت من اجل السلم والعدل ومن اجل بناء المجتمع الاسلامي الامثل .

لقد كانت حروبه مع النبي (ص) من اجل بناء الاسلام وتشبيته ضد

الجاهلية بكل ما تمثله من جهل وتخلف وانحطاط ، وفي أخريات أيامه كانت من أجل صيانة المجتمع الاسلامي من الانحراف وصيانة الاسلام من التحريف الذي مارسه الحزب الاموي بعد ان توفرت له اسباب الحكم . لقد كان قادرا في الفترة التي كان فيها مسؤولا عن أمور المسلمين ان يحقق لنفسه وأسرته مغنم سياسية ومادية لا تحصى لو انه هادن تلك القوى التي كانت تعمل لتحريف الاسلام واعادة المجتمع الجاهلي الى ما كان عليه ، ولكنه وفاء منه للاسلام وللمسلمين ضحى بكل ذلك وحتى بنفسه حفاظا على الاسلام من التحريف والتشويه وعلى مصالح المسلمين وكرامتهم وحریتهم من ان تداس تحت أقدام الحاكمين ونزعاتهم الجاهلية . وقد اوما الى ذلك في بعض خطبه فقال كما جاء في بعض خطبه من نهج البلاغة : اللهم انك تعلم ان الذي كان منا لم يكن منافسة في سلطان ولا التماسا لشيء من فضول الحكام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك .

ومهما كان الحال فلقد بذل كل ما يمكن لاقتناع المنشقين عنه من جيشه بأن معاوية وحزبه ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وقال لهم : اني أعرف بهم منكم لقد صحبتهم صفارا وكبارا فكانوا شر صغار وكبار ، وان دعوتهم هذه كلمة حق أريد بها باطل وليست سوى مكيدة وخديعة اعيروني سواعدكم ساعة فلقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يقطع دابر الذين ظلموا ، فكان جوابهم ان احاط به نحو من عشرين ألف مقاتل مقنعين بالحديد وهم يقولون : اجب القوم والا قتلناك كما قتلنا ابن عفان بالامس ، فاضطر الى القبول بالتحكيم وكان ينظره أقل الشرين والضررين خطرا عليه وعلى من بقي معه من ذويه وبنيه وخلص اصحابه . وتمت الهدنة بين الطرفين كما تم اختيار الحكيم كما يريدون لا

كما اراد وبعد التوقيع على وثيقة الهدنة تراجع فريق ممن فرضوها وفرضوا الحكمين عليه وطلبوا منه الرجوع عن التحكيم واستئناف القتال بوحى من اولئك الذين وضعوا فكرة التحكيم وهم على يقين بأن عليا سيرفضها ويبقى مصرا على حرب لغير صالحه ، وكان محيطا بكل ما خططوه وأرادوه وجعل يرفق بهم ويدعوهم الى اختيار ما فيه العافية . ثم تعجل الخروج من صفين متجها الى العراق مخافة ان تأزم الامور وتضطره الى ما لا يريد ولم يتأخر في صفين بعد اعلان الهدنة اكثر من ثلاثة ايام تفرغ فيها لدفن القتلى وخرج منها منظويا على نفسه يتجرع آلام الخيبة ومرارة تلك الاحداث التي لا يقوى على تحملها احد غيره من الناس . ولم تنته المؤامرة عند هذا الحد فالذين اضطروه الى قبول التحكيم تحاشيا مما هو أدهى وأمر رجعوا ينددون عليه ويطلبون منه ان يتوب الى ربه وأعلنوا العصيان عليه بتحريض من الاشعث بن قيس وغيره ممن اشتراهم معاوية بالاموال والوعود المغرية ليشغلوا عليا ومن معه عن الاستعداد لحرب ثانية كان امير المؤمنين يعمل للاعداد لها ، وراحوا يفسدون في الارض قتلا وترويعا وما أشبه ذلك ، وكان من جملة من قتلوهم وهم في طريقهم الى النهروان الصحابي الجليل عبد الله بن خباب مع زوجته الحامل بعد ان بقروا بطنها واستخرجوا منها جنينا ذبحوه على صدرها لان زوجها لم يكفر عليا كما كفروه . وحينما بلغت اخبارهم امير المؤمنين (ع) وما صنعوه مع عبد الله بن خباب وزوجته خرج اليهم مع جماعة من اصحابه وحاول ان يردعهم عن ضلالهم بالحجة والمنطق فلم يسمعوا له وكان جوابهم الاخير له : لو تمكنا منك لصنعنا معك ما صنعناه مع عبد الله بن خباب ، فعند ذلك يشس منهم وحمل عليهم بمن معه من اصحابه وخلال ساعات قلائل قضى عليهم ولم يسلم منهم سوى تسعة اشخاص فروا من المعركة ، كما لم يقتل من اصحابه سوى

تسعة ، وكان قد اخبر اصحابه بذلك قبل ان يهاجمهم كما تؤكد ذلك اكثر المصادر الموثوقة .

ومن المفارقات الغريبة ان المؤرخين والمحدثين قد اعتبروا هذه الفرقة المتמרدة على الامام (ع) النواة الاولى للخوارج الذين اقضوا مضاجع الامويين خلال ثمانين عاما من حكمهم وكان الموالي يشكلون فيهم القوة الضاربة وقد تميزت ثورتهم في بدايتها بالدعوة الى العدالة والمساواة ثم اصبحوا من الفرق الاسلامية السنية التي تختلف عن الاشاعرة والمعتزلة والمحدثين في بعض الاصول والفروع ، هذا مع العلم ان المنشقين من جيش علي (ع) بعد معركة صفين لا يختلفون عن المتמרدين عليه في البصرة وحتى في صفين فأولئك وهؤلاء قد خرجوا عليه بعد ان لزمته طاعته طمعا وخوفا من عدله ، وكما كان معاوية يحرض طلحة والزبير ومن معهما ويمنيهم بكل انواع المغريات فالمنشقون عن جيشه بعد معركة صفين كان خروجهم بتحريض من انصار معاوية وحلقة من حلقات المؤامرة التي حيكت خيوطها على يد معاوية وابن العاص والاشعث بن قيس وغيره من زعماء العراق خلال الاتصالات التي كانت تجري بين الطرفين في صفين وغيرها ، ومع ذلك فقد اعتبروا المنشقين عن جيشه النواة الاولى للخوارج ولم يطلقوا هذا الاسم على الذين خرجوا عليه وحاربوه في البصرة مع انهم من نوع واحد .

لقد عانى امير المؤمنين من هؤلاء وغيرهم ممن كانوا الى جانبه في الكوفة ومن قرش وغيرها اقصى ما يمكن ان يعاينه المصلحون وأصحاب الرسالات في حياتهم ، وبلغ به الحال في اواخر ايامه انه كان يقبض على كريمته ويكي من سوء معاملة الناس وتخاذلهم عن نصرته وتلبية صرخاته ودعواته المتتالية ، وأحيانا يقول : لقد ملأتم قلبي قيحا ، ويتذكر نبوءة الرسول (ص) بمصيره ويقول : متى يبعث اشقاها ، وأخيرا بعث اشقاها

وتم لمعاوية وابن العاص تنفيذ المؤامرة التي اشترك فيها جماعة من قادة العراق ورؤسائهم ، وضربه ابن ملجم في المسجد على رأسه في فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة ، ضربة كانت بها نهاية حياته الكريمة ، وعندما أحس بلذع السيف قال كلمته المشهورة : فزت ورب الكعبة ، تلك الكلمة التي تشير الى مدى ما كان يعانيه من الالم النفسي في تلك الفترة من حياته ، والكلمات الاخيرة التي ينطق بها الانسان في ساعات صراعه مع الموت تعبر في الغالب عما يكمن في عقله الباطن من آلام وهموم وأحزان .

لقد مل امير المؤمنين (ع) جميع الناس وكان يتمنى فراقهم بالموت او القتل ويتنظر نبوءة سيد المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى الذي اخبره بكل ما يجري عليه من محبيه ومبغضيه وبالشكل الذي تنتهي به حياته ، كان ينتظر ذلك ويقول : متى يبعث أشقاها ليخضب هذه من هذا ، مشيرا الى كريمته ورأسه ، لقد ملهم وملوه لانهم لم يستطيعوا ان يتحملوا عدله ولم يكن من دينه وخلقه ان يستعمل معهم اساليب غيره لان الغالب بالشر مغلوب بنظره ، وملأوا قلبه قيحا كما كان يقول ، فكانت تلك الضربة على رأسه بمثابة الانقاذ له من تلك الآلام التي كان يعانيها وخرج من دنيا اولئك الذين جرعوه الفصص والآلام فاشلا ان صح هذا التعبير ، ولكن ذكراه بقيت على مدى الاجيال تجسد الحق والخير وجميع القيم وتدفع الانسان على الثورة والكفاح من اجل العدل والرحمة وكرامة الانسان وخرج من الدنيا مثقلا بالهموم والاحزان للمصير السيء الذي سينتهي اليه الاسلام والمسلمون على يد الحزب الاموي الذي توفرت له جميع امكانيات الحكم والسيطرة والتسلط البغيض وما الى ذلك من اساليب التي شوهت الاسلام وجعلت منه امبراطورية لا تختلف عن امبراطورية الفرس والرومان الا بطلاء خفيف من الاسلام قد استخدموه

ليستروا وثنتهم وجاهليتهم الاولى .

لقد حكم الامويون باسم الاسلام نحواً من تسعين عاماً مارسوا خلالها جميع أشكال العنصرية ومظاهر الجاهلية والظلم والظلمان وفي الوقت ذاته كانوا يرفعون المآذن ويشيدون المساجد ويكسون الكعبة بأفخر انواع المنسوجات ويقدمون لها افخر انواع التحف والمجوهرات ، كل ذلك يقتطعون من اموال الفقراء والمساكين والمستضعفين ، وأحياناً يعاقبون السارق والزاني ، ولكنهم كانوا يحرقون الكعبة وجميع المساجد ويعرضونها لأسوأ انواع الخراب والدمار اذا التجأ اليها احد ممن كانوا يطالبون بالعدالة والرحمة خوفاً من سيأطهم وسيوفهم ، ومضى على ذلك جميع السلاطين والحاكمين وبنفس الروح والاسلوب التي حكم بها أسلافهم ولا يزال الحاكمون يسيرون على درب الامويين وأساليبهم للسيطرة والنفوذ .

لقد ثار العباسيون والعلويون والشيعة على الامويين وأطاحوا بدولتهم في المشرق ولما استتبت لهم الامور كانوا اسوأ من الامويين ومارسوا الجور والظلم بأفجع صورته وأشكاله ، ويحكي الرواة عن المنصور العباسي انه كان يقول : قتلت من ولد فاطمة الفا او يزيدون ، ولما مات وجد خليفته المهدي في غرفة من غرف قصره اكثر من خمسمائة رأس من رؤوس العلويين ومع كل رأس رقعة من النحاس في إحدى أذنيه عليها اسمه ونسبه الى رسول الله (ص) وتحول الصراع والتنافس اللذان كانا في عهد الامويين بين أمية وهاشم الى صراع من نوع آخر في عهد العباسيين بين العلويين والعباسيين على ميراث النبي وان عمه كان أولى بميراثه او ابن عمه ، وراح الشعراء يتبارون في ذلك لقاء مئات الألوف من الدنانير يدفعها لهم الخليفة من مال الله لانه يفضل العباس على علي وبنه علي أبناء الحسن والحسين وتنافسوا الاهداف والشعارات

التي رفعوها في ثورتهم على الامويين ، وأصبحوا يرون الخلافة وراثية
للعباس من ابن اخيه محمد بن عبد الله (ص) لانه اقرب اليه من علي بن
ابي طالب (ع) .

وجاء في تاريخ البرامكة في ظل الخلفاء للاستاذ محمد براق ان احد
الشعراء أنشد الرشيد قصيدة جاء فيها :

أعظم رسول الله اقرب زلفه لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وايهما أولسى به وبمهده ومن ذا له حق الوراثة قد وجب

ومدح ابن ابي حفصة المهدي العباسي بأبيات جاء فيها كما في مروج
الذهب للمسعودي :

يا ابن الذي ورث النبي محمدا دون الاقارب من بنسي الأرحام

وكانت عشرات الالوف من الدنانير تنهال عليهم لقاء هذا النوع من
الشعر الذي كانوا يفاخرون به العلويين ويدعون لانفسهم ارث النبي في
الخلافة .

وفي الوقت الذي كانوا يتباهون بقرابتهم القريبة للنبي وانهم
يمثلون ظله على الارض كانت قصورهم تمتج بالفساد والمنكرات وتضم
بين جدرانها عشرات الالوف من الجواري والعبيد والمغنيات ، وخراج
الامبراطورية الجديدة المغلفة بالاسلام من شرق الارض وغربها يتجه نحو
بغداد والى قصور الحاكمين بالذات ، ولا يبالي خليفة الرسول هارون
الرشيد الى اي مكان تتجه القمامة وفي اي مكان امطرت ويخاطبها قائلاً:
سيرى أينما سرت فلي خراجك وما دام خراجها سينتهي حتما الى
سيدات القصور وجوارهم ويصبح تحت أقدامهن ويبقى الفقراء كما
كانوا يطبخون الماء ويفترشون التراب .

وكما كان الرشيد وغيره من سلاطين بني العباس ورثة الرسول كما يدعون كان غيرهم ممن تعاقبوا على الحكم بعدهم من فاطميين وغيرهم يمارسون جميع ألوان الفجور والمنكرات والاجرام ، ولا يعتمدون غير السيف والمال لبناء دولتهم وتشييد ملكهم كما فعل الامويون والعباسيون قبلهم .

ويدعي الرواة ان المعز لدين الله الفاطمي حينما دخل مصر فاتحها اجتمع عليه الناس وقالوا له : نحب ان نعرف لمن ينتهي نسب مولانا الامير الى الحسن او الحسين ، فجرد السيف وقال : هذا حسبي ، ثم نثر عليهم صرر الدنانير والدرهم وقال : هذا نسبي ، فقال الناس : صدق مولانا امير المؤمنين لقد سمعنا وأطعنا ، وفي حدود هذه السياسة حكموا وفاقوا غيرهم من السلاطين في الترف والاسراف في الظلم والاستهتار بكرامة الانسان والمقدسات واذا ملك غيرهم من العباسيين آلاف الجواري والعبيد فان الحاكم بأمر الله الفاطمي كان يملك وحده عشرة آلاف جارية وخادم وتملك اخته ست الملك ثمانية آلاف جارية منها الف وخمسائة من الجواري الابكار ، ولما استولى صلاح الدين الايوبي على قصور الفاطميين وجد في القصر الكبير اثني عشر الف نسمة من الجواري ليس بينها فحل سوى الخليفة وأولاده (١) .

ويبدو من مجروح ذلك ان الامويين انذين حكموا ونصبوا انفسهم خلفاء لرسول الله (ص) قد نجحوا في تعطيل مسيرة الاسلام وحولوه الى امبراطورية لا تختلف عن امبراطورية الفرس والرومان الا بالشكل والمظهر وجميع من جاء بعدهم من الحاكمين مضى على طريقهم وحكم العباد والبلاد بنفس الروح التي كان يحكم بها معاوية بن ابي سفيان

١ - انظر الخطط للمقريزي وتاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان والحضارة الاسلامية لادم متز وغيرها من مجاميع التاريخ .

وهشام بن الحكم والوليد بن يزيد وغيرهم من أحفاد أمية ، ولا يزال
الحاكمون على ذلك حتى عصرنا الحالي وفي البلاد التي يدعون فيها
الوصاية على الاسلام كما كان يدعي معاوية بن هند وأحفاد الحكم بن
العاص ، ويفرضون فيها على عوام الناس وسوادهم ممارسة بمسـض
طقوسه ومظاهره ويعاقبون السارق والزاني احيانا ولكن اذا كان مسـن
سواد الناس وفقرائهم ولا يمت الى العائلة الحاكمة بصلة من الصلات
وهم في الوقت ذاته يمارسون بشره ولهفة جميع انواع الفجور والمنكرات
في قصورهم ومنتجعاتهم وفي اي مكان حلوا فيه داخل بلادهم وخارجها
وينشرون مئات الملايين من الدولارات تحت أقدام الجوّاري والمغنيات
والراقصات اللواتي يتوافدن الى قصورهم من هنا وهناك .

ولو قيض الله لقصور هؤلاء الحكام والامراء الذين يزعمون بأنهم
حماة الاسلام من يحتلها كما احتل صلاح الدين قصور الفاطميين وليس
ذلك على الله يعمد لوجدوا فيها عشرات الالوف من الشقراوات ومئات
الاطنان من مختلف انواع المسكرات ، وتتمنى ان يتم ذلك بواسطة من
يملا الله به الارض قسطا وعدلا بدلا مما ملئت به من الظلم والجور
واستهتار بالقيم والمقدسات باسم الاسلام ، ولو احتلها غيره فلا احسب
بأنه سيختلف عنهم بشيء الا بالشكل والمظهر كما تؤكد ذلك الارقام .

الانتفاضات الشيعية بعد عام المحنة

لقد شاع بين المؤرخين تسمية العام الذي استتب فيه الامور وانتظمت لمعاوية بن هند وانهت اليه السلطة بعد ان رأى الامام ابو محمد الحسن بن علي (ع) ان مصلحة الاسلام والمسلمين تفرض عليه ان يحقن دمه ودم اخوانه وخلص شيعته ويتنازل عن السلطة لمعاوية . لقد شاع تسمية ذلك العام الذي تم فيه الاتفاق بينهما بالشروط التي فرضها الامام (ع) بعام الجماعة لاجتماع المسلمين على حاكم واحد بعد المعارك الدامية التي اقعها الحزب الاموي خلال السنين الاربع التي كان امير المؤمنين (ع) يحاول اصلاح ما افسدته فريش وبخاصة الحزب الاموي في عهد عثمان بن عفان من قبله .

ولو ان المؤرخين والمسلمين تجاهلوا هذه المناسبة وأدركوا ما ينتظر الاسلام من المصير السيء بعد ان انطلقت أيدي الامويين وامتدت الى جميع الشؤون الاسلامية لسموه عام المحنة بدلا من عام الجماعة . لقد استسلم الحزب الاموي للاسلام بزعامة ابي سفيان بعد حروب استمرت نحو من عشرين عاما وانهت باستسلام الحزبين القرشي والاموي للاسلام وقائد مسيرته ومضى الاسلام في طريقه من نصر الى

نصر ليقف على ابواب مكة أمنع معاقل الشرك والوثنية يومذاك ويقف
ابو سفيان مذهولا الى جانب العباس بن عبد المطلب يستعرض ذلك
الجيش الفاتح ويراقب تحركاته بمرارة وهلع ، فيلتفت الى العباس قائلا:
لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيما يا ابا الفضل ، ويدرك العباس ما ينطوي
عليه ابو سفيان فينتهره قائلا : انها النبوة يا ابا سفيان ، ويسكت الشيخ
على مضض وألم وترتفع راية الاسلام فيما تضمنته من خير وطهر ومحبة
وفيما قدمته واستقدمه من مبادئ ومثل هي اروع منحة تقدمها السماء
للانسان على هذه الارض .

ويقف ابن هاشم اليتيم الذي اختارته السماء ليكون نذيرها على
الارض ورحمة للعالمين لا يكون ملكا عظيما كما يتصور ابو سفيان ،
وينطلق موكب النبوة والرحمة مقتحما ابواب مكة ليمنح أمية ذلك
الوسام الرائع الذي كان وسيبقى على مدى العصور والتاريخ سمة خزي
وعار قائلا : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهل يتحمل ابو سفيان هذه النهاية لمجده المتهاوي بين أشلاء اللات
والعزى وحطام الغرائق، لم يحتمل ذلك ولم يترك وسيلة من وسائل الكيد
للالسلام الا واستغلها ارضاء لحقده وعنصرته الجاهلية وظل حتى النفس
الآخر من حياته يعتقد ان الاسلام ملك لهاشم لا للانسانية جمعاء ، وقد
جاءت كلماته حينما انتقلت السلطة الى سليل بيته عثمان تعبيرا صارخا
عما كان يضره من سوء للاسلام فقد اتجه اليه وقال : لقد انتقلت اليك
بعد تيم وعدي فأدبرها كالكرة واجمل أوتادها بني أمية فانما هو الملك ولا
ادري ما جنة ولا نار .

وفي رواية ابن عساكر انه كان مكفوف البصر يومذاك فدخل على
عثمان وقال : ها هنا احد ؟ فقالوا : لا ، فقال : اللهم اجعل هذا الامر امر
جاهلية والملك ملك غاصبيه واجعل اوتاد الارض لبني أمية، ومضى الى

قبر الحمزة في احد يقوده غلامه وحينما وقف عليه ضربه برجله وقال : قم يا ابا عمارة ان الذي تجالدا عليا لقد اصبح تحت أقدامنا (١) .

ولم يكن معاوية بأظهر نفسا من ابيه ولا بأقل منه حقدا على الاسلام وحماسا لجاهلية آبائه لاسيما وقد نشأ في أحضان أم لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل الواسع الألم وأثرس منها وقد شاهدها تعبت بأحشاء الحمزة وتآكل من كبده وتصنع من اعضائه عقدا تتشقى بالنظر اليه عندما تذكر قتلها في بدر ، وبالرغم من ان قياد الامة قد اصبح بيده ولم يكن هو وأسرته يحلمون بأكثر من زعامة مكة وقيادتها المحدودة فكان من الوفاء لو كانت أمية تملك ذرة من القيم والوفاء ان تخلص للرسالة وباعثها وللأمة التي قدمت في سبيل بنائها الكثير من التضحيات والقرايين لتضمن لها استمرار البقاء ، ولكنها بدلا من ذلك ظلت اسيرة احقادها لم تتعد الموقف الذي كانت عليه في الجاهلية وهو احباط اهداف الرسالة وإضعاف طاقاتها وتشويه معالمها والانحراف بها عن المعطيات والمثل التي تمثل واقعها المشرق .

ان سلوك الحاكم هو الذي يحدد سلوك الامة أفرادا وجماعات وأتباعا وقيادات في مختلف الميادين ، وعانت الامة كثيرا من مآسي الصراع الضاري في المواجهة الصعبة بين تلك القوى التي تعتبر الاسلام ملكا لهاشم والمتمثلة حقدا على الرسالة وباعثها وبين القوى المخلصة التي تعتبره ملكا للانسانية جمعاء ورحمة للعالمين .

ولم يكن عداء أمية للاسلام ومحاولاتها لتحريفه وتشويه معالمه واحباط اهدافه ينطلق من عدم ايمانها بواقعيته فحسب بل كان بالاضافة

١ - انظر الطبري وتاريخ ابن عساكر وغيرهما من مجاميع التاريخ .

الى ذلك ينطلق من عدم تحملها لان يكون الباعث له والمرسل به سليل
هاشم محمد بن عبد الله اليتيم ، وكان يؤلمها ويقض مضاجعها ان يذكر
ذلك اليتيم وتردد الملايين اسمه من على رؤوس المآذن والمنابر في كل يوم
عشرات المرات وتشهد له بأنه الرسول الامين من الله سبحانه لبني
الانسان ما دام الانسان موجودا على هذه الارض كما يبدو ذلك من
بعض الفلتات التي كانت تصدر منهم بين الحين والآخر وبخاصة من
معاوية بعد ان اصبح الاسلام بيده يتصرف به كما يشاء .

فقد جاء عن مطرف بن المغيرة بن شعبة انه قال : وفدت مع ابي المغيرة
على معاوية وكان ابي يأتيه ويتحدث اليه ثم يرجع الي فيذكر معاوية وعقله
وتدبيره ويقدر فيه ذلك ، وفي بعض الليالي رجع من مجلس معاوية
مغتما وأمسك عن العشاء فانتظرت ساعة وظننت ان ما ظهر عليه انما هو
شيء اصابه ، ثم قلت له : مالي اراك مغتما منذ الليلة ؟ فقال : يا بني لقد
جئتك من عند أخبت الناس ، فقلت : وما ذاك ؟ فقال : لقد خلوت
بمعاوية وقلت له : انك يا امير المؤمنين لقد بلغت منك فلو اظهرت عدلا
وبسطة خيرا ونظرت الى اخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله
ما عندهم اليوم شيء يخافه .

فقال لي : هيهات هيهات ملك اخو تيم فعدل فوالله ما عدا ان هلك
وهلك ذكره الا ان يقول قائل ابو بكر ، ثم ملك اخو عدي فاجتهد وشر
عشر سنين فوالله ما عدا ان هلك وهلك ذكره الا ان يقول قائل : كان
عمر بن الخطاب ، ثم ملك اخونا عثمان ولم يكن احد في مثل نسبه فعمل
ما عمل وعمل به ، فوالله ما عدا ان هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل
الناس به .

وان اخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات : اشهد ان محمدا

رسول الله فأى عمل يبقى بعد هذا لا أم لك الا دفنا دفنا (١) .

والذي يلفت النظر في هذا الحديث هو تركيز معاوية على الجانب العنصري في حديثه ، فهو حين يذكر عثمان لا يرى لاحد مثل نسبه لانه كان أمويا وحين يذكر النبي (ص) لا يذكره باسمه او بلقب الرسالة ، بل يقول : وان اخا هاشم ولا يطبق ان يرى له هذا المجد العظيم الذي ينطلق من عظمة الرسالة التي اختاره الله لحملها ونشرها في شرق الارض وغربها لا من اسرته ونسبه .

لقد كان ما يسمونه بعام الجماعة بعد استيلاء معاوية على السلطة وقيادة الامة في واقع الامر عام محنة على الاسلام والمخلصين . من المسلمين لرسالة محمد بن عبد الله (ص) وكان اول عمل قام به هو الانحراف بالامة عن خطها الرسالي وطمس الحقائق والمثل التي تعبر عن الوجه المشرق للاسلام ، وكما لم يتمكن معاوية ان يتحمل بقاء تلك الصورة المقدسة للاسلام الذي جاء لانقاذ البشرية من ظلمات الجهل والبؤس والانحطاط لم يتمكن ان يتحمل بقاء تلك الصورة المشرقة للامام علي (ع) فعرض على أتباعه من الخطباء والولاة وأذناهم مسبته ولعنه على المنابر وفي المجتمعات ، ولم يكن الدافع له على ذلك سوى حقده العنصري الذي ملك جميع احساسه ومشاعره ، والا فما الدافع لعمل من هذا النوع وقد استقامت له الامور وخضعت له الرقاب وانتهى دور الامام (ع) بمصرعه ودور ولده الحسن (ع) بما يسمونه الصلح وعام الجماعة ولم يعد في الساحة من يخاف منه على ملكه واستقامت له الامبراطورية الجديدة

١ - كما روى ذلك عنه المسعودي في مروجه وابن ابي الحديد في شرح النهج عن الموقفيات للزبير بن بكار ، وكان الزبير هذا من المتحزبين لمعاوية والمعادين للتشيع كما تؤكد ذلك المصادر التي تعرضت لتاريخه .

في شرق البلاد وغربها .

ثم بقي شبح سيف الامام علي بن ابي طالب يقطر من دماء اعداء الله بني أمية وعبد شمس وغيرهم من أحلافهم المشركين فسي بدر وأحد والخندق ، وبقي شبح الايمان والاسلام اللذين يمثلهما علي في حكمه وجميع مراحل حياته وبقيت القاعدة التي تؤمن بحقه وأولويه في الحكم وقيادة الامة ، وبقي بالاضافة الى كل ذلك شبح العنصر الهاشمي الذي اختاره الله من أظهر أرومة انجبته البشرية في تاريخها لحمل الرسالة على الارض ، هذه الاشباح بقيت تهز مشاعر معاوية والامويين وتثير فيها نوازع الحقد والحسد والانتقام ولو كان بمقدوره ان يمس صاحب الرسالة ويعرضه للسباب والشتائم لم يتأخر ولكنه ادرك ان ذلك يعني الاصطدام المباشر مع جميع القوى الاسلامية حتى الموالية منها للاسرة الحاكمة ، وبدلا من ذلك اتجه الى اقوى شخصية اسلامية من الهاشمين بعد النبي (ص) ففرض على الناس سبها وهو لا يريد من وراء ذلك سوى سب النبي ، واندفع بكل قواه وطاقاته في محاولة منه لتحطيمها بالسب والشتيم واختلاق الاحاديث والتنكيل بالموالين لها وما الى ذلك من اساليب العنف والجور والتعذيب التي استعملها ابن هند وأسرته ليحول الانظار والعقول عن علي ومحمد وأسرته ولكنه لم يفلح في شيء من ذلك بل كان في عملة هذا وكأنه يعمل على نشر فضائله ويأخذ بضبعه الى السماء على حد تعبير الشعبي وعبد الله بن عروة لولديهما .

وصمد المخلصون من شيعة علي (ع) في وجه حكومة معاوية ومخططاتها الهادفة الى تصفيتهم وآثروا الموت على الحياة في سبيل المبادئ التي آمنوا بها وعاشوا من اجلها عقيدة وعملا ، فاثارت تلك المواقف الصامدة الجريئة من اولئك الابطال الميامين جنون الانتقام في أعماق معاوية والحاquدين من أسرته وأعوانه فراحوا يتخبطون في توزيع

الاتهامات وأساليب التنكيل بالقتل والتعذيب والتشريد وملاحقة اصحاب الإمام بكل انواع الاذى ، ولكنهم لم يهزموا امام تهديداته وملاحقتهم ووقفوا منه موقفا يتسم بالقوة والثبات غير مباليين بالموت ولا بغيره من اساليب التعذيب والتنكيل .

لقد كان معاوية يتلذذ بسب علي وشتمه وتعذيب من لم يتبرأوا منه ويلعنوه في المحافل والمجتمعات وكتب الى موظفيه وعماله في المقاطعات ان لا يجيزوا لاحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة ، وهو حينما يسب عليا ويلعنه يسب محمدا بالذات لان محمد (ص) شاع عنه بين الصحابة انه قال : يا علي من سبك فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله فقد كفر . وكتب الى عماله نسخة واحدة في جميع البلدان جاء فيها: انظروا من قامت عليه البيعة انه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة اخرى جاء فيها : من اتهمتموه بمؤالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره .

وجاء في المجلد الرابع من شرح النهج لابن ابي الحديد ان قوما من بني أمية قالوا لمعاوية : يا امير المؤمنين انك قد بلغت ما كنت تؤمل فلو كففت عن لعن هذا الرجل وسبه والتنكيل بمحبيه وشيعته فان ذلك خير لك ، فقال : لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلا ، وكتب الى جميع عماله ان برئت الذمة ممن يروي شيئا من فضائل ابي تراب وأهل بيته ، فقام الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليا ويرأون منه ويقعون فيه وفي اهل بيته (١) .

وبلغت اساليب التعذيب والارهاب حدا جعل الكثيرين من الناس

١ - شرح النهج ج ٣ ص ١٥ والمسهودي في مروج الذهب ج ٢ والطبري وغير ذلك من المجاميع .

يفضلون تهمة الزندقة والكفر على تهمة التشيع لما كانت تجر وراءها من المتاعب والنوائب وأصبح الناس يتهيئون ان يذكروه باسمه حتى فيما يعود الى أمور التشريع ، فكانوا اذا ارادوا ان يرووا عنه يقولون : روى ابو زينب، وعرف بهذه الكنية بين فقهاء التابعين ، واشتهر التفسير بها عنه .

وجاء في مناقب ابي حنيفة للمكي ان ابا حنيفة كان يقول : ان بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي (ع) ولا يأخذون به وكان علي (ع) لا يذكر بذلك باسمه والعلامة عنه بين المشايخ ان يقولوا قال الشيخ ومنعوا الناس ان يسموا ابناءهم باسمه، ويتعرض للبلاء من سمي ابنه عليا ^(١) . وكان أشد الناس بلاء اهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي (ع) فقد استعمل عليها معاوية زياد بن سمية وضم اليه البصرة فكان يتبعهم وهو بهم عارف لانه كان منهم ايام علي (ع) فقتلهم تحت كل حجر ومدر على حد تعبير المؤرخين والახباريين وأخافهم وقطع الايدي والارجل وسلم العيون وصلبهم على جذوع النخل ومضى على ذلك حتى لم يبق في الكوفة من يستطيع ان يتجاهر بالتشيع لعلي وبنيه كما تؤكد ذلك جميع المصادر التي تحدثت عن الامويين في تلك الفترة من تاريخهم وبقي علي بن ابي طالب يحتل عقول الملايين وقلوبهم على مرور الاجيال .

لقد كان معاوية بهذه السياسة الخرقاء التي ان دلت على شيء فانما تدل على انه كان من أجهل الناس بالسياسة ومن أقصر الناس نظرا ، لقد اراد ان لا يذكر ذاكر لعلي (ع) فضلا كما جاء على لسانه في جواب من رغب اليه ان يكف عن شتم علي وسبه ، فجعل الناس يغالون في نشرها ويتهافتون على حفظها ، وأراد ان يقضي على التشيع فساعد على نشره

٢ - انظر مناقب ابي حنيفة للمكي ص ١١٧ وشرح النهج ج ٢ ص ١٧ .

واتساعه ، وقديما قيل اذا اراد انسان ان ينشر فضل انسان فليس عليه الا ان يمنع الناس من الحديث عن فضله ، وقال بعض الشعراء في هذا المعنى:

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

لقد عدوه من دهاة السياسيين وأقطابهم لانه نجح على أخصامه وساعدته اسباب ليست من صنعه بل هي من صنع الظروف التي كانت تحيط بالاسلام وقادته المخلصين القلائل ولو قدر له الفشل لكان من اسوأ الناس حالا بنظر السياسيين وأجهلهم بها .

وكما وصفوه بالسياسة والدهاء وصفوه بالحلم والعفو عن أخصامه ومناوئيه ، في حين انه كان يعاقب ويقتل على التهمة ولم يظفر بأحد من الموالين لأخصامه السياسيين الا ونكل به وجرحه اسوأ انواع الاذى والعذاب ، وأصدر امرا لولائه بمطاردة جميع المتهمين بالتشيع ومصادرة ممتلكاتهم وأرزاقهم ، وقتل فيمن قتل من آلاف القتلى الابرياء جماعة من أعيان الصحابة والتابعين كحجر بن عدي وأمثاله فأين الحلم الذي كان يتصف به ابن آكلة الاكباد وأي فرق بينه وبين امه التي ظلت بعد معركة بدر تتحين الفرص لتشفى من محمد وأصحابه حتى اذا أتيج لها ذلك مثلت بعمه الحزمة بما لا يمكن ان يدخل في حساب احد من الناس وبعد ان تمكن رضيعها وأصبح الامبراطور الاوحد دون مزاحم ورقيب كان عليه لو كان يحمل ذرة من الانسانية والقيم والخلق ان يعفو ويصفح حتى عن اعدائه السياسيين ويعيد الى نفوسهم الهدوء والطمأنينة كما يفعل اكثر الساسة والحاكمين في كل عصر بعد ان ينتصروا على خصومهم وتتسق لهم الامور ، بدلا من نشر الخوف والذعر في قلوب المؤمنين والتنكيل

بالضعفاء والمظلومين •

لقد عفا امير المؤمنين عن عائشة ومروان بن الحكم يوم الجمل
وأعلن العفو العام عن جميع المقاتلين ولم يسمح لاحد من أنصاره الذين
ربحوا المعركة ان يمدوا أيديهم لشيء من أموال المهزمين ، وعفا عن ابن
الماص وبسر بن اوطاة في صفين بعد ان اصبحا تحت رحمة سيفه ،
وسقى معاوية وجيشه الماء بعد ان منعه معاوية عن اهل العراق حينما كان
مسيطرا عليه •

لقد كان معاوية حتى في عهد الامام (ع) يجهز الجيوش من الوحوش
الضواري كبسر بن اوطاة ومسلم بن عقبة والضحاك بن قيس وغيرهم
ويأمرهم بنزو المقاطعات الخاضعة لحكم الامام ويقتل الشيوخ والاطفال
والنساء فيتسللون حيث يوجههم كاللصوص والقراصنة حتى اذا ظفروا لا
يتركون حرمة الا اتهموها •

فقد حدث سفيان بن عوف الغامدي وهو احد قواده العسكريين فقال:
دعاني معاوية وقال : اني باعثك بجيش كفيف ذي اداة وجلادة فالزم لي
جانب القرات حتى تمر بهيت فتقطعها فان وجدت بها جندا فأغر عليها
وامض حتى تغير على الانبار فان لم تجد جندا فامض حتى تنوغل في
المدائن ان هذه الغارات يا سفيان على اهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح
كل من له هوى فينا منهم واقتل من لقيته ممن هو ليس على مثل رأيك
واضرب كل ما مرت به من القرى ، واحرب الاموال فان حرب الاموال
وسلبها شبيه بالقتل وأوجع للقلب •

وامثل الغامدي أمر سيده ابن هند وحمل بخيله على الآمنين وملا
البيوت والأزقة من جثث القتلى ورجع بما وجده من أموال المسلمين الى
قصر الخضراء في دمشق وهو يقول : ما غزوت غزوة أقر للميؤن وأمر على
النفوس من هذه الغزوة •

ودعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري احد قواده وقال له : سر على اسم الله حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب على طاعة علي (ع) فأغر عليه واقتله ، ونفذ الضحاك أمر سيده وأسرف في قتل الآمنين والفتك بهم والسلب والنهب وقتل كل من وجده في طريقه وأغار على قافلة في طريقها للحج فأخذ ما معهم من الامتعة وقتل جماعة منهم عمرو بن عيسى بن مسعود ابن اخ عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله (ص) .

وأرسل بسر بن ارطاة في جيش الى مدينة الرسول وكان بسر سفاكا فظا قاسي القلب على حد تعبير ابن ابي الحديد في شرح النهج وقال له : سر بمن معك حتى تمر بالمدينة فأخف من تمر بهم واطرد الناس من البيوت وانهب كل ما فيها من الاموال وأخبر اهل المدينة بأنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ، ولما دخل ابن ارطاة المدينة تهددهم وتوعدهم بالقتل وأحرق بيوت من كانوا على غير رأيه من ابناء المهاجرين والانصار وكان معاوية قد اوصاه ان يقتل شيعة علي حيث كانوا وبعد ان قتل جماعة من اهل المدينة خرج منها الى مكة وكان الوالي عليها لعلي (ع) قثم بن العباس فخرج منها هاربا ودخلها بسر بن ارطاة فقتل جماعة وأحرق دورهم واستولى على اموالهم وأخذ البيعة من اهلها لمعاوية .

وجاء في المجلد الاول من شرح النهج انه قتل طفليين لعبيد الله بن العباس وهما سليمان ودادود وكانا في مكة ، مع اخوالهما من بني كنانة، وفي رواية ثانية انه قتلها في صنعاء حيث كان والدهما عبيد الله واليا عليها لعلي (ع) وكان قد فر منها حين دخلها الفزاة فقبض بسر على الغلامين وذبحهما وأمهما تنظر اليهما فصارت كالمدهوشة لا تملك من امرها شيئا وكان يجتمع اليها الناس وهي تندبهما بقولها :

ها من أحس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من أحس بابني اللذين هما سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطف
ها من أحس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
نبئت سرا وما صدقت ما زعموا من قتلهم ومن الافك الذين اقترفوا
انحى علي ودجي ابني مرهفة مشحودة وكذاك الاثم يقترف
من ذل والهة حمري مسلبة على صبيين ضلا اذ مضى السليف

ومضى ابن ابي الحديد في شرحه يقول : لقد بلغ عدد الذين قتلهم
بسر بن ارطاة في غزوته تلك ثلاثون الفا عدا من احرقهم بالنار ولما رجع
الى معاوية وقص عليه اخباره قرب به اليه ورفع منزلته ، وأضاف الى ذلك
في شرح النهج : وكما فعل بسر بن ارطاة لمعاوية في المدينة ومكة من قتل
وتخريب واحراق فعل مسلم بن عقبة بأمر يزيد بن معاوية في المدينة فقتل
الرجال والنساء وأباحها ثلاثة ايام لمن معه من الجيش وانتقل منها الى مكة
فحاصرها وقتل فيها كل من لم يكن مواليا ليزيد بن معاوية وهدم جانبا
من الكعبة بعد ان التجأ الناس اليها خوفا على دمائهم وأعراضهم ممن
الامويين ^(١) الى كثير من جرائم معاوية التي ارتكبها قبل عام الجماعة
وبعده بدافع من حقه على الاسلام وحماته ودعائه ، ومع ذلك فقد كانوا
يتباهون بحكمه ويضربون به الامثال كما جاء في المجلد الثالث من شرح
النهج وغيره ^(٢) .

في حين ان المتتبع لتاريخه يجده مشحونا بالامثلة على انه كان يتشفى
ويلتذ بالتشكيل بالابرياء وقتل الصلحاء ومطاردتهم وممارسة جميع وسائل
الارهاب وحقق لاشياخه وأسرته جميع ما عجزوا عن تحقيقه خلال

١ - انظر ج ١ من شرح النهج ص ١٢٠ و ١٢١ .

١ - انظر ص ٧٧ من المجلد المذكور .

حروبهم لمحمد (ص) ورسائله خلال عشرين عاما او تزيد . وقد اعتاد الناس ان يرسلوا أحكامهم على الاشخاص من زاوية النتائج التي حصلوا عليها ، اما كيف حصلوا عليها فذاك لا يعنيهم ، وأحيانا يبحثون عن المبررات المشروعة ويتحلونها لهم .

وفي ضوء هذا الواقع الذي يعيشه الناس منذ اقدم العصور عدوا معاوية من دهاء السياسيين وكانوا يضربون المثل بحكمه ويقولون له ما يشتهي لا شيء الا لانه حكم الناس وسيطر على أمور المسلمين بالقوة والخداع والاحتيال وقد وصف بعض الشعراء هذا الواقع بقوله :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل
لقد كان ما يسمونه بعام الجماعة بداية لمهد جديد وتحول في تاريخ الاسلام ومسيرته توالى فيه الكوارث والحن على الاسلام والمسلمين ودعائه المخلصين لمبادئه ورسائله ، بداية لمهد تحول فيه الاسلام من محتواه الرسالي على يد معاوية الى ملك قيصري وكسروي كان النبي (ص) يترقبه ويتخوف منه ويؤكد على المسلمين ان يكونوا في منتهى اليقظة والحذر ويقفوا صفا واحدا في مقابل تلك الطغمة الحاكمة ويقتلوا معاوية اذا رأوه على منبره ، حيث قال ، كما جاء في تاريخ بغداد للخطيب وتهذيب التهذيب لابن حجر وتاريخ الطبري وكنوز الحقائق للمناوي وميزان الاعتدال للذهبي وغيرهما : اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه ، وحينما رأى ابا سفيان على جمل وابنه يزيد يقوده ومعاوية يسوقه قال : لعن الله الراكب والقائد والسائق .

كما جاء في تاريخ بغداد وتفسير الطبري وأسد الغابة ان النبي (ص) رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة والخنازير فاتبته من نومهم مبهوما مغموما فنزلت عليه الآية :

«وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فبني

القرآن^(١)» الى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تؤكد ان النبي (ص) كان قلقا على مصير الاسلام من بني أمية وحرصا على ان يبعث فبسي النفوس روح الحذر واليقظة وأن يكونوا في المستوى المطلوب عندما تصبح السلطة في تصرف تلك الفئة الباغية الحاكمة على الاسلام وحماته والمخلصين له ممن وتروا قريشا بقادتها وزعمائها وأبنائها خلال معاركهم مع الاسلام في بدر وأحد والاحزاب وغيرها من المعارك .

وكانت حكومة معاوية بداية لذلك العهد الاسود الذي يسمونه بعام الجماعة بعد ان اضطر الامام ابو محمد الحسن بن علي (ع) للتخلي عن الحكم حرصا منه على مصلحة المسلمين ، وبعد ان وقف بنفسه على جميع المؤامرات والتدابير التي أعدها معاوية للقضاء عليه وعلى اخوته وأهل بيته والصفوة المختارة من قادة جيشه وأنصاره الذين لم يستجيبوا لتهديدات معاوية ولا لمغرياته .

لقد اتخذ سليل أمية جميع التدابير للقضاء عليه وعلى تلك الحفنة الكريمة من ذويه وأنصاره بواسطة العراقيين انفسهم ، ولم يكن الامام بخيلا بنفسه واخوته وذويه من عشيرته وأنصاره لو كانت تضحيتة تخدم الاسلام وتفضح مخططات الامويين ومواقفهم المعادية له ، ولكن معاوية كان قد اتخذ جميع الاحتياطات وأعد لكل امر عدته بوسائله الخاصة التي تبرئه من مسؤولية قتله لدى الرأي العام الاسلامي فيما لو رفض الامام فكرة الصلح ، وكان الامام على علم بكل ذلك وبرسائل قيادة جيشه ورؤساء القبائل الذين اشترى منهم دينهم وكتبوا الى معاوية يشعرونه بطاعتهم العمياء واستعدادهم لتسليمه الامام مكتوبا اذا اقتضى

٢ - انظر ص ٦ و ٧ من مقتل الحسين (ع) للسيد عبد الرزاق
القرن الطبعة الرابعة .

الامر فاضطر بعد ذلك كله لاتخاذ الموقف الذي تمليه مصلحة الاسلام وفوت على معاوية جميع تدابيرہ وتنازل له عن السلطة بعد ان ارسل اليه معاوية صحيفة يضاء موقعة منه ليضع فيها الشروط التي يراها كما جاء في تاريخ الطبري وغيره (١) فوضع فيها الامام شروطه وكان من ابرزها العمل بما جاء به الاسلام ومقاومة الظلم والظالمين وأن لا يتعرض معاوية وأنصاره لاحد من شيعتهم بسوء ولا يشتتم عليا في قنوت صلاته وغيرها كما كان يفعل ، وأن يعامل جميع المسلمين على اختلاف احسابهم وأنسابهم وألوانهم بالرفق والعفو ، وأن تكون الخلافة من بعده السي الامام الحسن ومن بعده لآخيه الحسين وينتهي دور الامويين بالنسبة اليها بوفاته ، ولا يحق له ان يمهدها لاحد او يمهدها لغيره كائنسا من كان (٢) .

ويدعي اكثر المؤرخين انه استثنى ما في بيت مال الكوفة لنفسه واشترط لآخيه الحسين مبلغا من المال في كل عام ، ومع اني أشك في هذا الشرط ولم تتوفر لدي من المصادر الموثوقة ما يؤكدہ ، فلو صح فلا بد ان يكون استثنائه لصالح المسلمين لعلمه بأن القسم الاكبر من خزينة الدولة سيذهب الى اولئك الذين ساوموه ومهدوا له الامور وساعدوه على استلام السلطة لقاء ما وعدهم به من الاموال والمراكز . وبلا شك فان الامام ابو محمد الحسن (ع) كان يهمل من تلك الشروط ان تسير الامور في طريقها الصحيح ويبقى للاسلام وجهه

١ - انظر العراق في ظل العهد الاموي لعلي حنين الخرطوبلي ص ٧٠ .
 ٢ - انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ وابن كثير والاصابة والامامة والسياسة لابن قتيبة وابن ابي الحديد في شرح النهج وقد نقل عن هؤلاء جميعهم المرحوم العلامة السيد محمد جواد فضل الله في كتابه صلح الحسن ص ١١٤ و ١١٥ .

المشرق وأن يتوقف معاوية عن ملاحقة المواليين لامير المؤمنين ومطاردتهم وعن سب علي وشتمه وأن لا تكون الخلافة ملكا لبني أمية يرثها صبيانهم كما يتوارثون متروكات آبائهم وأمهاتهم وأن تعود بعد معاوية لاصحابها الشرعيين ، اما الاموال التي يدعي بعض المؤرخين بأنها كانت من جملة الشروط التي تم عليها الاتفاق فلا أستبعد بأنها من صنع الكذبة الذين كانوا يروون للحاكمين ما يشاءون ويشتهون ، والغرض من اقام هذا الشرط بين بنود الاتفاق التشنيع على الامام واتهامه ببيع الخلافة كما كان المنصور العباسي وغيره من سلاطينهم ينعثونه بذلك حيثما توالى عليهم اتفادات العلويين وأقضت مضاجعهم •

ولم يكتف الامام ابو محمد الحسن بالاتفاق الموقع من معاوية بل اخذ عليه العهد والمواثيق بحضور حشد كبير من اهل الشام والمراق بتنفيذ جميع البنود والشروط بمتهى الدقة والامانة ، ولا اظن ان الامام (ع) كان يظن او يترقب وفاء معاوية والتزامه بما عاهد الله عليه بل كان كما أرجح يعلم بأنه سوف لا يفي بشيء منها ، ولكنه اراد ان يضعه تجاه امر واقع ويبين للعالم ان الامويين كحاكمين ومحكومين لا يلتزمون لا بالاسلام ولا بما تفرضه الاعراف الدولية من الالتزام بالمعاهدات والاتفاقات حرصا على الروابط الاجتماعية وحفظا للنظام العام ، كما وان الاسلام نفسه قد اهتم بهذه النواحي اهتماما بالغا وأكد رعاية العهد والوفاء بها فقال سبحانه : وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا • وقال في الآية من سورة الانفال «وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق» •

فلقد دعت الآية جميع المسلمين الى ان يهبوا الى نصره اخوانهم في الدين اذا استنصروهم ما لم يكن بينهم وبين المشركين عهد وميثاق فعليهم والحال هذه احترام عهودهم ومواثيقهم •

وقال امير المؤمنين (ع) في عهده لملك الاشتر حينما ولاه مصر وأرسله اليها : وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة او ألبسته منك ذمة فأحط عهذك بالوفاء واراع ذمتك بالامانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود فلا تغدرون بذمتك ولا تخيبن بعهدك ولا تختلن عدوك (١) ولا يدعوك ضيق امر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق .

ولهذا النص الداعي الى الوفاء والكرامة والقيم الانسانية أمثال في نهج البلاغة يؤكد فيها الامام (ع) على اصحابه وقادة جيشه وجسوب الالتزام بالعهود والمواثيق وجميع النواحي الانسانية مع أخصائهم من اي نوع كانوا ولا يجعلوا من العهود مع اعدائهم فرصة للغدر بهم بل يفرض عليهم المحافظة على عهودهم بصدق واخلاص حتى في الحالات التي يستفيدون فيها من الغدر ونقض العهود ، ويرى ان جميع العلاقات بين الناس ولو كانت بين المسلمين وغيرهم يجب ان تقوم على المبادئ الاخلاقية والانسانية التي تجمع وتؤلف وتشد الناس بعضهم الى بعض ، اما الغدر ونقض العهود والمواثيق ولو كانت تجر من ورائها مغنا وتصنع انتصارا فلا يقرها الاسلام ولا يراها انتصارا ولذلك كان (ع) يقول :
الغالب بالشر مغلوب .

لقد نظر النبي (ص) الى معاوية من وراء الغيب على منبر علي (ع) في الكوفة لأول مرة بعد تلك العهود والمواثيق التي عاهد الله والمسلمين على الوفاء بها ، وهو يقول بدون حياء ولا خجل : اني ما قاتلتكم لتصوموا

١ - ختل عدوه اي خدعه وغدر به .

ولا لتصلوا بل قاتلتكم لأتأمركم عليكم وقد اعطاني الله ذلك ، وان كل شرط وعهد اعطيتهما للحسن بن علي فهما تحت قدمي هاتين لا أفي له ولا لغيره بشيء منه . لقد نظر اليه وهو على منبره يتحدث ببلغة الطفاسة والجبايرة وبحضور سبطه الحسن بن علي (ع) وحشد كبير من المسلمين، فلعنه وقال : اذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه .

ولكن المسلمين بدلا من ان ينفذوا وصية رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى ويقتلوا معاوية عدو الاسلام ومن جاء بالاسلام ، والذي فرض سب علي وشتمه على منابر المسلمين وهدد وتوعد من لم ينفذ اوامره ويتبرأ من علي وبنيه وشيعته وأنصاره وهو يعلم انه يسب ويلعن رسول الله لانه سمع النبي هو وغيره من المسلمين يقول في عدد من المناسبات : من سب عليا فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ، بدلا من ان ينفذوا وصيته بمعاوية فقد مهدوا له الطريق الذي أوصله الى منبره وساعدوه على ابن عمه امير المؤمنين وقتل سبطيه الحسن والحسين والتنكيل بمن رفضوا لعن علي والبراءة منه وثاروا على الظلم والظفان كحجر بن عدي وأصحابه البررة الكرام ورشيد الهجري وميثم التمار وعمرو بن الحمق الخزاعي وسعيد بن جبير وغيرهم من آلاف الصالحاء الذين آثروا الموت والشهادة في سبيل المبدأ والعقيدة .

لقد لعنه رسول الله (ص) وأمر بقتله لانه سمعه من وراء الغيب ومن على منبره بحضور عشرات الالوف من مسلمي بلاد الشام وغيرها يفترى عليه ويقول : ايها الناس ان رسول الله (ص) قال لي : انك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الارض المقدسة فان فيها الابدال وقد اخترتكم فالعنوا ابا تراب .

فأخذ الناس يلعنونه ومضى على ذلك هو وعماله وأنصاره ، وكان يقول في خطبته يوم الجمعة : اللهم ان ابا تراب قد ألحد في دينك وصد

عن سبيك فالعنه لعنا ويلا وعذبه عذابا أليما (١) هذا بعد ما عاهد الله على ان لا يذكره وولده بسوء .

وقد بالغ هو وعماله في الامصار في فرض هذه الجريمة على المسلمين حتى اصبحت من اجزاء صلاة الجمعة وأركانها ، وبلغ من اسرافهم في المحافظة على التزام المسلمين بها ان بعض خطبائهم نسي لعن علي في خطبة الجمعة وتذكر انه نسي هذا الامر وهو في السفر فوقف بمن كان معه وشتم عليا بالالفاظ والكلمات التي اعتادوا ان يذكروه بها فبنسوا مسجدا في ذلك المكان المبارك وسماه مسجد الذكر (٢) .

وبلغ الحال بأحد عملائهم خالد بن عبد الله القسري يوم كان واليا لعبد الملك بن مروان على مكة والمراق انه كان في خطبة الجمعة يسب عليا والحسن والحسين ويذكرهم بأسمائهم ، وأحيانا حينما يذكر امير المؤمنين (ع) يقول : صهر رسول الله (ص) على ابنته وأبا الحسن والحسين ويلتفت الى المجتمعين تحت منبره قائلا : هل كنيت ؟

وجاء عن الحافظ السيوطي انه كان في ايام بني أمية اكثر ممن سبعين الف منبر يسبون عليها علي بن ابي طالب (ع) نتيجة لتلك الخطة التي وضعها معاوية بن ابي سفيان وفرضها في الاوساط الاسلامية بالمال والسلاح ، وبهذه المناسبة يقول احمد حفطي الشافعي في ارجوزته :

وقد حكى الشيخ السيوطي انه قد كان فيما جعلوه سنة
سبعون الف منبر وعشرة من فوقهن يلعنون حيدرة

١ - شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٣ ص ٣٦١ والنصائح الكافية ص ٧٢ عن ابي عثمان الجاحظ في كتابه الرد عن الامامية كما جاء في المجلد الثاني الامام الحسين للقرشي .

٢ - الامام الحسن عن مقتل الحسين للمقرم ص ١٩٨ .

وهذه في جنبها العظائم تصغر بل توجه اللوائسم (١)
لقد رأى النبي (ص) بني أمية ينزون على منبره كما تنزو القردة
والخنازير والمدلول الواضح لهذه الرؤيا انهم يتوارثون الحكم خلفا عن
سلف وتصبح السلطة وراثية في بني أمية فراحه ذلك وجاءت الآية لتؤكد
رؤياه او نبوءته فلعنهم وحذر المسلمين بما سيلاقونه من اولئك العلمان
الذين يشبهون القردة والخنازير ، وظل النبي طيلة حياته يعاني ويتلوى
من المصير السيء الذي ينتظره الاسلام من تلك الفئة الباغية لانه لم ير
رؤيا الا جاءت كفلق الصبح وقد اكدتها الآية وشبهت بيت أمية
بالاشجار الملعونة التي تحمل أخبث الاثمار وأمرها مذاقا وأكثرها
ضررا على الناس» .

لقد سبق في علم الله سبحانه ان الامة ستختار لنفسها هذا المصير
وتولي قيادتها تلك العصابة على التوالي ورآهم النبي (ص) ينزون على
منبره كالقردة والخنازير فتجسدت لديه المخاطر وتملكه الخوف والقلق
على مصير الاسلام والمسلمين وأكدت له الآية كما اشرنا الى ذلك من قبل
ما رآه في نومه وان بني أمية سيتعاقبون على منبر الاسلام خلفا بعد
سلف ولازم ذلك ان معاوية سيجعلها من بعده لولده التاجر المستهتر
سلف ولازم ذلك ان معاوية سيجعلها من بعده لولده الفاجر المستهتر
بالقيم والاعراف وجميع ما جاء به الاسلام ، وليس لدى معاوية ما يمنعه
من ذلك اسلاميا وأخلاقيا ، فأمية لم يخالط الاسلام نفوسها ولا عقولها،
كما عبر عن ذلك زعيمها ابو سفيان في اليوم الذي انتقلت الخلافة فيه
الى سليل بيته عثمان بن عفان ، ولم يحدث التاريخ عن قادة تلك الاسرة
وحكامها انهم التزموا بشيء من المبادئ الاخلاقية والانسانية التي وضعها

الاسلام لتكون اساسا لبناء المجتمع الاسلامي الذي يقوم على الوفاء
بالحقوق واحترام الانسان لآخيه الانسان مهما كان لونه وجنسه
والالتزام بجميع العهود والمواثيق والوعود ، ولو كان نقضها يجبر من
ورائه مغنما ويصنع انتصارا .

ان ما تسميه الاديان والناس والاعراف غدرا وخيانة ونكثا وفتكا
وما الى ذلك مما حرمه الاسلام وغيره من الاديان والقوانين الدولية
والاعراف لا وجود له في قواميس قادة هذا البيت وهو من نوع اللغو
والهراء وكل شيء عندهم حسن ومباح ما دام يجبر مغنما ويدر عليهم
أرباحا ، وقد ضرب معاوية بن هند عشرات الامثلة على ذلك من سيرته
وسياسته .

وكان من جبلتها لا من أواخرها موقعه من الوثيقة التي وقعها
بخط يده وأشهد قادة الجيشين عليها وعاهد الله والاسلام اكثر من مرة
على الوفاء والالتزام باخلاص وأمانة بكل بنودها وبخاصة ما كان منها
يتعلق بسب علي (ع) وعدم التعرض لشيعة ورجوع الخلافة الى الإمام
الحسن ومن بعده لأخيه الحسين اللذين نص النبي (ص) على امامتهما
مرات عديدة بحضور عشرات من الانصار والمهاجرين حتى اصبح حديث
امامتهما من المسلمات الذي لا ينكره الا من سخرهم معاوية لانكسار
الضرورات الاسلامية واختلاق الاحاديث في فضله وفضل المناوئين
للإسلام وحماته من اسرته .

هذه الوثيقة بعد ايام قلائل من توقيعها وضعها تحت قدميه وهو على
منبر رسول الله وقال : ألا وان كل شرط اعطيته للحسن بن علي هو تحت
قدمي هاتين لا أفي له بشيء منه ، واتجه الى الحشود المجتمعة من اهل
الكوفة وقال : اني ما قاتلتكم الا لأتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك
وأنتم له كارهون .

ان النبي (ص) رآهم ينزون على منبره كالقردة والخنازير والنبي لا ينطق عن الهوى ، وكان معاوية الاول او الثاني من فروع تلك الشجرة الذين رآهم النبي من وراء الغيب ينزون على منبره ، ولا بد وأن ينزو من بعده ولده يزيد بن ميسون وهو منذ الايام الاولى لعام المحنة مصمم على ان يمكنه من منبر رسول الله ويجعلها له من بعده ، بالرغم من انه كان منبوذا ومكروها من اكثر المسلمين وبخاصة ممن كان يومذاك على قيد الحياة من المهاجرين والانصار ، لانه كان مستهترا بالاسلام بكل ما في الاستهتار من معنى ومنصرفا الى العادات والاخلاق البدوية البعيدة عنه ، ومرد ذلك كما يرى جماعة من الكتاب الى تأثره بمعشر سكان البادية وبالمسيحية التي تغلب على اهلها ، وقد نشأ فيها مع امه المفرقة في البداوة والتي كانت تفضل سكنى الخيام على القصور وخبز الشعير على اطياب الطعام ، وحينما تركها معاوية ورجعت الى اهلها في البادية ترك لها ولدها يزيدا وكان صغيرا فنشأ بينهم وغلبت عليه جميع عاداتهم كالصيد والغناء وشرب الخمر وما الى ذلك من مظاهر الجاهلية والبوادي ، وقد ورث من أمة البغضاء والكره للهاشميين والانصار ، وكان يتجاهر بذلك بدون تخرج ويتمنى لو يتاح له الانتقام لأسرته .

ويعزو بعض الكتاب هذه الظاهرة الى انها من آثار تلك العقيدة الدفينة التي خلفتها في نفسه حروب اسرته لمحمد والمسلمين وما حل بأسرته وأخواله فيها ولم يكن ليغيب عنه ان جدته هند ظلت تنماهم وتندبهم لمدة طويلة وقد اقتخرت على النساء في سوق عكاظ بعظم ثكلها وشدة حزنها على من فقدتهم في تلك المعارك ^(١) .

وقال الدكتور طه حسين في كتابه الادب الجاهلي : ان يزيد بن

معاوية كان صورة صادقة لجده ابي سفيان بن حرب في استخفافه بالاسلام واثاره العصيات القبلية على كل شيء وهو صاحب وقعة الحرة التي قتل فيها من الانصار وأبنائهم اكثر من ثلاثين الفا ومن بينهم ثانون من الذين أذلوا قريشا وأسرته في بدر وغيرها من المعارك ، وقد انتهك فيها حرمت الانصار في المدينة وأباح نساءهم وأموالهم لجيشه (١) .

وكان معاوية يعرف كل ذلك عن ولي عهده ووارث عرشه ويعرف ان عملا من هذا النوع سيصطدم بكثير من الصعاب والعقبات فراح يعمل بجهد واجتهاد على تذليلها ولم تكن مطاردته للشيعة وملاحقتهم بكسل انواع الاذى الا من ضمن ذلك المخطط كما كان من جملته بذل الاموال والوعود المغرية لزعماء العراق وقادة المسلمين وعقد مؤتمرا كما جاء في رواية ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة دعا اليه جماعة من خلصائه وأنصاره فلم يجد تجاوبا مشجعا له الا من المغيرة بن شعبة الذي اراد ان يستعيد مركزه في الكوفة وقد كان معاوية قد اتخذ قرارا بعزله عنها وتوليها لسعيد بن العاص ، فقال له : لقد رأيت يا امير المؤمنين ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد خلف فاعقد له فان حدث بك ما حدث كان كهفا للناس وخلفا لك ، فقال معاوية : ومن لي باتمام هذا الامر ؟ فرد عليه المغيرة بقوله : انا اكفيك اهل الكوفة ويكفيك زياد اهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين احد يخالفك ، فأرجعه الى الكوفة ليمهد له الامور فيها فرجع اليها وقال : لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وقتقت عليه فتقا لا يرتق ابدا (٢) .

اما زياد بن ابيه فقد كان من بين عماله الذين لم يشجموه على هذا

١ - الادب الجاهلي ص ١٣٦ .

٢ - انظر المجلد الثالث من تاريخ ابن الاثير ص ١٩٨ .

الامر ونصحوه بالتروي وعدم الاقدام على عمل من هذا النوع لعلهم بما ليزيد من المكانة السيئة عند عامة المسلمين ، وجاء في كتاب زياد معاوية: ان امير المؤمنين كتب الي يزعم انه قد عزم على البيعة ليزيد من بعده وهو يتخوف الناس ويرجو مساعدته على ذلك ، ومضى يقول : ان يزيدا يا امير المؤمنين صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد وشرب الخمر وغيره من المنكرات ويعرف عنه ذلك الجميع وأرى لك ان تنتظر المناسبات ، وأوصى الرسول الذي حمل اليه الكتاب ان ينصحه بالتروي والتؤدة في هذا الامر على حد تعبير الرواة والمؤرخين .

ورأى معاوية ان يذهب الى الحجاز معقل المسلمين الاوائل وفيها من بقايا الصحابة وأبنائهم وذوي الرأي والبصيرة جماعة تتطلع اليهم الانظار وتهفو نحوهم القلوب فذهب الى يثرب سنة ٥٠ من الهجرة ليختبر نواياهم ويرى ما عندهم بخصوص هذا الامر الذي اصبح شغله الشاغل ، ووجد من الجميع ما يشبه الاجماع على المعارضة ، وتكلم باسم الجميع عبد الله ابن الزبير كما في رواية الامامة والسياسة لابن قتيبة ، وكان غنيفا في رده على معاوية .

وجاء فيه : ان الخلافة يا معاوية لقريش لا تنالها الا بمآثرها السنية وأفعالها المرضية مع شرف الآباء والامهات وكرم الابناء ، فاتق الله وانصف من نفسك فان في المسلمين عبد الله بن العباس ابن عم الرسول وعبد الله ابن جعفر بن ذي الجناحين وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وقد خلف علي بن ابي طالب حسنا وحسينا وأنت وجميع المسلمين تعلمون من هما وما هما ، ومضى يقول : فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك ، ولم ير من بقايا الصحابة ولا من ابناء المهاجرين والانصار ما يشجعه على المضي في اعلان ولده الخليفة وليا لعهده فرجع من الحجاز كاليأس منهم وفي الوقت ذاته فهو لا يأمن اهل العراق وأكثرهم من

الشيعة وبينهم عدد كبير من الزعماء والقادة لا يفضلون على الحسن احدا ولا يرضون بغيره .

وكان معاوية على يقين من ذلك، وحينما اجتمع بالاحنف بن قيس وكان الزعيم الاول الذي ترجع اليه قبيلة تميم في جميع مشاكلها ولا تعصي له امرا وعرض عليه معاوية ولاية العهد ليزيد من بعده رد عليه قائلا : لقد علمت يا معاوية بأنك لم تفتح العراق غنوة ولم تظهر عليهما تعصبا ولكنك اعطيت الحسن بن علي من العهود والمواثيق ما قد علمت ليكون له الامر من بعدك فان تف فانت اهل الوفاء وان تغدر فانت تعلم ان وراء الحسن خيولا جيادا وأذرا شدادا وسيوفا حدادا وان السيوف التي قائلناك بها لفي اغمارها والقلوب التي ابفضناك بها لفي صدورنا وان تدن من الحرب فترا نذن منها شبرا وإن تمش لها نهرول اليها ، وان تضمر له شبرا من غدر تجدد وراءه باعا من نصر ، ثم قام من مجلسه وخرج، وتضيف الرواية ان اختا لمعاوية كانت من وراء الستار تسمع ما جرى بين الاحنف وأخيها فقالت : يا امير المؤمنين من هذا الذي يهدد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي اذا غضب غضب لغضبه مائة الف من تميم ولا يسألونه لماذا غضبت (١) .

وكان غيره من زعماء العراق كمدي بن حاتم وحجر بن عدي وصعصعة ابن صوحان وعمر بن الحقيق الخزاعي وقيس بن سعد بن عبادة وعشرات الزعماء يحملون نفس الروح التي يحملها الاحنف ، وكانوا في تحرك مستمر ويتصلون بالامام ابي محمد بين الحين والآخر ، وجلهم كانوا يرغبون اليه ويعرضونه على حرب معاوية والرجوع الى الكوفة ورفض

١ - الامامة والسياسة ج ١ ص ١٧٥ والامام الحسن المجلد الثاني للقرشي عن وفيات الاعيان لابن خلكان والامامة والسياسة لابن قتيبة .

الوثيقة التي وضعها معاوية تحت قدميه وأعلن عن عدم استعدادده للوفاء بشيء منها ، وكان هو من جانبه يردهم ردا جميلا ويرد على كل فئة بما تستوعبه من تقييم للأحداث ولمواقفه وأحيانا يكشف لبعضهم عن تلك الدوافع التي املتها عليه مصلحة الاسلام في اتخاذها لهذا الموقف .

واستطاع بعد حوار طويل ان يقنع البعض من اولئك القادة ان الحرب التي تخلى عنها لم تكن لمصلحة الاسلام ولا لمصلحتهم لان اهل العراق اكثرهم سيقفون الى جانب معاوية وليس امامه وامامهم لو مضى في حربه لمعاوية الا احد امرين : اما القتل مع اخوته وبني عمومته وخلص اصحابه او الاسر وكلاهما يخدمان مصلحة معاوية ، فالقتل وهو اقرب الاحتمالين يؤدي الى ذهاب دمه هدرا ومعاوية هو وأعوانه يملكون من اساليب المكر والخداع والمراوغات ما يكفيهم لتضليل الرأي العام وتغطية جريمتهم ، ولا أقل من تشويه الصورة التي أقدم فيها على التضحية كي لا تعطي شهادته ثمارها المرجوة كما اعطت شهادة اخيه الحسين (ع) .

وكما كان الامام ابو محمد الحسن يعلم بذلك كان يعلم بأن جميع شروطه وعهوده سوف لا يلتزم بها معاوية وسيضعها تحت قدميه كما فعل، ولكنه اراد ان يفضح مخططات الامويين وعداءهم للسافر للاسلام وحماته كما ذكرنا ، وقد اتصر بثورته الصامته التي كانت أجدى للاسلام ورسالة محمد بن عبد الله (ص) من الثورة بالسيوف والرماح وكشف بذلك المطامع الاموية وأحقادها الدفينة وعراها من كل اقنعتها التي كانت تضلل بها العامة والرعاع من الناس ، ولم يكن معاوية واضحا قبل ذلك ، بل كان يحاول ان يبرر كل موقف من مواقفه التي كانت تثير الريب والشكوك بأعذار مشروعة ولو لدى الطبقات العامة من المسلمين ، ويجد من بعض الصحابة والطامعين من يسهل له ذلك .

لقد استطاع الامام الحسن اقناع اولئك الثائرين من خلس اصحابه

وشيعته بأن الموقف الذي اتخذه من معاوية لم يكن له بديل عنه وخلدوا الى الهدوء والتروي والآمال تراودهم بأن تعود الخلافة الى الحسن (ع) بعد معاوية الذي اصبح على أعتاب الثمانين من عمره وكان معاوية يعلم بأن أكثر اهل العراق لا يرضون بولده الخليفة بديلا عن الحسن بن علي وانهم سوف لا يكونون أهون عليه من اهل الحجاز ، وأن وعود المغيرة بن شعبة لا تحل المشكلة ، وبعد تفكير طويل ومداولات مع خاصته وذويه تمخضت عن اتفاقهم على التخلص من الحسن بن علي (ع) .

وراح معاوية يفكر في ذلك ويظيل التفكير ويقلب الرأي على جميع وجوهه ويستعرض جميع الوسائل واتمى اخيرا الى كلمته التي ضربها مثلا للفتك والعدو وكان يتباهى بها احيانا عندما يتججج بالفتك فسي أخضامه ويقول : ان لله جنودا من العسل فقد اغتال مالك الاشر وهو في طريقه الى مصر واليا عليها لعلي امير المؤمنين (ع) بعد ان أغرى احد أنصاره ممن كانوا يسكنون الطريق التي لا بد للاشر من المرور بها بالوعود والاموال وأرسل اليه عسلا مسموما ليقدمه اليه عند نزوله في ذلك المكان وتم لمعاوية ما اراد كما اغتال كلا من محمد بن ابي حذيفة وعبد الرحمن خالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص بالسهم ، وجاء فسي مقاتل الطالبين انه لم يكن احد من خلق الله أثقل على معاوية من الحسن ابن علي (ع) وسعد بن ابي وقاص فدرس اليهما سما وماتا منه وكان موتهما خلال ايام متقاربة بعد ما مضى من امارة معاوية عشر سنين ^(١) .

وكان سعد بن ابي وقاص من أوفر المسلمين حظا بعد الحسن والحسين بنظر البقية الباقية من الصحابة وأبناء المهاجرين والانصار . ومع ان تاريخه مع علي امير المؤمنين (ع) لم يكن بريئا ومواقفه منه خلال

معاركه في البصرة وصفين مع الناكثين والقاسطين طليعة الخوارج لسم تكن زينة ، هذا بالاضافة الى تحيزه السافر يوم الثورى التي تمخضت عن خلافة عثمان ، ومع ذلك فلقد كان ينكر على معاوية تعرضه لعليسي وسبه في مجالسه وعلى منابر المسلمين ويندد به وبسياسته ولا يتحاشى جوره وظلمه .

وحدث المؤرخون ان معاوية حينما ذهب الى المدينة ومكة ليختبر موقف المسلمين من ولاية يزيد توجه الى دار الندوة فدخل عليه سعد بن ابي وقاص فأجلسه على سريره وشرع في سب علي (ع) فغضب سعد بن ابي وقاص والتفت الى معاوية وقال : لقد اجلسني معك على السرير وشرعت في سب علي والله يا معاوية لان يكون لي خصلة واحدة من خصال علي أحب الي من ان يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، وأخذ يعدد فضائل علي وما قاله الرسول (ص) فيه ، ثم قام من مجلسه وهو يقول : والله يا معاوية ما دخلت لك دارا ما دمت حيا (١) .

ومهما كان الحال فلقد عزم معاوية على تنفيذ خطه وأرسل الى ملك الروم يطلب منه سما فاتكا سريع التأثير كما يدعي جماعة من المؤرخين، فرد عليه بقوله : لا يصح في ديننا ان نعين على قتال من لا يقاتلنا ، فرد عليه بأن الرجل الذي نريد قتله هو ابن الرجل الذي خرج بأرض تهامة مدعيا بأنه رسول من الله ، وقد خرج يطلب ملك ابيه وأنا اطلب السم اليه لأريح منه العباد والبلاد ، فبعث اليه ملك الروم سما مميتا وراح معاوية بعد ان قطع هذه المرحلة يفكر فيمن يتولى هذه الجريمة فوقسم اختياره على زوجة الامام جمعة بنت الاشعث بن قيس المعروف بسموله لمعاوية وكان احد المتآمرين على قتل امير المؤمنين (ع) فأرسل السم الى

مروان بن الحكم عامله على المدينة وأمره بأن يتصل بها ويسئها بزواجها من يزيد ان هي استجابت لطلبه ويدفع لها مائة الف درهم ، وفي رواية مروج الذهب عشرة آلاف دينار او ضياعا من سواد الكوفة .

ولما عرض عليها مروان وعود معاوية ودفع لها الاموال استجابت لطلبه فأخذت منه السم ووضعت في الطعام الذي قدمته الى الإمام (ع) ولما دخل جوفه تقطعت امعاؤه وغاب عن الدنيا وحينما أفاق من غشيته والالم يبعث بأحشائه حمد الله سبحانه وشكره على لقاء جده سيد المرسلين وأبيه امير المؤمنين وأمه سيدة نساء العالمين وعمه وعم ابيه جعفر الطيار وحمزه سيد الشهداء والتفت الى جعدة وقال :

يا عدوة الله قتلتي قتلك الله والله لا تصيين بعدي خلفا ولقد غرك معاوية وسخر منك وسوف لا تنالين غير الخزي والعار ، ولقد اخزاها الله وأصبحت مضرب المثل للسوء والخزي والاثم والخيانة وصار الناس بعد ذلك يعيرون اولادها بجريمتها ويخاطبونهم عندما تحصل مشادة بينهم وبين احد من الناس بقولهم : يا اولاد مسمة الازواج .

وقد سخر منها معاوية ولم يف لها بما وعدها به وحينما طلبت الزواج من يزيد كما وعدها اجابها بقوله : انا نحب يزيدا ولن نسخر بحياته ، ولولا خوفنا عليه لوفينا لك بتزويجه .

وظل الامام (ع) يعاني من آثار السم اربعين يوما كما جاء في دائرة المعارف للبستاني وشرح النهج وفي حياة الحيوان للدميري قرابة شهرين حتى ذاب قلبه وجسمه من الالم وفي اللحظات الاخيرة من حياته دخل عليه الحسين (ع) ورآه يجود بنفسه فقال له : من سقاك السم يا اخي ؟ فرد عليه بصوت ضعيف قائلا : وما تريد منه أتريد ان تقتص لي؟ ان يكن الذي أظنه فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا ، وان لم يكن هو فما أحب ان يقتل بي بري .

والتفت الامام (ع) الى اهله وولده ومن كان حاضرا عنده وقال :
لقد سقيت السم مرارا وهذه المرة الاخيرة من أشدها وأكثرها ألما وفتكا
في أحشائي ، ومضى يقول : لقد لفظت من كبدي قطعة وجعلت ألقبها
بعود كان في يدي (١) .

ودخل عليه اخوه الحسين وهو يتململ ويتلوى من الألم فلما نظر
اليه بكى لحاله ولما يمانيه فنظر اليه وهو يصارع الموت وقال له : لا يوم
كيومك يا ابا عبد الله كأنني بك وقد ازدلف اليك ثلاثون الفا يدعون
بأنهم من أمة جدنا محمد يتحلون دين الاسلام ويجمعون على قتلك
وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك ونسائك وانتهاج ثقلك (٢) .
ان ما اخبر به الامام اخاه الحسين (ع) هو مما كان النبي (ص)
يخبر به عليا والصفوة الطاهرة من اصحابه وعلي عليه افضل الصلاة
والسلام أخبر عن بعض تلك المغيبات التي اتصلت للنبي (ص) عن طريق
علام الغيوب الذي لا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول وقد
شاعت اخبار واقعة الطف وما يجري فيها على العترة الطاهرة قبل وقوعها
بعدد من السنين وتناقلها الخواص من كرام اصحاب النبي وأمير
المؤمنين ، وكانت من افزع ما واجهته العترة الطاهرة بعد وفاة النبي (ص)
من الكوارث والخطوب فقد ذل فيها المسلمون وانتهكت كرامة الاسلام
وحرمات النبي (ص) وأدرك المسلمون بعدها أبعاد تلك الجريمة التكرار
وتأعجبا المريعة على الاسلام والمسلمين وراحوا يتلاومون ويتباكون على
تخاذلهم عن نصرته والوقوف الى جانبه في وجه ذلك الطاغية الخليع .
وكانت نهايتها المريعة بداية لاحداث وأحداث كان من أبرز آثارها

١ - انظر شرح النهج ج ٤ ص ١٧ .

٢ - البحار ج ١٠ ص ١٢٣ .

وتتأجها ان الحزب الاموي تكشف للرأي العام الاسلامي على واقعه الكريه المنصري الحاقد الذي يرجع الى عصور الجاهلية الحمقاء كما ساهم في ذلك موقفهم من اخيه الحسن (ع) .

وظلت تلك الفاجعة الاليمة المريرة تزود العدو والصديق وجميع المناوئين والطامعين في الحكم بالقوة والانصار حتى نهايتهم ، ولعلنا نتوفى لعرض موجز لبعض الجوانب من تلك الاحداث التي كانت معركة الطف من ابرز اسبابها في المحل المناسب من هذا الكتاب .

وعندما أحس الامام ابو محمد الحسن بن علي بدنو أجله اوصى الى اخيه الحسين (ع) وجاء في وصيته كما في المجلد الرابع من اعيان الشيعة والامالي للصدوق وغيرهما من المصادر الشيعية ان يدفنه مع رسول الله (ص) في بيته ، وان عارضه احد فقد ناشده بالله والقربة والرحم الماسة من رسول الله (ص) ان لا يريق بسببه محجمة من دم حتى يلقى الله ويخاصمهم عنده وان يدفنه في البقيع الى جوار جدته فاطمة بنت اسد (ع) .

ولما فاضت نفسه الكريمة وسمت الى الرفيق الاعلى لليتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة كما في اشهر الروايات ارتفع الصراخ والعيويل من بيوت الهاشميين وأكثر اهالي المدينة ، حتى ان ابا هريرة مع صلاته الوثيقة بالامويين خرج من بيته باكيا صائعا : ايها الناس لقد مات حبيب رسول الله (ص) فابكوه واندبوه (١) .

فهرع الناس نحو ثرى الامام (ع) وهم ما بين واجم وصائح ومشدوه ونائح على فقد الرجل العظيم الذي كان ملاذا وملجأ ومفرعا للجميع اذا نزلت بهم كارثة او حلت بهم مصيبة وكان تشييعه حافلا لم تشهد له نظيرا عاصمة الرسول (ص) وزحف الناس من قراهم المجاورة ليثرب ليشهدوا

١ - تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٠١ وتاريخ ابن عساکر ج ٤ ص ٢٢٧ .

تشيعه وبلغ من ازدحام الجماهير وتزاحمهم على جنازته ان ابرة لو طرحت على الموكب لما وقعت الا على رأس انسان كما جاء ذلك في الاصابة عن ثعلبة بن مالك (١) .

وحمل المشيعون جثمانه الشريف الى مسجد النبي على أطراف الانامل تحف به وجوه المسلمين وبقية الصحابة وتقدم الامام ابو عبد الله الحسين (ع) فصلى عليه في مسجد الرسول واثم به المسلمون على اختلاف طبقاتهم .

وفي رواية شرح النهج لابن ابي الحديد ان الحسين (ع) قدم الوالي على المدينة سعيد بن العاص للصلاة عليه وقال له : لولا انها سنة لمسا قدمتك ، وجاء في المجلد الثاني من تاريخ الخمين ان احدا من الامويين لم يحضر موكب التشيع سوى سعيد بن العاص واتجه الموكب بعهد الصلاة نحو المرقد النبوي لمواراته بجواره ، فتكفل الامويون وخرجوا بأسلحتهم وهم يقولون : يا رب هيجا هي خير من دعة أيدفن عثمان بأقصى المدينة ويدفن الحسن مع جده واستنجدوا بمائشة فأخرجوها على بغلة والتفوا حولها كما فعلوا مع امير المؤمنين في البصرة وقد اركبوها جبلا يومذاك ، ومضت نحو قبر النبي يحف بها الامويون وأنصارهم وهي تصيح : الله الله يا بني هاشم لا تدخلوا بيتي من لا احب او تجز هذه ، وأومأت الى ناصيتها وكادت الفتنة ان تقع لولا ان الحسين (ع) تدارك الامر عملا بوصية اخيه وصاح الناس من كل جانب وهم يقولون : يوما على جبل ويوما على بغل ، ولكن حقدتها على فاطمة بضعة الرسول وولدها وبعلا أقددها وعيها وشعورها وأصبحت كالدمية بيد الامويين اعداء الاسلام ومن جاء بالاسلام يتلاعبون بها كما يريدون ويشتهون ويسخرونها

لصالحهم وأهوائهم •

وقد انعطف نحوها ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر ليردعها عن موقفها الذي لا يخدم إلا أعداء الرسول (ص) قائلا : يا عمة أرجعي إلى بيتك الذي أمرك رسول الله (ص) أن تقري فيه والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر أتريدن أن يتحدث الناس عن يوم البغلة الشهباء وأقبل عليها عبد الله بن العباس وهو لا يبصر طريقه من الغضب وصاح بها يوما على جمل ويوما على بغل أتريدن أن تطفئي نور الله وتقاتلين أوليائه اليوم كما قاتلتهم بالامس ؟ والتفت إلى مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) وقال له : أرجع يا مروان بمن معك من حيث جئت فإننا لا نريد دفن صاحبنا عند رسول الله بل نريد أن نجدد به عهدا وندفنه عند جدته فاطمة بنت اسد كما اوصانا ، ولو اوصانا بدفنه عند جده لعلمت من هو اقصر باعا (١) •

واستطاع الامام ابو عبد الله الحسين (ع) ان يضع حدا للموقف المتأزم ويفوت على الامويين وصنيعتهم عائشة ما كانوا يهدفون اليه من وراء هذا الموقف الذي يعبر عن اشجع انواع الحقد والكراهية والتنكر لقائد مسيرة المحبة والسلام والرحمة •

واتجه بجثمان اخيه فواراه بالبقيع الى جانب جدته فاطمة بنت اسد وجلس على قبره باكيا حزينا يبل اديمه بدموعه ويقول :

أأدهن رأسي ام تطيب مجالسي وخسدتك معفور وأنت سليب
وأستمع الدنيا لشيء اجه الا كل ما ادنسى اليك حبيب

١ - انظر شرح النهج ج ٤ ص ١٨ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ٣٢٣ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٠٠ وروضة الواعظين ص ١٤٣ ومستدرک الحاكم وغير ذلك من المصادر التي تؤكد موقف السيدة عائشة من جنازة الامام •

سأبكيك ما ناحت حمامة ايكسة وما اخضر في دوح الحجاز قضيب
 غريب واكناف الحجاز تحوطه الا كل من تحت التراب غريب
 فلا يفرح الباقي ببعث الذي مضى فكل فتى للموت فيسه نصيب
 بكائي طويل والدموع غزيرة وأنت بعيد والمسزار قريب (١)

ومهما يكن فقد كان لنبا وفاته عليه السلام صدى سيء في معظم
 العواصم الاسلامية وأحس العالم الاسلامي بالفاجعة الاليمة التي اصاب
 الاسلام بالصميم وبكنه يثرب ومكة نساء ورجالا واستمروا بالنياحة عليه
 سبعة ايام وقيل شهرا كاملا ، وحينما أذيع النبا في الكوفة تصدعت من
 وقعه القلوب وأرجفت النفوس وارتفع الصراخ والعيول من جميع جوانبها
 ورثاء الشعراء وراح الناس في مجالسهم ونوادهم يتحدثون عن تاريخه
 العاقل بالفضائل ويرددون مقالة الرسول فيه وفي اخيه : الحسن والحسين
 سيدا شباب اهل الجنة وهما امامان قاما او قعدا وريعاتاي من الدنيا
 اللهم اني احبهما وأحب من يحبهما ، الى كثير من المرويات التي رواها
 البخاري في صحيحه وغيره من اصحاب الصحاح في مجاميعهم .
 ومن رثاء من الشعراء سليمان بن قتة وجاء فيما نسب اليه كما في
 المجلد الرابع من شرح النهج :

يا كذب الله من نعى حسنا ليس لتكذيب نعيه ثمن
 اجول في الدار لا اراك وفي الدار اناس جوارهم غبن
 بدلتهم منك ليت انهم اضحوا وييني وينهم عدن

١ - مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم وجاء في زهر الادب
 وتاريخ يعقوبي ان الابيات هذه انشدها محمد بن الحنفية على قبر اخيه
 بعد الفراغ من دفنه .

واجتمع المسلمون في دار سليمان بن صرد الخراعي وقد خيم عليهم
الاسى والاسف وكتبوا الى الحسين رسالة يعزونه بمصابه ومصائب
المسلمين ويعربون له عن ولائهم وطاعتهم وأسفهم الشديد لهذا الحادث
الذي اصاب الاسلام في الصميم .

ولما وصل نبأ وفاته الى زياد بن ابيه في البصرة وأخبر به الناس تعالى
منهم البكاء والضجيج وسمع ابو بكر شقيق زياد وكان مريضا بكاء
الناس وعويلهم فقال لزوجته ميسة : ما هذا الضجيج والعويل وعلى من
يبكي الناس ؟ فقالت : لقد بلغهم موت الحسن بن علي والحمد لله الذي
اراح العباد منه ، فرد عليها بصوت ضعيف قائلا : اسكتي لقد اراحه الله
من شر كثير وفقد الناس بموته خيرا كثيرا يرحم الله حسنا .

وكان معاوية ينتظر أخبار المدينة بفارغ الصبر ليرى نتائج مؤامراته
والى اين انتهى اتفاه مع جعدة بنت الاشعث ، وكان قد اتفق مع مروان
ابن الحكم على ان يزوده بكل ما يحدث بأقصى حدود السرعة .

ولما انتهى اليه النبأ خرج عن اتزانه ووعيه وجعل يتصرف كمن لا يملك
من امره شيئا فخرّ ساجدا الى الارض ثم رفع رأسه وكبر بصوت رفيع
يسمعه الكثير من الناس وأثبت بذلك ان حياة الإمام الحسن كانت من
أشد ما يعانیه ويخشاه وانه بموته قد حقق أعز امانيه وأغلاها واطمان على
مصير الحكم من بعده لأن جميع المعارضين من قادة المسلمين أهون عليه
من الامام ابي محمد الحسن ، وأصبح بإمكانه ان يتغلب على جميع ما
كان يعترض طريقه من الصعاب ، ولما سمعت التكبيرة زوجته فاخنة بنت
قرظة خرجت من خوخة لها فرأت زوجها قد غمره الفرح والسرور فقالت
له : سرّك الله يا امير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟ فقال :
بلغني موت الحسن ، فاستعبرت باكية وقالت : لا حول ولا قوة الا بالله
انا لله وانا اليه راجعون وقالت : لقد مات سيد المسلمين وابن بنت

الرسول (ص) (١) .

وقد جاء في الاستيعاب ان معاوية اخذه الزهو والتهيه فجعل يفتخر
بنجاح مهمته ويقول : يا عجا للحسن شرب شربة من عسل بماء روجه
فقضى عليه (٢) .

وقد جاء في اكثر مجاميع التاريخ ان عبد الله بن العباس وفد على
معاوية فلما استقر به المجلس التفت اليه معاوية قائلاً : لقد هلك الحسن
يا ابن عباس ، فقال له : نعم انا لله وانا اليه راجعون ، وكررها والتفت الى
معاوية وقال : بلغني الذي اظهرت من الفرح والشماتة بموته ، اما والله
يا معاوية ما سد جسده حفرتك ولا زاد نقصان أجله في عمرك ولقد مات
وهو خير منك ولئن أصبنا به فلقد أصبنا بمن هو خير منه وهو جده
رسول الله فجبر الله مصيئته وخلف من بعده احسن الخلف .

ثم انفجر ابن عباس باكياً وبكى لبكائه من كان في مجلس معاوية
وتباكى معاوية مجارة لمن في مجلسه ، ثم التفت الى ابن عباس والفرح
والشماتة باديان على سحنات وجهه وقال : لقد ترك الحسن بنين صغاراً ،
فرد عليه قائلاً : كلنا كنا صغاراً وكبرنا ، ثم قال : كم اتى له من العمر يا
ابن عباس ؟ فرد عليه قائلاً : ان امر الحسن اعظم من ان يجهل احد مولده .
وسكت معاوية وعاد للتحرش بابن عباس وقال : لقد اصبحت سيد
قومك يا ابن عباس ، وأدرك انه يقصد بذلك ان ينال من مقام
الحسين (ع) فرد عليه قائلاً : أما ما ابقى الله ابا عبد الله الحسين سيد
المسلمين فلا ، وجرى بينهما حوار طويل اراد معاوية ان ينفس عما انطوى
عليه من الفرح والتشفي بهذا اللون من الحديث مع ابن عباس وكان له

١ - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥ .

٢ - المجلد الثاني من الامام الحسن ص ٥٠٥ عن الاستيعاب .

بالمرصاد، لا يكاد ينتهي معاوية من حديثه حتى ينفذ ابن عباس الى قرارة نفسه ويحييه على ما فيها من عقد وأحقاد وعنصرية هوجاء ونكتفي بهذه اللمحات الموجزة عن ثورة الامام ووفاته التي اسلمت الامة لأقسى انواع الاذلال والاستغلال ، وطويت بقتله آمالها وأمانيتها وقال الناس يومذاك كما جاء في رواية الطبري عن ابي اسحاق السبيعي : لقد ذل الناس بموت الحسن بن علي (ع) .

المعركة بين معاوية وقادة الشيعة

لقد ذكرنا خلال الصفحات السابقة ان الامام الحسن بن علي (ع) قد انتصر في ثورته الصامتة على معاوية بتلك المعاهدة التي كشفت مطامع الامويين وأحقادهم الضارية على محمد ورسالته وعلي وآله ، وعرّتهم من جميع الاقنعة التي كانوا يستخدمونها لاهدافهم الدنيئة وأظهرت معاوية على واقعه كما استطاع (ع) تجسيد تلك الثورة العارمة التي قام بها زعماء شيعته وقد جاؤوه أفواجا ليحملوه على الخروج على معاوية بعد ان نقض شروطه وموائيقه وعرضوا عليه ان يطردوا عامله على الكوفة وضمنوا له كل ما تحتاجه الحرب والمعارك من السلاح والكراع ، ولكن الامام (ع) لم يستثره ذلك الحماس المتوثب من أنصاره وشيعته ولم يصنع لخطبهم المثيرة وفيهم سليمان بن صرد الخزاعي سيد العراق على حد تعبير ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة ، وكان مما خاطب به الامام ان معاوية قال بحضور حشد كبير من الناس : اني كنت قد شرطت للحسن بن علي شروطا ووعدته عدات ومنيته امانني ألا وان كل ما اعطيته له فهو تحت قدمي هاتين ، وقد نقض جميع ما شرطه لك وعاهد الله على الوفاء به فأعد الحرب خدعة وأذن لي ان أشخص الى الكوفة لآخرج منها عامله وأظهر فيها خلعه

وأنبذ اليه على سواء ان الله لا يهدي الكافرين .

وتكلم جماعة من اصحابه بنفس الروح والحماس الذي تكلم به وكانت الوفود تتوالى عليه وعلى رأس كل وفد زعيم من خاصته وشيعته كحجر بن عدي الكندي والمسيب بن نجية الفزاري وغيرهما ممن كانوا يتمتعون بمكانة عالية في قومهم وعشائريهم .

ولكنه سلام الله عليه لم يتأثر بذلك الحماس الملتهم من أنصاره ولم يغير من موقفه وتصميمه بل كان وهو يستمع لخطبهم ويستعرض حشودهم التي تتوافد عليه بين الحين والآخر يستعيد طورا صفحات اهل الكوفة مع ابيه ويتذكر أباه وهو قابض على كريمة يندب الماضين من اصحابه ويقول لمن حوله من اهل الكوفة : لقد ملأتم قلبي قيحا ، وطورا يتجسد له مستقبلهم فيقرأ صفحاته وهم يدعون اخاه الحسين الى الكوفة بعشرات الوفود ومئات الكتب والرسائل فيخرج اليهم ليفضح خطط يزيد ونواياه التي كان يبيتها لخدمة الجاهلية الرعناء ولم يجد منهم في ساعات المحنة والشدة الا فئة قليلة لا تعدو عدد الاصابع او تزيد ، ومع ذلك فقد مضى للشهادة التي فوّت على يزيد جل اهدافه وأصر عليها بالرغم من كثرة المشيرين عليه من ذويه وأصحابه وغيرهم بعدم الركون لاهل العراق والرجوع بأهله وولده الى جرم جده او الالتجاء الى بعض الامصار ، ولم يصنع لاحد من اولئك المشيرين ولم تشنه عن عزمته نصيحة الناصحين ، لانه كان يؤمن بأن بقاء الرسالة وانتصارها على وثنية الامويين المغلفة بطلاء خفيف من الاسلام والتي كان يعمل حفيد هند وأبي سفيان لمحوها وتحقيق آمال جده وجدته وأمانيهما لن يكون الا بشهادته ، فمضى اليها رابط الجأش واثقا بأنها ستكون بداية لسلسلة من الانتفاضات والثورات التي تقض مضاجع الظلم والظالمين وتفضح مخططاتهم المعادية للإسلام ولمحمد وآله .

لقد كانت مواقف اهل الكوفة مع ابيه ومواقفهم معه ووسائل الاعلام والتضليل التي استعملها معاوية لتضليل الرأي العام وتلك الصفحات من تاريخهم مع اخيه كما كان يترقبها وما يضره الامويون من شر وسوء للاسلام كل ذلك كان يعترض طريقه لحرب معاوية فكان جوابه لاولئك المتحسين من خلص أنصاره وشيعته :

ليكن كل رجل منكم حلما من احلاس بيته ما دام معاوية حيا وإن يهلك معاوية ونحن وأتم أحياء سألنا الله العزيمة على عدونا والعون على امرنا .

وكما ذكرنا خلال الصفحات السابقة ان معاوية قد ادرك ان العهد لولده يزيد لن يتم ما دام الحسن (ع) موجودا وسيخلق له معارضة قوية قد تؤدي الى ثورات وعصيان فدرس له ولسعد بن ابي وقاص سما وماتا منه ^(١) وانصرف بعد ذلك لتنفيذ خطته الاموية وسعى سعيه الحثيث لإحكامها بما بذله من الاموال والوعود المغرية لمن يخشى من معارضتهم في الكوفة وغيرها من المقاطعات ، كما استعمل جميع وسائل العنف والبطش مع من لم يستطع شراءهم بالاموال من شيعة علي (ع) وفرض عليهم ان يخضعوا لرقابة قاسية تعد عليهم أنفاسهم وتمنعهم من القيام بأي نشاط عملي او اعلامي وبخاصة ما يتعلق منه بفضائل علي (ع) او احد من بنيهِ وذويه ، ومع ان معاوية بن هند قد استعمل جميع وسائل القمع والارهاب والترغيب في ملاحقته لاصحاب الإمام وخاصته منهم وحاول ارغامهم على شتم الامام والبراءة منه ، ولكنهم ثبتوا على ولائهم ووقفوا أمامه موقفا يتسم بالقوة والثبات ولم يخضعوا لسلطانهِ وطغيانه ولا لسيوفه المسلطة على الرقاب وسجونه المظلمة التي أعدها للصلحاء

والإبدال •

لقد خلدوا الى الهدوء في حياة الامام ابي محمد الحسن (ع) بعد ان أمرهم بالتروي ووضع الواقع الذي فرض عليه تسليم السلطة لمعاوية بين أيديهم ، وظلت الآمال تراودهم برجوع الخلافة لاصحابها الشرعيين ولو بعد وفاة معاوية على ابعد التقادير •

ولكن آمالهم هذه قد تبددت باستشهاد الامام (ع) بواسطة جنود العسل التي كان معاوية قد أعدها لكل من كان يعارضه ويحول بينه وبين تنفيذ مخططاته الاموية ، ومصادرة ممتلكاتهم وارغامهم على البراءة من علي وآله (ع) واستئصالهم عن آخرهم •

وجاء في المجلد الرابع من شرح النهج ان زياد بن ابيه حاول ان يقوم بعمل حاسم من شيعة علي (ع) يستأصل به شأفتهم ويعتد به جذورهم وذلك بأن يجمع من في الكوفة منهم ويعرض عليهم البراءة من علي ولعنه ومن ابي منهم تعرض للقتل وهدم بيته كائنا من كان ، ولكن مشيئة الله حالت بينه وبين ما اراد فأصيب بمرض الطاعون وهلك منه بعد ثلاثة ايام من اصابته •

وفي رواية اليعقوبي انه جمع سبعين رجلا من أعيان الشيعة ووضعهم بين خيارين : البراءة من علي او القتل ، وقبل تنفيذ مهمته عجل الله له الطاعون ببثرة ظهرت في اصبغه وتعاظمت حتى قضت عليه ^(١) •

١ - شرح النهج ج ٤ ص ٥٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٣ و ٣٢٤ •

مصرع حجر بن عدي الكندي وأصحابه سيفك في عذراء أناس يغضب الله لهم وأهلك السماء

هذا الحديث روته مع من رواه السيدة عائشة عن النبي (ص) وهو يرمز الى القافلة الاولى من اولئك الزعماء الذين كانوا يلاحقون الامام الامام الحسن بن علي ويحرضونه على الثورة المسلحة بعد ان وضع معاوية جميع شروط الصلح تحت قدميه وبالتالي قد استجابوا لتمنياته عليهم بانتظار ما ستكشف عنه الاعوام المقبلة ، هؤلاء قد انطلقوا بعد مصرع الامام وقدموا انفسهم قرايين وضحايا لعقيدتهم وولائهم لعلي وآله واستهانوا بالحياة ومتعها وبجميع المغريات التي بذلت لهم من اجل مجاراتهم للحكم وتجاهلهم لما يقدمه معاوية من خدمات لجاهلية امه وأبيه وأحقادهما المتمثلة باستئصال اسرة محمد وعلي (ع) او ابعادهما عن وجدان الامة وتصوراتها •

ويأتي حجر بن عدي وأصحابه في الطليعة بين اولئك الذين ضحوا بانفسهم من اجل عقيدتهم وولائهم لعلي وآله وأحد القادة البارزين بين

أنصار الثورة ومن ابرز الشخصيات الشيعية في الكوفة وخارجها يومذاك وأكثرهم تحسسا بالواقع الاليم الذي اتته اليه حالة الاسلام والمسلمين وما ستنتهي اليه في المستقبل القريب على يد تلك العصابة الاموية وغلماها، وهو مع ذلك معدود من خيرة الصحابة وكرامهم وصلحاءهم كما نص على ذلك صاحب الاصابة في المجلد الاول من اصابته .

وتؤكد المصادر الموثوقة بأن اتفاضة حجر بن عدي وأصحابه لم تكن وليدة انفعال طائش ولا من حيث عدم انسجامهم مع الحاكمين ، بل من جهة مخططات الامويين التي جندوا لها كل طاقاتهم لاستئصال الولاء للامام علي ورسالة محمد بن عبد الله رسول الرحمة والحرية من الوجدان الشعبي ، الذي كانت تعاني منه أمة وتراه من العقد الذي يجب ان تتوفر جميع طاقات الحكم لحلها .

ولم يكن امام معاوية الا ان يضع حدا لتأثير الجبهة العلوية والحد من نفوذها في الوسط العام ولو بخلق الحواجز النفسية بينهم وبين الجماهير المسلمة وابعادهم عن جميع المنطلقات الاسلامية ، ولكن تحركه في هذا المجال قد اصطدم بصمود تلك الجبهة وقواعدها الجماهيرية القوية فسي ايمانها وما التزمت فيه من المبادئ والقيم التي جاء بها الاسلام وكان قائدهم امير المؤمنين (ع) يجسدها في اقواله وأعماله وجميع تحركاته وتصرفاته .

لقد جاء في وصية معاوية لعامله على الكوفة المغيرة بن شعبة : لقد اردت ايضاًك بأشياء كثيرة وقد تركتها اعتماداً على بصيرتك ولكن لست تاركاً ايضاًك بأن لا تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب لاصحاب علي واقصاءهم كما طلب منه الزام جماعة من زعماء الشيعة كحجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وسليمان بن صرد وغيرهم بحضور صلاة الجمعة والاجتماعات فكانوا يحضرون معه الصلاة

وغيرها (١) .

ونفذ المغيرة وصية معاوية بجميع بنودها فكان لا يدع شتم امير المؤمنين والافتراء عليه ما وسعه ذلك ولم يكن حجر بن عدي ورفاقه في الجهاد والتضحيات في سبيل الله على استعداد لان يقفوا موقف المتفرج الصامت من تجاوزات المغيرة وتناوله للامام (ع) بالمسبة واللعن من على منبر الكوفة الذي طالما استمعوا الى الامام وهم جلوس في مواجهته وهو يخطب في الجماهير ويعظمهم ليحرك فيهم مشاعر الايمان والتقوى والرجوع الى الله سبحانه ، وكان حجر بن عدي من بين رفاقه يواجه المغيرة عندما يتعرض للامام (ع) في خطبته بقوة وصلابة ، ويحاول مع ذلك تحريك الجماهير في مقابل تجاوزات المغيرة واعتداءاته على شخصية الامام (ع) واتجه اليه في بعض مواقفه قائلا : كونوا قوامين بالقسط شهداء وأنا أشهد ان من تدمون وتلعنون لأحق بالمدح والثناء ومن تزكون وتمدحون أولى بالذم ، فقال له المغيرة بن شعبه كما جاء في رواية ابن الاثير : يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان غضب السلطان يهلك أمثالك ، ثم يكف عنه ويتركه وشأنه ولا يتعرض له بسوء، واستر حجر ورفاقه على موقفهم عندما يسمعون الوالي يتعرض لعلي (ع) ويلعنه من على منبره يقولون له : بل اياكم ذم الله ولعن .

ومضى ابن الاثير يقول : فلما كان في اخر ايام امارته قال في علي (ع) وعثمان بن عفان ما كان يقول : فقام حجر فصاح بالمغيرة صيحة سمعها من كان في المسجد وخارجه وقال له : مر لنا ايها الانسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وأصبحت مولعا بدم امير المؤمنين وشتمه ، فقام اكثر من ثلثي

الناس وهم يقولون : صدق حجر وبر ، مر لنا بأرزاقنا فإن ما انت عليه لا يجدينا نفعا ، وتعاقبوا على هذا النوع من الكلام وأمثاله مما يشير الى مدى سخطهم واستخفافهم بتلك الاساليب التي فرضها معاوية على ولاته في مختلف الامصار وظهر على المغيرة نوع من القلق والحسيرة لاسيما وان جهة المعارضة التي يتزعمها حجر بن عدي اخذت تتسع لتشمل اكثر من ثلثي الناس كما جاء في رواية ابن الاثير ، ولكنه حاول ان يستر هزيمته وخوفه من موقف اولئك الثائرين على الحكم وأساليبه العنصرية الحاقدة بالتظاهر بالورع عن التورط في اراقة الدماء ، فقال في جواب من دخلوا عليه من المرتزقة والموالين للامويين وقالوا له : لماذا تترك هذا الرجل يجترى عليك في سلطانك ويوهن مكاتك ويسخط عليك امير المؤمنين ؟ فقال في جوابهم : لا احب ان ابدأ اهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك واشقى ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة .

ولم يقتنع المتزلفون والمرتزقة من أنصار الحكم بجوابه هذا وظلوا يلحون عليه بأن يتخذ موقفا من المعارضة اكثر صلابة من موقفه هذا وأشاروا عليه بقتل حجر وغيره ممن يتحدثونه ويتهجون عليه .

فقال في جوابهم : لقد قتلت حجرا وغيره في موقعي هذا وسيأتي بعدي امير على الكوفة فيحسبونه مثلي ويصنعون معه ما ترونهم يصنعونه معي فيقتلهم شر قتلة ، وصدق المغيرة فيما توقعه لهم وكأنه كان يعلم بدنو أجله ويعلم بأن الكوفة سيتولاها من بعده زياد بن ابيه بسبب الانقلاب المبدئي والنفسي الذي طرأ على موقفه من الامويين بعد ان ألحقه معاوية بأبيه وأصبح ابن ابي سفيان بعد ان كان ابن ابيه لا يعرف له احد ابا لان أمه كانت بغيا ومن المشهورات في تعاطي هذه المهنة وقد حملت زياد من غير ان يعرف الناس لها زوجا .

وتشاء الاقدار ان يهلك المفيرة ويتولى ادارة الكوفة زياد بن ابيه
بالاضافة الى ولاية البصرة ولم يكن موقف حجر بن عدي ورفاقه في ظل
هذا العهد ليختلف عما كان عليه في عهد المفيرة ، وربما كان أكثر عنفا
وأشد صلابة وكانوا يقدرّون نتائج تحدياتهم الجريئة للسلطة وبخاصة ما
كان منها في عهد زياد بن ابيه الذي اراد ان يكون في سلوكه مع الامة
والعلويين أمويا أكثر من الامويين انفسهم ليثبت بذلك بنوته لابني سفيان،
ولكن الحق والاسلام الذي يجسده علي (ع) كانا اعلی عليهم من انفسهم
ومن اجلهما هانت عليهم نتائج تلك التحديات التي كانوا يقاتلون بها
الحاكمين بالرغم من ان التهديدات المثيرة التي كان زياد بن ابيه يوجهها
الى الشيعة قد انهزم منها الكثيرون ممن كانوا على رأي حجر بن عدي
وكانوا يحرضون الحسن بن علي على الثورة ويعدونه بالمناصرة ويعلنون
براءتهم من معاوية ومناصريه وأشياعه .

واستمر حجر على ولائه وصعد موقفه من الحاكمين ، وتخطى مرحلة
المعارضة في الكلام عندما وجد ان الكلام وحده لا يجدي نفعا ما لم
يترجم الى عمل جاد .

وكان اول شيء صدر منه في هذا المجال انه اخذ يحصب عمر بن
حريث خليفة زياد على الكوفة خلال غيابه عنها عندما يتعرض للاسقام
بسوء ، وكان عمله هذا بداية لمرحلة جديدة من مراحل التضال وشاركه
في حصبه ورشق بالحجارة آخرون ممن هم على رأيه ومبدئه وكان زياد
يقيم في الكوفة ستة اشهر وفي البصرة ستة اشهر ، واذا غاب عن الكوفة
استخلف عليها ابن حريث .

وعندما اشتدت المعارضة وكاد الوضع ينفجر في الكوفة بين حجر
وأنصاره وبين الحكم وأجهزته كتب عمر بن حريث الى زياد يخبره بما
يجري وراءه في الكوفة وقال له : ان كانت لك في الكوفة حاجة فالمجل

العجل ، فشد الرحال وأسرع في مسيرته اليها حتى دخلها ومضى من ساعته الى المسجد حيث يجتمع فيه الناس الى جانب حجر بن عدي ورفاقه فصعد المنبر وجعل يتهدد ويتوعد وكان فيما قال كما في رواية الطبقات لابن سعد : أما بعد فإن غب البغي والبغي وخيم ان هؤلاء جموا فاشروا وأمنوني واجترأوا على الله ، وإيم الله لئن لم تستقيموا لأدوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر بن عدي وأصحابه وأدعهم نكالا لمن بعدهم ، والتفت الى حجر قائلاً : ويل امك يا حجر سقط الغشاء بك على سرحان ، ثم نزل عن المنبر وأرسل الى حجر يدعوه اليه فلما اتاه رسول زياد قال له اصحابه : لا تأتاه ولا كرامة ، فرجع الرسول وأخبر زيادا بذلك فأمر صاحب شرطته شداد بن الهيثم ان يبعث اليه جماعة من الشرطة ، فلما ذهبوا اليه سبهم اصحاب حجر فرجعوا الى زياد وأخبروه بذلك .

وفي يوم الجمعة خطب الناس وأطال في خطابه وعرج على امير المؤمنين ونال منه فانبرى اليه حجر بن عدي منكرا عليه شتم امير المؤمنين وتأخير الفريضة فلم يعبأ بكلامه ابن سمية ومضى في خطابه ، فثار حجر وضرب بيده الى كف من الحصا وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد بن ابيه نزل عن المنبر وصلى بالناس وقد انتفخت أوداجه غيظا وغضبا من حجر وأصحابه وعزم على التكنيل بهم ، وأعرب عن عزمه هذا في خطاب القاه في الجامع جاء فيه : ما انا بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ، ومضى يقول : ويل امك يا حجر ، سقط الغشاء بك على سرحان، ثم تمثل بقول القائل :

ابلق نصيحة ان راعي ابلها سقط الغشاء به على سرحان

وأرسل زياد لجماعة من أشراف الكوفة ووجوها يأمرهم ان يردعوا

حجرا عن خطته فامتنع وأصر على موقفه وأخيرا أمر الشرطة بأن يأتوه به فانطلقوا في طلبه وحدثت بينهم وبين اصحابه مناوشات حادة ولمس يستطيعوا ان يقبضوا عليه والتف حوله جماعة من اصحابه وكان ممن بينهم قيس بن فهد الكندي يلتهب حماسا ويقوم في المحافل وال النوادي بتمجيد حجر وأصحابه ويناشد المسلمين بالوقوف الى جانبه ونصرتـه ويرتجز قائلا :

يا قوم حجر دافعوا وحاولوا وعن اخيكم ساعة فقاتلوا
لا يلقيـن منكم لحجر خاذل أليس فيكم راح ونابـل
وفارس مستلثم وراجـل وضارب بالسيف لا يزايـل

وتحصن حجر وأصحابه من زياد وجيشه فلم يقدروا عليهم وخشي ان تتسع المعركة لغير صالحه فجمع الزعماء والمرزقة ممن اعتادت السلطة ان تستغلهم لصالحها وقال لهم :

يا اهل الكوفة أشجون بيد وتأسون بأخرى ابدانكم معي وأهواؤكم
مع حجر بن عدي الهجاجة الاحمق المذبوب اتم معي واخوانكم
وعشائركم معـه هذا والله من دحسكم ^(١) وغشكم والله لتظهروا لسي
براءتكم او لآتينكم بقوم اقيم بهم اودكم وصعركم ^(٢) . واستطاع
بتهديداته ان يسيطر عليهم ويضعهم تجاه الواقع الذي كان ينطوي عليه
فردوا عليه قائلين : معاذ الله ان يكون لنا رأي الا الطاعة لك ولا مـير
المؤمنين معاوية ، وكل ما يرضيك ويسـيء الى حجر وأصحابه فنحن على
استعداد لتنفيذه فمرنا بأمرك .

١ - الدحس هو الانساد .

٢ - هو الميل الى احد الشقين .

فقال لهم : فليقم كل امرئ منكم الى هؤلاء الذين هم حول حجر وليدع كل رجل منكم اخاه وابنه وقرابته ومن يطعمه من عشيرته وفرقوا من استطعتم ، وانصرفوا من مجلسه يخذلون الناس ويخوفونهم من بطش زياد وجبروته فتفرق عنه الناس ولم يبق معه الا الصفوة من اصحابه ، فأرسل زياد قائد الشرطة شداد بن الهيثم الهلالي ومحمد بن الاشعث الكندي ، وقال للاشعث : يا ابا ميثاء لتأتيني بحجر او لا ادع لك نخلة الا قطعتها ولا دارا الا هدمتها ثم لا تسلم حتى اقطعك اربا اربا .

وبدأت مطاردة حجر بعنف وضراوة بعد ان أمن زياد جانب الجماهير وبعد ان وضع الزعماء والقادة امام امتحان عسير فخضعوا لمطالب زياد وتنفيذ اوامره وبعد مصادمات عنيفة بين الفريقين قال حجر لاصحابه : لا طاقة لكم بمن قد اجتمع عليكم وما أحب ان تهلكوا ، وأخذ حجر بن عدي طريقه الى بني حوت او حرب كما جاء في رواية الطبري ودخل دار رجل منهم يقال له سليم بن يزيد ، فأدركه الطلب وهو فيها فأخذ سليم سيفه ليدافع به عن حجر فبكى بناته وارفع صياحهن ، ولما رأى حجر بن عدي ما حل ببناته من الخوف والاذى تعلق به ليمنعه عن مجابهة القوم والخروج اليهم بالسيف ، فقال له : والله لا تخرج من داري اسيرا او قتيلا وأنا مع الأحياء ، فعند ذلك خرج من خوخة في الدار وأتى قبيلة النخع ونزل على عبد الله بن الحارث اخي الاشتر النخعي فأحسن لقاءه ورحب بقدمه وكان انصار زياد وأتباعهم من مرتزقة الكوفة يراقبون تحركات حجر وتنقلاته فذهبوا يطلبونه في أحياء القبيلة ويفتشون بيوتها للقبض عليه . وعندما أحس بذلك التجأ الى قبيلة الازد واختفى عند ربيعة بن تاخذ وبقي عنده يوما وليلة او يومين ، هذا والطلب يشتد عليه وجنود زياد تلاحقه من مكان الى مكان وبعد مصادمات عنيفة جرت بينهم وبين حجر وأصحابه وقع اسيرا في ايديهم وقيل بأنه ارسل الى محمد بن الاشعث

ليأخذ له أماناً من زياد فجمع ابن الأشعث جماعة من وجوه الكوفة منهم جرير بن عبد الله وحجر بن يزيد وعبد الله بن الحارث فدخلوا على زياد وأخذوا له الأمان على أن يرسله إلى معاوية ليرى فيه رأيه فأجابهم لذلك فاستسلم حجر وأصحابه وأدخلوهم على زياد بن أبيه ولما رآه قال له : مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن سلم أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس . فرد عليه حجر قائلاً : ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني لا أزال على بيعتي ، فأمر به إلى السجن فأدخل إليه هو وأصحابه ، والتفت زياد لمن جاؤوا به وقال : والله لأحرصن على قطع رقبة مهما كانت النتائج . ولم يكن استسلام حجر لزياد بن أبيه بعد المعارك والمطاردات التي تعرض لها هو وأصحابه يعني بأنه قد تنازل عن الحق الذي آمن به وناضل من أجله وعن الولاء الأكيد لعلي وبنه الذي كان البيت الأموي بقيادة معاوية يعمل على استئصاله وتصفيته من وجدان الأمة وتصورها ، لم يكن يعني ذلك حتما وإنما الذي يعنيه هو أن حجر بن عدي رحمه الله قد ايقن بأنه لو مضى في المقاومة ولم يستسلم لا بد وأن يقتل على يد زياد وجلاوزته لأن أهل الكوفة قد تغاذلوا على عادتهم أمام تهديدات زياد ومغرياته ، ولو أرسل لمعاوية حسب طلبه لا بد وأن يقتله لأن زيادا إذا قتله سينفذ فيه امر معاوية ، ولكن قتله على هذا النحو يبد زياد وجلاوزته ومرتزقه سيعطي المجال والمبررات الواسعة لمعاوية للتصل من قتله وتحميل زياد تبعات هذه الجريمة ومضاعفاتها لدى الرأي العام الاسلامي . لذلك فقد وقف حجر عن عدي هذا الموقف الذي اخرج فيه معاوية بقتله وكشف للامة عن واقع القيادة الاموية الجائرة وتمدياتها قيادة واتباعا على الحريات والقيم بلا مبرر لذلك ، وأراد في الوقت ذاته ان يشمر الرأي العام المسلم بخطورة مواقفهم المسالمة للحكم والنتائج التي تنشأ عن صمتهم المطبق تجاه تلك التجاوزات المسمورة الحاقدة .

ومهما يكن الحال فلقد اقسم زياد بن ابيه بالله العظيم على انه سيرحس على قطع رقاب حجر وأصحابه ، وبدأ فور ادخالهم السجن واعدادهم للذهاب الى الشام في اتخاذ التدابير التي تحقق له ذلك وطلب من اهل الكوفة ان يشهدوا على حجر وأصحابه شهادة تدينهم بأقصى العقوبات فشهد له جماعة منهم بأنهم يتولون عليا وبنه وينددون بعثمان ومعاوية فلم ترضه هذه الشهادة وقال انها غير قاطعة ، اي انها لا تكفي لشحن معاوية بنحو تنهار جميع الامل بنجاتهم .

فتطوع ابو بردة بن ابي موسى الاشعري وكتب صورة للشهادة التي يرضاها زياد بن ابيه جاء فيها : هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابي موسى الاشعري لله رب العالمين أشهد ان حجر بن عدي وأصحابه قد خلعوا الطاعة وفارقوا الجماعة ولعنوا الخليفة ودعوا الى الحرب وجمع حجر الجموع ودعاهم الى نكث البيعة وكفر بالله كفره اصلح فأعجبت زياد هذه الشهادة وابتسم لقوله كفره اصلح ^(١) ثم استدعى رؤساء الارباع يومذاك وهم عمر بن حريث وكان على ربع اهل المدينة وخالد بن عرفطة وكان على ربع تميم وهمدان بن قيس بن الوليد على ربع ربيعة وأبو بردة ابن ابي موسى على ربع مذحج وهمدان فشهدوا ان حجرا جمع اليه الناس وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حربه وان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل امير المؤمنين معاوية الى غير ذلك من الاقتراءات والتلفيقات ودعا الناس ليشهدوا عليهم بذلك ، فشهد اسحق وموسى ابنا طلحة بن عبيد والمنذر بن الزبير وعمارة بن عقبة بن ابي معيط وعمر بن سعد بن ابي وقاص وغيرهم من اهالي الكوفة وبلغ عدد الذين شهدوا عليه من ابناء المهاجرين والانصار وأهل الكوفة سبعين رجلا

١ - وقد اراد بها انه اخذ الكفر عن الاصلح علي بن ابي طالب (ع) .

كما ذهب الى ذلك جماعة من المؤرخين ، وأدخل زياد بين الشهود شريح القاضي وشريح بن هانئ ووقع عنهما ، وبعد ان قتل حجر وأحدث قتله دويًا وتذمرًا في اوساط المسلمين انكرا لشهادتهما (١) .

ثم ان زياد بن ابيه دفع حجر بن عدي وأصحابه وكانوا اثني عشر رجلا الى وائل بن حجر الحضرمي وكثير بن شهاب وأمرهما ان يسيرا بهم الى الشام فخرجا بهم ليلا ومعهما كتاب من زياد وشهادة الشهود وحينما توجهوا بهم الى الشام ارتفع الصراخ والعيول من بيوتهم وصعدت ابنة حجر ولا ولد له غيرها فوق سطح الدار معولة باكية تنظر الى القافلة وهي تسير الى الموت نظرة الوداع ، وجعلت تناجي القمر وتبته لوعتها وأحزانها وتقول :

ترفع ايها القمر المنير	لملك ان ترى حجرا يسير
يسير الى معاوية بن حشرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابرة بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير (٢)
ألا يا حجر حجر بن عدي	تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عليا	وشيخا في دمشق له زئير
فان تهلك فكل عبيد قوم	الى هلك من الدنيا يصير (٣)

وكتب له زياد بن ابيه مع القافلة التي تسير بحجر وأصحابه كتابا جاء

١ - الطبري ج ٥ ص ٢٧٠ .

٢ - الخورنق والسدير قصران كانا بالقرب من الحيرة بناهما النعمان ابن امرئ القيس وتولى بناءهما رجل يسمى ستمار كما جاء في نهاية الارب .

٣ - وقيل كما في مروج الذهب ان الابيات لهند بنت زيد الانصارية نرثي بها حجرا .

فيه : أما بعد فإن الله قد أحسن عند امير المؤمنين البلاء فكاد له عدوه وكفاه مؤونة من بقي عليه، ان طواغيت هذه التراية السبئية وعلى رأسهم حجر بن عدي خالفوا امير المؤمنين وفارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لك الحرب فأظهرنا الله عليهم وأمكننا منهم وقد شهد عليهم خيار اهل مصر وأشرفهم وذوو العقل والدين منهم بما رأوا وعملوا ودفع الكتاب الى رسوله كثير بن شهاب ووائل بن حجر الحضرمي ، ولما بلغ الركب الغريين كما جاء في رواية ابن الاثير لحقهم شريح بن هانئ، وأعطى وائل بن حجر الحضرمي كتابا وقال له : ابلغه امير المؤمنين . وجاء في الكتاب : أما بعد فقد بلغني ان زيادا كتب اليك شهادتي على حجر بن عدي وان شهادتي عليه انه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال فان شئت فاقتله وان شئت فدعه .

ومضت القافلة تسير وتطوي البيداء بحجر وأصحابه الى معاوية بن حرب ولما بلغت مرج عذراء تذكر حجر بمض مواقفه في سبيل الاسلام يوم كان معاوية وأبوه يتستران بالاسلام ويعملان في السر والخفاء مع من يكيد للاسلام ويناصر اعداءه ، حينما عرف حجر انه قد اصبح هو ورفاقه في الجهاد والتضحيات في تلك القرية قال : والله اني لاول مسلم نبخته كلابها وأول مسلم كبر بواديها كما جاء في المجلد الثالث من الكامل لابن الاثير (١) .

ويبدو ان تلك القرية كانت احدي المراكز العسكرية للرومان خلال

١ - وقال ابن حجر في كتابه الاصابة ان حجر بن عدي هو الذي فتح مرج عذراء وكان يقود جيشا من المسلمين يومذاك لحرب الرومان كما أكد ذلك ابن سعد في المجلد السادس من طبقاته .

معاركهم مع المسلمين وكان حجر بن عدي احد اولئك القادة الذين كانوا يديرون المعارك ويسرون باتجاه دمشق الشام وقد اعترضته الحامية الرومانية في عذراء واستطاع ان يقهرها ويحتل القرية التي شاء الله ان تكون مقره الاخير الذي يحشر منه ليخاصم ابن هند بين يدي الله سبحانه وأصبح اسمها رمزا لتلك القافلة الكريمة من شهداء الحق والفضيلة الاوفياء لدينهم وتعاليم نبيهم وسيرة امامهم وقائدهم امير المؤمنين (ع) . وتؤكد جميع المصادر ان الموكلين بحجر وأصحابه قد احتجزوهم في تلك القرية ريثما تصدر القرارات الاخيرة من قصر الحمراء بشأنهم ، وحينما وصل البريد الذي يحمل كتاب زياد وشهادة الشهود الى معاوية ارسل جماعة من جلاديه الجفاة الغلاظ الى مرج عذراء وأمرهم باعدام حجر ورفاقه ان لم يتبرأوا من امير المؤمنين ودينه وبلغنوه .

هذا مع العلم ان البريد الذي حمل اليه كتاب زياد وشهادة الشهود حمل اليه كتابا من شريح بن هانيء احد الشهود والكتاب يزكي حجرا وأصحابه كما ذكرنا ويؤكد بأنه لم يشهد على حجر بما يدعيه زياد بن ابيه وجلاوزته وان زيادا هو الذي وضع اسمه مع الشهود .

ومع ان كتاب شريح بن هانيء يثير الشك في اكثر الشهادات الواردة في الوثيقة ويفرض على من يريد ان يحاسب الناس ويتعامل معهم في حدود الدين والاعراف ان يتأكد من انها ليست مفتعلة كشهادة شريح بن هانيء ولكن معاوية لم يمتن بكتاب شريح ولا بموجباته وبقي مصرا على تصفية حجر وأصحابه اذا لم يتبرأوا من علي ودينه ويباركوا جميع تصرفات معاوية وولاته وتجاوزاتهم مما يؤكد ان عملية الشهادة على حجر وأصحابه انما هي من تخطيطه لتبرير موقفه من تصفيتهم تجاه العالم الاسلامي الذي لا يغفر احداثا من هذا النوع .

ومهما كان الحال فلقد اقبل الجلادون على حجر وقالوا له : ان امير

المؤمنين معاوية امرنا بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لابي تراب وقتل اصحابك الا ان ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتببرأوا منه ، فأجابهم حجر وأصحابه وهم على بينة من امرهم وثقة بما أعده الله سبحانه لعباده العاملين والشهداء الصابرين ، ان الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعوننا اليه والقُدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار مع معاوية وحزبه .

ولما اتخذ معاوية قراره النهائي باعدام حجر ومن لم يتبرأ من الامام ودينه من اصحابه أمر جلاوزته بأن يحفروا لكل واحد حفرة وكانوا اربعة عشر رجلا فرض الجلادون عليهم البراءة من علي ودينه مرة ثانية والسيوف مسلطة على رؤوسهم وكل واحد منهم الى جانب حفرة فتراجع منهم ستة خوفا من الموت الذي ينتظرهم على أيدي اولئك الجلادين بين لحظة وأخرى وصمد الباقون على ولائهم وكان ايمانهم بالحق السذي يناضلون من اجله اقوى من الموت وتقدم الجلادون نحو حجر يجددون عليه عروضهم وسيوفهم فوق رأسه فأصر على موقفه وأعلن براءته من معاوية وحزبه .

ونقل السيد الامين في المجلد الثاني من اعيان الشيعة عن المرزباني ص ١٩٩ ، انه كان لحجر ولد اسمه همام وقد حبس معه في عذراء ، وحين تقدم حجر للقتل سأل الجلاد عما اذا كان ولده من المحكوم عليهم بالاعدام وطلب منه ان يقدمه عليه ويقتله قبله اذا كان لا بد من قتله ، ولما اراد الجلاد ان يقدمه التفت اليه وقال : تقدم يا بني حتى أحسبك بين يدي الله سبحانه ، فقبل لحجر : تعجلت الشكل يا ابن عدي ، فقال : خفت ان أتقدمه ويرى هول السيف على عنقي فيتراجع عن ولاية علي (ع) فلا نجتمع في دار المقاومة التي أعدها الله للصابرين .

ثم انطلق الجلاد هدية بن فياض القضاعي شاهرا سيفه على رأس

حجر بن عدي فارتعدت أوصاله وخارت قواه فقال له اصحاب معاوية :
لقد زعمت انك لا تجزع من الموت فتبرأ من صاحبك وندع لك حياتك،
فقال : ومالي لا اجزع وأرى قبرا محفورا وسيفا مشهورا على رأسي ،
واني والله وان جزعت من القتل لا أتبرأ من امير المؤمنين علي (ع) ولا
اقول ما يسخط الرب ، لإرضاء معاوية وحزبه .

فقال له الجلاد : مد عنقك يا حجر ، فرد عليه قائلا : اني ما كنت لاعين
الظالمين على رقبتي ، فضربه الجلاد ضربة واحدة على رأسه أودت بحياته
وانتهت بقتله حياة بطل عظيم من أبطال العقيدة والمبدأ وبقي اسمه على
لسان الاجيال في طليعة الثائرين على الكفر والضلال والانحسراف
والتسلط على حرية الانسان وكرامته .

وكما ذكرنا لقد كان مع حجر جماعة من خيار المسلمين وصلحائهم
وقد تراجع بعضهم عن تصلبه خوفا من الموت وكما اعتقد فلقد تراجعوا
بالسنتهم وبقيت قلوبهم عامرة بحب علي وموالاته كما صنع عمار بن ياسر
مع المشركين في مطلع فجر الدعوة حينما اضطره ابو سفيان وحزبه لان
ينال من محمد (ص) ورسالته وجاءت الآية الكريمة «الا من أكره وقلبه
مطمئن بالايمان» لتزكيته وتزكية غيره ممن يضطرون لاتخاذ هذا الموقف،
اما الذين قتلوا في عذراء وغيرها فكان منهم عبد الرحمن بن حسان العنزي،
وقد طلب من جلاوزة معاوية وجلاديه ان يواجه معاوية ليرى رأيه فيه ،
فجاء به اليه، فلما مثل بين يديه قال له ابن هند: ايه اخا ربيعة ما تقول في
علي بن ابي طالب ؟ فرد عليه قائلا : دعني يا معاوية ولا تسألني فهو خير
لك ، فرفض معاوية اعفائه وأصر على استجوابه فقال : أشهد ان عليا كان
من الذاكرين الله كثيرا والآخرين بالحق والقائمين بالقسط والعافين عن
الناس .

فقال معاوية : ما تقول في عثمان بن عفان ، فقال : هو اول من فتح

باب الظلم والجور وارتج ابواب الحق والعدل .
فاستبد به الغضب ورده الى زياد في الكوفة وكتب اليه كتابا جاء فيه:
ان هذا المنزي شر من بعثهم الي فعاقيه العقوبة التي هو اهلها واقتله شر
قتلة ، ولما وردت رسالته على زياد بعث به الى (قس الناطف) وهو موضع
قريب من الكوفة فدفن فيه وهو حي ^(١) .

١ - حياة الامام الحسن ج ٢ عن الطبري ج ٦ ص ١٥٥ .

حبيبي بن فسيل

لقد كان صيني من أبطال المسلمين وأفذاذهم ومن الصفوة بين اصحاب حجر ، وقد قبض عليه زياد بن ابيه بعد محاولات كثيرة لاعتقاله ، فلما حضر بين يديه سأله عن رأيه في امير المؤمنين ليسجل عليه ما يريد قتله ، فقال له : ما تقول يا صيني في ابي تراب ؟ فرد عليه بلغة الساخر : ما أعرف ابا تراب فقال له زياد : أما تعرف علي بن ابي طالب فذاك ابو تراب ، فقال له : كلا ذلك ابو الحسن والحسين ، والتفت اليه مدير الشرطة ليقول له : يقول لك الامير ابو تراب وتقول له ابو الحسن والحسين ، فرد عليه ابن فسيل مستهترا به وبأميره قائلا : أتريدني ان أكذب كما كذب الامير وأشهد له على الباطل ؟ واستشاط ابن ابيه غضبا وأمر جلاوزته بجلده حتى يلصق بالارض فانها له عليه بعضهم حتى أغمي عليه ، ثم التفت اليه وسأله عن رأيه في علي (ع) فأصر على موقعه وقال : والله لو شرحتني بالمواسي والمدى لا اقول فيه الا ما سمعته مني ، فتهدده زياد بالقتل فرد عليه بقوله : فان فعلت فقد سعدت انا وشقيت انت ، فالتقاء في السجن وأرسله اخيرا الى معاوية مع حجر فقتل مع من قتل في عذراء من الاوفياء لمبدئهم وعقيدتهم •

قبيلة بن ربيعة

لقد كان قبيلة بن ربيعة من اولئك المجاهدين المناضلين والثائرين على تجاوزات الحكام وجلاوزتهم وقد طارده زياد بن ابيه حينما كان يطارد حجر بن عدي ويحاول القبض عليه ، وبعد محاولات كثيرة قام بهـا جلاوزته استطاعوا القبض عليه بعد ان اعطوه الامان ، ولكن زيادا بعد ان اتصل بالامويين وأصبح من أدعيائهم لم يعد يعرف للعهود والمواثيق حرمة وقيمة ، فقد وضعه في السجن ، ثم أرسله مع حجر الى معاوية ولقي مصيره في مرج عذراء مع رفاقه الابطال شريك بن شداد الحضرمي وكدام ابن حيان المنزي ومحرز بن شهاب التميمي وغيرهم ممن استهانوا بالحياة ومتعها وتركوا آثار مسيرتهم على الطريق التي سلكوها في نضالهم من اجل الحق والمبدأ والعقيدة لتسير عليها قوافل الشهداء في طريقها الى الملا الاعلى .

خدم الفاجعة

لقد ذعر المسلمون لهذا الحادث الخطير واندفع الكثير من أعلامهم الى اعلان استنكارهم على معاوية وحاشيته ، فكتب الحسين بن علي (ع) رسالة من يثرب الى معاوية عندما بلغته اخبار تلك المجزرة جاء فيها :
أست القاتل حجرا اخا كندة والمصلين العابدين من اصحابه الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم ، قتلتهم ظلما وعدوانا بعدما اعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا ياخذة فيما مضى .

وقال الربيع بن زياد عامل معاوية على خراسان حينما بلغه النبأ وقد ذهبت نفسه حشرات من الالم والاسى : لا تزال العرب تقتل صبورا بعد حجر وأصحابه ولو نفرت عند قتله لم يقتل منهم احد صبورا ولكنها أقرت فذلت وهانت .

وبقي الربيع من أثر الصدمة ذاهل النفس خائر القوى يمزق الاسى قلبه وقد خطب الناس يوم الجمعة وقال في خطابه : ايها الناس اني قد مللت الحياة وأنا داع فأمنوا على دعائي ، ثم رفع يديه بالدعاء وقال : اللهم

ان كان للربيع عندك خير فاقبضه اليك وعجل، فقد جاء في الكامل لابن الاثير كما نقل عنه القرشي في كتابه الامام الحسن ان الله استجاب دعاءه ووافاه أجله قبل ان يفارق المجلس .

وكان الحسن البصري احد أعلام عصره يقول : لو لم يكن لمعاوية من الموبقات الا اربعة لكفاه تأمره على الامة بدون اختيارها ورضائها والحاقة زيادا بأبيه وقد قال رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر وتولية ولده السكير الفاجر على الامة من بعده ، وقتله حجرا وأصحابه ويسل له من حجر وأصحاب حجر . وكان يكرر هذه الموبقة من موبقات معاوية كلما ذكر حجرا وأصحابه كما ينقل الرواة عنه واستخلافه ولده السكير من بعده .

وجاء في الطبري عن ابي اسحاق السبيعي انه كان يقول : ادركت الناس وهم يقولون : ان اول ذل دخل الكوفة موت الحسن بن علي (ع) وقتل حجر بن عدي ودعوة زياد بن ابيه .

لقد ذلت الكوفة بموت الامام الحسن النبط (ع) لان الاحلام كانت تراودها برجوع الخلافة الى الحسن بعد معاوية ، وبموته وجعل السلطة وراثه في بيت أمية تبددت جميع أحلامها وحلت العنصرية الجاهلية الحاكمة على آل محمد محل العدالة الاسلامية والعفو والرحمة .

وبقتل حجر بن عدي وأصحابه الارار لا لذنب اقترفوه الا لانهم لم يتبرأوا من علي ودينه أصبحت الكوفة تعيش في جو يخيم عليه اليأس وكبت الحريات واراقة الدماء البريئة ولو لا بسط الاسباب .

وبادعاء زياد لابي سفيان أصبح زياد أمويا اكثر من الامويين وحريضا على تحقيق رغباتهم باستئصال التشيع الواسع المنتشر في الكوفة وجهاتها وهو بهم عارف لانه كان يتظاهر بالولاء لعلي وآله قبل ان يلحقه معاوية بأبيه بشهادة الخمارين وأصحاب دور البغاء . ومن روعهم مصرع حجر ابن عدي عبد الله بن عمر وكان حين بلغه الخبر في السوق ، فأطلق

حبوته فقام وقد غلبه البكاء والنحيب كما جاء في المجلد الاول من
اسد الغابة .

وحتى ان عائشة مع ولاتها للامويين وكرها لعلي وشيعته قد
استنفرها مصرعه وقامت بدور اعطى لقضيته ابعادا واسعة ، وما قالته
عندما بلغها النبأ كما جاء في الاستيعاب :

اما والله لو علم معاوية ان عند اهل الكوفة منعة ما اجتراً على ان
ياخذ حجرا وأصحابه من بينهم حتى يقتله بالشام ولكن ابن آكلة الاكباد
علم انه قد ذهب الناس ، اما والله انهم كانوا لجمجمة العرب عزا ومنعة
وفقها ، وقد روت حديث النبي (ص) في فضل حجر وأصحابه وهي تندد
بمعاوية وجلاديه :

سيقتل في عذراء اناس يفضب الله لهم وأهل السماء .

وشيد المجرم وفافه

لقد كان معاوية من خلال اساليب العنف والقتل والتعذيب وملاحقته لقادة الشيعة المعروفين بولائهم لعلي وبنه (ع) وحرصهم على الاسلام يحاول استئصال التشيع او إضعافه واشاعة الخوف والقلق والكبت في الوسط الشيعي ، واستطاع بما قام به من قتل وحبس وتشريد ان ينشر الخوف والرعب بين الشيعة ويحد من تجاهر الكثيرين منهم بالتشيع ، ولكنه لم يستطع استئصال التشيع ولا اقتلاع الولاء لعلي من القلوب والعقول ، وظل التشيع الذي يجسد الاسلام يسير وينتشر مستهينا بجميع الصعاب والعقبات ، وظل علي (ع) الذي يُسب ويشتم من على منابرهم ويفرضون البراءة منه واللعن على شيعته ومحبيه ، يحتل العقول والقلوب وكأنهم يدفعون به الى السماء على حد تعبير الشعبي وعبد الله بن عروة لولديهما •

وبالرغم من الخوف والقلق اللذين تفشيا في اوساط الشيعة وبخاصة بعد مقتل حجر وأصحابه الكرام فقد بقي في صفوف الشيعة أفراد يحملون روح حجر وأصحابه ويناضلون بما لديهم من الامكانيات عن مبداهم وعقيدتهم وولائهم لامير المؤمنين علي (ع) ولا يفرطون بشيء من ذلك

ولو أدى ثباتهم الى استئصالهم واستئصال من يتصل بهم وها نحن نقدم
نماذج من هؤلاء الابطال لاثبات هذه الحقيقة .

فمن هؤلاء رشيد الهجري احد اعلام عصره في دينه وعلمه، لقد صلب
الهجري امير المؤمنين وكانت له منزلة عنده ليست لاحد سواه ، وبلغ من
اطمئنانه اليه انه كان يخبره ببعض الحوادث التي ستقع في مستقبل
الزمان وما سيجري عليه من زياد بن سمية وغيره مما حصل عليه امير
المؤمنين (ع) من النبي (ص) ويسميه رشيد البلايا .

وجاء عن ابنته انها قالت سمعت ابي يقول : قال لي امير المؤمنين (ع)
يا رشيد كيف صبرك اذا ارسل اليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك
ولسانك ، فقال له ابي : أوليس اخر ذلك الى الجنة ؟ فرد عليه بقوله :
انت معي في الدنيا والآخرة .

وجاء فيما يرويه المؤرخون والرواة ان رشيد الهجري خرج مع امير
المؤمنين الى بستان من بساتين الكوفة واستظلا من حرارة الشمس تحت
نخلة من نخيله ، فقدم لهما صاحب البستان رطباً من احدى نخيله فاكل
امير المؤمنين (ع) والتفت الهجري اليه وقال : ما اطيب هذا الرطب يا
ابا الحسن ، فرد عليه قائلاً : اما انك ستصلب الى جذع هذه النخلة .

وكان رشيد الهجري بعد ما سمع من الامام ذلك يتعاهد تلك النخلة
ويصلي تحتها احياناً ومر عليها مرة فرأى سفعها قد تقطع فأحس بدنو
أجله ، ولما قبض عليه ابن سمية قال له : بماذا اخبرك خليلك ابن ابي طالب
انا فاعلون بك ؟ فرد عليه قائلاً : لقد اخبرني بأنكم تقطعون يدي ورجلي
وتصلبوني ، فقال : اما والله لا كذب بن حديثه خلوا سبيله ، فأطلقه
الجلالوة فلما خرج قال زياد لجلالوته : ردوه ، فلما أرجعوه اليه قال :
والله لا اجد شيئاً أصلح لك مما قال صاحبك انك لا تزال تبغي لنا سوءاً
ان بقيت اقطعوا يديه ورجليه ، فنفذ الجلالوة فيه امر زياد وهو يتكلم
ويشتم معاوية وزبادا وبني أمية فاغتافل زياد وأمرهم ان يصلبوه ويقطعوا

لسانه ولما هموا بقطعه قال هذا والله ما اخبرني به امير المؤمنين علي
ابن ابي طالب (١) .

١ - سفينة البحار ج ١ ص ٥٢٢ ، وجاء في المجلد الثاني من حياة
الامام الحسن للقرشي ان الحافظ الذهبي قال في تذكرته ان زياد قتل
رشيد الهجري وقطع لسانه وصلبه لتشييمه لعلي وبنيه (ع) كما ذكر ذلك
ابن ابي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج ص ٢١١ .

عمرو بن الحمق الخزاعي

لقد كان عمرو بن الحمق من خيار الصحابة ومقربا من النبي (ص) وقد اسلم قبل الفتح وأخلص في اسلامه ، وهو شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره فدعا له النبي ان يتمتع الله بشبابه فبلغ الثمانين من العمر ولم تبيض له شعرة واحدة ، كما نص على ذلك في الاصابة ، وبعد النبي (ص) لازم عليا (ع) وتفانى في حبه وولائه لاهل البيت (ع) وكان من خلص اصحاب الامير وقال له يوما : ليت في جندي مائة مثلك يسا خزاعي ، ثم دعا له وقال : اللهم نور قلبه بالتقوى واهد الى صراطك المستقيم .

وقال هو لامير المؤمنين معربا عن ولائه واخلاصه : والله ما احببتك للدنيا ولا لمنزلة تكون لي بها ، وانما احببتك لخمس خصال لانك اول المسلمين ايمانا وابن عم رسول الله وأعظم المهاجرين والانصار جهادا وتضحية وتفانيا في سبيل محمد ورسالته وزوج بضعة الرسول سيدة النساء (ع) وأب لعترة الرسول وذريته ، والله لو قطعت الجبال الرواسي وعبرت البحار الطوامي في توهين عدوك وتلقيح حجتك كان ذلك قليلا من كثير ما يجب علي من حقك .

وحينما تولى زياد بن ابيه الكوفة وراح يتبع الشيعة ويلاحق زعماءهم بالقتل والجس والتعذيب والتنكيل كان عمرو بن الحق في طليعة اولئك المظلوين فجعل زياد يلاحقه ويطارده ففر الى المدائن ومعه رفاعه بن شداد فاعتقل زوجته آمنة بنت الشريد ووضعها في حبسه ثم ارسلها الى معاوية فأمر بحبسها ومكث هو ورفيقه رفاعه في المدائن مدة من الزمن ، وحينما علم زياد بمكانهما ارسل جلاوزته الى المدائن في طلبهما وحينما عرفا بأن معاوية ارسل في طلبهما خرجا من المدائن ليلا باتجاه الموصل والتجأ الى جبل في ضواحي الموصل فأقاما فيه اياما وبلغ عامل معاوية على الموصل بلتعة بن ابي عبد الله ان رجلين يكمنان في ذلك الجبل ويتجنان الناس فسار اليهما مع جماعة من اصحابه فلما اتهموا الى الجبل خرج اليهما عمرو ورفاعة ، وكان عمرو يعاني من مرض ألمّ به من آثار سم دسه اليه جماعة من انصار معاوية ، ولم يكن باستطاعته ان يقاوم او يهرب منهم فاستسلم للقوم ، وأما رفاعه فقد كان شابا فركب فرسه والتفت الى عمرو وقال : اني سأدافع عنك ، فنهاه عن ذلك وقال له : ان دفاعك لا يجديني نفعاً وأرى لك ان تنجو بنفسك ان استطعت ، فهجم رفاعه بسيفه على القوم فأفرجوا له ولم يتمكنوا من اسره ، واعتقلوا عمرا وهم لا يعرفونه وامتنع من ان يعرفهم بنفسه ونسبه وقال لهم : انا من ان تركموه كان أسلم لكم وان قتلتموه كان أضر عليكم ، ولما امتنع ان يعرفهم عن نفسه ارسلوه الى حاكم الموصل عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ، وكان يعرفه فأرسل رسالة الى معاوية بن هند يخبره بأمره فأجابه برسالة جاء فيها :

لقد قيل بأنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه ونحن لا نريد ان نعتدي عليه فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان ، فأخرجه من سجنه وأمر بطعنه تسع طعنات فمات من الطعنة الاولى او الثانية كما جاء في تاريخ الطبري ثم اجتزأ رأسه وأرسله الى معاوية بالشام فأمر ان

يطاف به في الشام وغيرها على حد تعبير صاحب الاستيعاب في صفحة ٥١٧ من المجلد الثاني .

ثم أمر ان يرسلوه الى زوجته آمنة بنت الشريد وكان قد وضعها معاوية في السجن لانها لم تتبرأ من علي بن ابي طالب فوضعوه فسي حجرها وهي لا تعلم من امره شيئا ، فلما نظرت اضطربت وكادت ان تموت لهول الصدمة ، وصاحت بصوت يززع المدو والصديق : واحزنه غيبتموه عني طويلا وأهديتموه الي قتيلا فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية وأنا له اليوم غير ناسية .

والتفت الى الرسول والالم يقطع أحشاءها وقالت له : ارجع الى معاوية وقل له : أيتم الله ولدك وأوحش منك أهلك ولا غفر لك ذنبك، ولما بلغه الرسول مقالها غاظه كلامها وأمر باحضارها لمجلسه فلما حضرت قال لها :

انت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني عنك ؟ فأجابته غير مكترة به ولا هيابة لسلطانها قائلة : نعم لا نازعة عنه ولا معتذرة منه ولا منكورة له وقد اجتهدت في الدعاء عليك ان نفع الدعاء وان الحق لمن وراء العباد وما بلغت شيئا من جزائك .

والتفت اليه اياس بن حلل احد المرتزقة وقال له : اقتل هذه المرأة يا امير المؤمنين فوالله ان زوجها لم يكن أحق بالقتل منها ، فردت عليه قائلة له : تبا لك ويلك ان بين لحبيك كجثمان الضفدع ، ثم انت تدعوه الى قتلي كما قتل زوجي بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما تريد ان تكون من المصلحين .

واستمر الحوار الحاد بينها وبين معاوية بشجاعة قل نظيرها فسي تاريخ المرأة لا ترى للحياة وزنا ولا قيمة بعد زوجها وظلت تحاوره بلهجة الساخر منه ومن سلطانه وجلالديه وأعوانه حتى أمر باخراجها من مجلسه . وجاء في بعض المرويات انه أمر بقتلها وكانت اول امرأة قتلت فسي

الاسلام بعد ان عرض عليها البراءة من علي (ع) فامتنعت عليه وتبرأت منه ومن جلاله ومن يحاييه بفعل او قول .

وغير بعيد على ابن هند ان يقتل امرأة لانها لم تبرأ من علي ودين علي (ع) كما قتل غيرها من أعيان المسلمين وصحابة الرسول لهذا السبب وهم لا يملكون سلاحا غير سلاح الايمان الذي كان يعمر قلوبهم وبه وحده وقفوا تلك المواقف الخالدة يجاهدون به من ضل عن الحق وتخبط في متاهات الباطل والظلم والطغيان .

وهل يملك معاوية من الدين والقيم والرحمة ما يمنعه عن قتل امرأة مسلمة لانها لم تلعن عليا وتبرأ من دينه دين محمد بن عبد الله بعد ان أمر جلاله بنقلها من بيتها في الكوفة الى سجنه المظلمة في دمشق . وأي فرق بين قتلها بالسيف وبين وضعها مكبلة في سجون دمشق ليفاجئها برأس زوجها الصحابي الجليل ابن الثمانين بعد ان طاف به في البلدان ، وقد اقتدى به ولده يزيد من بعده فطاف برأس الحسين (ع) ونسائه في البلدان وانتهى به المطاف ليضعه في قصر الحمراء بين يديه وينكت ثنياه بمخصرته بحضور نسائه وشقيقاته وأطفاله .

ومن تتبع تاريخ الابن وما ارتكبه من الجرائم والموبقات يجد ان يزيدا قد ورث عن ابيه جميع خصاله وصفاته بما في ذلك حقه على محمد وآله وان جميع ما قام به الابن قد قام بمثله وبما يشبهه ابوه من قبله . وقد أحس المسلمون بصدمة عنيفة لما جرى لعمر بن الحمق وزوجته وأيقنوا بأن كرامة خيارهم قد اصبحت تحت أقدام معاوية وزباد بن سمية وأمثاله من المردة والمرزقة ، وأرسل الامام ابو عبد الله الحسين رسالة الى معاوية يعبر فيها عن موقعه من هذا الحادث وأمثاله من الاحداث الخطيرة جاء فيها :

أولست قاتل عمرو بن الحمق العبد الصالح صاحب رسول الله (ص) الذي ابلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه بعدما أمنتته وأعطيته من عهود

الله ومواريقه ما لو اعطيته طائرا لنزل اليك من رأس الجبل ثم قتله جرأة
على ربك واستخفافا بتلك العهود التي اعطيه اياها .
وهذه الرسالة كما تعبر عن رأي الحسين (ع) وموقفه من تلك
الجريمة البشعة تعبر ايضا عن آراء الفئة المؤمنة من المسلمين وبقياس
الصحابة ولكن معاوية بما استعمله لتغطية جرائمه قد نجح الى حد ما
في تخدير الجماهير وبعث الخوف في اوساط الخاصة فلم يعد احد يجرؤ
على التعبير حتى عن رأيه باستثناء تلك الحفنة من الابطال الميامين كحجر
والخزاعي وأمثالهما ممن طابت لهم الشهادة فتقدموا اليها بنفوسهم
المطمئنة يجاهدون من ضل عن الحق وراح يتخبط في متاهات الباطل
والجور والظفیان .

أحمد بن حنبل

لقد كان أوفى بن حصن من أولئك المناضلين والمناوئين لسياسة الامويين وعملائهم الجائرة لم ترهبه سيوفهم ولا سجونهم المظلمة يتحدث بمساوئهم ويندد بهم في مجالسه وحيثما حل وارتحل ، وكان زياد بن سمية يتحرّاه ويتابع تحركاته وأخيرا أمر الشرطة بالقبض عليه فلم يمشروا عليه ، ولا سباب سياسية كان زياد يستعرض الناس فيحضر أوفى مع الناس وزياد ابن أبيه لم يعرف شخصه وحينما مر من أمامه قال لمن كان معه من جلاوزته : من هذا ؟ ف قيل له : هو أوفى بن حصن ، فأمر الشرطة بالقبض عليه فلما وقف بين يديه ، قال : اتك بخائن رجلاه تسعى ، والتفت اليه قائلا : ما رأيك في عثمان بن عفان ؟ فرد عليه بقوله : هو ختن رسول الله على ابنته ، وسأله عن معاوية فقال : جواد حليم ، وسأله عن رأيه فيه ، فقال : بلغني انك كنت تقول : في البصرة ، اما والله لأخذن البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر ، فقال له : نعم كنت اقول ذلك ، فقال : لقد خبطتها خبط عشواء ، فأمر الجلادين بقتله فقتلوه كما جاء في المجلد الثالث من الكامل

لابن الاثير (١) .

لقد كان باستطاعة اوفى بن حصن ان يسلم من الموت لو انه أقر سياسة زياد ولم يطمئن بها في مجلسه ، ولكنه آثر ان يقول الحق مهما كان الثمن غاليا وأن يمضي على الطريق الذي مضى عليها رفاقه الكرام ليحشر مع المجاهدين الذين عناهم النبي (ص) بقوله :
افضل الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر ، وليكون من افضل الشهداء الذين عناهم بقوله : افضل الشهداء عبي الحمزة ورجل قال كلمة حق في وجه جائر فقتله .

جويرية بن مسهر العبدى

لقد قضى جويرة شطرا من حياته مع امير المؤمنين الى جانب المقرين منه كميثم التمار ورشيد الهجري وغيرهما ممن اختصهم ببعض ما اخبره به النبي (ص) من الاحداث قبل وقوعها ، فقد جاء في المجلد الاول من شرح النهج عن ابراهيم بن ميمون عن حبة العرنى ان جويرية بن مسهر كان صالحا وصديقا لعلي بن ابي طالب (ع) وانه نظر اليه يوما وهو يسير في طريقه فتداه : يا جويرية الحق بي فاني اذ رأيتك احببتك ، فعدل عن الطريق ومشى وراءه فالتفت اليه وقال : الحق بي لا ابالك ألا تعلم اني اهوأك وأحبك ، فلما دنا منه قال له : اني محدثك بأمر فاحفظها ، ثم اشتركا في الحديث سرا على حد تعبير الراوي ثم قال له جويرية : يا امير المؤمنين اني رجل انسى فأعد علي حديثك لاحفظه ، فأعاد عليه الحديث ، ثم قال له : احب حبيبنا ما احبنا فاذا ابغضنا فابغضه وابغض ابغضنا ما ابغضنا فاذا احبنا فأحبه .

وأضاف الى ذلك ابن ابي الحديد ان جماعة ممن كانوا في شك من امر علي (ع) يقولون: أترأه يريد ان يجعل جويرية وصيا له كما يدعي هو الوصاية عن رسول الله (ص) وكانوا يقولون ذلك لما يرونه من ملازمته

لعلي واختصاصه به .

ومضى شارح النهج يقول ان جويرة دخل على علي (ع) وهو مضطجع وعنده جماعة من اصحابه فناداه جويرة : ايها النائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب بها لحيتك ، فتبسم امير المؤمنين (ع) وقال : وأنا أحدثك بأمرك ، اما والذي نفسي بيده لتقتلن الى القتل الزنيم فيقطع يدك ورجلك ويصلبنك تحت جذع كافر ، قال الراوي : فوالله ما مضت الايام على ذلك حتى اخذ زياد بن سمية جويرة وقطع يده ورجله وصلبه الى جانب جذع ابن معكيد وكان جذعا طويلا فصلبه على جذع قصير الى جانبه (١) .

عبد الله بن يحيى الحضرمي

لقد كان عبد الله الحضرمي من اولئك الذين حملوا راية الكفاح والنضال ولم يتنازلوا عن عقيدتهم وولائهم لعلي وآل علي (ع) كما لم ينحنوا لتهديدات معاوية وجلاديه ولا لسيوفهم وسجونهم المظلمة وقد ضربوا بذلك اروع الامثلة في الثبات على المبدأ والعقيدة والتضحيات في سبيلهما . وكان بالاضافة الى ولائه الاكيد لامير المؤمنين من شرطة الخميس ، وقد قال له يوم الجمل : ابشر يا عبد الله فانك وأباك من شرطة الخميس حقا لقد اخبرني رسول الله باسمك واسم ابيك في شرطة الخميس ولما قتل امير المؤمنين (ع) حزن عليه عبد الله بن يحيى واشتد به الحزن وأخيرا خرج من الكوفة واتخذ لنفسه محلا بعيدا عن الناس يتعبد فيه وظل الشيعة يترددون عليه بين الحين والآخر ، ولما علم ابن هند بجزعه وحزنه على امير المؤمنين وترديد فضائله بين اصحابه وفي مجالسه أمر واليه على الكوفة بالقبض عليه وعلى من كان يتصل به من الشيعة فقبض عليهم وأرسلهم الى معاوية فأمر بقتلهم صبورا (١) .

١ - انظر المجلد الثاني من كتاب القرشي الامام الحسن ص ٣٨٥ والخميس اسم من اسماء الجيش وسمي بذلك ، لان الجيش موزع الى خمسة اصناف المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة وقيل غير ذلك .

الى غير ذلك من عشرات المناضلين الذين قتلهم معاوية وزيايد بن سمية وغيرهما من ولاته لا لانهم نكثوا ببيعتهم وخرجوا عن طاعته او استحلوا دما حرمه الله بل لانهم لم يتبرأوا من علي ودينه وأنكروا عليه ما كان يمارسه هو وولاته من ظلم وجور واستهتار بالقيم والمقدسات .

محمد بن أبي حذيفة

لقد قتل ابن هند وابن سمية فريقا من اولئك المناضلين وامتسلات
سجونهم بالعشرات منهم وفر الباقيون هائمين على وجه الارض يطاردهم
الخوف والرعب من جلاديه فهدم دورهم وصادر ممتلكاتهم وترك نساءهم
وأطفالهم يتكففون اوجه الناس ويقتربون التراب . لقد كان محمد بن
ابي حذيفة بن عتبة في طليعة الموالين لعلي والمناوئين للحكم الاموي ومن
صلحاء المسلمين وقد لازم عليا في جميع حروبه ومعاركه ، وجاء عنه انه
قال : أبت المحامدة ان يعصى الله ^(١) .

وقد طارده معاوية بعد ان استتببت له الامور وقبض عليه ووضعه في
سجنه وأخرجه من سجنه بعد مدة من الزمن واستدعاه لمجلسه ليلعن عليا
ويتبرأ منه وقال له : ألم يأن لك ان تبصر ما كنت عليه من الضلالة بنصرتك
لعلي بن ابي طالب ، ألم تعلم ان عثمان بن عفان قتل مظلوما وان عائشة
وطلحة والزبير خرجوا يطالبون بدمه وان عليا هو الذي كان يحرض

٢ - وهم محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر الطيار ومحمد بن ابي
حذيفة .

الناس على قتله ونحن في حربنا لعلي وآل علي (ع) نطالب بدمه ؟
 فأجابه محمد بن ابي حذيفة بصراخه المعروفة وعدم محاباته لأحد
 على حساب دينه ومعتقداته : انك لتعلم يا معاوية اني أمس القوم بك رحما
 وأعرفهم بك وبأهدافك ونزعاتك ^(١) فوالله الذي لا اله غيره لا أعلم احدا
 شرك فسي دم عثمان وألب الناس عليه غيرك حينما
 استعملك وأمثالك وسلطكم على رقاب العباد وأموالهم ،
 ولما امتنع ان يضع حدا لك ولأمثالك فعلوا به ما بلفك ،
 ولم يشترك احد في قتله اولا وأخيرا سوى طلحة والزبير وعائشة فقد
 شهدوا عليه بارتكاب الكبائر وألبوا الناس على قتله ، ومضى يقول :
 واني لأشهد انك منذ عرفتك في الجاهلية والاسلام لملى خلق واحد لم
 يغير الاسلام منك شيئا ، وعلامة ذلك بينة فيك انك تلومني على حب
 علي وموالاته وتأمرني بسبه ، لقد وقف الى جانب علي كل صوام قوام
 من المهاجرين والانصار وخرج معك ابناء المنافقين والطلقاء والمعتقاه
 خدعهم عن دينهم وخدعوك عن دينك .

والله يا معاوية ما خفي عليك ما صنعت ، وما خفي عليهم ما صنعوا
 اذ أحلوا انفسهم بسخط الله في طاعتك ، والله لا ازال احب عليا لله
 ورسوله وأبغضك في الله ورسوله ما بقيت ، فارتاع معاوية منه واستبد
 به الغضب وأراد قتله وقال : انك لا تزال على ضلالك القديم يا ابن ابي
 حذيفة ، ولكن جماعة ممن كانوا في مجلسه لم يرجحوا له ذلك فرداه الى
 سجنه وأوصى بالتشديد والتضييق عليه وبقي في سجنه الى ان لفظ
 أنفاسه الاخيرة صائرا محتسبا لم يتردد لحظة واحدة في ولائه لعلي وآله
 ولا في ضلال معاوية وأعدائه (٢) .

١ - لقد كان محمد بن ابي حذيفة من اقرب الناس لمعاوية لان والده
 ابا حذيفة بن متبة شقيق هند آكلة الأكباد فهو ابن خاله ومعاوية ابن عمته .
 ٢ - رجال الكشي ص ٤٧ .

وقيل كما جاء في شرح النهج ان معاوية بعد هذا الموقف الذي وقفه منه لم يشأ ان يتولى قتله في ذلك المجلس لانه ابن خاله فحبسه في احدى سجون فلسطين ولكنه استطاع ان يخرج من السجن هربا بعد ان مكث فيه مدة من الزمن فاستدعى معاوية جماعة وأمرهم بمطاردته فقبضوا عليه في احد الكهوف وقتلوه قبل ان يصل الى معاوية (١) .

وهكذا كان مصير الاحرار والمناضلين من اجل الحق والعدالة والحرية ، كان مصيرهم من حكومة معاوية القتل والتعذيب والتشريد والتخليد في ظلمات السجون حتى الانفاس الاخيرة من حياتهم .

عبد الله بن هاشم المرقال

لقد كان عبد الله بن هاشم المرقال في طليعة اولئك الذين خطط معاوية وشقيقه الجديد ابن سمية لاستئصالهم لانه كان من أعيان الشيعة وزعمائهم الابطال الذين لم يخضعوا لغير الحق ولا يحابون احدا على حسابه ومن يرون ان البراءة من علي وآل علي (ع) لا تعني سوى البراءة من الاسلام ومن محمد ورسائله ومهما نسي معاوية فلم ينس مواقف المرقال في صفين وبطولاته التي كادت ان تؤدي الى هزيمة جيشه لولا المصاحف التي رفعت على رؤوس الأسنة والرماح .

لقد كانت الشهادة تنتظر ابن المرقال و ينتظرها بنفس مطمئنة وعزيمة صادقة كما كان ابوه في صفين ينتظرها بنفس الروح والعزيمة ، وكتب معاوية الى ابن سمية يطلب منه القاء القبض عليه ليتشفى بقتله والتكثير به كما تشفت أمه هند بنت عتبة بكبد الحمزة والتمثيل به .

وجاء في الرسالة التي كتبها الى ابن سمية : أما بعد فانظر عبد الله ابن هاشم فشد يده الى عنقه وابعته الي ، ولما وصلته رسالة معاوية او عز الى جلاوزته بالبحث عنه والقاء القبض عليه ، وحينما أحس العبد الصالح بذلك التجأ الى حي من أحياء الكوفة واختفى عن الناس في احد بيوته ،

ولما علم بوجوده في ذلك البيت احد المرتزقة شد الرحال الى معاوية
وأخبره بمكانه فكتب معاوية من فوره رسالة الى زياد جاء فيها :
أما بعد فاذا اتاك كتابي فاعمد الى حي بني مخزوم وقتشه بيتا بيتا
حتى تأتي دار فلانة المخزومية فاستخرج عبد الله بن المرقال منها واحلق
رأسه والبسه جبة من الشعر وغل يده الى عنقه واحمله الي على قتب بغير
وطاء ولا غطاء .

وعندما وصل اليه الكتاب قام زياد بتفتيش الحي بيتا بيتا وظفر به في
احد بيوته فأرسله الى معاوية على الكيفية التي ارادها ووصل السي
دمشق في يوم الجمعة اليوم الذي يستقبل به أشراف قريش ووجوه
اهل العراق في كل اسبوع ، ولم يشعر معاوية الا وابن هاشم مكبلا
بالحديد بين يديه فعرفه لاول نظرة ولم يعرفه ابن العاص ، فقال له
معاوية : هذا الذي كان ابوه في صفين يقول :

اني شريت النفس لما اعتسلا وأكثر اللوم وما اقلا
اعور يبقى اهله محلا قد عالج الحياة حتى مـلا
لا بد ان يقل او يقللا اسلمهم بذئ الكعوب سلا
لا خير عندي في كريم ولي

فتمثل ابن العاص حينما عرفه به معاوية بقول القائل :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيـا

والتفت الى معاوية قائلا : دونك يا امير المؤمنين الضب المضب
فاشخب أوداجه على اثباجه ولا ترده الى اهل العراق فانه لا يصبر على

النفاق وهم اهل غدر وشقاق وان له هوى سيوديه ورأيا سيظفيه وبطانة
ستفويه .

فانبرى اليه عبد الله كالاسد الغضبان غير هباب ولا وجل قائلا : يا
عبرو ان اقتل فرجل أسلمه قومه وأدركه يومه أفلا كان هذا منك اذ تحيد
عن القتال ونحن ندعوك الى النزال وأنت تلوذ بشمال النطاق وعقائسق
الرصاص كالأمة السوداء والنعجة القوداء لا تدفع يد لأمس (١) .

واستمر الحوار بين ابن العاص وابن المرقال وابن العاص ينهزم بين
يديه ثم يحاول ان يستعيد مكاتته بالتضليل والاحتتيال والافتراء على
عبد الله وأبيه ، ولكن عبد الله كان يطارده أينما ذهب ليكشفه على
واقعه الكريه في ذلك المجتمع الذي ضم أشراف قريش ووجهاء العراق
والشام وقال له :

يا عمرو انا قد بلوناك ومقاتلك فوجدنا لسانك كذوبا غادرا خلوت
بأقوام لا يعرفونك وجنود لا يسامونك ولو رمت المنطق في غير اهل
الشام لجحظ عليك عقلك وتلجلج لسانك واضطرب فخذاك اضطراب
القعود الذي أثقله حملة .

وهنا ادرك معاوية ان ابن العاص ساعده اليمين قد انهيار ورأى
الجباهير تتطلع الى ابن هاشم باعجاب وإكبار فقطع عليهما الحوار قائلا :
أيها عنكما وأمر بارجاع عبد الله بن هاشم الى سجنه وبقي فيه يتعرض
لاسوأ انواع التعذيب والأرهاق حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ، وقيل انه
أطلق سراحه بالرغم من ان ابن العاص قد حرصه على قتله وذكره بمواقف
ايه هاشم في صفين وغيرها في آيات ذكرها المؤرخون جاء فيها :

١ - النطاق الماء القليل والعقائق سهام الاعتذار ، والرصاص الحجارة
التي توضع عند مسيل الماء .

أليس ابوه يا معاوية السذي أعان عليا يوم حز الغلاصم
وهذا ابنه والمرء يشبه شيخه ويوشك ان تقرر به سن نادم

وغريب علي ابن هند ان يتفاضى عن ابن المرقال المتفاني في ولائه لعلي
وآل علي وبخاصة بعد تلك الهجمات العنيفة التي شنّها عليه وعلى زميله
المنافق المحتال ابن النابغة ، مع العلم بأنه قد قتل وروع وشرّد عشرات
الآلاف من الشيعة لا لشيء الا لتشيعهم لعلي وآل علي (ع) وكان مع
ذلك شرهاً في اراقة الدماء والتكيل بالصلحاء والابرياء ، لذلك كله فاني
أرجح ان تكون الرواية التي تدعي بأنه قد اطلق سراحه من صنع المرتزقة
الذين كانوا يحاولون ان يلصقوا به من صفات الابرار والكرام العلم
والعفو .

عبد الله بن خليفة الطائي

لقد كان عبد الله الطائي من المناضلين ضد الحكم الاموي ومن اصحاب حجر ورفاقه الذين تخرجوا من مدرسة امير المؤمنين التي كانت ثورة على الظلم والطغيان من اجل الانسان وكرامة الانسان التي داستها حكومة الامويين بأقدامها .

وجاء عنه انه قال لامير المؤمنين وهو في طريقه معه الى البصرة : الحمد لله الذي رد الحق الى اهله ووضعه في موضعه فان كره ذلك قوم فقد كرهوا محمداً ونابدوه وقاتلوه ، ورد الله كيدهم في نحورهم وجعل دائرة السوء عليهم ، والله يا ابا الحسن لأجاهدن معك في كل موطن حفظا لحق رسول الله (ص) .

وظل عبد الله على ولائه الاكيد لعلي حتى النفس الاخير من حياته واشترك مع حجر وأصحابه في ثورته ، ولما قبض زياد على حجر وأصحابه أمر الشرطة بالقبض عليه ، وبعد صراع طويل ومرير جرى له معهم قبضوا عليه وألقاه زياد في سجنه فاستنجدت اخته النوار بقومها الطائيين وطالبتهم بنجدة واخراجة من سجنه فثار الطائيون على الشرطة وناجزوهم حتى انتزعوه من ايديهم .

وأرسل زياد الى عدي بن حاتم الطائي يدعو لمقابلته ولما اجتمعا طلب منه زياد ان يسلمه عبد الله وبعد حوار طويل بين الطرفين قال له عدي بن حاتم : لا والله لا آتيك به ابدا أتريدني ان اجيئك بابن عمي لتقتله والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه . فغضب زياد وأدخله السجن ، حتى يأتيه بقرية الطائي ، فتحركت العصيات القبلية لسجن عدي بن حاتم ، ولم يبق في الكوفة يماني ولا ربيعي وطائي الا وطالب زيادا باطلاق سراحه وخشي زياد ان تتسع النقرة عليه وعلى الحكم الاموي ويتخذ الصراع شكلا قبليا ربما تشترك فيه أحلاف ربيعة وطيء من القبائل العربية التي لا يسعها ان تبقى محايدة اذا تعرضت حليفاتها للشر والعدوان .

فأطلق سراحه واشترط عليه ان يغيب ابن عمه عن الكوفة فوافق عدي على ذلك وأمر عبد الله بن خليفة بمغادرتها الى الجبلين ، فغادرها وعاش ما بقي من عمره بعيدا عن اهله ووطنه كما شاءت له ارادة زياد بسن سمية ^(١) ومات في منفاه وزياد لا يزال بين الاحياء كما جاء في تاريخ الطبري .

وكان يجيد نظم الشعر ، ومن شعره في منفاه قصيدة يرثي بها حجر ابن عدي وأصحابه ويصف حاله وما يعانيه في المنفى من الآلام والشوق لاهله ووطنه جاء فيها في وصفه لحجر بن عدي :

فنعم اخو الاسلام كنت وانتسي لاطمع ان تؤتى الخلود وتعجبرا
وقد كنت تعطي السيف في الحرب حقه وتعرف معروفسا وتنكر منكرا
ووصف فيها منفاه بقوله :

نفاني عدوي ظلما عن مهاجري رزيت بما شاء الإله وقـدرا
وأسلمني قومي بغير جناية كان لم يكونوا لي قبلا ومعشرا

١ - والجلان يقمان في مكان بعيد بعدا واسعا عن الكوفة يعرف بجبال طيء .

الى غير هؤلاء من رجالات الشيعة الذين تعرضوا للاعتقال والنفي والتشريد وماتوا في منفاهم في ظروف غامضة كصعصعة بن صوحان وعدي ابن حاتم وجارية بن قدامة ، اما صعصعة فكان من خيرة اصحاب امير المؤمنين (ع) وفيه يقول الامام الصادق (ع) : ما كان مع امير المؤمنين من يعرف حقه الا صعصعة بن صوحان واصحابه ومواقفه مع معاوية وجلاديه كما ترونها مجاميع التاريخ تؤكد بأنه كان من ذوي البصائر الصافية في دينه قوي الحجة واسع التفكير يهزم خصمه مهما بلغ من التفكير وحسن البيان كما حدث له مع معاوية وابن العاص وغيرها .

وأما عدي بن حاتم الطائي فقد كان من الشخصيات الاسلامية التي تتمتع بثقة الجماهير في العراق ومن البارزين بين اصحاب امير المؤمنين وشيعته ومن اجل ذلك تعرض للاهانة والاستخفاف من قبل ابن هند وحواشيه ودخل عليه يوما فقال له شامتا مستخفا به : ما فعلت الطرفات ، يعني بذلك اولاده طرفة وطريف وطارف ، وكانوا قد قتلوا مع علي بن ابي طالب ، فقال له : قتلوا مع امير المؤمنين ، فرد عليه معاوية بقوله : ما أنصفك علي لقد قتل اولادك وأبقى اولاده ، فقال له عدي بن حاتم : بل ما أنصفت عليا اذ قتل وبقيت بعده .

فاغتاظ من جوابه وقال له مهددا : أما والله لقد بقيت قطرة من دم عثمان لا يغسلها الا دم شريف من أشرف اليمن وكان يعنيه بذلك . فابرى اليه عدي مستخفا به وبتهديده وقال : والله يا معاوية ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا والسيوف التي حاربناك بها لا تزال في أيدينا ولئن اقبلت نحونا بغدرك فترا فسنلدنك اليك بسيوفنا شبرا وان حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من ان نسمع المساءة في علي وآل علي (ع) فسلم السيف لباعث السيف .

فتجاهل معاوية تهديده ^(١) وقال له : صف عليا ، فقال ابن حاتم : ان رأيت ان تعفيني من ذلك يا معاوية ، فرفض ان يعفيه وكان يعلم بأن كل صفة من صفات علي (ع) اذا مرت على سمع معاوية ستكون بمثابة طعنة في قلبه فاستغل هذه الفرصة وقال : كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول عدلا ويحكم فصلا تنفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته وكان مع ذلك غرير الدمعة طويل الفكرة يحاسب نفسه اذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى ، يعجبه من اللباس القصير ومن الطعام الخشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويدينا اذا اتيناه ، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيته ولا نرفع أعيننا اليه لعظمته يعظم اهل الدين ويتجلب الى المساكين ، لا يخاف القوي ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأقسم بالله يا معاوية لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرعى الليل سدوله وغارت نجومه ودموعه تنحدر على لحيته الكريمة وهو يتململ تمللم السليم ويكي بكاء الحزين وكأنني أسمعه الان وهو يقول : يا دنيا السي تعرضت ام الي اقبلت غري غيري لا حان حينك قد طلقك ثلاثا لا رجعة لي فيك فعيشك حقير وخطرك يسير آه من قلة الزاد وبعد السفر وفقد الانيس .

لقد تعمد ابن حاتم ان يصنع معاوية بكل واحدة من تلك الصفات التي كانت كالسهم المسمومة تنفذ الى قلبه وتعبث بأحشائه ، لان كل صفة منها تنطوي على التعريض والتنديد به وبأعوانه الجبابرة الجلادين الذين لا تعرف قلوبهم سبيلا الى الحق والعفو والرحمة .

وبلا شك فان معاوية كان في تلك اللحظات التي كان فيها ابن حاتم

مسترسلا في وصف علي (ع) في صراع مرير مع نفسه ، فحقده على علي (ع) وشيعته كان يدفعه الى الانتقام من عدي بن حاتم لانه قد عاهد نفسه وأمية على ان لا يترك لعلي ذاكرا بخير وأن لا يترك شتمه وسببه حتى يشب على ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير ، وعلى اساس ذلك فقد شرد عشرات الالوف من الشيعة وحتى من المتهمين بالتشيع وقتل جماعة من زعماء الشيعة ووجوههم كحجر وأصحابه والخزاعي ومن كان على رأيهم ، وهذا عدي بن حاتم لا يكتفي بمدح علي ، بل كان يتخذ من مدحه ستارا للتعريض به والتنديد بسياسته وسيرته ، وفي الوقت ذاته كان يترأى له من مكانة عدي بن حاتم في قومه وأحلافهم وعند العرب بصورة عامة ان قومه سوف لا يقفون من قتله او سجنه موقف المتفرج وستسمع المعارضة لدولته وبيته وتتخذ طابعا قريبا بالاضافة الى الطابع المذهبي او الاسلامي لو تعرض له بسوء .

واستطاع بعد صراع مرير مع نفسه حول الموقف الذي يجب ان يتخذه من عدي بن حاتم ان يجتاز تلك المرحلة الدقيقة من الصراع ويتفلسف من أمويته الحاقدة في تلك اللحظات وأن يتصنع البكاء خوفا على مصيره عندما سمع منه حديث علي مع الدنيا ويترحم عليه دجلا وتفضيلا في نهاية المطاف قائلا : رحم الله ابا الحسن لقد كان كذلك .

جارية بن قدامة

لقد كان جارية بن قدامة كغيره من زعماء الشيعة ثورة على الظلم والظفیان ومن المناهضين لسياسة معاوية التي اتسمت بالحقْد على علي أمير المؤمنين وشيعته ، وحينما وفد على معاوية بن هند استعمل معه نفس الأسلوب الذي كان يستعمله مع غيره من زعماء الشيعة بالاستخفاف والاستفزاز وما الى ذلك من الأساليب ، فقال له معاوية : انت الساعي مع علي بن ابي طالب والمشمعل لنار الحرب لتسفك الدماء .

فرد عليه قائلاً : يا معاوية دع عنك عليا فإنا ابغضناه منذ احببناه ولا غششناه منذ نصحناه ، وحينما سمع منه ذلك تحول الحوار بينهما الى لون آخر فقال له : ويحك يا جارية ما كان أهونك على أهلك اذ سموك جارية، فأجابه بقوله : انت يا معاوية كنت أهون على أهلك اذ سموك معاوية وهي الانثى من الكلاب كما في رواية ابن عبد ربه في العقد الفريد ^(١) .

واتسع الحوار بينهما الى التهديد والوعيد وجارية ينقض عليه كالصقر

١ - انظر ص ٤٠٣ من المجلد الثاني الامام الحسن للقرشي .

لا يترك له عورة الا كشفها وفضحها ، ومع ذلك فقد تحالم عنه ابن هند ليستر بذلك ولو بمض جرائمه التي كان يمارسها على الظنة والتهمة .
ولم تقتصر جرائم ابن هند وابن سمية على قتل الرجال ومطاردتهم واضطهادهم بل شملت بعض نساء الشيعة اللواتي اشتهرن بولائهن لعلي وآله الذين فرض الله مودتهم على جميع المسلمين كما نصت على ذلك الآية « لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » . فلم تذكر له امرأة من تلك النسوة المناضلات الا وأرسل في طلبها وقابلها بالاستخفاف والاهانة والتهديد والوعيد وأظهر لها ما يضره من الحقد والكراهية لأمير المؤمنين وشيعته ومن يناصره في قول او فعل .
وها نحن نقدم الى القراء صورا عن بعض تلك المواقف الخالدة التي وقفتها المرأة الشيعية الى جانب الابطال من الرجال في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة .

الزرقاء بنت عديم

لقد اشتهرت الزرقاء بنت عدي بين نساء عصرها ببلاغة المنطق والمواقف الجريئة من الحاكمين اعداء الحق والانسانية وبولائها لامير المؤمنين (ع) واشتركت معه في معاركه مع معاوية في صفين ، وكانت كما تؤكد اكثر المصادر تنصدر جيهاً القتال الى جانب اهل العراق تحرضهم على الثبات والنضال والمضي في المعركة حتى النصر .

وبعد مصرع امير المؤمنين واستتباب الامور لابن هند كتب الى عامله على الكوفة طالبا منه ان يحمل اليه الزرقاء مع من كان يطلبهم ويطاردهم من وجوه الشيعة وأعيانهم فأرسلها اليه تحت رقابة فريق من جيشه ، ولما دخلت عليه رحب بها وقال لها : أتعلمين لماذا ارسلت في طلبك ؟ فردت بجرأتها التي لازمتها في جميع مواقفها قائلة : سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أعلم وهل يعلم ما في القلوب غير الله .

فقال : بعثت اليك لكي اسألك عن مواقفك في صفين بين الصفيين توقدين الحرب وتحرضين على القتال وعما حملك على ذلك .

فقالت : يا معاوية لقد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر ابصر والامر يحدث بعده الامر ، وطلب منها ان تعيد عليه كلماتها

التي كانت تلقىها بين الجبهتين في صفين تعرض فيها اصحاب علي (ع) على الثبات والمضي في الحرب حتى النصر فلم تستجب لطلبه وقالت له اتقاء لشره : لا احفظ شيئاً منها ، فقال لها : انا احفظها لله ابوك يسا زرقاء ، واندفع يتلوها عليها فلما انتهى الى قولها : ان المصباح لا يضيء مع الشمس وان البغل لا يسبق الفرس وان الزف^(١) لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد الا الحديد الا ان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عواقب الامور ، ايها الى الحرب غير ناكسين ولا متشاكسين فهذا يوم له ما بعده .

ولما استعرض كلماتها هذه تغلب عليه الحقد والغضب وقال لها : والله يا زرقاء لقد شاركت علي بن ابي طالب في كل دم سفكه . فردت عليه ساخرة منه : احسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، مثلك من يشر بخير ويسر جليسه ، والله لقد سرتني قولك وأتمنى ان اكون كما ذكرت .

ولم يكن يحسب معاوية وهو في عنفوان جبروته والحاكم المسيطر على جميع طاقات الامة ومقدراتها ان يجزؤ احد على مقابلته بتلك الصلابة والجرأة وتتمنى امرأة اسيرة بين يديه على الله ان يحشرها مع من قاتله وسفك دماء جنده وأصحابه ، وبعد ان وجد ان العنف لا يرهبها ولا يضع حدا لولائها وتلفانيتها في حب علي وآل علي ولا لجرأتها عليه ، تراجع أمامها الى اساليب المكر والمخادعة التي اعتاد عليها ، وقال لها : والله لو فاءؤكم له بعد موته أحب الي من حبكم له في حياته ، وتمنى عليها ان تذكر له حاجتها وما يهملها من أمور دنياها لينمها ما تريد ،

١ - الزف هو الصغير من الريش .

فرفضت ان تمد يدها اليه وقالت : لقد آليت على نفسي ان لا أسأل اميرا
اعنت عليه شيئا ابدا .
ولكن بعض المصادر تدعي بأنه قد اقطعها ضيعة من ضياع الكوفة
ودفع اليها مبلغا من النقود وردها الى اهلها (١) .

١ - بلاغات النساء لطيفور طبع النجف ص ٣٢ .

أم الخير البارقية

ومن النساء اللواتي اشتركن في الثورة على الحكم الاموي أم الخير البارقية وقد اشتهرت بولائها واخلاصها لعلي وآله وكانت فسي صفين تعرض الجماهير على حرب ابن هند وتستثيرهم بخطبها وأناشيدها مرتدية ببرد زيدي كيف الحاشية على جمل ارمك ^(١) وقد أحيط بها ويدها سوط وهي كالفضة يهدر في شقشقته على حد تعبير الراوي وتقول :
ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ان الله قد اوضح لكم الحق وأبان الدليل وبين السبيل ورفع العلم ، ولم يدعكم في عمياء مبهم ولا سوداء مدلهمة فأين تريدون رحمكم الله ، أفرارا عن امير المؤمنين ام فرارا من الزحف ام رغبة عن الاسلام ام ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم قول الله سبحانه «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم» .
ثم رفعت رأسها الى السماء وقالت : اللهم قد عيل الصبر وضمف

١ - الجمل الارمك ما كان لونه لون الرماد .

اليقين وانتشرت الرغبة ويدك يا رب أزمة القلوب بأجمعها اللهم اجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى واردد الحق الى أهله ، هلموا رحمكم الله الى الامام العادل والرضي التقي والصديق الاكبر انها احن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها واثب ليدرك ثارات عبد شمس .

ومضت تقول : صبرا يا معشر المهاجرين والانصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأنني بكم وقد لقيتم اهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري اين تسلك من فجاج الارض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الأقالة ولات حين مناص وأضافت الى ذلك :

فالى اين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله (ص) وصهره وأبي سبطيه خلق من طينته وتفرع من نبعته وخصه بصره وجعله بساب مدينته وأبان ببغضه المنافقين وها هوذا مفلق الهام ومكر الاصنام صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى اهل أحد وهزم الاحزاب وقتل الله به اهل خير وفرق به جمع هوازن فيا لها من وقائع زرعت في القلوب ثقاقا وردة وشقاقا وزادت المؤمنين ايماناً .

فقال لها معاوية : والله يا أم الخير ما اردت بهذا الكلام الا قتلي ولو قتلتك ما خرجت في ذلك ، فردت عليه بقولها : والله ما يسوءني ان يجري قتلي على يد من يسعدني الله بشقائقه .

فقال لها : ما تقولين في عثمان بن عفان يا كثيرة الفضول؟ قالت : وما عسيت ان اقول في عثمان ؟ لقد استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون .

واستمر في حوارها بجبروته وقسوته ، وأشباح السيوف التسي

تقطر من دماء الموالين لأمير المؤمنين (ع) تتراعى لها من خلال كلماته، ومع ذلك فلم تتزحزح عن رأيها فيه وفي عثمان وأسرته ولا عن أسلوبها الذي يتسم بالصراحة والعنف ، وقالت له عندما لوح لها بالعقوبة : ارجو ان يسعدني الله بشقائقك ، وعندما سألتها عن عثمان قالت : لقد قتله المسلمون وهم له كارهون . ولما وجد انها لن تلين ولن تخضع لجميع وسائله ووعيده ولن تراجع امام تهديداته عن ولائها لأمير المؤمنين وان العنف يزيدها اصرارا وتمسكا بعمقيدتها ومبدئها أطلق سراحها وردها الى اهلها .

أم البراء بنت صفوان

وجاء في المجلد الاول من صبح الاعشى ان أم البراء بنت صفوان دخلت على معاوية ، فقال لها : كيف انت يا بنت صفوان ؟ قالت : ضعفت بعد جلد وكسكت بعد نشاط ، قال : شتان بينك اليوم وحين تقولين :

اسرج جوادك مسرعا ومثمرا للحرب غير معرد بفرار
اجب الامام ودب تحت لوائه والى العدو بصارم بتار
يا ليتني اصبحت لست قعيدة فأذب عنه عاكر الكفسار

قالت : قد كان ذلك ومثلك من عفا والله تعالى يقول : «عفا الله عما سلف» ومن عاد فينتقم الله منه ، فقال لها : هيهات والله لو عاد لعدت ولكن اخترم منك ، فقالت له : أجل واني لعلى بيته من ربي وهدى من امري ، فقال لها : كيف كان حالك يوم قتل وماذا كنت تقولين فسي رثائه ، فرفضت ان تعيد عليه الايات التي كانت تندبه بها ، فقال له بعض جلسائه : لقد كانت تقول :

الشمس كاسفة لفقد إيماننا خير الخلائق والامام العادل
يا خير من ركب المطي ومن مشى فوق التراب لحتف او ناعسل
حاشا النبي لقد هددت قوامنا والحق اصبح خاضعا للباطل

فقال لها معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل ، ولما قامت من
مجلسه لتصرف عثرت ، فقالت : تعس شانيء علي (ع) وانصرفت ومعاوية
يراقب تحركاتها واستخفافها به وبجلاده بمرارة وألم .

بكاوة الهلالية

لقد كانت الهلالية من سيدات النساء المعروفات بالفصاحة والبلاغة في منطقها وبيانها والتفاني في ولائها لعلي وآله (ع) وقد اشتركت معه في معركة صفين بخطبها الحماسية المثيرة وتحريضها اهل العراق على القتال والصبر والثبات حتى النصر ولم تفارق المعركة حتى النهاية وحينما استدعاها معاوية فيمن كان يستدعيهم من الرجال والنساء وفدت عليه ويدها عكاز تستعين به فسلمت عليه بالخلافة فرد عليها ردا جسيلا وأذن لها بالجلوس وهو لا يعرفها، ولما استقر بها المجلس عرفها مروان بن الحكم فالتفت الى معاوية قائلاً : هذه يا امير المؤمنين التي كانت تحرض علينا في صفين وتقول :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا سيفا حماما في التراب دفيننا
قد كان مدخورا لكل عزيمة واليوم ابرزه الزمان مصوننا
ثم اندفع ابن العاص وقال : وأنا ما زلت أحفظ لها آياتنا كانت
تنشدها بين الصنفين داعية فيها اهل العراق الى المضي في الحرب حتى
النصر تقول فيها :

أتسرى ابن هند للخلافة مالكا هيات ذاك وما اراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة اغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت عليا اسعد وسعود

وقام بعدهما سعيد بن العاص وقال : يا معاوية وهي القائمة بعد ان
اتتهت اليك الخلافة :

قد كنت آمل ان اموت ولا ارى فوق المنابر من أمة خاطبا
فالله أخّر مدتي فتناولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل احمد عابا

وكانت غاية مروان وقريبه سعيد بن العاص وابن النابغة استفزاز
معاوية وتفجير حقه على تلك المرأة الصالحة للتشفي من شيعة علي وآل
علي ، ومن غير البعيد ان تكون تلك الايات قد صيغت بلسانها لهذه
الغاية .

ومع انها كما يبدو من جوابها قد ادركت غايتهم من ذلك الموقف
الحاقد فلم تلن ولم تخضع لتلك الاستفزات والتحديات ولم تتصل من
تلك الايات والتفتت الى معاوية وقالت : لقد نبحتني كلابك يا معاوية
واعتورتني فقصرت محجتي وكثر عجبتي وغشي بصري وأنا والله قائمة ما
قالوا لا ادفع ذلك بتكذيب قامض لشأنك فلا خير بالعيش بعد امير
المؤمنين وانسحبت من مجلسهم ومعاوية لا يزال مالكا لاتزانه ميطرا على
أحقاده لم يتعرض لها بسوء (١) .

١ - انظر بلاغات النساء ص ٢٤ والمجلد الاول من صبح الاعشى وغيرهما .

اروهم بنت الحارث

لقد كانت اروى كما تصفها المؤلفات في هذه المواضع من كرام نساء عصرها في دينها وشجاعتها ومنطقها ووفائها لعلي وآل علي (ع) وحينما وفدت على معاوية فيمن كان يستدعيهن من نساء الشيعة اللواتي وقفن الى جانب الابطال من الرجال المناضلين لارهابهن واذلالهن لم تلسن لجبروته وطفئانه وكانت تخاطبه تارة بلغة الناصح المشفق وأخرى بلغة العدو الحاقد وتنقض عليه وعلى ابن العاص ومروان بن الحكم كالصقر لم تترك لهم سترا الا فضحته ولا عيبا الا نشرته .

وانجبت الى معاوية اولا وقالت له : انت يا ابن اخي لقد كفرت بالنعمة وأسأت لابن عمك علي الصلبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الاسلام ولقد كفرتم بما جاء به محمد ابن عبد الله (ص) فأتعنس الله منكم الجدود وأصغر منكم الخدود ورد الله الحق الى اهله ، وكانت كلمة الله هي العليا ونبينا محمد (ص) هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون ، وكنا اهل البيت اعظم الناس حظا ونصيبا وقدرنا في الدين حتى قبض الله نبيه اليه مغفورا ذنبه مرفوعا درجته شريفا مرضيا عند الله ، فصرنا اهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى

من آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، ومضت تقول : ولم يجتمع بعد رسول الله لنا شمل ولم يسهل لنا وعر وغايتنا الجنة وغايتكم النار .

وكان ابن العاص في مجلس معاوية يستمع لكلامها هو ومروان بن الحكم وغيرهما من جلاوزة معاوية ومرترقة فأظهر عدم ارتياحه لها لان كلماتها القاسية تسع لمعاوية وجميع من يناصره وابن العاص في طليعتهم ، فقال لها : ايتها المعجوز الضالة اقصري من قولك وغيضي من طرفك ، فالتفت اليه وقالت من انت لا أم لك ؟ فقيل لها انه عمرو بن العاص .

فقال له كما جاء في بلاغات النساء والمجلد الاول من العقد الفريد وغيره : يا ابن اللغناء النابغة أتكلمني اربع على ضلعك وأعن بشأن نفسك ، فوالله ما انت من قرش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادعاك ستة من قرش كل واحد يزعم انه ابوك ، ولقد رأيت امك ايام منى بسكة مع كل عبد عاهر فأتهم بهم فانك بهم ائبه .

وهنا التفت اليها مروان بن الحكم كما يدعي الرواة وقال لها : ايتها المعجوز الضالة ساخ بصرك مع ذهاب عقلك فلا تجوز لك شهادة .

فأجابته بقولها : يا بني أتكلم فوالله لأنت الى سفيان بن الحارث ابن كلدة أشبه منك بالحكم ، وانك لتشبهه في زرقة عينيك وحمرة شعرك مع قصر قامته وظاهر دمامته ، والله لقد رأيت الحكم ماد القائمة سبط الشعر وما بينكما من قرابة الا كقرابة الفرس الضامر من الاتان المقرب فاسأل أمك عما ذكرت لك فانها تخبرك بشأن ابيك ان صدقت ، والتفت الى معاوية وقالت : والله يا معاوية ما عرضني لهؤلاء غيرك وان امك لقد قالت في احد شامته متبجحة بقتل عمي الحمزة بن عبد المطلب رحمه الله :

نحن جزيناكم يوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر

ما كان عن عتبة لي من صبر ابي وعي وأخسي وصهري
 شفيت وحشي غليل صدري شفيت نفسي وقصيت نذري
 فشكر وحشي علي عمري حتى تغيب اعظمي فسي قبري

ومضت تقول : لقد اجبتها بالايات التالية :

يا بنت رقعاع عظيم الكفر خريت فسي بدر وغير بدر
 صبحك الله قيل الفجر بالهاشميين الطوال الزهر
 بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعلي صقري
 هتك وحشي حجاب الستر ما للبغايا بعدها من فخر

ولما سمع معاوية البيت الاخير ثار على ابن العاص ومروان بن الحكم وقال لهما : اتما عرضتاني لها وأسمعتاني ما اكره ، ثم التفت اليها وقال : يا عمة اذكرني حاجتك ودعي عنك اساطير النساء ، وقضى لها حاجتها وانصرفت من مجلسه بعد ان وطئت كرامتهم بقدميها وجردتهم من جميع القيم وحتى من أنسابهم وتركهم حديثا كريها على لسان الاجيال، وبقيت سلية هاشم وابنة عبد المطلب وغيرها من الوافدات على معاوية في تلك الظروف القاسية الصعبة مثلا كريما للمرأة المناضلة الشجاعة الوفية لدينها وعقيدتها وشرفها بالرغم مما أحيط بها من وسائل الارهاب والاذلال والمطاردة .

على اني أشك في اكثر ما نسب اليها والى مثيلاتها من الشيعة اللواتي كان معاوية يستدعيهن اليه بين الحين والآخر من الشعر والخطب والاجوبة الحادة ، والمتيقن منه مهما كان حجه ولونه يؤكد وقوف المرأة الشيعية الى جانب المناضلين عن عقيدتهم وولائهم لامير المؤمنين (ع) ومهما كان الحال فالنساء اللواتي وقفن الى جانب الابطال من رجال

الشيعة المناضلين كحجر بن عدي وأصحابه وعدي بن حاتم وعمرو بن الحمق وثبتن على ولائهن لأمير المؤمنين ولم يخضعن لسياط الجلادين ولا لسيوفهم المسلطة وسجونهم المظلمة كثرات كما احصتهم المجاميع كنهاية الأرب وصحيح الأعشى والدر المنثور وغيره (١) .

ونكتفي بهذه الأمثلة ممن وقفن الى جانب الأبطال من الرجال خلال الفترة الواقعة بين صلح الحسن السبط (ع) وثورة الحسين التي انتهت بمصرعه في سبيل الاسلام ومبادئه وقيمه ، نكتفي بهذه الأمثلة من الرجال والنساء لنتقل الى لون آخر من ألوان النضال خطه ابو عبد الله الحسين بن علي (ع) بدمائه الزكية الطاهرة على تراب كربلاء وهو يقول:

ان كان دين محمد لم يستقم الا بقتلي يا سيوف خذي

١ - انظر ادب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه ص ١٥٨ .

ثورة الحسين (ع) على الظلم والظالمين

لقد ذكرنا سابقا ان الحاكمين باسم الاسلام من الامويين وغيرهم قد اتخذوا منه طلاء خفيفا يسترون به نزعاتهم الجاهلية ويعملون على تحويله لاهدافهم التي حارب محمدا ورسالاته من اجلها ابو جهل وأبو سفيان وأمثالهما من طواغيت قريش ليحولوه الى مؤسسة تخدم مصالحهم ، وكان المجتمع الاسلامي يتحمل تحت وطأة الاضطهاد والظلم التي عبرت عنه مواقف حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وأصحابهما الذين قاوموا ظلم معاوية وأنصاره ولكن تلك المقاومة لم تأخذ مداها ولم تضع حدا لتصرفات الحاكمين وجورهم ، بل كانت سرعان ما تخدم او تموت في مهدها عندما يلاحق الجزارون طلائع تلك الانتفاضات بقتلهم او زجهم في السجون والمعتقلات بدون ان يحرك المجتمع ساكنا واذا تحرك انسان اغدقوا عليه الاموال وأغروه بالوعود كما حدث لمالك بن هبيرة المكنوني الذي غضب لمقتل حجر وأصحابه وجعل يستعد للثورة ، ولما علم بحاله معاوية ارسل اليه مائة الف درهم فأخذها وطابت نفسه (١) .

١ - انظر المجلد الثالث من الكامل لابن الاثير ص ٢٤٢ .

لقد عاصر الحسين (ع) جميع تلك التحركات التي بدأها الامويون المتوطلون الءاقءون على الاسلام ومبادئه الانسانية العاءلة ، لقد عاصرها منذ ان نشأت مع ابيه وأخيه والصفة من اصحابها الكرام وعاصرها مع اخيه ومن بقي من اصحابه وها هو بعد اسءهاد اخيه بءنود العمل التي أعدھا معاوية لكل من كان يخشى منه على دولته وءكمه يقف وحيدا ضد معاوية وأجهزة ءكمه الارهابي ويرى بيمينه اولئك الصفة بقية السوف من شيعه ابيه وأخيه يساقون أفواجا الى الجلائين والجزارين في مرج عذراء وقصر الخضراء ، ويرى نهج معاوية وءاشيته الذين اعتمدوه للوصول بالامة الى هذا المصير الكالء وكيف يطاردون ويضطهدون العشرات والمئات من الناس ، عندما ينكرون ظلما وعدوانا على المقدسات وكرامة الانسان .

لقد عاصر مع ابيه وأخيه (ع) جميع ءركاتهم المعادية للاسلام وبقي وحيدا في ساحة الصراع مع معاوية وأجهزة ءكمه الارهابي المسءبء الذي اراد للامة ان ءءول عن اءءافها وللإسلام ان ينءرف عن مسيرته ورآهم كيف يءورون الإسلام ويزورون مبادئه الانسانية التي جاء بها محمد بن عبد الله رءمة للعالمين ، ورأى ءملة الءءدير على ءساب الدين والءذب على الله ورسوله وكيف يبيع المسلم نفسه وءيائه وءريته وكرامته بءفئة من الءراهم للءاكمين الظالمين ويرضى بءيائه على ما فيها من نكء وقسوة وءرمان .

لقد رأى كل ذلك وكان القلق يسءبء به والالم يءز نفسه وقلبه لمصير الرسالة والانسانية في ظل هذا الءءول الخطير الذي كان الامويون يعملون على ءعميقه واسءءصال الشءصية الإسلامية ليطنئن الءاكمون الى ان ءصرفاءهم لن ءثير اي اسءنكار لءى الجماهير ويءفني من ضاءرهم الشءور بالائم الذي يءفع المسلم الى الءورة على الظلم والظالمين .

وقد استخدم الامويون في سبيل استئصال الروح الاسلامية والشخصية الاسلامية بالاضافة الى الاموال وجميع وسائل الارهاب مدرسة الرواة والمحدثين والقصاصين وعلى رأس هذه المدرسة ابو هريرة وسمرة بن جندب وكعب الاحبار وغيرهم من أقطاب تلك المدرسة التي أسسها معاوية لصنع الاحاديث ، وقد افرزت ألوانا من الاحاديث ونسبتها الى النبي (ص) وكان من ابرزها ما يرجع الى القدح في علي امير المؤمنين وآل علي (ع) واستفرغ معاوية كل وسعه وطلب من سمرة بن جندب ان يروي له عن الرسول ان الآية ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها نزلت في علي (ع) وان الآية «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» نزلت في قاتله عبد الرحمن بن ملجم .

كما طلب هشام بن عبد الملك من محمد بن شهاب الزهري ان يروي عن الرسول ان الآية «والذي تولى كبره له عذاب عظيم» نزلت فسي علي ايضا .

وجاء في المجلد الثاني من ضحى الاسلام لاحمد امين ان خالد بن عبد الله القسري كان قد طلب من ابن شهاب الزهري ان يكتب سيرة النبي (ص) فقال له الزهري يوما : انه يمر بي الشيء من سيرة علي بن ابي طالب ومواقفه في خدمة الاسلام فما اصنع به ؟ فلم يأذن له بتدوين شيء يتعلق بعلي (ع) الا اذا تضمن قدحا او ذما الى كثير من أمثال ذلك . ومن تلك الالوان التي افرزتها تلك المدرسة ما يرجع الى تمجيد بني أمية وبخاصة عثمان ومعاوية واعطائهم مرتبة القديسين ، كالذي رواه ابو هريرة عن النبي (ص) انه قال : ان الله اثمن على وحيه ثلاثة انسا وجبرائيل ومعاوية ، وانه قال : اذا لقيتم بعدي اختلافا وفتنة فعليكم بالامين عثمان وأصحابه .

ومنها ما يرجع الى تخدير المسلمين عن الثورة والتحرك ضد الحاكمين مهما بالغوا في الجور والظلم وان السعي والعمل لاستبدالهم بغيرهم حتى ولو كان ذلك الغير من أعدل الناس وأكثرهم حرصا على مصالح المسلمين لا يقره الاسلام فمن ذلك ما رواه اصحاب الصحاح ان النبي (ص) قال: من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فان من فارق الجماعة شبرا ومات مات ميتة جاهلية ، ومنها انه قال : ستكون بعدي هنات وهنات فمن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائنا من كان ، الى غير ذلك مما رواه البخاري وغيره من محدثي اهل السنة وقد ذكرنا طائفة من تلك الروايات خلال الفصول السابقة .

والى جانب ما انتجته مصانع اولئك الرواة اخترع الحاكمون لونا اخر من ألوان التضليل الديني ، وهو تأسيس الفرق الدينية التي تقدم للجماهير تفسيرات للدين تخدم تسلط الحكام وتبرر جورهم وظلمهم كفرقتي المرجئة والمجبرة اللتين اعتنقهما معاوية وسهل لهما سبيل البقاء والانتشار حتى اصبحتا من أوفر المذاهب حظا لدى الحاكمين ، وقد كفرت بعض فرق المعتزلة معاوية لانه اعتنقها ودعا اليهما كما جاء في المجلد الاول من شرح النهج ، وقد تحدثنا عن هذه الفرق وأثرها على مسيرة الاسلام خلال حديثنا عن انواع الاسلحة التي استعملها الحاكمون لتخدير الجماهير وإلهائهم عن الواقع المرير الذي يتخططون فيه .

لقد رافق ابو عبد الله الحسين (ع) كل ذلك وكان يتلوى ويتألم للمصير السيئ الذي ينتظر الاسلام من معاوية وغيره من القردة الذين سينزولون على منبر الرسول ويستخدمون الاسلام لاحياء جاهليتهم ووثنياتهم الاولى ، وكانت مبررات الثورة على الحكم الاموي موفورة في عهد معاوية والحسين (ع) يدركها ويعرفها ويعبر عنها في المجالس والمجتمعات وجميع المناسبات ويصارع بها معاوية في الرسائل التي كان يوجهها اليه

بين الحين والآخر وجاء في بعضها •

وهيئات هيهات يا معاوية لقد فضح الصبح فحة الدجسى وبهرت
الشمس أنوار السرج ولقد نقلت حتى افطمت واستأثرت حتى اجحفت
ومنعت حتى بخلت وجرت حتى جاوزت ولم تبذل لذي حق من حقه
بنصيب حتى اخذ الشيطان حظه الاوفر ونصيبه الاكبر •

وفي رسالة ثانية وجهها اليه كانت جوابا عن كتاب كتبه اليه جاء فيها:
لقد بلغني كتابك تذكر فيه انه انتهت لك عني أمور انت لي عنها راغب
وأنا بغيرها عندك جدير فان الحسنات لا يهدي اليها ولا يسدد لها غير
الله سبحانه •

وما ذكرت انه رقي لك عني فانما رقا لك الملاقون المشاؤون بالنميمة
المفروقون بين الجمع وقد كذب الغاوون ، واعلم بأني ما اردت لك حربا ولا
عليك خلافا واني لآخشي الله في ترك ذلك منك ومن الاعذار فيه اليك
والى أوليائك القاسطين الملحدين حزب الظلمة وأولياء الشيطان ، ألتست
القاتل حجر بن عدي اخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا
ينكرون الظلم ويستفطمعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ولا يخافون في الله لومة لائم ومع ذلك فقد قتلتهم ظلما وعدوانا بعدما
اعطيتهم الموائيق والايامن المغلظة والموائيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث
كان بينك وبينهم جرأة منك على الله واستخفافا بعهده وأحكامه ، أولست
يا معاوية قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله العبد الصالح بعد ما
أمنتته •

أولست المدعي لزياد بن سمية المولود على فراش عبيد من ثقيف
وزعمت انه ابن ابيك ورسول الله يقول : الولد للفراش وللماهر الحجر
فتركت سنة رسول الله واتبعت أهواءك بغير هدى من الله ولم تكتف
بذلك حتى سلطته على المسلمين يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل عيونهم

ويصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك .
أولست يا معاوية صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية انهم
على دين علي (ع) فكتبت اليه ان يقتل كل من كان على دين علي فقتلهم
ومثل بهم بأمرك ودين علي هو دين ابن عمه الذي كان يضربك ويضرب
عليه أباك وبه جلست مجلسك الذي انت عليه .

وقلت فيما قلت : يا معاوية انظر لنفسك ولأمة جدك ولدينك واتق شق
عصا هذه الامة وان تردهم الى فتنة ، واني لا أعلم يا معاوية فتنة اعظم على
هذه الامة من ولايتك عليها ولا اعظم نظرا لنفسي ولديني ولأمة
محمد (ص) من ان أجاهدك .

وقلت فيما قلت يا معاوية: انظر لنفسك ولأمة جدك ولدينك واتق شق
لك فاني ارجو ان لا يضرنى كيدك وأن لا يكون على احد أضر منه على
نفسك لانك قد ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك ولعمري ما
وفيت بشرط ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلهم بعد الصلح
والايمان والعهود والمواثيق ولم تفعل ذلك الا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم
حقنا وليس الله بناس لاخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهمة ونفيك
لهم من دورهم الى دار الغربة ومطاردتهم في البلدان وملاحقتهم الى
الكهوف والغابات (١) .

الى غير ذلك من مواقفه منه التي تؤكد بأنه كان يراه اسوأ من ابنه
يزيد وأشد خطرا منه على الاسلام والمسلمين .
ومع انه في جميع مواقفه كان يقابل معاوية وولاته وجلاديه بهذا
الاسلوب ولا يهادنهم بحال من الاحوال ، فقد كان معاوية يتمنى عليه ان
يخفف من أسلوبه معه وقد توسل اليه بالشدة حيناً وباللين والمفريات

حيناً آخر وبخاصة عندما عزم على البيعة ليزيد من بعده ، لأن سكوته يؤمن له انقياد الامة ويمكنه من ممارسة سياسته بدون خشية ، ولكنه ابى ان يسكت عنهم او يخضع لمغرياتهم وينحني لقسوتهم لأن دوره الرسالي يفرض عليه ان لا يسكت ولا يهادن وأن يثور عسى ان تهز ثورته ضمير الامة التي انحنت وخضعت لجبروت السلطة زمناً طويلاً ، لأن المجتمع الذي خضع طويلاً لجبروت الامويين وانحني لكبرياتهم لم يعد يصلحه الكلام ، ولا بد له من شيء جديد يهزه ويحركه .

هذا الواقع الكالاح الذي كانت تتخبط فيه الامة وضع الحسين (ع) وجها لوجه امام دوره التاريخي ورسالته النضالية وفرض عليه ان يثور من اجل كرامة الامة وافتاد شريعة جده من اعدائها الألداء عندما وجد ان ثورته ستعطي ثمارها المرجوة وان شهادته ستقضي مضاجع الظالمين والطفاة المستبدين وتبقى المثل الاعلى لكل ثائر على الظلم والظفان في شرق الارض وغربها .

والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو ان الحسين (ع) قد عاصر معاوية مع ابيه وأخيه وعاصره بعد أخيه نحواً من عشر سنوات كسان الحسين وحده مهوى الافئدة ومحط آمسال المعذنين والمشردين والمضطهدين ، ولم يترك معاوية خلال تلك المدة الطويلة من حكمه باباً من ابواب الظلم الا وانطلق منه فقتل المئات من الصلحاء وعذب وشرد واضطهد الملايين بلا جرم ارتكبه ولا بيعة نقضوها وكان ذنبهم الاول والاخير هو ولاؤهم لعلي وآل علي ، وكان القدوة لجميع من جاء بعده من الامويين فيما ارتكبه من الجرائم والاستهتار بالقيم والمقدسات وهو الذي كان يعمل ويضع الاسس لتحويل الاسلام وتحقيق ما كان يحلم به ابو جهل وأبو سفيان وغيرهما من طواغيت قريش ، ولم يكن ولده يزيد الا صنيعاً من صنائعه وسيئة من سيئاته ، فلماذا والحالة هذه ابتعد

عن الثورة في عهد معاوية مع وجود جميع مبرراتها في حين ان المبررات التي دفعته للثورة على يزيد كانت امتدادا لتلك التي كان يمارسها معاوية .

وهذا التساؤل يبدو لاول نظرة سليما ومقبولا ، ولكنه بعد التدقيق ومتابعة الاحداث التي كان المسلمون يعانون منها وواقع معاوية بن هند والوسائل التي كان يستعملها لتفطية جرائمه لم يعد لهذا التساؤل ما يبرره ، ذلك لان الواقع المرير الذي فرض على الامام ابي محمد الحسن (ع) ان يصالح معاوية ويتنازل له عن السلطة الزمنية فرض على الحسين (ع) ان لا يتحرك عسكريا في عهد معاوية وأن يفرض على اصحابه وشيعته الخلود الى السكينة وانتظار الوقت المناسب ، لان الحسن (ع) لو حارب معاوية في تلك الظروف المشحونة بالفتن والمتناقضات مع تخاذل جيشه وتشتت أهوائهم وآرائهم ومع شراء معاوية لأكثر قادتهم ورؤسائهم بالاموال والوعود المغرية بالاضافة الى ما كان يملكه من وسائل الاعلام التي كان يستخدمها لتضليل الرأي العام ، لو حارب الحسن (ع) في تلك الظروف فكل الدلائل تشير الى ان الحرب كانت ستكلفه نفسه ونفس اخيه واستئصال المخلصين من أتباعه وشيعته ولا ينتج منها سوى قائمة جديدة من الشهداء تضاف الى القوائم التي دفنت في مرج عذراء ودمشق والكوفة وغيرها من مقابر اولئك الشهداء الابرار .

وبلا شك فان الامام ابا محمد (ع) لم يكن يتهيب الشهادة لو كانت تخدم المصلحة العامة وتعد المجتمع الاسلامي اعدادا سليما للشسورة والتضحية بكل شيء في سبيل المبدأ والعقيدة كما فعلت ثورة الحسين (ع) في حينها التي قدمت للانسان المسلم نمطا جديدا من الثوار لا يستسلم للضغوط مهما بلغ حجمها ولا يساوم على انسانيته ودينه ومبدئه مهما

كانت التضحيات •

ولم يكن الحسين (ع) أقل ادراكا لواقع المجتمع العراقي من اخيه الحسن (ع) فقد رأى من خيافته وتخاذله واستسلامه للضغوط والمغريات مثل ما رأى اخوه وأبوه من قبله ، لذلك كله فقد أثر التريث ريشا يتوفر لشهادته ان تعطي النتائج التي تخدم الاسلام وتبعث اليقظة والروح النضالية في نفوس المسلمين ، وراح يعمل على تهيئة المجتمع العراقي للثورة وتعبئته لها بدل ان يحمله على القيام بها في عهد معاوية حتى لا تكون نتائجها لصالحه وحده •

لقد مضى على ذلك في حياة اخيه وبعد وفاته ، ففي حياة اخيه حينما فاضته وفود الكوفة في الثورة على معاوية بعد ان يسوا من استجابة الحسن قال لهم ابو عبد الله (ع) : صدق اخي ابو محمد فليكن كل رجل منكم حلما من احلاس بيته ما دام معاوية حيا كما جاء في ص ٢٢١ من الاخبار الطوال ، وبعد اخيه كتب له اهل العراق يسألونه ان يوافقهم على الثورة فأصر على موقفه وكتب اليهم في جواب رسائلهم كتابا جاء فيه :

أما اخي فأرجو ان يكون الله قد وفقه وسدده فيما فعل ، وأما انا فليس من رأيي ان تتحركوا في عهد معاوية فالصقوا بالارض واكنوا في البيوت واحترسوا من الظنة والتهمة ما دام معاوية حيا •

الى كثير من مواقفه التي تؤكد انه كان يرى ان الثورة في عهده لا تخدم مصلحة الاسلام والمسلمين شيئا وان الخلود الى السكينة والابتعاد عن كل ما يثير الشبهات وضغائن الامويين عليه وعلى شيعته وأنصاره في حياة معاوية أجدى لمصلحة الاسلام ، وفي الوقت ذاته كان يعمل لاعداد المجتمع العراقي وتعبئته بانتظار اليوم الذي يطئن فيه لثورته وشهادته ان تعطي النتائج المرجوة •

وبالفعل فقد ازدادت الدعوة في عهد الحسين عنفا وشدة وأخذت تربع أنصارا في اكثر المناطق الاسلامية وبخاصة بعد ان جعل معاوية ولاية العهد لولده الخليفة المستهتر ، وكان لكل حدث من أحداث معاوية صدى مدويا في اوساط المدينة حيث الامام الحسين (ع) الرجل الاول الذي توجه اليه الانظار من كل حذب وصوب .

وقد أحس الامويون في الحجاز بهذا الواقع ودب في نفوسهم الخوف من نتائج ، فكتب مروان بن الحكم الى معاوية يحذره من التفاضي عن الحسين وأنصاره ، وجاء في كتابه اليه : ان رجلا من اهل العراق ووجوه الحجاز يختلفون الى الحسين بن علي (ع) واني لا آمن وثوبه بين لحظة وأخرى وقد بلغني استعداداه لذلك فاكتب الي برأيك في امره ، ولم يكن معاوية في غفلة عن ذلك وكان قد أعد لكل امر عدته بوسائله التي كان يمين بها على الجماهير المسلمة ، والحسين (ع) يعرف ذلك ويعرف ان ثورته ستجلي عن استشهاده والاستشهاد بنظره لا وزن له ولا قيمة اذا لم يترك على دروب الناس وفي قلوبهم وهجا ساطعا يميزون على ضوئه في ثورتهم على الظلم والظفان وفراغة العصور في كل عصر وزمان . ان معاوية يدرك ويعي ما للحسين (ع) من منزلة في القلوب وبأن ثورته عليه سترجه في حرب يعمر عليه بهاء انتصاراته التي احرزها في معركة صفين وفي صلحه مع الامام الحسن بن علي (ع) ولو قدر لها ان تحدث يومذاك فسوف يعمل بكل ما لديه من الوسائل لكي يتخلص منه قبل استفحالها وقبل ان يكون لها ذلك الصدى في الاوساط الاسلامية ولو بواسطة جنود العسل التي كان يتباهى بها وقد استعملها للقتك بأخصامه السياسيين كالحسن بن علي وسعد بن ابي وقاص ومحمد بن حذيفة وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد والاشتر النخعي بعد ان أحس

بخطرهم على دولته وأمويته العنصرية الحاكمة ، ولو تعذر عليه ذلك فسوف يمارس جميع أشكال الاحتيال والتضليل والمراوغة حتى لا يكون لشهادته ذلك الوهج الساطع الذي ينفذ الى الاعناق ويحرك الضمائر والقلوب ضد دولته وأعدائها ولكي يبقى اثرها محدودا لا يتجاوز قلوب اهله ومحبيه وشيعته الى حين ثم يطوي النسيان ذكره كما يطوي جميع الذكريات والاحداث ، ولعل ذلك هو الذي اضطر الحسين (ع) الى التريث وعدم مواجهة معاوية بالحرب ودعوة اصحابه وشيعته الذين كانوا يرسلونه ويتوافدون عليه بين الحين والآخر الى ان يلتصقوا بالارض ويكمنوا في بيوتهم ويتحرسوا من كل ما يثير حولهم الظنون والشبهات ما دام معاوية حيا كما جاء في بعض رسائله اليهم •

وكما كان يعرف معاوية وأساليبه كان يعرف ان خليفته الجديد محدود في تفكيره ينساق مع غواطفه وشهواته وتلبية رغباته الى أبعد الحدود بارتكاب المحارم والآثام والتحلل من التقاليد الاسلامية والنزق في تصرفاته ومعاملته لخصامه ومن اجل ذلك وقف المسلمون من بيعته موقفا يتسم بالحذر والتخوف على الاسلام والمسلمين واعتبروها من اخطر الاحداث على مصير الامة ومقدراتها •

ومن ثم لم يكن من خلقه ولا باستطاعته مواجهة شهادة الحسين وتغطيتها بالاساليب التي اعتاد ابوه تغطية جرائمه بها ، وكان كما يصفه البلاذري في أنساب الاشراف من أبعد الناس عن الحذر والحيلة والتروي صغير العقل متهورا سطحي التفكير لا يهم بشيء الا ركه •

فلقد كان من أبعد الناس عن ان يواجه ثورة الحسين بأسلوب ابيه ، ولا بد أن يواجهها بالاسلوب الذي يتفق مع شخصيته وهو ما حدث في النهاية بالنسبة اليها والى غيرها من المشاكل التي واجهته خلال السنين

الخمسة التي حكم فيها بعد ابيه ، وكانت تربيته المسيحية او نشأته في الوسط المسيحي مع أمه ميسون تأبى عليه ان يلتزم أسلوب ابيه فسي الاحتفاظ بالغشاء الديني الذي كان يسدله على أفعاله وتصرفاته ويتستر به لدى العامة من الناس دجلا وتضليلا كما يدعي الكثير من الباحثين •



موقف الحسين من البيعة ليزيد مدح في طريقه للثورة

لقد كان الحسين (ع) الوارث الوحيد لتلك الثورة التي فجّرها جده الرسول الاعظم (ع) على الجاهلية الرعناء والعنصرية والوثنية لانقاذ المستضعفين في الارض من التحكم والسيطرة والاستعباد ، وواصلها ابوه وأخوه من قبله ، وكان دوره القيادي للسير بها على خطا جده وأبيه في سنة ستين للهجرة حيث الامة كانت بانتظار رجل ينهض بأعبائها ويكون حارسا مسؤولا عن تلك الثورة الكبرى التي فجّرها محمد بن عبدالله (ص) والتي اخذت دعائمها تنهار وتتقوض تحت ضربات بني أمية وأعوانهم وجميع معطيات الثورة التي انطلقت قبل خمسين عاما او اكثر قد صادرها الامويون وأعوانهم ، فالكتاب الذي جاء محمد بن عبد الله (ص) رفع على حراب الامويين ، والفكر العقائدي الذي جاء به الاسلام لينسي العقول والقلوب خضع لتوجيه السلطة الاموية الحاكمة ، وسيسوف المجاهدين انتقلت الى الجلاوزة والجلادين للتكيل بالصلحاء والمؤمنين والصدقات والغنائم كلها تنقل الى قصر الخضراء لشراء الضمائر وتخدير المعارضين ، والالسة التي تنطق بالسنة والقرآن اصبحت أبواقا للسلطة الاموية الحاكمة ، وجبل الثورة الثاني بين من تعرض للإبادة الجماعية

في مرج عذراء وقصر الخضراء ، وبين من سيطرت عليهم مبادئ المرجنة والمجبرة والمتصوفة فأفقدتهم عن التحرك وأفقدتهم القدرة على النضال وزرعت فيهم بذور الاستسلام للواقع المرير الذي كانت تتخبط فيه الامة من جور الامويين وامعائهم في تزوير السنة وتحريف مبادئ الاسلام وتعاليمه لمصلحة جاهليتهم التي حاربت محمد بن عبد الله (ص) اكثر من عشرين عاما وما زالت تحاربه .

من هنا كان دور الحسين الورث الوحيد لثورة جده وأبيه عيسى الشرك والوثنية والعنصرية شاقا وعسيرا لانه لم يرث معها جيشا ولا سلاحا ولا مالا ولا اي قوة جهوية او مجموعة منظمة ، غير نفسه وحفنة من بنيه واخوته ، لم يكن يملك غير ذلك ويملك في الوقت ذاته القدرة على الانزواء للعبادة ومكانه في الجنة مضمون ، ولكنه لم يكن من طينة اولئك الذين اختاروا العبادة طريقا الى الجنة بديلا عن الجهاد لانه يدرك ان الطريق الى الله هو طريق الحق وطريق الحق هو الجهاد والنضال والالتزام بمبادئ الثورة الاسلامية وتعاليمها ، واذا جاز على غيره من صلحاء المسلمين ان ينزوي في المساجد للعبادة ويتخلى عن النضال والجهاد ، فلا يجوز على الحسين وارث الرسول وعلي (ع) بأن يتخلى عن وعيه النضالي ويلجأ الى زوايا المعابد تاركا للجاهلية الجديدة ان تستفحل في بطشها بقيم الحق والعدل والحرية ، فلم يكن امامه الا الثورة وبدونها لا يكون سبطا للرسول وممثلا لقيم الاسلام وقدره ان يكون شهيدا وابنا لأكرم الشهداء وأبا لمئات الشهداء ، وكانت شهادته المثل الاعلى لهم ولجميع الاحرار الذين ناضلوا من اجل الحق والعدل والمستضعفين في الارض من الرجال والنساء .

وقد حاول معاوية ان يقيد الحسين ببيعة يزيد فلم يظفر بذلك ولا بسكوته عنه ، فلقد جاء في المجلد الثاني من حياة الامام الحسن (ع)

للقرشي عن الكتاب المنسوب لسليم بن قيس ان الحسين (ع) وفد على مكة حاجا قبل وفاة معاوية بسنة فجمع بني هاشم رجالا ونساء ومن حج في تلك السنة من الانصار ممن يثق بهم الحسين ويطمئن اليهم ، وطلب من اصحابه ان يجمعوا له من حج ايضا من الصحابة ، فاجتمع اليه بنى كما يدعي الراوي نحو من سبعمائة فقام فيهم خطيبا واستعرض أحداث معاوية ومواقفه من الاسلام والمسلمين ومن اهل البيت وشيعتهم وعده بيعته ليزيد من اعظم الاحداث التي ارتكبتها معاوية وما ترك شيئا مما أنزله الله من القرآن الا وتلاه عليهم ولا شيئا مما جاء عن رسول الله (ص) في اييه وأخيه وأمه وفيه الا ورواه لهم وكان الصحابي يقول: نعم لقد سمعنا ذلك من رسول الله ، والتابعي يقول : لقد حدثنا بذلك الثقة من اصحابه ، ثم دعاهم الى مناهضة حكم معاوية والاطاحه بسلطانه (١) .

ويروي المؤرخون له عددا من المواقف مع معاوية حينما اخذ يهد لبيعة ولده والاستجابة لها وكان من جملتها جوابه عن كتاب كبه اليه بهذا الخصوص جاء فيه :

وقد فهمت ما ذكرت عن يزيد وكماله وسياسته لأمة محمد (ص) ، تريد ان توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوبا او تنعت غائبا او تخبر عما كان مما احتوته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موضع رأيه فأخذ يزيد فيما أخذ فيه من استقراءه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأتراهين والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصرا ودع عنك ما تحاول فما أغناك ان تلقى الله في وزر هذا الخلق بأكثر مما انت لاقيه فوالله ما برحت تقدح باطلا في جور وحنقا في ظلم

حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت الا غمضة (١) .

واستمر الحسين (ع) على موقفه من بيعة يزيد والتشهير بمعاوية وأحداثه وتحريض المسلمين على مناهضتها وكان فيما استعمله معاوية من وسائل الضغط على الحسين (ع) انه منع بني هاشم من عطايتهم حتى يبايع الحسين (ع) فلم تجده هذه المحاولة ومات معاوية والحسين لا يزال على موقفه منها وكان غيره من بعض وجوه الصحابة قد امتنع عن بيعة يزيد تأسيا بالحسين (ع) ، وكما ذكرنا من قبل فان يزيدا لم يكن كآبيه فسي حزمه واحتياطة للأمور ولم يلتزم أسلوب آبيه في الاحتفاظ بالفشاء الديني الذي كان معاوية يسدله على أفعاله وتصرفاته ، فلما هلك معاوية كان اكبر همه حين آل الامر اليه ان يلزم الحسين ومن كان قد تخلف عن بيعته من وجوه الصحابة بالبيعة فكتب الى الوليد بن عتبة والي المدينة كتابا يخبره فيه بموت آبيه وكتابا اخر يقول فيه (٢) :

أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة اخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام ، وعندما وصله الكتاب استدعى الحسين (ع) اليه ليلا فعرف الحسين مراده فأوعز الى جماعة من اخوته وبني عمه ان يرافقوه حتى اذا اشتدت الخصومة بينه وبين الوالي وأراد ان يستعمل العنف معه يستعين بهم ، وعندما دخل على الوليد اخبره بموت معاوية وعرض عليه كتاب يزيد بخصوص البيعة اراد الحسين (ع) كما يبدو من جوابه ان يتخلص منه بالحسنى فقال له : مثلي لا يبايع سرا فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم لها أرجو ان يكون امرنا واحدا ، وكما يبدو من موقف الوليد مع الحسين انه كان يتمنى الخلاص وعدم التورط مع

١ - المجلد الاول من الامامة والسياسة ص ١٩٥ و ١٩٦ .

٢ - انظر ابن الاثير والبلاذري وغيرهما من مجاميع التاريخ .

الحسين (ع) في خصومة تسيء اليه او تجر من ورائها القتال فاقننهم
بجواب الحسين ولم يبد أية ملاحظة عليه .

ولكن مروان بن الحكم أبت له أمويته الحاكمة ان يخرج الحسين (ع)
من مجلس الوالي مكرما كما دخل فحاول استفزاز الوالي وشحنه على
الحسين (ع) وقال : لئن فارقك الحسين ولم يبايع لا قدرت منه على
مثلها حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، ولكن احبسه فان بايع والا فاضرب
عنقه .

وهنا لم يعد امام الحسين في مقابل هذا التحدي الصارخ الا ان
يعلن عن موقفه من يزيد وحكومته وعن تصميمه على الثورة على الحكم
الاموي الجديد مهما كانت النتائج ومهما بلغت التضحيات وانه اصبح
وجها لوجه امام دوره التاريخي الذي يتحتم عليه ان يصنعه ، لان حكومة
يزيد لن تأخذ صفة الشرعية ما دام مستنما عن البيعة ومعارضها لها .
فوثب عند ذلك وقال : ويللي عليك يا ابن الزرقاء انت تأمر بضرب
عنقي كذبت ولؤمت ، ثم أقبل على الوليد وقال : ايها الامير انا اهل بيت
النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد
رجل فاسق فاجر شارب للخمر وقاتل للنفس المحترمة معلن بالفسق
والفجور ومثلي لا يبايع مثله .

وجاء في مشير الاحزان لابن نما الحلي ان الوليد بتحريض من مروان
رد عليه بلغة تنسم بالغلظة والحدة وارتفعت اصواتهما فهجم من كان مع
الحسين (ع) على باب الوليد ويدهم الخناجر وأخرجوا الحسين (ع)
من منزله ، فقال مروان بن الحكم للوليد : لقد عصيتني فوالله لا يمكنك
من مثلها ابدا ، فرد عليه الوليد بقوله ، كما جاء في صفحة ١٩ من المجلد
السادس للطبري : ويح غيرك يا مروان لقد اخترت لي ما فيه هلاك ديني
أقتل حسينا ان قال لا ابايع يزيدا ، والله ان امرأ يحاسب بدم الحسين

لخفيف الميزان يوم القيامة ولا ينظر الله اليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .
وجاء في تاريخ ابن عساكر ان أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث
زوجة الوليد أنكرت عليه ما جرى منه مع الحسين (ع) فأجابها بأنه قد
كان البادى بالسب والشتم ، فقالت له : أتسبه وتسب أباه ان سبك ؟
فقال لها : لا اعود لذلك ابدا (١) .

وفي صبيحة ذلك اليوم التقى مروان بن الحكم بالحسين (ع) فنصحه
ببيعة يزيد وقال له فيما قال : انها خير لك في دينك ودنياك ، فرد عليه
الحسين (ع) قائلا : على الاسلام السلام اذا بليت الامة براع مثل
يزيد بن معاوية ، ولقد سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : الخلافة
محرومة على آل ابي سفيان فاذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه ،
فانصرف عنه مروان مغضبا ولقد تساهلت الامة مع معاوية فابتليت بمن
هو اسوأ منه (٢) .

لقد اعلن الحسين ثورته على يزيد ودولته بتلك الكلمات التي وجهها
الى الوالي المكلف بتوطيد دعائم حكمه في الحجاز وفي مدينة الرسول
عاصمة الاسلام بالذات ، ولم يكن الوالي يحسب ان الحسين (ع) سيعلمها
في مجلسه بتلك الصراحة وفي المجلس من هم أشد عداء لمحمد وآل
محمد ولرسالة محمد من يزيد وأبيه .

ان فيه الوزغ ابن الوزغ طريد رسول الله الذي لا يستطيع ان يزعج
عن قلبه ونفسه تلك العقدة الدفينة التي خلقتها معاركهم مع الاسلام
واتصاراته التي ارغمتهم على التظاهر به مكرهين وما تلا ذلك من ابعادهم
عن المدينة الى مكان مقفر من بلاد الطائف وتحريض المسلمين على

١ - انظر ج ٤ من تاريخ ابن عساكر ص ٢٢٨ .
٢ - انظر اللهوف ومثير الاحزان ومقتل الخواري .

مقاطعتهم ردا على ايذائهم للنبي (ص) وتجسهم عليه وهو في بيته مع اهله ونسائه .

هذا الموقف من الحسين (ع) وما تلاه من المواقف الاخرى والتي كان من جملتها موقفه مع مروان بن الحكم وهو ينصحه ان يبايع يزيدا ، والذي رد عليه فيه بقوله : على الاسلام السلام اذا بليت الامة بسراع مثل يزيد بن معاوية ، وقوله : ان الخلافة محرمة على آل ابي سفيان ، كل هذه المواقف الحسينية تشكل اعلانا صريحا لتصميمه على الثورة ومناهضة الحكم الاموي بقيادة يزيد بن معاوية مهما بلغ حجم التضحيات في سبيلها ، وقد بلغت مواقفه هذه يزيدا بأقصى ما يمكن من السرعة بواسطة جواسيسه والامويين الذين كانوا يفاوضونه ويراقبون جميع تصرفاته وحتى أنفاسه .

وزيد بن ميسون مع انه كان سيئة من سيئات ابيه الذي كان المسؤول عن جميع جرائمه لم يكن مثل ابيه في ترويه وحزمه واحتياطه ، ولم يلتزم طريقته في تعاويه للمداورة والمراوغة والمداجاة التي كانت من ابرز صفاته ، كما وانه كان مستهترا الى ابعد حدود الاستهتار فلم يبال بما يسمونه دينا واسلاما ولا بذلك الفشاء الذي كان ابوه يتستر به ويسدله على أفعاله وجرائمه احيانا ، وكان مع ذلك مسيرا لنزقه ولكل نزعاته وميوله بدون تقدير وتفكير لما ينجم عن ذلك من النتائج ، ويتظاهر بالكره والعداء للهاشمين والعلويين منهم وللانصار من صحابة الرسول (ص) .

ولم يستطع ان ينسى ثارات عائلته ولا ان يزيح عن قلبه تلك العقد الدفينة التي تراكت في نفسه لفقد أخواله وعمومته وسراة قومه فسي حروبهم للاسلام التي اتهمت باذلال أمية وقريش وقتل قادتهما واستسلام الامويين والقرشيين لمحمد وأنصاره الى غير ذلك من الصفات والنزعات

التي غلبت عليه واشتهر بها ، وقد ورث اكثرها من تربيته البدوية ونشأته في أحضان امه ميسون المفرقة في البداوة التي اشتهر عنها انها كانت تنضل الخيام على القصور والخبز اليابس على الموائد الشهية التي تصنع في قصر الخضراء للانصار والمحاسيب ولباس الاعراب على الحريـر والديباج ، وكان الاخذ بالتأثر ولو طال الامد من ابرز صفاتهم ولا يتنازلون عنه ولو بعدت المسافة وطال الامد كما قيل .

ومن غير المستبعد ان تكون تلك المجزرة الرهيبة التي خطط لها ابن ميسون وأمر جلاديه بتنفيذها في كربلاء مع العلويين وأنصارهم ، وما ارتكبه في واقعة الحرة مسلم بن عقبة بأمره وتوجيهاته مع الانصار من قتل ونهب واباحة لاعراض المهاجرين والانصار للتنفيس عما كان في قلبه من كره دفين للعلويين والانصار الذين وتروه في أعمامه وأخواله وسراة قومه في بدر وغيرها من المعارك التي خاضوها ضد الاسلام لحماية الشرك والوثنية .

ويدعي الرواة الذين احصوا ما جرى على المسلمين في المدينة من انتهاك للحرمت ونهب للاموال والممتلكات وقتل وتشريد وهم يقصون أخبار تلك المعركة انه قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا مع النبي (ص) اي من الذين أذلوا قریشا وجبايرتها كما اشرنا الى ذلك في الفصول السابقة (١) .

ومهما كان الحال فهذه المواقف التي اعلنها الحسين (ع) من يعة يزيد قد بلغت يزيدا في حينها وأفقدته صوابه ومضى يعمل بما يوحيه اليه نزقه ونزعاته للتخلص من الحسين قبل ان يخرج من المدينة ويستفحل خطره فدرس رجالا من جلاديه لقتله في المدينة قبل ان يغادرها الى العراق او اي

بلد آخر كما جاء ذلك في كتاب اورده اليعقوبي في تاريخه من ابن عباس الى يزيد بن معاوية، وفي الكتاب اشارة صريحة الى ان يزيد قد دس رجالا لهذه الغاية^(١)، ولعل ذلك هو ما حدا بالحسين (ع) ان يغادر المدينة مع بنيه واخوته وبني عمومته من آل ابي طالب ونسائه الى مكة ويفوت على يزيد بن ميسون وحفيد هند آكلة الاكباد ما كان يخطط له من اغتيال الحسين (ع) واجهاض ثورته وهي لا تزال في مراحلها الاولى وقد اختار لنفسه مكة المكرمة وهو في طريقه الى الشهادة على تراب كربلاء، لان المسلمين كانوا يتوافدون اليها في الاشهر الاخيرة من كل عام للعمرة وللعبادة وأداء فريضة الحج .

لقد اختار مكة في المرحلة الاولى من مراحل هجرته ليجتمع بمن يؤمها من مختلف الامصار ويضع بين أيديهم ذلك المصير الاسود الذي يتخبطون فيه والاضطار المحدقة بالاسلام من دولة ابي سفيان العدو الاكبر لمحمد ورسائله وما عزم عليه من الثورة والتضحية لانقاذ الامة وشريعة جده من اولئك الجلادين أحفاد ابي سفيان والحكم بن العاص طريد الاسلام وغيرهم من مردة الامويين والمرتزة حتى ولو كلفته حياته وحياة بنيه واخوته وجميع أسرته .

١ - انظر ص ١٤٠ من ثورة الحسين للعلامة محمد مهدي شمس الدين وكتاب حياة الامام الحسن للقرشي ولعلنا سنتعرض لبعض نصوص الكتاب في محلها .

الحسين يعلن اسباب الثورة واهدافها

وكان قبل خروجه من المدينة قد اعلن عن اهدافه من الثورة في وصيته لآخيه محمد بن الحنفية الذي جاءه متخوفا عليه من غدر اهل الكوفة وتخاذلهم كما صنعوا مع ابيه وأخيه من قبله ، وكان مما قاله له: تنح عن بيعتك ليزيد وعن الامصار ما استطعت ، وابعث رسلك الى الناس فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وان اجتمعوا على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك .

ومضى في حديثه معه يقول : اني اخاف عليك ان تدخل مصرا من هذه الامصار فيختلف الناس ويقتتلون فتكون لاول الاسنة غرضا فاذا خير هذه الامة كلها نفسا وأما أضيعها دما وأذلها اهلا ، وبالتالي اشار عليه ان ينزل مكة ويدعو الناس اليه واذا لم يجد منهم ما يرضيه لحق بالرمال وشعوب الجبال الى ان يحكم الله بينه وبين القوم الظالمين .

بهذه المناسبة اوصى الامام اخاه محمد بن الحنفية وجاء في وصيته اليه : اني لم اخرج اشرا ولا بطرا ولا ظلما ولا مفسدا وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي اريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فمَنْ قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد علي هذا اصبر حتى يقضي الله

بيني وبين قومي بالحق وهو خير الحاكمين •
 فالحق والاصلاح في أمة جده كانا هدفه الاول والاخير من ثورته
 وعلى اساسهما يدعو المسلمين لنصرته والوقوف الى جانبه في ثورته على
 الظلم والجور والظفيان لا على اساس مكاته في نفوسهم او قرابته
 القرية لرسول الله (ص) لان مناصرتهم له على هذا الاساس تكسر
 النزعة القبلية التي حاربها الاسلام وأعادها الامويون بأقبح صورها
 وأشكالها •

لقد كانت سنة احدى وستين مسرعا لصراع عنيف بين ارادتين ارادة
 الحق والخير وارادة الشر والظفيان والباطل تشلت الاولى في شخصية
 عظيمة خرجت من بيت علي وفاطمة وأضفت عليها القداسة هالة من
 الاشعاع كأنه اشعاع الفجر المنبلج في كبد الظلام الدامس • وتمثلت
 الثانية منهما وهي ارادة الشر والظفيان والوثنية في رجل أقل ما يقال فيه
 انه ريب للشرك وحفيد لابي سفيان عدو الاسلام ولزوجته هند
 آكلة الاكباد •

والاول منهما هو الامام الحسين سبط الرسول الاعظم وشبل على
 ابن ابي طالب بطل الاسلام الخالد وابن الزهراء سيده نساء العالمين
 والورث الوحيد في تلك الفترة من تاريخ الاسلام لرسالة جده وللثورة
 التي فجرها جده وواصلها ابوه وأخوه •

والثاني منهما هو يزيد بن معاوية النابت في تربة سبخة من ارض موات
 انبتت أخبث شجرة كان بنو أمية من نتائجها ويزيد من فروغها •
 ولقد عكست ثورة الحسين (ع) التي شهدت مأساتها ارض كربلاء
 اثر كلا الجانبين وتلكما الارادتين الارادة الخيرة الهادفة للاصلاح
 واستئصال الشرك والوثنية المتمثلة في الحسين وصحبه الابرار ، والارادة
 الثانية الشريرة الهادفة للفساد وسفك الدماء واستعباد الصلحاء والاحرار

واعادة الجاهلية بكل أشكالها ومعالمها التي كان يمثلها ابو سفيان
وأبو جهل وغيرهما من طواغيت قريش .

لقد وقف الحسين أعزل لا يملك جندا ولا سلاحا ولا ذهبا غير نفسه
ليموت هو ومن معه في سبيل الحق والمثل العليا وليعلم الناس كيف
يموتون من اجل الانسان وحرية وكرامته .

لقد اعلن ثورته الحمراء قبل ان يغادر مدينة جده الى ارض الشهادة
ووقف في وجه دولة جبارة تخضع لنفوذ ملك ظالم جبار يحتل الصدارة
في قائمة الطغاة والسفاحين والمجرمين في مختلف العصور رافضا
الخنوع والاستكانة لحكم ذلك الذئب الكاسر والمتمثل في هكل
انسان يسميه الناس يزيد .

لقد اعلن ثورته على تلك الدولة الجبارة وقال : على الاسلام السلام
اذ ابتليت الامة براع مثل يزيد بن معاوية ، وان رسول الله قال : اذا رأيتم
معاوية على منبري فابقروا بطنه ، بعد ان وجد نفسه مسؤولا عن حراسة
ثورة جده التي اخذت دعائمها تنهار تحت ضربات بني أمية وأعوانهم
وفقدت اكثر قواعدها واكثر قلاعها وآخر قيمة من قيمها ولم يبق من تراث
جده وأبيه وأخيه الذي يشكل وجه الاسلام والحق والعدل الا غطاء
شفافا يستتر به الحاكمون لتغطية جورهم واستهتارهم بالقيم والمقدسات .
ومضى في طريقه الى ثرى الطف لا يملك من الاسلحة التي تقضى
مضاجع الظالمين سوى دمه ودماء ذويه من بنيه واخوته وأنصاره ليقدمها
قرايين لله وللدين ما دامت الانسانية حية تحضن الاجيال على مدى
العصور معلنا ان الحق والعدل وكرامة الانسان فوق ميول الحاكمين ولا
سبيل لاحد عليها ، وهو على ثقة بأن تلك القرايين ستكون صرخة مدوية
في أعماق التاريخ تقض مضاجع الامويين وغيرهم من الظالمين ويحتضنها
الثائرون على الظلم والجور جيلا بعد جيل الى ان يرث الله الارض ومن

عليها •

وكانت مكة المكرمة هي المرحلة الاولى من المراحل التي مر بها في طريقه الى ثرى الطف بعد ان توفرت لديه الدلائل على ان يزيد بن معاوية قد اوعز الى جلاديه باغتياله اما بواسطة جنود العسل التي كان والده يتباهى باستعمالها للتخلص ممن يخاف منهم على دولته او بغيرها ممن وسائل القتك والاجرام ليعلم منها على تلك الحشود التي توافدت على مكة في ذلك العام بين حاج ومعتمر وشهدت عددا لم تعرف له مثيلا من قبل بعد ان شاع نبأ امتناع الحسين (ع) عن البيعة والتجائه اليها للاعداد للثورة ليعلم منها تصميمه على المضي في الثورة مهما كانت التضحيات ، وكان عبد الله بن الزبير قد دخلها قبل الحسن بأيام معدودات فتجاهله الناس بعد ان دخلها الحسين (ع) •

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان الناس لم يتعرفوا على ابن الزبير وعكفوا على الحسين يقدون عليه ويجلسون حوايه يستمعون الى كلامه فينتفعون بما يسمعون ويضبطون ما يروون عنه فاضطر ابن الزبير ان يلازم مجلسه مع الناس ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ولا أحب اليه من خروجه منه طمعا في الثوب بالحجاز وهو يعلم بأنه ليس باستطاعته ان يحقق شيئا من أطماعه ما دام الحسين موجودا في الحجاز (١) •

لقد انصرف المسلمون عن ابن الزبير وتجاهلوه بمجرد ان وطئت قدما الحسين مشارف مكة المكرمة لانهم يعرفون ابن الزبير وأطماعه ويعلمون بأنه لم يمارض يزيد ولم يتمتع عن بيعته من اجل الاسلام والمعتدين

١ - كما جاء ذلك في مقاتل الطالبين والانساب للبلاذري والارشاد للشيخ المفيد •

والمضطهدين وانه لا يختلف عن غيره من ذوي الاطماع واذا قدر له ان يستلم السلطة في الحجاز او غيره من المناطق الاسلامية فيمارس نفس الجرائم التي يمارسها حفيد ابي سفيان وهند آكلة الاكباد اذا اقتضت مصلحته ذلك ولا تزال مواقفه من امير المؤمنين في البصرة وغيرها ماثلة لهم ، ويعلمون ان الحسين هو الوريث الشرعي لثورة جده وأبيه وأخيه على الوثنية والجاهلية ويعلمون بأنه لم يقف هذا الموقف من يزيد وأبيه الا لمصلحتهم ومصلحة الاسلام ولم يقدم على التضحية بنفسه وبنسبه واخوته وأبناء عمومته من اجل الملك والسلطان لان طلاب الملك والسلطة لا يقدمون على الانتحار ، ولم يقف احد منهم الى جانب ابن الزبير في الحجاز بعد استشهاد الحسين (ع) الا لاعتقادهم بأنه أهون الشرين اذا قيس بالامويين ، ولكنه خيب آمالهم وأمانيتهم ومارس على الاممسة والعلويين نفس الضغوط والاساليب التي كانوا يمارسونها وبلغ به الحقد على العلويين انه ترك ذكر النبي (ص) والصلاة عليه في خطبة الجمعة وحينما أنكر عليه المسلمون ذلك قال : ان له اهيل سوء اذا ذكرته شمشخوا بأنوفهم ، الى غير ذلك من مواقفه .

لذلك كله فقد انهال الناس على الحسين (ع) خلال الاشهر الاربعة التي اقامها في مكة لانه رجل الساعة ووجد ابن الزبير نفسه في عزلة تامة عن الناس فكان يتردد على الحسين كغيره ويتظاهر باستعداده لمناصرته وفي الوقت ذاته كان يستغل المناسبات ليرجع له التجاوب مع اهل العراق الذين كانوا يتوافدون عليه ويراسلونه بين الحين والآخر وانه سيتولى الدعوة اليه في الحجاز ومساندته .

وكان الحسين (ع) يمي كل اهدافه ويعرف ما ينطوي عليه من الحقد والعداء لعلي وآل علي وقال يوما لجلسائه : ان ابن الزبير ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من ان اخرج من الحجاز الى العراق وقد علم بأنه

ليس له من الامر معي شيء وان الناس لن يعدلوه بي فود اني لو خرجت منها لتخلو له (١) .

وقال له ابن عباس وهو يحاوره في الخروج الى العراق ويحذره من غدرهم وتخاذلهم عن نصرته كما فعلوا مع ابيه وأخيه؛ قال له بعد ان وجده مصرا على الخروج : لقد اقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها وهو اليوم لا ينظر اليه احد معك .

وكان الحسين (ع) يستغل المناسبات ليكشف للملا الاسلامي عن الدوافع والاسباب التي حبلته على الخروج الى العراق ومناهضة الحكم الاموي بقيادة يزيد بن ميسون الخليفة المستهتر ففي مكة المكرمة وقبل ان يخرج منها بأيام قلائل وقف في حشد من المسلمين فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال : خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جسد الفتاة وما اولهني الى اسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف وخير مصرع اذا لاقيه الى ان قال : أفلا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه يرغب المؤمن في لقاء ربه محققا ، ألا ومن كان باذلا فينا مهجته موطنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فاني راحل مصبحا ان شاء الله .

وفي طريقه الى كربلاء حينما التقى مع الحر الرياحي وكان قد سيره ابن زياد في الف فارس من اهل الكوفة ليشرف على موكب الحسين وتحركاته ويحملة على دخول الكوفة ، وكان قد علم بتخاذل اهل الكوفة ومصرع ابن عمه مسلم بن عقيل وحينما حاول الحر ان يفرض على الحسين ان يسير بموكبه تحت اشرافه وقف الحسين عليه السلام وقال: ايها الناس ان رسول الله (ص) قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا

١ - المجلد الرابع من الطبري ص ٢٨٨ والكامل لابن الاثير وانساب الاشراف .

لحرام الله فاكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل او قول كان حقا على الله ان يدخله مدخله ، الا وان هؤلاء لقد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غير وبدل ، وقد اتتني كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتم وانكم لا تسلسوني ولا تخذلوني فان بقيتم على بيعتكم تصيوا رشدكم ، فاني الحسين بن فاطمة بنت رسول الله (ص) نفسي مع انفسكم وأهلي مع اهليكم وان نقضتم عهودكم وخلعتم بيعتي من أعتاقكم فحفظكم اخطاتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فانما ينكث على نفسه (١) .

لقد كشف لهم عن الاسباب التي فرضت عليه ان يثور ويضحي بنفسه وبمن معه من اهله وأنصاره بصفته مسؤولا عن حماية الاسلام من التحريف والتشويه وعن حقوق الامة ومقدراتها وكراماتها كما يشعر بذلك قوله : وأنا أحق من غير اي انه أحق بمقاومة من غير وبدل من جميع المسلمين وأعاد الامور الى نصابها .

وفي طريقه الى كربلاء كان يكشف لمن يلتقي بهم وينصحونه بأن يعيد النظر في موقفه من الحاكمين ولا يفر بأهل الكوفة ومواعيدهم كان يكشف عن اسباب ثورته ومبرراتها التي تفرض عليه ان يقف من السلطة هذا الموقف ، وفي اليوم العاشر من المحرم وقبل ان تحتدم المعركة وقف بين الصفيين وطلب من القوم ان ينصتوا لحديثه ويستمعوا لقوله فتكلم وأسهب في حديثه واستعرض مواقف اهل الكوفة مع ابيه وأخيه وطاعتهم

١ - انظر المجلد الرابع من تاريخ الطبري والكمال لابن الاثير وغيرهما من المجاميع .

العمياء ليزيد وأبيه بدون مقابل سوى خسيس عيش كالمرعي الويسل
ووصفهم بما يليق بهم من الغدر وتقض الوعود والمواثيق وتحريف الكتاب
والسنة وما الى ذلك من جرائمهم ، واتمنى الى القول الا وان الدعي ابن
الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله
لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت وأنوف حميه
ونفوس أية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ، ثم قال : الا واني
قد اعذرت وأنذرت واني زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وكثرة العدد
وخذلان الناصر ، وعقب على ذلك بقوله :

فان نهزم فهزامون قدما	وان نغلب فغير مغلبينا
وما ان طبننا جبن ولكن	منايانا ودولة اخرينا
اذا ما الموت رفع عن اناس	كلاكله اناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما افنى القرون الغابرينا
فلو خلد الملسوك اذن خلدنا	ولو بقي الكرام اذن بقينا

وخلال اقامة الحسين (ع) بمكة كانت تعج بوفود الكوفة وكل وفد
يحمل معه عشرات الرسائل من عشائرها وزعمائها يطلبون اليه الاسراع
في التوجه اليهم حتى اجتمع عنده مائة وخمسون كتابا ، وقال بعض
المؤرخين ان كتبهم بلغت اثني عشر الف كتاب ، وقيل انها كانت فسي
خرجين مملوءين من كتبهم ورسائلهم كما تشير ذلك رواية الطبري
والكامل لابن الاثير وأعلام الورى وجاء فيها ان الحسين (ع) لما التقى
بالحر ومن معه وذكرهم بكتبهم اليه ردوا عليه بقولهم : والله ما ندري
ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فقال الحسين لمقبة بن سميان : اخرج
الخرجين اللذين فيهما كتبهم الي ، فأخرج خرجين مملوءين كتبنا فنشرها

بين ايديهم •

وبلا شك فان يزيد بن معاوية كان على صلة بكل ما يجري وما يحدث وكما حاول اغتيال الحسين في المدينة فقد حاول اغتياله في مكة ، فقد جاء في مقتل الحسين لعبد الرزاق المرقم ان يزيد بن ميسون قد استغل موسم الحج لهذه الغاية فأرسل عمر بن سعيد في جماعة من جلاديه وولاه امر الموسم كما كانت العادة وأمره بالفتك بالحسين أينما وجده حتى ولو كان في الكعبة ، وحينما علم الحسين بذلك خرج من مكة يوم التروية في الثامن من ذي الحجة ويؤكد ذلك قوله لاخته محمد بن الحنفية وهو يحاول ان يبقى في مكة : لقد خفت ان يفتالني يزيد في الحرم فأكون الذي تسباح به حرمة هذا البيت •

وحاول ابن عباس وعبد الله بن جعفر وابن عمر وجماعة من أعيان الصحابة والتابعين معه ان يعيد النظر في تحركه نحو العراق فلم يستجب لطلبهم وقال له ابن عباس وابن الحنفية : اذا كنت لا بد فاعلا فلا تأخذ معك احدا من حرمك ونسائك وأطفالك فانا نخاف عليك ان تقتل وهم ينظرون اليك فلم يستجب لطلبهم ، وكان رده الاخير على محاولاتهم : لقد امرني جدي رسول الله (ص) بأمر وأنا ماض فيه ، وفي بعض الروايات : لقد شاء الله ان يراني قتيلا وأن يرى حرمي ونسائي سبايا ، وخرج من مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ستين من هجرة الرسول الى المدينة بعد ان طاف وسعى وأحل من إحرامه والناس يخرجون بشياب الاحرام الى عرفة لاتمام أركان الحج وشروطه ، وكانت هجرته فرارا من الموت الخاطف الذي خطط له حفيد ابي سفيان ، والذي لا يستفيد منه سوى ابن ميسون وذويه من الامويين ولن يخدم الاسلام بشيء ، وكل ما في الامر ان قتله على ذلك النحو يثير الاسى والالام في قلوب اهله وأسرته ومحبيه الى حين ثم يطوي النسيان ذكره كما يطوى جميع الذكريات •

لقد هاجر قبل ان يتم حجه فرارا من الموت العاجل الى الشهادة التي
تنتظره على صعيد الطف بعد ثلاثين يوما او تزيد من تاريخ هجرته والتي
اقتضت مضاجع الظالمين وزعزعت عروشهم وفوتت على أحفاد أمية الكثير
من مخططاتهم المعادية للاسلام كما كانت هجرة جده الرسول الاعظم من
مكة الى يثرب فرارا من الموت الذي خطته له ابو سفيان وطواغيت
قريش قبل ستين عاما للقضاء على الاسلام بموته وقدمت الهجرتان
للالسلام وللانسانية مغانم لا تحصى وان اختلف منحاهما وسبيلهما •

هجرتان في صدر الاسلام

هجرتان في صدر الاسلام يجمعهما هدف واحد وغاية واحدة الاولى منها كانت فرارا من الموت الذي استهدف رسالة محمد (ص) بشخصه وقد نفذها بأمر من ربه على النحو الذي تمت عليه لتسلم له رسالته من اعدائها مشركي مكة وعلى رأسهم الحزب الاموي الذي كان من أنكد خصومها وألد اعدائها ، والثانية قام بها سبطه الحسين بن علي (ع) للشهادة بعد ان ادرك ان الاخطار المحدقة برسالة جده من الحزب الاموي الحاكم لا يمكن تفاديها وتجاوزها الا بشهادته فهاجر من المدينة التي احتضنت جده ورسالة جده بالامس ومنها انطلقت الى جميع انحاء العالم ، الى مكة ومنها الى مصرعه في كربلاء ولسان حاله يقول :

ان كان دين محمد لم يستقم الا بقتلي يا سيوف خذيني

لقد هاجر رسول الله (ص) من مكة الى يثرب لاجل رسالته بعد ان تأمرت قريش على قتله للتخلص منها وبعد ان وجدت ان جميع وسائل العنف التي استعملتها معه وجميع المفريات التي بذلتها له على اختلاف

أصنافها وألوانها لم تغير من موقفه شيئا وكان رده الاخير على عروض ابي سفيان وأبي جهل ومغرياتهما ، والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الامر او اموت دونه .

وعادت قريش تخطط من جديد للقضاء على رسالته ولو من خلال القضاء عليه لاسيما بعد ان توالى لديها الاخبار بأنه سيتخذ من يثرب مقرا لدعوته وانها ستكون من اعظم معاقلها ومنها ستتطلق الى العالم بأسره فاجتمع قاداتها في مكان يعرف بدار الندوة يتداولون في امره ، ويتبادلون الرأي في الاسلوب الذي يخلصهم منه ، واقترح بعضهم ان يضعوه في بيت من البيوت مكبلا بالحديد الى ان يأتيه أجله ، كما اقترح آخرون ان يطرد من مكة ليتحمل غيرهم من العرب مسؤولية قتله ، الى غير ذلك من الآراء التي لم تحظ بموافقة الجميع او الاكثرية ، وأخيرا اتفق الجميع على قتله على ان تشترك جميع القبائل في ذلك بأن تختار كل قبيلة فتى من خيرة فتيانها ويتولى اولئك الفتيان تنفيذ هذه المهمة لكسي تتوزع المسؤولية على الجميع اذا طالب الهاشميون بدمه واتفقوا على الزمان الذي يتم فيه التنفيذ ، وما ان تم هذا الاتفاق حتى اخبر الله نبيه بكل ما جرى في اجتماعهم بالآية :

«واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» .

والذي تعنيه الآية ان الله سبحانه قد فوت عليهم تنفيذ هذه المؤامرة وأخبر رسوله بها وأمره بالخروج من مكة في ظلام الليل وأن يأمر عليا بالمبيت على فراشه قبل خروجه ليوهمهم بأنه لا يزال في الفراش واستقبل علي (ع) هذا التكليف بالارتياح عندما علم بأن النبي (ص) سيسلم من تلك المؤامرة وهانت عليه الحياة في هذا السبيل ، وقال للنبي : أوتسلم يا رسول الله ان فديتك بنفسي ؟ فقال له : نعم بذلك وعدني ربي ،

فرحب (ع) بذلك وتبدد ما كان يساوره من خوف وقلق على النبي وتقدم الى فراشه في تلك الليلة التي أعدت لتنفيذ المؤامرة مطمئن النفس رابط الجأش ثابت القواد واتشح ببرده الحضرمي الذي اعتاد ان يتشح فيه . هذا والقوم ينظرون من نوافذ البيت الى فراش النبي فيرون فيه شخصا يظنونه النبي (ص) وعندما حان الوقت وتقدموا الى فراشه للتنفيذ قفز علي (ع) من الفراش كالمارد مسلطا سيفه فانهزموا بين يديه كما تنهزم المعزى اذا شددت عليها الذئاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا شيئا .

ونمت الهجرة في جوف الليل وفي ظلامه الدامس من مكة الى الفار ومنه الى يثرب كما فصلناها في كتابنا سيرة المصطفى في السادس من ربيع الاول بعد مضي ثلاثة عشر عاما على بعثته ، وهذا الوقت قد اعتمده المسلمون تاريخا لهم في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على اثر خصومة بين اثنين في دين يدعي الدائن استحقاقه في شعبان بموجب سند بيده ، والتفت الخليفة الى الدائن قائلا : اي شعبان هذا أشعبان هذه السنة او التي بعدها ؟ ولم يكن للمسلمين حينذاك تاريخ يخصهم فكان بعضهم يؤرخ بعام الفيل وبعضهم بحرب الفجار وأكثرهم كانوا يعتمدون تواريخ الدول المتاخمة لحدود الحجاز .

واختلف آراء الصحابة في الزمان الذي يعتمدونه لتاريخهم وكادوا ان يتفرقوا من غير ان ينتهوا الى نتيجة حاسمة لولا ان عليا قد حسم نزاعهم باقتراحه لهجرة الرسول من مكة الى المدينة فأعجب ابن الخطاب برأيه وهتف قائلا : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن واقرن رأيه هذا باعجاب الحضور واجماعهم عليه ، لان هجرة الرسول (ص) كانت نقطة الانطلاق لاتصار الاسلام على الشرك والوثنية وحدثا تاريخيا لا يزال من الاحداث البارزة في تاريخ الدعوة ان لم يكن ابرزها .

ولم يحدث التاريخ عن المسلمين الاوائل انهم اعتبروا اول محرم اول يوم من ايام السنة الهجرية ولا عيداً من اعيادهم ، والظاهر ان هذا لم يحدث الا بعد مقتل الحسين وبعد ان اعتبر شيعة اهل البيت الايام الاولى من شهر المحرم ايام حزن على الحسين ومن قتل معه من اهلـه وأصحابه فاعتبرها في المقابل اعداء الشيعة من الامويين وغيرهم بداية للسنة الهجرية وعيدا من اعياد المسلمين ، ولا يزال المسلمون ومع الاسف الشديد يعتبرون اول يوم من شهر المحرم عيداً من اعيادهم .

ومهما يكن الحال فلقد كانت هجرة النبي من مكة الى المدينة فسي السادس من ربيع الاول، وفي اليوم الثاني عشر كان النبي في المدينة وأنقذه الله سبحانه من تلك المؤامرة الدنيئة التي استهدفت حياته ورسالته وحاك خيوطها شيخ الامويين يومذاك ابو سفيان بن حرب للقضاء على الرسالة التي غيرت مجرى التاريخ ، وسلم محمد لرسالته التي ارغمت ابا سفيان وطواغيت قريش بعد سنوات قليلة من تلك الهجرة على الاستسلام بقلوبهم المشتركة الحاقدة يتململون بين اقدام طريدهم بالامس يستجدون عفوه ورأفته أذلاء صاغرين .

وقد ابت نفسه الكبيرة التي اتسعت لتعاليم الاسلام ورسالة الاسلام، الا ان اتسع لابي سفيان وحتى لزوجته هند آكلة الاكباد وغيرهما من المشركين والمشركات ، وأعلن العفو العام عن اولئك الذين لم يتركوا لونا من ألوان الاذى والجور الا وقابلوه به متجاهلا جميع سيئاتهم بكلماته الخالدة التي لا تزال سمة خزي وعار ما دام التاريخ : اذهبوا فأتسم الطلقاء .

وهل غير هذا الموقف الكريم الذي لا يمكن ان يصدر الا من انسان تسيره ارادة الساء ، وهل غير من نفس ابي سفيان وروحه شيئا وهل ادركت ان موقفا كهذا لا يصدر الا عن انسان فوق مستوى القادة

والزعماء والحاكمين ؟ ان مواقف النبي (ص) مع ابي سفيان وزوجته وأسرته لم تغير من نفوسهم والنبي (ص) يعلم ذلك ويعلم بأن النفوس العاقدة والقلوب المريضة لا علاج لها الا بالاستئصال ولكن مصلحة الاسلام يومذاك فرضت عليه ان يعالجهم بهذا الاسلوب .

لقد بقي الحزب الاموي بقيادة ابي سفيان يتحين الفرص ويستغل المناسبات للوثوب ضد الاسلام ودعائه المخلصين الاوفياء وحينما انتقلت السلطة الى سليل بيته عثمان بن عفان أحس بنشوة تملأ نفسه العاقدة وذهب يقوده غلامه الى قبر الحمزة فركله برجله وقال : قم يا ابا عمارة، ان الذي تجالدا علينا لقد اصبح تحت أقدامنا .

وخلال سنوات قليلات من حكمهم استطاعوا ان يحققوا لهذا البيت اكثر أمانيه واتجهوا يعملون لجاهليتهم ووثنيهم حتى لا يبقى لرسالة محمد (ص) ناطق على منبر او محراب ويصبح أئمة المساجد والقراء والرواة ابواقا للسلطة الحاكمة التي كانت تعمل لفصل الادمغة من عقائد الاسلام وقيمه واستبدالها بمبادئ الردة والوثنية .

وظلوا يعملون بهذا الاتجاه الوثني حتى انقلبت القيم وسحقت التعاليم وذهبت الرياح بجهود المخلصين والمجاهدين وجاءت بكنسوز الذهب للمنافقين وأصبح التوحيد ستارا للشرك والاسلام قيودا للاستسلام والسنة قاعدة للسلطة والحديث عرضة للوضع والتزوير والالسن قطعت او اشترت .

اما اصحاب السابقة فقد تقاضوا الثمن ولايات وامارات ، واعتزل فريق للعبادة وفريق ساوموا على السكوت عن الظلم والجور حتى لا يواجهوا النفي والموت في صحراء الربذة ومرج عذراء وعادت الجاهلية الجديدة أثقل ظلا وأشد ظلمة ووحشية والعدو الجديد أشد دهاء وأكثر فضجا وذكاء ، كل ذلك كان في عهد ابن عفان ومعاوية بن هند ، وجاء

ولده ابن ميسون الى الحكم لاتمام رسالة ابيه التي تحقق لأمية كل أمانها
تحت ستار الاسلام . وفجأة سطع ضوء في الظلام ومن بين ركام الاسلام
المتداعي وأضاءت للملأ ملامح امل جديد في دياجي ذلك الظلام المطبق ،
وبدا للعالم انسان يخط على التراب بدمه : ألا واني لا ارى الموت الا
سعادة والحياة مع الظالمين الا برما .

انه الحسين بن علي وفاطمة سبط ذلك الرسول الذي هاجر من مكة
الى يثرب قبل ستين عاما لاجل رسالته ولاجل كرامة الانسان والمستضعفين
في الارض لا خوفا من الموت بل لان بقاء رسالته وانتشارها مرهون
بحياته .

ومرة ثانية وفي ظروف لعلها اسوأ على الانسانية والرسالة من
الظروف التي هاجر فيها جده من قبل لانقاذ البشرية مما كانت تعانيه من
عسف وجور واستغلال خرج من بيت محمد وعلي (ع) البيت الذي
وسع التاريخ كله فكان اكبر منه خرج غاضبا مصمما على الموت كأن في
صدره اعصارا في طريقه الى الانطلاق . خرج وهاجر لاجل الانسانية
ومن اجل الرسالة التي هاجر من اجلها جده قبل ستين عاما يتلفت من
حواله وحيدا أعزل من الرجال والسلاح يرى الرسالة وآمال الفقراء
والمستضعفين تساق الى قصر الخضراء في دمشق لا يملك من السلاح غير
الشهادة التي يراها زينة للرجال كما تكون القلادة زينة للفتاة فهاجر من
اجلها على هدى وبصيرة وشبهها مائل نصب عينيه يتطلع الى تربة كربلاء
مع ركه بصبر وصمود وهو يقول :

خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة أفلا ترون الى
الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء
ربه محقا .

لقد هاجر من مدينة جده الى مكة ومنها الى العراق بعد ان رأى ان

رسالة الاسلام تتعرض للانهيـار ومصير الانسان يومذاك اسوأ من مصير انسان الجاهلية نافضا يديه من الحياة لا يملك في مقابل عدوه سوى سلاح الشهادة وفي كل مرحلة كان يقطعها وهو يحث السير اليها كان يشير الى أنصاره الذين رافقوه في تلك الرحلة ليموتوا معه والى اهل بيته الذين هم كل ما يملكه من الحياة الى هؤلاء جميعا كان يشير ويكشف لهم عن معاني الشهادة وأهدافها ومعطياتها ويشهد العالم بأسره بأنه قد أدى للانسانية وللرسالة كل ما يقدر عليه .

لقد كان سيد الشهداء يدرك ويعي اهمية الرسالة الملقاة على عاتقه ويعلم بأن التاريخ ينتظر شهادته وانها ستكون ضمانا لحياة أمة وأساسا لبناء عقيدة وهتكا لاقنعة الخداع والظلم والقسوة وادانة لسحق القيم ومخوها من الازهان وانقاذا لرسالة الله من أيدي الشياطين والجلادين وهذا هو الذي كان يعنيه بقوله لـاخيه محمد بن الحنفية وهو يلح عليه ويتلمل بين يديه باكيا حزنا ليرجع الى حرم جده . لقد شاء الله ان يراني قتيلا وأن يرى حرمي وعيالي سبايا .

ان المشيئة الالهية التي جعلته يضحي بنفسه وبينه واخوته ويعرض نساءه للسيي لم تكن لولا ان شهادته وسبي نساءه سيحققان للأمة وللـاسلام ما لا تحققه الجيوش والاساطيل وأفتك الاسلحة ، وبالفعل لقد هتكت شهادته اقنعتهم وأدانتهم بكل انواع الخزي والعار ولولاهما لتعرضت رسالة الله لاسوأ انواع التحريف والتشويه والتلاعب .

لقد اعطى الحسين شهادته دروسا مليئة بالحياة غنية بالقيم وروعة الجمال وأصبح هو ومن كان معه من طفله الى اخوته وأنصاره وعلمانه القدوة الغنية بمعطياتها للعالم في كل مكان وزمان تعلم الابطال كيف يموتون في مملكة الجلادين الذين ذهبت ضحية سيوفهم آمال أجيال من الشباب وانطفأت آمال أمم وتلوت تحت سياطهم جنوب النساء وأبادوا

وأجاعوا واستعبدوا رجالا ونساء ومؤذنين ومعلمين ، ووقف خطيبا رابط الجأش مستخفا بكل حشودهم التي بلغت عشرات الألوف وقادتها وأعتدتها •

وقال : ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيئات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس آية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ، ومضى يقول : أما والله لا تلبثون بعدها الا كريشما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور عهد عهده الي ابي عن جدي رسول الله (ص) •

لقد هاجر من مدينة جده الى ثري الطف ليقدم دمه الزكي ودماء اخوته وأنصاره الخالدين الاحرار ثمنا لاجياء شريفة جده الرسول الاعظم وانقاذها من مخالب الكفر والانحراف ولكي يضع حدا لسياسة البطش وانتكيل وارقة الدماء وليعلن بصرخته المدوية التي لا يزال صداها يقض مضاجع الظالمين ان الاسلام فوق ميول الحاكيمين وان القيم والمثل فوق مستوى مطامعهم الرخيصة ، وان الحرية والكرامة من حقوق الانسان في حياته ولا سلطان عليها للحكام والطغاة •

أجل ان رسالة الحسين كانت ولا تزال امتدادا لرسالة جده وجهاده امتدادا لجهاد ابيه امير المؤمنين (ع) بطل الاسلام الخالد الذي قسام الاسلام واتشر بسيفه وجهاده ، وكما خيبت هجرة الرسول مساعسي المتآمرين على قتله بخروجه من مكة الى يثرب كذلك خيبت شهادة سبطه الثائر العظيم آمال أمية وأمانيا وما كان يطمح اليه حفيدها يزيد بن معاوية من تحطيم الاسلام وعودة الجاهلية والاصنام آلهة آبائه وأجداده وسجلت انتصارا حطم اولئك الجبابرة الطغاة ودولتهم العنصرية الجائرة التي قاتلها الحسين وقضى عليها بشهادته ودمه الزكي الطاهر لا بالرجال والعتاد والاموال •

ولرب نصر عاد شر هزيمة تركت بيوت الظالمين ظلولا

لقد قاتل مع الحسين في معركته مع الشرك والوثنية اثنان وسبعون شخصا من اخوته وأبنائه وبنى عمومته وأنصاره الابطال الذين امتحن الله قلوبهم بالايمان فقاتلوا دفاعا عن الحق والعقيدة والعدالة واستهانوا بحياتهم لاعلاء كلمة الله في الارض وكانوا مع قلة عددهم وكثرة اعدائهم يكرزون على تلك الحشود بقلوبهم العامرة بالتقوى ونفوسهم المطمئنة الى المصير الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله ، فتفر منه فرار المعزى اذا شدت عليها الذئاب ورحم الله العلامة السيد محمد حسين الكشوان الذي قال في وصفهم كما جاء في مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المكرم :

إذا ما خبت نار الوغى شعثموا لها سيوفهم جعرا وقالوا توقدي
نقال الخطا لكن يخفون للوغى سراعا بخرصان الوشيج المسدد
إذا اشرعوا سمر الرماح حسبها كواكب في ليل من النقع اسود
أو اصطدمت تحت العجاج كتاب جرى اصيد منهم لها اثر اصيد
يكرزون والابطال طائشة الخطى وشخص المنايا بالمعاجة مرتدي
لووا جانبا عن مورد الضيم فاثنوا على الارض صرعى سيدا بعد سيد
هووا للثرى نهب السيوف جسومهم عوار ولكن بالمكارم ترتسدي

وبقي الحسين (ع) وحده بعد مصرع بنيه واخوته وأنصاره لا يملك غير طفله الرضيع وهو يعلم ان القوم لا يرحمون طفلا ولا شيخا كبيرا ولكنه اراد ان يظهر للعالم ان عداة الامويين لمحمد وآل محمد ليس مرهونا بمن يعارضهم ويخافون بطشه وخطوته من بيت هاشم بل لهذا البيت وكل من ينتسب اليه صغيرا كان او كبيرا ، وعندما طلب له الماء ردوا عليه بسهامهم التي اصابا الطفل وأودت بحياته ، فتلقى دمه بيده وصعده نحو السماء وقال : اللهم تقبل منا هذا القربان •

وتقدم بعد ذلك الى المعركة يبطولة لا نظير لها في تاريخ المعارك والحروب فكان يشد عليهم وقد تكاملوا ثلاثين الفا او اكثر فينهزمون بين يديه ثم يرجع الى مقره ويقول : أعلى قلتي تجتمعون أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله اسخط عليكم لقتله مني ، وايم الله اني لارجو ان يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون .

وقال عبد الله بن عمار احد أنصار ابن مرجانة : والله ما رأيت مكثورا قط قتل ولده وأهل بيته أربط جأشا ولا أمضى جناحا ولا أجرا مقدما منه لقد كان يشد على أهل الكوفة فينكشفون بين يديه انكشاف المعزى اذا شد فيها الذئب ، وظل يقاتلهم حتى سقط على صعيد كربلاء لكثرة ما اصابه من سيوفهم ورماحهم وسهامهم ورحم الله القائل :

احاطت به سبعون الفا فردها شوارد أمثال النعام المشرذ
وقام عديم النصر بين جموعهم وحيدا يحامي عن شرعة أحمد
الى ان هوى للارض شلوا مبضا ولم يرو من حر الظما قلبه الصدي
هوى فهوى التوحيد وانطس الهدى وحلت عرى الدين الحنيف المشيد

الى ان يقول في وصف زينب وما حل بها وبنسائه وعياله في تلك اللحظات :

وهاتفه من جانب الغدر ثاكل بدت وهي حسرى تلطم الغد باليد
يؤلها قرع السياط فتشنشي تحن فيشجي صوتها كل جلمد
وسقت على عجب المطايا اسيرة يطاف بها في مشهد بعد مشهد
سرت تنهادها علوج أميسة فمن ملحد تهدي الى شر ملحد

وقد وصف الكعبي احد شعراء الطف حالة النساء والعيال حينما صرع الحسين (ع) بقوله :

فواحدة تحنو عليه تفضيه وأخرى عليه بالرداء تظلل
 وأخرى بفيض النحر تصبغ وجهها وأخرى تغديه وأخرى تقبل
 وأخرى على خوف تلوذ بجنبه وأخرى لما قد نالها ليس تعقل

ورحم الله السيد حيدر الحلي حيث يقول :

وفي السبي مما يصطفي الخدر نسوة يعز على فتيانها ان تسيرا
 حمت خدرها يقظى وودت بنومها ترد عليه جفنها لا على الكسرى
 مشى الدهر يوم الطف اعني فلم يدع عمادا لها الا وفيه تمثرا
 وجشمها المسرى بيضاء قفرة ولم تدر قبل الطف ما اليد والسرى
 ولم تر حتى عنها ظلل شخصها الى ان بدت في القاضية حمرا

لقد ترك لنا الحسين وأب الحسين والائمة من ذرية الحسين من
 سيرتهم وسلوكهم وتضحياتهم في سبيل الله وخير الانسانية مدرسة غنية
 بكل ما نحتاجه في الحرب والسلم والشدة والرخاء والفقر والغنى وجميع
 نواحي الحياة فما أولانا ونحن ندعي التشيع الى الرجوع لسيرتهم والسير
 على خطاهم لنصنع من ميراث أمتنا وقادتنا خير أمة اخرجت للناس .
 ولو نظرنا ومع الاسف الشديد الى مبادئ التشيع التي تجسد
 الاسلام بكل فصوله وخطوطه وقارنا بينها وبين ما نحن عليه من تخاذل
 وتراجع واذلال وانحراف عن الاسلام ومبادئه وقيمه وجدنا انفسنا من
 أبعد الناس عن محمد وعلي وبنه وعن الحسين بالذات الذي نحتفل في
 كل عام بذكراه ونبكيه ونردد ذكره في كل مناسبة بألسنتنا ونقول يا
 ليتنا كنا معك فنغوز فوزا عظيما .

وأنا على يقين بأن الحسين لو وجد في زماننا هذا لصنع من القدس
 وجنوب لبنان وأكثر المناطق الاسلامية كربلاء ثانية ووقف نفس الموقف
 الذي وقفه من معاوية ويزيد وسوف لا ينصره ممن يدعون الاسلام

والتشيع ومن يتباكون على القدس والجنوب ويتاجرون بهما في البيانات
والخطب وعلى صفحات الجرائد وبالبنادق التي يحملونها في الشوارع
والنوادي اكثر من العدد الذي ناصره ووقف الى جانبه في كربلاء الاولى
وسلام الله عليك يا من لم يحدث التاريخ عن مثله ويا من علمنا لماذا أمر
الله الملائكة ان تسجد لآدم :

فيا ايها الوتر في الخالدين	فذا الى الآن لم يشفع
ويا واصلا من نشيد الخلود	ختم القصيدة بالمطلع
ويا ابن التي لم يضع مثلها	كمثلك حملا ولم ترضع
ويا بن البتول وحسي بها	ضمانا على كل ما ادعسي
تعاليت من مغزع للحتوف	وبورك قبرك من مغزع
تمر الدهور فمن سجد	على جانبه ومن ركع

شباب كربلاء

إذا كانت مطامح الشباب عيشا رغيدا ومستقبلا سعيدا حافلا بكل أنواع النعيم وألوانه كما نشاهد ونرى من شباب اليوم وغير اليوم ، فشباب كربلاء كانت كل آمانيهم ومطامحهم وأهدافهم من الحياة صموذا في الاهیال وصبرا في البأساء واستشهادا بحد السیوف من اجل الحق والانسان وكرامة الانسان . ولم يكن لتلك الفتوة الفضة والصبأ الریان ان تهتم او تفكر بما أعد لها من غصارة الدنيا وما ينتظرها من صفو الحياة ولهوها ومتعها بل كان كل همهم التطلع الى اي سبیل من سبیل الشهادة يعبرون وأي موقف من مواقف البطولات يقفون .

هناك وعلى مشارف العراق وفي الطريق الى كربلاء كان الحسين (ع) يسیر على رأس قافلة الشباب الابطال متحدیا اقوى سلطة يومذاك وأبشع ظفیان وأسوأ من عرفه التاريخ من الحاکمین وفراغة العصور متحدیا كل ذلك بسبعین من الرجال والشباب لیحطم بهذا العدد القلیل في حساب الارقام والكثیر الكبير فیما یحملة من عزیمة وتصمیم على الشهادة التي نصنع من الانتصارات احيانا ما لا تصنعه اقوى الجیوش وأكثرها عددا وعتادا لیحطم بهذا العدد القلیل فیما یحملة من عزیمة وتصمیم قوى الشر

والطفيان ومعاقل البغي والعدوان ، وليعلم أبناء آدم كيف يموتون في مملكة الجلادين •

كان ابو عبد الله الحسين (ع) يسير الى الشهادة التي لم يجد وسيلة غيرها تحفظ شريعة جده ورسائله مما كان يخطئه لها الحزب الامسوي الحاكم الذي سخر جميع طاقات الامة وامكانياتها وفئاتها للقضاء عليها وتحريفها • كان يسير الى الشهادة ومن حوله عشرون شابا من اخوته وأبنائه وأبناء اخيه الحسن السبط وأخته العقيلة بطة كربلاء وشريكته في الجهاد والتضحيات وأحفاد جده ابي طالب وما أسرع ان كبر قائلا : الله اكبر ، فأحس من حوله من الشباب ان الصحراء قد تجاوزت مع تكبيره ولم يكن الموقف يوجب التكبير فلا بد وأن يكون تكبيره لامر ما او لهم من همومه اراد ان يستنجد عليه بالله ، ومع ان للتكبير روعة في كل زمان ومكان فلم يكن له من الروعة ما كان لتكبير الحسين في تلك الساعة وهو منطلق في تلك الصحراء المديدة الى الهدف الاسوى والغاية العليا تحت سماء العراق الصافية ، على رأس ذلك الركب كبر الحسين فكانت تكبيرة لم يعرف التاريخ اكثر منها دويا تكبيرة اقتحمت تلك البيداء ومضت من صعيد الى صعيد تهز النفوس وتثير الضمائر الحية وتحض على الظالمين والعابثين بتراث محمد ورسائله •

وما كان لعلي الاكبر ذلك الشاب الذي كان يسير الى جانب ابيه الا ان يسأل أباه : لم كبرت يا أبتاه ؟ فقال : لقد خفقت خفقة فمن لي هاتف وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسير في اثرهم فعلمت ان نفوسنا نعت الينا •

لقد كان جواب الحسين لولده موجزا وبكلمة واحدة لا موارد فيها ولا تمويه انه الموت ينتظرنا على الطريق وسوف نموت ولا نستسلم للطغاة ولا نهادن الجور والتسلط على عباد الله والمستضعفين في الارض ، وان

لم يكن لنا سبيل الى استنهاض ثورة عارمة تدك عروش اولئك الطفلة بقوتها المادية وتنتصر عليهم بقوة السلاح ولكن سبيلنا الوحيد هو بين أيدينا ورهن ارادتنا وهو ان نكون وحدنا الثورة ومن غير المقول ان تغلب بهؤلاء السبعين على الالف ونهزم بهم ثلاثين الفا من رجالهم ، بل باستطاعتنا ان نقلب الدنيا على رؤوسهم اذا ضحينا وقتلنا في سبيل الاسلام ورسالاته .

وكان الحسين وهو يلقي مضامين كلماته هذه على ولده علي الاكبر ابن العشرين وأشبه الناس بجده الرسول (ص) خلقا وخلقا يريد ان يسمع رأي ولده الاكبر ، ولم ينتظر الامام طويلا حتى سمع جواب الشاب الذي بادره بقوله : يا أبتاه لا اراك الله سوءا أولسنا على الحق ، هذا هو القول الفصل عند علي بن ابي طالب وأبنائه شيوخا وشبانا ونساء والقرار الاول والاخير انهم يسعون الى الحق ومحاربة الباطل ويتحركون فسي اطارهما وحيث يكون الحق فهو هدفهم وغايتهم مهما كلفهم ذلك مسن جهود وتضحيات .

أولسنا على الحق يا أبتاه هكذا كان جواب الاكبر ابن العشرين لايه وكان رد الحسين (ع) عليه : بلى والذي اليه مرجع العباد ، ورد عليه الاكبر بقوله : اذن لا نبالي بالموت ما دما نموت محقين .

ان الحسين (ع) لم يكن ينتظر من ولده شبيه رسول الله غير هذا الجواب ولكنه لم يتمالك الا ان يزهو بمثل هذه الروح التي يحملها شاب في مطلع شبابه فرد عليه قائلا : جزاك الله من ولد خير ما جرى ولدا عن والده .

ان علي الاكبر بكلماته هذه لم يكن يعبر عن نفسه وروحه خاصة بل كان يتكلم باسم الشباب العشرين من أحفاد ابي طالب وكان يعلن قرارهم الاخير الذي هاجروا من المدينة لاجله وكان في طليعة اولئك الشباب

العشرين او السبعة عشر العباس بن علي اكبرهم سنا وأثبتهم جنائنا
 وأكثرهم مراسا للحروب والمعارك وقد ادرك معارك ابيه امير المؤمنين مع
 خوارج البصرة وصفين والنهروان وحضر قسما منها ولكنه لم يمارس
 الحرب على اشهر الروايات وكان الى جانب ذلك نافذ البصرة صلب
 الايمان يتفانى في خدمة اخيه الحسين وولائه له قد أعد الله له منزلة يوم
 القيامة يفظه عليها جميع الشهداء والصديقون كما جاء ذلك عن الامام
 الصادق (ع) وكان له منزلة عند الحسين (ع) ليست لاحد من اخوته
 وولده يحبه حب الاخ لاخته والوالد لولده ، هذا مع العلم بأن للعباس
 من المؤهلات والصفات الفاضلة ما يجعله محببا لكل عارفيه ، وقد أوكل
 اليه الحسين (ع) قيادة المعركة وأعطاه لواءه ، وكما تكلم علي الاكبر باسم
 الطالبين جميعا كان العباس بن علي (ع) يتكلم باسمهم ، فقد تكلم باسمهم
 عندما عرض عليهم ابن ذي الجوشن الامان بنفس الروح التي كان يحملها
 الاكبر وغيره من الشبان ، وقال له : لعنك الله ولعن امانك اتؤمننا وابن
 رسول الله لا امان له ، وكانوا يكررون تصميمهم على التضحية في سبيل
 الحق الذي يمثلته الحسين (ع) في كل مناسبة تستدعي ذلك ويتكلمهم
 باسمهم العباس (ع) وعندما جمع الحسين أنصاره وأهل بيته وأذن لهم
 بالانصراف قائلا : ان القوم لا يريدون غيري وقد أذنت لكم بالانصراف
 في ظلمة هذا الليل فاتخذوه جملا وليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من
 اهل بيتي ، وكان اول المتكلمين باسم اولئك الشباب العباس بن علي (ع)
 فقال : ولم نفعل ذلك لنبقى بعدك يا ابا عبد الله لا ارانا الله ذلك أبداً ،
 وتابعوا على الكلام بنفس الروح واللغة التي تكلم بها العباس .
 وفي اليوم العاشر من المحرم اليوم الحاسم الرهيب كان الشباب أحفاد
 ابي طالب يتسابقون الى الموت بأرواحهم الطيبة السخية بالبذل والفداء
 في سبيل الحسين ورسالة وأراد العباس ان يتقدمهم فلم يسمح له

الحسين (ع) فقدم اخوته الثلاثة الذين هم لأمه أم البنين وقال لهم :
تقدموا لأحتسبكم بين يدي الله ، وتقدم بعدهم علي الأكبر وهو يقول :

نحن وبيت الله أولى بالنبي والله لا يحكم فينا ابن الدعي
اضرب بالسيف احامي عن ابي ضرب غلام هاشمي علوي

وتناولته السيوف والرماح من كل جانب فصمد لسيوفهم ورماحهم
وأدى للبطولة حقها وللشهادة كرامتها ، وتابع الطالبون من بعده شاباً
بعد شاب دفاعاً عن الحق والعقيدة وكرامة الانسان ومبادئ الاسلام ،
عشرون شاباً من نسل ابي طالب وأحفاد علي وعقيل رفضوا الذل وهوان
الحياة ومشوا الى الموت بأنوف شامخة ورؤوس مرفوعة عالية لحماية
الاسلام من الوثنية والجاهلية الرعناء التي كان لواؤها يومذاك بيد حفيد
هند وأبي سفيان اعداء الاسلام الذي ارغهم على الاستسلام عام الفتح،
مشوا الى الموت من اجل الرسالة التي كان جدهم ابو طالب يدافع عنها
بشخص ابن اخيه محمد بن عبد الله ويخاطب ابا سفيان وحزبه بقوله :

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل
وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ان ابا طالب عليه السلام حينما أنشد هذين البيتين لم يكن يقصد
نفسه خاصة ولا جيله من الهاشميين بل كان يقصد كل هاشمي من نسل
عبد مناف ويخاطب كل جيل من أحفاده ويحضهم على التضحية بأنفسهم
وبكل ما يملكون عندما يرون رسالة محمد ونهجه معرضين للتحريف
والاستغلال وكأنه كان ينظر من وراء الغيب الى رسالة محمد (ص) والى
الاحطار المحدقة بها من أحفاد أمية وأبي سفيان وينظر الى الشباب من
أحفاده يتهافتون على الموت في سبيلها كأنهم يعانقون عادة حسناء فوقف

مزهوا بتلك المشاهد يقول :

وننصره حتى نصرع حوله ونذهل عن ابائنا والحلائل

لقد نفذ أحفاد ابي طالب كل وصاياه ووقفوا يناضلون ويدافعون عن رسالة محمد وتعاليم محمد (ص) بنفس الروح والعزيمة والايمان التي كان جدهم ابو طالب يدافع ويناضل بها ويقول لابن اخيه :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيننا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

لقد دافعوا وناضلوا عن رسالة محمد المتمثلة في شخص حفيده الحسين وضحوا بأنفسهم في سبيلها تاركين للعالم وللتاريخ دروسا غنية بالمثل والقيم تستلهم منها الاجيال كل معاني الخير والنبل والفضيلة وستبقى مواقفهم في سبيل الحق والمعقيدة مثلا كريما لكل تائر على الظلم والجور والظلميان الى حيث يشاء الله ، ورحم الله من قال فيهم :

ولسم تر عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس اذ انا يافس
أشد قراعا بالسيوف لدى الوغى الا كل من يحيي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطن حسرا وقد نازلوا لو ان ذلك نافس

وقال بعض شعراء الطف في وصفهم ووصف الانصار :

سقط ورحى الهيجاء تطحن شوسها ووجه الضحى في نغمها منتقب
تهلل بشرا بالقراع وجوههمسا وكم وجه ضرغام هناك مقطب
وتلتذ ان جاءت لها السمر تلتوي وللبيض ان سلت لدى الضرب تطرب

أعزاء لا تلوى الرقصاب لفادح ولا من الوف في الكريهة ترهب
وما لسوى العلياء تآقت نفوسهم ولم تك في شيء سوى العز ترغب
فأسيافهم يوم الوغى تمطر الدما وأيديهم من جودها الدهر مخضب
وما برحت تقري المواضي لحومها ومن دمها السمر العواسل تشرب
الى ان تهاوت كالكوأكب في الثرى وما بمدهم يا ليت ما لاح كوكب

وسلام الله على الحسين وأنصاره وعلى جميع من استشهد معه من
أحفاد ابي طالب حين ولدوا واستشهدوا وحين يبعثون مع الانبياء
والصديقين وجدهم الرسول الامين ورحمة الله وبركاته .
وتتمنى على شبابنا الذين ينشدون التحرر من الاستغلال والاستعباد
والتسلط ان يرجعوا الى تعاليم الاسلام وسيرة اهل البيت والى مدرسة
كربلاء وشباب كربلاء الذين كانوا ثورة عارمة على الظلم والتسلط
والاستغلال واستعباد الانسان لاختيه الانسان وسوف يجدون فيها ما
يفنيهم عن تلك المبادئ المستوردة من هنا وهناك والتي تنطوي على
اسوأ انواع التسلط واستعباد الشعوب وخنق الحريات باسم التحرر
والعدالة والديمقراطية وما الى ذلك من الشعارات البراقة الجوفاء التي
يضللون بها البرئين من الشباب ومنه سبحانه نستمد لهم الهداية والوعي
انه قريب مجيب .

بطلة كربلاء زينب بنت علي (ع)

لقد تحدث الناس عن البطولات طويلا وكثيرا ومع انهم لم يلتقوا في الغالب على تحديد معين لمفهومها ومقوماتها وأسبابها فهم يلتقون في ان اهل البيت (ع) يأتون في الطليعة بين أبطال التاريخ وان زينب بنت علي وفاطمة تأتي في الطليعة بعد ابيها واخوتها كما يشهد لها بذلك تاريخها الحافل بكل انواع الطهر والفضيلة والصبر في الشدائد ، وليس بغريب على تلك الذات العملاقة التي اتقت فيها الانوار الثلاثة نور محمد وعلي وفاطمة ومن تلك الانوار تكونت شخصيتها ان تجسد بمواقفها خصائص النبوة والامامة وأما الزهراء التي امتازت بفضلها على نساء العالمين، ان اللسان ليعجز وان اللغة لتضيق على سعة مفرداتها عن التعبير عما ينطوي عليه الانسان الواعي المدرك من الشعور نحو المرأة الكبيرة والقسوة العظيمة ابنة علي والزهراء التي عز نظيرها بين نساء العرب والمسلمين بعد أمها البتول سيدة النساء التي ابتسمت للموت حين بشرها به الرسول بقوله : انت اول اهل بيتي لحوقا بي •

ان المقام لا يتسع للامام بحياة بطلة كربلاء زينب بنت علي في عهد الطفولة والصبا والامومة وكيف نشأت طفلة وشابة برعاية امها الزهراء

وأبيها الوصي وفي بيت زوج كريم من كرام آل أبي طالب وبمسد ان
اصبحت أما لاسرة غذتها بتعاليم الاسلام وأخلاق أمها وأبيها وعندما رحل
اخوها الى الشهادة تركت بيتها تحت الخطى خلفه في رحلته الى الموت
والشهادة لتعلم الرجال معاني الرجولة وكيف يموتون في مملكة الجلادين .
ان المقام لا يتسع لاعطاء فكرة كافية عن ذلك الغرس الطيب وكيف نما
وتكامل مع نموه حتى بلغ أشده ونهض بأعباء المسؤولية العظمى وأدى
دوره الكامل عندما وقعت تلك المأساة الكبرى التي حلت بالعلوين
والطالبين والهاشميين على تراب كربلاء وكيف استطاعت ان تتحمل تلك
الصدمة وتقوم بدورها الكامل بالحكمة والصبر الجميل ذلك الدور الذي
يمثل اسمى درجات البطولة وأعلاها . لقد ثبتت في ذلك الموقف كالطود
الشامخ تاركة على تراب كربلاء آثار مسيرتها ومواقفها بين تلك الضحايا
التي لا تزال حديث الاجيال ومثلا كريما لكل نائر على الظلم والجور
والمرأة التي حملت على عاتقها رسالة اخيها لتبلغها للاجيال وتعلمهم كيف
يثبتون في الشدائد ويقابلون الخطوب .

لقد كان غويل النساء وصراخ الصبية وضجيج المنطقة كلها بالبكاء
والنياحة كفيلا بأن يهد اقوى الاعصاب ويغرس أفصح الالسنه والخطباء
ويقعد بأكبر الرجال حتى ولو لم يكن يتصل بتلك الضحايا بنسب او سبب
فكيف بمن هو من اهل البيت وقد رأى ما حل بينه واخوته وأبناء اخوته
وعموته وأحس بثقل المسؤولية وجسامتها .

في الليلة العاشرة من المحرم كانت زينب ساهرة العين تتحول من
خيمة لخيمة ومن خباء الى خباء ومن طفل الى طفل وفي بعض ساعات
الليل مرت على خيام الرجال فلم تسمع بها صوتا وكأنها خالية لم يبق بها
احد وذهبت الى خيمة اخيها الحسين فوجدتها قد سكنت فأسرعت لداخلها
فرأته جالسا وحده يناجي ربه ويتلو القرآن فأحزنها ان لا تجد معه احدا

فمضت الى خيام اخوتها وبني عمومتها لتعاتبهم على ذلك وما كادت تدنو من خيمة اخيها العباس حتى سمعت هممة وكلاما خفيا وغبضا مختنقا فوقفت بظهر الخيمة ونظرت فيها فوجدت الرجال والفتيان والصبيان من الهاشميين قد اجتمعوا كالحلقة على اخيها العباس وقد جثا بينهم على ركبتيه وكأنه اسد على فريسته وهو يقول :

يا اخوتي وبني اخوتي وأبناء عموتي اذا كان الصباح فما تقولون؟ فردوا عليه بأجمعهم : الامر اليك فانظر ماذا ترى ونحن صانعون ، فقال: ان اصحابنا وشيعتنا قد بذلوا انفسهم من اجلنا وان الحمل لثقل والحمل الثقيل لا ينهض به الا اهله ، فاذا كان الصباح ارى ان نكون اول من يبرز الى الحرب لئلا يقول احد انهم قدموا اصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسياهم ساعة بعد ساعة .

ولم ينته العباس من كلامه حتى وثب بنو هاشم كالاسود من معاقلها وسلوا سيوفهم يلوحون بها قائلين : نحن على ذلك يا ابا الفضل وسوف لا نسمح لاحد ان يتقدمنا الى القتال فجزاهم العباس خيرا .

ورأت زينب كل ذلك فلم تملك عبرتها واطمأنت لذلك نفسها ولم تلبث ان اسرعت الى خيمة اخيها لتبشره بما رأت وسمعت ، وفيما هي في طريقها اليه مسرعة من وراء الخيام مرت الى جانب خيمة حبيب بن مظاهر فسمعت دويا وكلاما خفيا تارة وغبضا مختنقا اخرى فوقفت الى جانبها فوجدت أنصار اخيها قد اجتمعوا كالحلقة حول حبيب وقد جثا وجثم بينهم وهو يقول : يا اصحابي اذا كان الصباح فماذا تفعلون ؟ فردوا عليه قائلين : الامر اليك يا ابن مظاهر .

فقال : اذا كان الصباح كنا اول من برز الى القتال لنسبق بني هاشم الى الموت ولا نرى احدا منهم مضرجا بدمه ، وحتى لا يقول الناس : انا بخلنا عليهم بأنفسنا، فسل الانصار سيوفهم ولوحوا بها اليه قائلين : نحن

على ما انت عليه يا ابن مظاهر .

وانطلقت زينب وهي تبسم وقد غمرها السرور وطفأ منه على وجهها
اثر رد عليه لمحة من بهائه وانطلاقه ومضت تريد الحسين (ع) لتخبره بما
سمعت من اخوتها والانصار ، وما هي الا خطوات حتى رآته مقبلاً
فابتسمت اليه وتلقاها قائلاً : منذ ان رحلنا من المدينة ما رأيتك مبتسمة
ولا ضاحكة فما الذي رأيت ؟

فقلت : لقد رأيت يا اخي من بني هاشم والانصار ما سرنى ، وقصت
عليه ما سمعته من الفريقين وظلت العقيلة ليلتها تلك ساهرة العين تنتقل
من خيمة لخيمة بين النساء والاطفال واخوتها حتى اذا اقبلت ضحوة
النهار وسقط أنصار الحسين ومن كان معه من بنيه واخوته وأبناء عمه
صرعى فوق رمال كربلاء وجاء الحسين (ع) ليودع وزينب الى جانبه
كالمذهولة فقال لها : مهلا اخية لا تشقي علي جييا ولا تخشي علي وجها
ولا تشمتي بنا الاعداء ، وأوصاها بالعيال والاطفال .

فقلت له : طب نفسا وقر عينا فانك ستجدني كما تحب ، ثم خرج
ليركب فرسه وزينب آخذة بزمامه وانطلق نحو القوم وعيون النساء
والاطفال شاخصة اليه وهم يفرون بين يديه وظل يقاتلهم ويقاتلونه وسهامهم
تنال عليه حتى اصبح كالقنفذ من السهام ولما سقط الى الارض ونظرت
اليه العقيلة وقفت على جسده وصاحت تستغيث بجدها وأبيها وأوشكت
البرخة ان تنطلق من حشاها اللاهب عندما رأت رأسه مفصولا عن بدنه
والسيوف والسهام قد عبثت بجسمه وقلبه ورضت الخيل صدره بسنابكها
ورأت اخوتها وبنيتها وأبناء اخوتها وعمومتها من حوله كالاضاحي ومعها
قافلة من النساء والاطفال وأمامها صفوف الاعداء تملأ صحراء كربلاء
ومدت العقيلة يديها وقد اخذتها هزة الحزن وأرجفتها رعشة الالم القادح،
مدت يديها لتضعهما تحت جثمانه الطاهر ورمقت ببصرها السماء لتند

عن فمها الطاهر عبقة من فيض الخلود تناجي ربها وتتضرع اليه قائلة :
اللهم تقبل منا هذا القربان .

وهكذا كان على العقيلة ان تنفذ وصية اخيها وثبتت في مثل هذه
الحالات وأن تحمل قلبا كقلب ايها في غمار جولاته وتقف كالطود الشامخ
في وجه هؤلاء الذين وقفوا الى جانب يزيد وجلاديه واتفقوا على انتهاك
الحرمان والمقدسات وباعوا ضمائرهم لاولئك الطفلة بأبخس الاثمان .

ويقطع الحادي الطريق من كربلاء الى الكوفة والسبايا على اقتاب
الجمال تتقدمهم رؤوس سبعين او ثمانين من الانصار وعشرين من
العلويين بينهم رأس الحسين سيد شباب اهل الجنة ولما دنت طلائع الموكب
من اطراف الكوفة ازدحم الناس في الطرقات والنساء على سطوح المنازل
ولم يكن نبأ مصرع الحسين قد اتشرب بين اهل الكوفة انتشارا عاما
وأشرفت امرأة من سطح بيتها فرأت نساء حاسرات الرؤوس وهن
كالعاريات لولا أسمال تقنعن بها ، فظنت المرأة انهن من سبايا السروم
وأرادت ان تستوثق لنفسها من الظن ، فلقد طالما رأت مواكب من سبايا
الروم والترك تمر بالكوفة ولكنها لم ترها على مثل ما رأت من الحزن
واللوعة ولم تر قبل اليوم اسرى من الصبيان يشدون بالجمال على اقتاب
الجمال كما رأت اليوم تلك القافلة من الصبيان والاطفال ، وأدنت المرأة
رأسها من احدى السبايا وقالت لها : من اي الاسارى اتن ؟ فقالت لها :
نحن اسارى اهل البيت من آل محمد .

وما كادت المرأة تسمع قولها حتى صرخت مولولة وكادت ان تسقط
من على سطحها والتفتت الى النساء اللواتي على سطوحهن وقالت : انهن
نساء اهل البيت ، وتعالى الصباح من جميع النسوة حتى رجت الكوفة
ولفت نواحيها صرخات متتالية كأنها العواصف في أرجائها والتفت النسوة
بالموكب يقذفن عليه الازر والمقانع ليتسترن بها بنات علي وفاطمة عن أعين

الناس وغصت الطرقات بالرجال والنساء يكون ويندبون .
والتفت ابنة علي وفاطمة اليهم يبصرها النافذ وأومات اليهم ليستكثروا
لتقول كلمتها فلما هدأت الاصوات قالت : أما بعد يا اهل الكوفة يا اهل
الخل والعدر أتبكون فلا رقات الدمعة ولا هدأت الرنة انما مثلكم كمثل
التي نفست غزلها من بعد قوة انكاثا ألا وهل فيكم الا الصلف وملق
الإماء وغمز الاعداء الا ساء ما قدمت لكم انفسكم ان سخط الله عليكم
وفي العذاب اتم خالدون ، أتيكون وتنتحبون ، اي والله فابكوا كثيرا
واضحكوا قليلا فلقد ذهبتم بمارها وشنارها بعد ان قتلتم سليل خاتم
النبوّة ومعدن الرسالة وسيد شباب اهل الجنة وملاذ حيرتكم ومهززع
نازلتكم الا ساء ما تزررون .

ثم تمضي تحف بها اماؤها ليضمها مجلس ابن زياد فتجلس متكررة
مطرقة كاسفة في ذلك المجلس الذميم وامام ابن زياد وهو ينظر اليها
بیسمة المنتصر الساخر الشامت ويسأل : من هذه المتكررة ؟ فلا ترد عليه لا
هي ولا اماؤها احتقارا وازدراء لشأنه ولأمارته وظل يلح في سؤاله حتى
انبرت اليه بعض إماءها وقالت : هذه زينب بنت علي وفاطمة ، فينطلق
عند ذلك بكلمات تنم عن لؤمه وحقده وخسته : الحمد لله الذي فضحككم
وأكذب أحدوشتكم ، فردت عليه غير هيابة لسلطانها ولا لجبروته وطفئانه
وقالت :

الحمد لله الذي أكرمنا نبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا انما يفتضح
الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا ثكلتك امك يا ابن مرجانة .
فقال لها وقد استبد به الحقد والغضب : كيف رأيت صنع الله بأخيك
وأهل بيتك ؟

قالت : ما رأيت الا جميلا اولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا
الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده فانظر لمن الفلج

يا ابن مرجانة •

وحاول ان يمد يده اليها بالأذى وكان الى جانبه عمرو بن حرث
فحال بينه وبين ذلك ولكنه اندفع يخاطبها بلغة العاقد الشامت وقال :
لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعناة المردة من اهل بيتك •
فبكت وقالت : لعمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثت اصلي
فان كان في ذلك شفاؤك فقد اشتيت ، وأراد ابن زياد ان يقتل علي بن
الحسين زين العابدين لانه رد عليه تحدياته لعمته العقيلة زينب وتحرشه
بها وقال له : أبك جراً على رد جوابي ، وأمر جلاديه ان يضربوا عنقه
فألقت بنفسها تحوطه وتحميه والتف حولها النساء حتى لا يصل احد اليها
وقالت لابن زياد : حسبك من دماننا ما سفكت فان اردت قتله فاقتلني معه
ويتهي الحوار بينهما عند هذا الحد لينتقل ابن زياد بالحديث والتحدي
لمن في مجلسه من وجوه الشيعة البارزين ثم يأتيه البريد بكتاب يزيد
يأمره فيه ان يحمل النساء والرؤوس والاطفال الى قصر الخضراء فسي
دمشق فيسير الحداة بموكب السبايا والرؤوس الى حيث ابن معاوية
بالشام ويمضي اولئك الحداة الغلاظ الشداد بالموكب فسي اعتساف
وارهاق في الليل والنهار ليقطع المسافة في عشرة ايام وما كان ليقطعها بأقل
من ثلاثين يوماً لو كان يسير كما اعتاد الناس في أسفارهم •

وودت زينب ومن معها من السبايا ان لا تبلغ الرحلة بهن الى غايتها
وقد كفاهن ان برزن سافرات بين اهل الكوفة وها هي ومن معها من
النساء سيبرزن لاهل الشام وكأنهن من سبايا الروم او الديلم ، لقد كانت
العقيلة وهي في مطلع صباها اذا ارادت ان تذهب لزيارة قبر جدها فسي
المدينة تذهب في سترين من ثوبها المسبل عليها وظلمة الليل بين أخويها
الحسن والحسين يتقدمهم ابوها امير المؤمنين ليخمد ضوء القناديل حتى
لا يرى شخصها من في مسجد الرسول وأكثرهم من اهلها وذوي قرباها،

وها هي تدخل بالامس عاصمة العراق سافرة مهلهلة الثياب في وضوح النهار وعلى أعين الغرباء والاعداء وهي اليوم في طريقها الى عاصمة يزيد في بلاد الشام سافرة بشاها الخلقة التي لم يترك لها جيش ابن زياد في كربلاء غيرها ، وأبت هي والنسوة الا ان تسير في طريقها الى الشام في اخر الموكب وموكب الرؤوس امامهن حتى اذا مررن في بلد يتلهى الناس بالنظر الى الرؤوس عنهن وعند مشارف الشام حاولت مع ابن ذي الجوشن قائد الموكب ان يدخلهن الشام من طريق قليل النظارة وأن ينحوا عنهن موكب الرؤوس فلم تفلح وأمر باخراج الرؤوس من المحامل وأن تجعل على اطراف الرماح وفي وسط موكب النساء وأن يمروا بهم في الطرقات العامة المحافلة بالجواهر الى ان يبلغ الموكب فناء المسجد حيث الجماهير تنتظر موكب الاسرى ورأس الحسين وأصحابه على رؤوس الرماح ، وأكثر تلك العشود لا تعرف عن ذلك الموكب شيئا .

وير الموكب الحزين يسير الهونا والجماهير من حوله ما بين مسرور لحاله وموجع لمراه ويضم العقيلة مجلس يزيد ورأس الحسين بين الزهراء بين يديه ينكت ثناياه وهو في غمار النشوة بمخصرته ويتمثل بأبيات ابن الزبيرى :

ليت اشياخي بيدر شهدوا	جزع الخرج من وقع الأسل
لاهلوا واستهلوا فرحا	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلتاه يسدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	خير جاء ولا وحي نزل
لست من خندق ان لم اتقسم	من بني احمد ما كان فعل

وكان على زينب وقد رآته بتلك الحالة فرحا مسرورا يتمثل بهذه الايات التي تعبر عن حقه وتعبه لجاهلية جده وأبيه ووثنيتهما ويمث

في ثنايا ابي عبد الله الحسين (ع) بمخصرته كان عليها ان تتكلم لتحرق دنيا سروره وفرحه بكلماتها التي كانت أشد وقعا عليه من الصواعق ووضعت الكثيرين ممن كانوا يجهلون مكانة الاسرى ولا يعرفون عن صلتهسم بالرسول وعما جرى لسبطه الحسين شيئا في جو الواقع الذي تحملت مرارته وافتتحت خطابها بحمد الله والصلاة على جدها المصطفى وقالت : أطلنت يا يزيد حيث اخذت علينا أقطار الارض وآفاق السماء وأصبحنا نناق كما تساق الاسارى ان بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة ، وان ذلك لعظم خطرك عنده فشخت بأثفك ونظرت في عطفك جذلان سرورا حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والامور متسقة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى : «ولا تحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيرا لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين» . ومضت تقول : وأبصار تلك الحشود المحيطة بيزيد بن معاوية شاخصة اليها تذكهم بمنطق ايها ومواقفه بين المعسكرين في صفين : آمن العدل يا اجن الطلقاء تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الاعداء من بلد الى بلد ويستشرفهن اهل المناهل والمعاقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي وكيف يرتجسي مراقبة من لفظ فوه أكباد الازكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يستبطأ في بفضنا اهل البيت من نظر الينا بالشنف والشنآن والاحن والاضغان ويقول غير متأثم ولا مستعظم :

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحيا على ثنايا ابي عبد الله سيد شباب اهل الجنة تنكثها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشافة باراقتك دماء ذرية محمد (ص) ونجوم الارض من آل عبد المطلب وتهتف بأشياخك

زعمت انك تناديهم فلتردن وشيكا موردنهم ولتودن انك شلت وبكمت
ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت •

فوالله ما فريت الا جلدك ولا حرزت الا لحكم ولتردن على رسول
الله (ص) بما تحملت من سفك دماء ذريته واتهمت من حرمة في عترته
ولحمته حيث يجمع الله شملهم ويلم شعهم ويأخذ بحقهم «ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» •
وسيعلم يا يزيد من سول لك ومكنك من رقاب المسلمين بش
لظالمين بدلا وإيكم شر مكانا وأضعف جندا •

ومضت في خطابها توجه اليه اسوأ انواع التحقير والتفريع حتى
سيطرت على المجلس بنطقها وأسلوبها الرائع وقالت : ولئن جرت علي
الدواهي مخاطبتك اني لاستصفر قدرك وأستعظم تقريعتك وأستكثر
توبيخك ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان
الطلاق فهذه الايدي تنطف من دماءنا والافواه تحلب من لحومنا وتلك
الجثث الطواهر الزواكي تتناها المواسل وتمقرها أمهات القراعل ولئن
اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما حين لا تجد الا ما قدمت يداك وما ربك
بظلام للعبيد ، فكذلك واسع سميك وناصب جهدك فوالله لا تمحو
ذكرنا ولا تميم وصينا •

لقد دخلت زينب بنت علي وفاطمة الى عاصمة الجلادين وأطلقت
رسالتها رافعة صوتها الى كل من لهم عهد مع اهل هذا البيت وكل من
آمنوا برسالة محمد في كل عصر وجيل وأرض ووراءها قافلة من الاسرى
وأمامها صفوف العدو تملأ الافق وتسد طريقها وكانت مسؤوليتها
التاريخية الكبرى هي اكمال الرسالة واتمام المسيرة ولسانها لمن قطعت
ألسنتهم سيوف الجلادين ودخلت مدينة الجريمة عاصمة القهر والبطش
والتنكيل بالابرياء والصلحاء وهناك رفعت صوتها المدوي في أعماق

التاريخ لتقول ليزيد بن ميسون بكل ما في الاستخفاف والاحتقار
من معنى •

ولئن جرت على الدواهي مخاطبتك اني لاستصغر قدرك وأستعظم
تقريبك وأستكثر توبيخك ألا فالعجب العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب
الشیطان الطلقاء •

ان مأساتها تشكل الشطر الثاني من مأساة أخيها الحسين فمن صبر
لا يطيقه احد من الناس الى رعاية السبايا من الارامل والایتام ونضال
دون البقية الباقية من آل الرسول واحتجاج وخطب واستنكار لسحق
القيم والحق ومحو الرسالة من الاذهان وبهذا وذاك لقد ألبت المسلمين
على الطغاة والظالمين وضعضت كبرياء الحاكمين المستبدین وخلصت
ذكرى تلك المعركة المفزعة لأشباع آل أمية وأمثالهم من الظلمة وفراغة
العصور ما دام التاريخ وخطت هي واخوتها وأنصارهم على ثرى الطف
بأحرف من النور الواضح الذي يبدد ظلمات الليل البهيم ان دولة الباطل
ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة •

لقد شاركت اخاها الحسين في جميع مواقفه من الظالمين ورجعت من
كربلاء حاملة لرسالة أخيها لتوصلها للرجال والنساء من الاجيال في كل
ارض وزمان بالرغم من ضجيج الجلادين ووعيدهم فكانت القدوة التي
تعلم الرجال من سيرتها ومواقفها الخالدة معاني الرجولة ، وتعلم النساء
كيف يتخلصن من فتن الاغراءات الخبيثة التي تدلهن من حولهن ومن
دهاليز الحضارة الجديدة التي تقتحم العصور بمفاتها ومغرياتها والتي
تستل القيم والاخلاق والاديان من النفوس والقلوب بألوانها البراقة ،
وان مواقفها في كربلاء والكوفة والحجاز وعاصمة الجلادين دمشق قد
احدثت هزة من أعنف الهزات ما كانت لتحدث لولا تلك الرسالة التي
ضعضت الحاكمين وفراغة العصور من بني أمية وغيرهم من الطغاة

والظالمين •

فأين من زينب وأخوات زينب نساؤنا اليوم وقبل اليوم الضائعات في متاهات الحياة إيمانا وعزيمة وصبرا في الشدائد والاهوال وتمسكا بالقيم وتعاليم الاسلام والاخلاق الكريمة الفاضلة ، وأين من اصحاب الحسين وأنصاره من يدعون التشيع في عصرنا الحالي ويرددون في مثل هذه المناسبات : يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزا عظيما ، بكلمات تجري على ألسنتهم وهم في واقعهم من ابعد الناس عن الحسين وجد الحسين ، ولو وجد في زماننا هذا من يسير على خطا الحسين ويقف من الظلم والظالمين وجاهلية القرن العشرين موقف الحسين من جاهلية الامويين لا يجد من يضحي بنفسه تضحية اصحاب الحسين ولا من يناصره ، وسلام الله وتحياته على زينب وأبيها وأخوتها وجميع الثائرين على الظلم والجور الى ان تقوم الساعة •

وكما اختلف الناس في رأس الحسين اين دفن وكيف استقر فسي الامصار والاقطار التي تدعيه وتقصد البناء الذي يرمز اليه اختلفوا في مرقد العقيلة الكبرى بطة كربلاء بين المدينة والشام ومصر فرجح جماعة انها ماتت ودفنت في المدينة الى جانب زوجها عبد الله بن جعفر وأكد ذلك السيد الامين في أعيانه وتحدث عنها وعن مواقفها وبطولاتها علماء القرنين الثالث والرابع وعن رجوعها من الشام الى المدينة ولم يتحدث احد منهم عن خروجها من المدينة الى اي بلد اخر •

كما رجح جماعة انها دفنت في بلاد الشام حيث قبرها الان وان زوجها كان يملك ضيعة في تلك المنطقة فرحل بها من المدينة اليها وتوفيت فيها ودفنت حيث المرقد المنسوب اليها الذي تؤمه مئات الالوف من الزائرين في كل عام •

ورجح آخرون انها نفيت من المدينة بأمر من يزيد بن معاوية بعد ان أحس بأن بقاءها يشكل خطرا عليه في الحجاز فاخترت مصر ودفنت في

مكان يعرف بالقسطاط حيث ينسب اليها ذلك المرقد الموجود هناك
الذي يقدسه المصريون كما يقدس الشيعة قبور أئمتهم الاطهار ويتوافدون
اليه من جميع انحاء تلك البلاد كما رجح ذلك ابن عساكر في تاريخه
وغيره^(١) ، وقد حضرني هذان البيتان وأنا أحاول ان أختم حديثي عن
مرقدها ومشواها :

لا تطلبوا مشوى العقيلة في شرق ارض او بغرب
ودعوا البلاد وعرجوا نحوي فمشواها بقلبي

١ - انظر زينب بنته علي لعبد العزيز سيد الاهسل وزينب الكبرى
للشيخ فرج القطيفي .

ماذا بعد مجزرة كربلاء

لقد احدثت تلك المجزرة هزة عنيفة في العالم الاسلامي لم يصرف المسلمون في تاريخهم الحافل بالاحداث أعنف منها ولا حادثا من الاحداث كان له من الآثار العميقة في النفوس والعقائد والحياة السياسية ما كان لمجزرة كربلاء .

ولا احسب ان في كل ما حدث شيء من الغرابة لان المسلمين على ما بينهم من خلافات في النزعات والاتجاهات يقدرّون للحسين مكاتته في الاسلام وصلاته بجده صاحب الرسالة وقد سمعوا من النبي ما كان يقوله فيه وفي اخيه الحسن وكيف كان يعامله في مجالسه العامة والخاصة وأحيانا كان وكأنه ينظر فيما وراء الغيب الى ما يجري عليه فيكي ويكي المسلمون لبكائه ، فليس بغريب اذا ألهب مصرعه على النحو الذي وقع عليه المشاعر وأرهف الاحاسيس وأطلق الألسن وترك في نفوس المسلمين اثرا حزينا داميا يجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب :

وأي رزية عدلت حسينا عادة بينه كفا سنان

نعم ليس بغريب اذا استعظم الناس على اختلاف ميولهم ونزعاتهم هذا

التنكيل الشائن بعثرة الرسول الامين (ص) وسلاته وفلذات كبده وقره
عينه ورأوا فيه كفرانا لحقه وتمريضا لغضبه وامتهانا لكرامته .

ماذا تقولون اذ قال النبي لكمم ماذا فعلتم وأتم آخر الامسم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي نصف اسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ان تخلفوني بشر في ذوي رحمسي

فهذا وأمثاله قامت النائحات في جميع العواصم الاسلامية يندبن
الحسين ومن قتل معه من بنيه واخوته وأنصاره ويبكين لمصارعهم وما
جرى لهم من حفيد ابي سفيان وجلاديه وانطلقت الالسن الشاعرة ترثيه
وتصور اسف النبي (ص) عليه وهو في قبره وحزنه العميق على سبطه
واحتجاجة على أمته التي لم تحفظ له حقا ولم ترع له حرمة ، وتلقسي
على الاموين مسؤولية جريمتهم ومروقهم من الدين واتهاكهم لجميع
الحرمات والمقدسات .

لقد هال الناس هذا الحادث الجلل حتى الاموين انفسهم فأقض
المضاجع وأذهل العقول وارسم في الازهان حتى اصبح الشغل الشاغل
للجماهير وحديث النوادي ومسرحا للتخيالات وادعى الناس في المدينة
انهم سمعوا هاتفا يقول كما جاء في الطبري وابن الاثير :

ايها القاتلون جهلا حسينا ابشروا بالمذاب والتنكيل
كل اهل السماء يدعو عليكم من نبي وملاك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وصاحب الانجيل

وراحوا يتصورون لمدة شهرين او ثلاثة كان الحيطان تتلطح بالدماء
ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع كما جاء في تاريخ الطبري ايضا .
وروا عن النوار زوجة خولي بن يزيد الاصبحي انها قالت له ليلة

دخل الكوفة برأس الحسين (ع) وأدخله عليها : لقد جاء الناس بالذهب والفضة وجئني برأس الحسين ، وكان قد وضعه تحت اجانة في صحن الدار فقامت من فراشها غضبي وخرجت الى الدار فرأت نورا يسطع مثل العمود من السماء الى الاجانة وطيورا بيضاء ترفرف حولها (١) .

واستغل الشمراء هذا الحادث المفجع فرووا حوله شتى الاحاديث وصاغوه بألوان شعرية دامية يصدرها قلب مكلوم تأثر حزين يدعو الى الثورة العارمة بعنف وصراحة ويسجل تلك الاحزان العلوية في اسف ولوعة مناديا يا لثارات الحسين .

وقد وصف ابن الطقطقي في كتابه الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية تلك الفاجعة بقوله : اذا كان قتل امير المؤمنين هو الظامة الكبرى فهذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبسي والتمثيل ما تقشعر له الجلود ولقد اكتفيت ببسط القول فيها لشهرتها فلمن الله كل من باشرها وأمر بها ورضي بشيء منها ، ولا جدال في انها مأساة مؤلمة فقد وطئت الخيول صدر الحسين واجتزوا رأسه ومثلوا بجثته ، وتطاول قتلته على النساء فكانت المرأة تنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه وتبقى بدون ساتر .

ولقد أحس المسلمون على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم من خذلانه ومن تجاهله وحتى الذين قاتلوا وقادوا المعركة ضده بالندم والخيبة فقد جاء عن عمر بن سعد انه كان يقول : لا تسل عن حالي فانه لم يرجع غائب عن منزله بأمر مما رجعت به فلقد قطعت القرابة القريبة وارتكبت الامر العظيم كما ندم يزيد على قتله وبكى بكاء عاليا وحينما علم ملك الروم بتلك المجزرة غضب لذلك وكتب الى يزيد كتابا جاء فيه : لقد قتلتم نبيا

١ - انظر ادب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه عن ابن الاثير ج ٤ ص ٤٠ والطبري ج ٢ ص ٢٢٣ و ٢٦٩ و ٢٦١ .

او ابن نبي ظلما وعدوانا (١) .

والى جانب تلك الآثار السيئة النفسية التي خلفتها تلك المجزرة
الرهيبة في نفوس الجماهير المسلمة ، فلقد كان لها اعظم الاثر في تقويض
الدولة الاموية وعدم الاطمئنان اليها واستغلها اعداء اهل البيت كابن
الزبير وأمثاله وجعل يندد على يزيد والامويين ويرثي الحسين وأصحابه
ويلعن اهل الكوفة لخذلانهم اياه ويزيد بن معاوية وجميع من اشترك في
قتاله ويعلن عن عدم اطمئنانه للحكم الاموي ويقول : أبعد الحسين نظمنا
الى هؤلاء القوم ونصدق لهم قولاً أما والله لقد قتلوا طويلاً بالليل
قيامه كثيراً بالنهار صيامه أحق بما هم فيه منهم وأولى في الدين والفضل .

استغلال ابن الزبير لمصوع الحسين

فما أشبه اليوم بالبارحة والتاريخ يعيد نفسه ، لقد كان موقف ابن الزبير من قتل الحسين أشبه ما يكون بموقف معاوية من عثمان بن عفان ، فمعاوية وابن الزبير من معدن واحد في الاحتيال والنفاق، لقد كان ابن هند يتمنى قتل عثمان ليشنع به على علي (ع)، وابن الزبير، لقد ارتاح وطابت نفسه لقتل الحسين لان قتله كان من أشد الاسلحة فتكا يزيد ودولته مع بعد المسافة بين ابن عفان وابن رسول الله . لقد كان معاوية يعمل بكل وسائله على انتقال السلطة من عثمان اليه وكان واثقا بأن الطريق الوحيد لاتمام ذلك يتوقف على قتل عثمان على يد الثوار في المدينة لكي يتسنى له اتهام علي بن ابي طالب بذلك فكان من أحرص الناس على قتله ويعمل بوسائله الخاصة وبتهريض الحزم الاموي في المدينة لإفشال جميع المحاولات التي كان يبذلها امير المؤمنين للتوفيق بين الثوار والخليفة وكان له ما اراد فاتخذ من قتل عثمان وسيلة للتشنيع على امير المؤمنين واتهمه بقتله واستولى بعد ذلك على السلطة كما ذكرنا ذلك خلال الفصول السابقة ووقف ابن الزبير نفس الموقف من الحسين وكان خلال الاشهر القليلة التي اقامها في مكة من أثقل الناس على ابن

الزبير ولم يتعرف عليه احد لا من المكين ولا من الوفود التي كانت تؤمها من مختلف الامصار خلال اقامة الحسين فيها فلما خرج الحسين منها وقتل وأحس المسلمون بتلك الصدمة العنيفة استغسل مصرع الحسين للتشيع على الامويين ، وما كاد الناس يسمعون اقواله وتنديداته بالامويين وما ارتكبوه من الجرائم مع اهل البيت حتى اجتمعوا عليه وجعلوا يطالبونه بأن يطلب البيعة لنفسه ويعلم نفسه اميرا للمؤمنين ، ولكنه كان يتمنى عليهم التروي ويتظاهر بعدم رغبته في هذا الامر ويلتجئ الى البيت الحرام في اكثر اوقاته حتى سماه الناس بالعائسذ بالبيت ، كل ذلك ليظهر للناس زهده في الدنيا والخلافة وليزدادوا به تعلقا ، ومن كان يلح عليه في الخروج من عزلته المصطنعة وعلان البيعة له المختار بن عبيدة الثقفي ، ولما يس منه غادر مكة الى الطائف مسقط رأسه وموطن قبيلته ثقيف وهي على مقربة من مكة مقر ابن الزبير يراقب منها ما يجري من أحداث وتطورات على المسرح السياسي في الحجاز .

وتوالت الاخبار على يزيد بأطماع ابن الزبير وموقف الحجازيين على ما بينهم من خلاف في النزعات والاتجاهات من دولة الامويين ونقمتهم عليه بسبب مجزرة كربلاء التي اصاب الاسلام في الصميم والتي كان من نتائجها التفافهم حول ابن الزبير واتفاقهم عليه ، فاستبد به الغضب وعاهد الله على ان يوثقه بسلسلة من الحديد ويصنع به وبمن حوله ما صنعه بالحسين وأنصاره ، وكب الى واليه على مكة يأمره بذلك ولكن الوالي بالرغم من حزمه وشدته لم يجرأ على تنفيذ هذه المهمة ورجع التريث في هذا الامر حتى لا يضيف الى مجزرة كربلاء التي لا تزال تتفاعل فسي النفوس عاطفيا وسياسيا مجزرة اخرى ، وبمرور الوقت وبأقصى مراحل السرعة كانت شعبية ابن الزبير تزداد يوما بعد يوم مما جعل مقاومته بحكم المتعسرة بعد ذلك الفليان الذي تركه مجزرة الطف وما رافقها من

تهديات للقيم والاخلاق والاعراف •

وجاء في المجلد الرابع من تاريخ الطبري ان امر ابن الزبير ارتفع بمكة عاليا وكتبه اهل المدينة وكان الناس يقولون يومذاك : ليس لها بعد الحسين غير ابن الزبير ، واستطاع هو ان يستغل الموقف من جميع جوانبه بمهارة لا نظير لها فمن اعتكاف في الكعبة الى تبكي غلبي الحسين وأصحابه الى التجاهر بعدم رغبته في الحكم الى غير ذلك من المظاهر التي جذبت اليه الناس وجعلتهم يتناسون تاريخه الاسود وأطماعه في السلطة •

ونقل الناس الى ابن الزبير حكاية السلسلة التي أقسم يزيد ان يوثقه بها ويصنع به ما صنع بالحسين بن علي (ع) وأصحابه فقال : ان الحسين خرج الى من لا يعرف حقه وان المسلمين قد اجتمعوا علي ليبياعوني على الموت ، فقال له الذي حمل اليه تهديد يزيد ووعيده : ان ابن عمر وابن عباس لم يبياعاك وهما من قد عرفت بين المسلمين ، وأدرك ابن الزبير ان موقفهما السلبى من بيعته يشكل خطرا عليه ويلفت الانظار فراح يعمل لاقناعهما ببيعته فالتجأ أولا الى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت ابي عبيدة الثقفي اخت المختار وذكر لها ان خروجه على يزيد لم يكن الا غضبا لله ولرسوله وللمهاجرين والانصار من ظلم يزيد وللحسين وأصحابه وسألها ان تقنع زوجها ببيعته ، فلما قدمت له عشاء ذكرت له امر ابن الزبير وأثنت عليه وأكثر من القول في امره ، فرد عليها بقوله: أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحجج عليها فان ابن الزبير لا يريد غيرها وكانت متأثرة بموقف اخيها المختار منه فقد شد الرحال من العراق معلنا تأييده لابن الزبير ، ولكن زوجها لم يستجب لطلبها ورسم لنفسه سياسة الحياد والابتعاد عن المشاكل كما كان يدعي ولا استبعد انه كان اقرب الى الامويين منه الى الزيريين •

وأما عبد الله بن العباس فقد حاوله ابن الزبير على البيعة ورفض
الاستجابة لطلبه لعلمه بأن موقعه من مصرع الحسين وأصحابه لم يكن
سوى ستار يخفي وراءه أطماعه في الخلافة وإذا تمكن منها فسوف لا
يكون موقعه منهم أشرف ولا أسلم من موقف الامويين فأصر على عدم
بيعته لابن الزبير .

ولما بلغ امره يزيدا كتب اليه كتابا جاء فيه : أما بعد فقد بلغني ان
الملحد ابن الزبير دعاك الى بيعته وعرض عليك الدخول في طاعته لتكون
على الباطل ظهيرا وفي المآثم شريكا وانك امتنعت عليه واعتصمت ببيعتنا
وفاء منك لنا وطاعة لله فيما عرفك من حقنا فجزاك الله من ذي رحم
بأحسن ما يجزي به الواصلين لارحامهم ومهما نسيت فلا انسى برك
وحسن جزائك وتمجيل حقك بالذي انت مني اهله في الشرف والطاعة
والقربة من رسول الله فانظر رحمك الله من قبلك من قومك ومن يطرأ
عليك من الآفاق ممن يسحره الملحد بلسانه وزخرف قوله فاعلمهم بحسن
رأيك في طاعتي والتمسك ببيعتي فانهم لك أطوع ومنك أسمع منهم
للحل الملحد والسلام .

هذا الكتاب الذي ارسله ابن ميسون كما روى ذلك يعقوبي وغيره
من المؤرخين الى عبد الله بن العباس الذي لا يزال هو وأسرته من
الهاشميين يكون ويندبون قتلى الطف يؤكد ما يرويه المؤرخون عن نزق
يزيد وصلفه واستخفافه بجميع القيم والمقدسات والاعراف .

لتد وصف فيه ابن الزبير بالاحقاد وبالامس القريب كان رأس
الحسين (ع) بين يديه في قصر الخضراء وكان مزهوا وهو ينكت ثناياه
بمخصرته ويقول : لعبت هاشم بالملك فلا خير جاء ولا وحي نزل .

وليس لدينا ما يمنع من ان يكون ابن الزبير ملحدا كما يصفه ريب
الشرك والالحاد ، ولكن التاريخ لم يتحدث عن تصريح له يؤكد الحاده

كما حدث عن يزيد وأكدته سيرته وأحداثه الجسام التي لا تفسير لها الا بالشرك .

وقال في كتابه لابن عباس : انك لم تمتنع عن بيعة ابن الزبير الا طاعة لله فيما عرفك من حقنا وصلة للرحم التي تربطك بنا ، ان الرحم المزعومة التي تربط ابن ميسون بعبد الله بن العباس تربطه بالحسين (ع) وأسرته ونسائه وأطفاله ، فلماذا قطعها بذلك النحو الفظيع ولم يرع لها ولرسول الله حرمة ، لقد اراد من ابن عباس الذي لا يزال يبكي الحسين وآله وصحبه ان يكون داعية ومعينا له على الاجرام والتنكيل بصلحاء المسلمين والتحريف لرسالة الاسلام ، لقد اراده ان يبقى ملتزما ببيعة من يتمنى حضور اشياخه الذين صرهم الاسلام في بدر وأحد لينظروا كيف انتقم لهم من محمد بن عبد الله بقتل سبطه الحسين وبنيه واخوته وسبي نسائه وأطفاله على اسوأ حال عرفتها الحروب في العالم .

لقد صدق من وصفه بالزق والسفه وعدم التفكير فيما يعمل ويقول ، لقد كان معاوية الذي علم الناس المكر والاحتيال واللف والدوران يهاب ابن عباس ويخشاه ويحسب الف حساب وحساب لكل كلمة يتكلم بها في مجلسه ومن قبله كان ابن الخطاب كذلك ، وهذا خليفة ابن هند قاتل العترة الطاهرة الذي ألبس ابن عباس ثياب الحزن والجزع على أسرته وأبناء عمومته وسيد شباب اهل الجنة يقول له : انك قد اطعت الله ووصلت رحمك بتمسكك ببيعتي وامتناعك عن بيعة ابن الزبير ويطلب منه ان يكون داعية له ومبشرا ببدله وحسن سيرته .

ومهما كان الحال فابن عباس لا ترهبه سطوة يزيد ولا يخاف طيشه ونزقه فقد اجابه بجواب فضح فيه آل أمية وهتك جميع اقنعتهم واستعرض جميع مخازيهم ومفاسدهم وجاء في جوابه اليه بفيك الكشكث ولك الاثلب انك ان تمنيك نفسك ذلك لعازب الرأي لا تحسبني لا ابالك

اني نسيت قتلك حسينا وقتيان بنسي عبد المطلب مصاييح الدجي
ونجوم الأعلام غادرتهم جنودك مصرعين في الصعيد مرملين في التراب
مسلوبين بالعراء تسفي عليهم الرياح وتعاورهم الذئاب وتنتابهم عرج
الضياع حتى اتاح الله لهم أقواما لم يشتركوا في دمائهم فأدرجهم في
اكفانهم وبني وبهم والله لقد عززت وجلست مجلك الذي جلست وما
نسيت من الاشياء فلست بناس تسليطك عليهم الدعي العاهر بن العاهر
البعيد رحما اللثيم ابا وأما الذي في ادعاء ابيك اياه ما اكسب الا العار
والخزي والمذلة في الآخرة والاولى وفي الممات والمخيا وان النبي (ص)
يقول : الولد للفراش وللعاهر الحجر فالحقه بأبيه كما يلحق بالعفيف
التقي ولده الرشيد فأمات ابوك بذلك السنة جهلا وأحیی البدعة والاحداث
المضلة عمدا .

ومضى يقول : ولست بناس دك الرجال الى الحسين بن علي
لتغتاله ولو كان متعلقا بأستار الكعبة حتى اشخصته من حرم جده الى
الكوفة وقد كان أعز اهل البطحاء بالبطحاء وأطوع اهل الحرمين بالحرمين
وكتبت الى ابن مرجانة ليستقبله بالرجال وبمماجلته والالاحاح عليه حتى
يقتل هو ومن معه من بني عبد المطلب اهل البيت الذين أذهب الله عنهم
الرجس .

ومضى يقول : ولا شيء عندي أعجب من طلبك ودي ونصرتي وقد
قتلت بني ابي وسيفك يقطر من دمي وأنت احد ثاري وان شاء الله لا يطل
ولا تسبقني بثاري ، الا ومن أعجب الاعاجيب وما عشت اراك الدهر عجباً
حملك بنات عبد المطلب وغلمة صغاراً من ولده اليك بالشام لتسري
الناس انك قهرتنا وانك تأمرت علينا ، الى غير ذلك مما جاء في كتابه من
الحقائق والصواعق المحرقة لهذا البيت الذي تمادى قاداته وحكامه في
الظلم والجور وقتل الابرياء والصلحاء والاستهتار بالقيم والمقدسات الى

أبعد الحدود •

ومهما كان الحال فلقد استغل ابن الزبير مجزرة كربلاء وجعل يندد بيزيد وجلاديه ويحذر المسلمين من شرهم وطغيانهم، ومن خلال مواقفه هذه اتجهت اليه الجماهير وراودتها الاحلام بالتخلص من تلك الدولة العاتية بعد ان بلغت النقمة عليها أقصى حدودها وأيقن المسلمون فسي الحجاز وخارجه انهم اذا تجاهلوا هذا الحدث الخطير ووضعوه الى جانب غيره من أحداث الامويين لا تبقى لاحد حرمة الا وتداس تحت أقدامهم ولا يهابون بعده احدا كما قال عبد الله بن مطيع للحسين (ع) وهو خارج من مكة وابن مطيع في طريقه اليها •

فقد قال له يومذاك : اذا قدمت العراق ستقتل يا ابا عبد الله واذا قتلوك لن يهابوا بعدك احدا ابدا •

لقد عمت النقمة جميع الاوساط ، مما اضطر يزيد لان يتبرأ مسن مصرع الحسين (ع) ويحمل ابن زياد مسؤولية قتله فكان يقول بعد ان عرف اهل الشام حقيقة ما جرى للحسين وأصحابه وعندما رأى الوجوه قد تغيرت وراح الناس يتحدثون عن هول تلك المأساة كان يقول : لعن الله ابن مرجانة لو كنت مكانه لرضيت من الحسين بأقل من ذلك ، وعندما سمع ابن سعد بأن اللعنات تنهال عليه في الحجاز من الرجال والنساء وأصبح كرها على لسان الكبار والصغار ارسل رسولا الى نساء الانصار في المدينة ليبريء نفسه مما جرى لاهل البيت (ع) وأرسل معه كتاب ابن زياد اليه الذي يقول فيه : اني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله وتمنيه السلامة والبقاء ولا لتكون له شفيعا عندي ، انظر فان نزل الحسين وأصحابه على حكمي فابعث بهم الي سلماء وان ابوا فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون وان انت قتلت حسينا فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق قاطع ظلوم ، فان انت مضيت لامرنا

جزيناك جزاء السامع المطيع وان انت أبيت فاعتزل عملنا وخل بين شمر
وبين الجيش •

هذا الكتاب ارسله ابن سعد الى المدينة حيث اهلها نساء ورجالا
يكيلون له ولايره آلاف اللعنات ويتبرأون منه في النوادي والمجتمعات
ويلوذون بزینب وأخواتها وبالإمام زين العابدين (ع) ليكون ويتنجسون
والعقيلة تجوب بيوت اخوتها وبني عمومته باكية نادرة ومن خلفها بنات
المهاجرين والانصار يكيين لبكائها ويندبن الحسين ومن قتل معه مسن
اخوته وأبناء عمومته وأنصاره •

وأدرك ابن زياد انه اصبح يتحمل القسط الاكبر من المسؤولية وان
اللعنات التي اصبحت تنهال عليه تعادل ضعفي ما ينهال على يزيد وابن
سعد وغيرهما فطلب من ابن سعد الكتاب ليخفيه عن الناس فادعى انه قد
فقد منه ، ولما ألح ابن زياد في طلبه قال له ابن سعد : لقد ارسلته الى
نساء قريش في المدينة لاعتذر لهن عن قتل الحسين أما والله لقد نصحتك
في الحسين نصيحة لو نصحتها لابي سعد بن وقاص لكنت أدت اليه
حقه، وكان عثمان بن زياد شقيق عبد الله حاضرا فقال لعمر بن سعد :
صدقت ، والله لوددت انه ليس من بني زياد رجل الا وفي انفه خزامة
الى يوم القيامة وان حسينا لم يقتل ^(١) •

لقد كان مقتل الحسين ذا حدين استفاد منه اعداء الحسين كابن الزبير
الذي جمع الناس حوله في الحجاز واستغله للتشهير بيزيد والامويين
وجعل يتباكى ويتظاهر بالحزن على الحسين وأصحابه فاجتمع الناس عليه
والتفوا من حوله ، وفي الوقت ذاته فقد ايقظ شيعة الحسين وجعلهم
يشعرون بأخطائهم معه ومع ابيه وأخيه وبتقصيرهم في نصرته وانضمت

١ - زينب بنت علي لعبد العزيز سيد الامل عن الطبري ج ٤ ص ٣٥٧ •

اليهم جميع العناصر المناوئة للامويين من الموالي وغيرهم واتفقوا جميعا على صيحة واحدة تستر وراءها اغراضهم المختلفة (يا لثارات الحسين) فكان لهذه الصيحة الصدى الواسع في جميع الاوساط الاسلامية الذي أقلق الظالمين وزعزع عروشهم وقوض دعائم دولتهم في المشرق العربي وأصبحوا لعنة على لسان الاجيال الى قيام يوم الدين ، وباء الحسين (ع) وحده بالفخر الذي لا فخر مثله في تاريخ بني الانسان وحسبه انه وحده في هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد وأب للمئات من الشهداء والقادة لكل تآثر على الظلم والظالمين •

انتفاضة المدينة

لقد كانت مدينة الرسول (ص) تعيش تلك المأساة التي خلفتها مجزرة
الطف من جميع نواحيها وبكل فصولها كما كان يمثلها الامام السجاد
واخوانه وعماته والشكالي من آل ابي طالب (ع) اللواتي كن لا يهدأن ولا
ينقطع عويلهن وصراخهن ليلا ونهارا وبقي الامام السجاد (ع) باكيا حزينا
لم يقدم له طعام وشراب الا ومزجهما بدموعه شطرا كبيرا من حياته فيرق
لحالهِ ويبكي لبكائه العدو والصديق والقريب والبعيد ، وكان اذا مر
بسوق القصابين يسألهم اذا كانوا يسقون ذبيحتهم قبل ذبحها ثم يصيح
باكيا : لقد ذبح ابو عبد الله عطشانا فيبكي اهل السوق لبكائه •

وجاء عن الامام الصادق (ع) ان بعض مواليه كان يقول له : انسي
اخاف عليك ان تكون من الهالكين ، فيقول له : كيف لا ابكي وقد
نظرت الى ابي واخي وعمي وبني عموتي وسبعة عشر من اهل بيتي
مقتولين حولي مجزرين كالأضاحي •

وقال الامام الصادق (ع) : ان جدي علي بن الحسين بكى على ابيه
طيلة حياته وكان اذا قدم له طعامه وشرابه ووضع بين يديه لا يزال يبكي
حتى يتل طعامه من دموع عينيه •

وفي بعض المرويات ان الرباب احدى زوجات الحسين لما رجعت الى المدينة ودخلت بيتها امرت بقطع سقفه وبقيت هي وابنتها في بيت لا سقف له فاذا قيل لها قومي عن حرارة الشمس تصيح باكية نائحة وتقول : لقد رأيت الحسين بعيني تصهره حرارة الشمس، الى غير ذلك من مواقف اهل البيت التي ألهمت شعور اهل المدينة والوضع في طريقه الى الانفجار من وقع تلك الاحداث المريرة وقد أحس الوالي على المدينة عمرو بن سميد الاشدق بالخطر المحدق به ، وجاء عنه كما في رواية ابن عساكر وغيره انه كتب الى يزيد بن معاوية : ان زينب بنت علي وأخواتها قد هيجن عليك الرأي العام والمدينة سائرة الى الثورة لا محالة ما دامت فيها فكتب يأمره باخراجها من الحجاز وان يفرق بينها وبين الناس ، وعندما عرض عليها الوالي امر يزيد ابن معاوية قالت : لقد كنا نساق كما تساق الانعام عندما قتل خيارنا وحملنا على الاقتاب من بلد الى بلد فوالله لا اخرج من حرم جدي ، فجاءتها زينب بنت عقيل كما في رواية ابن عساكر وقالت لها : يا ابنة عماء لقد صدقتنا الله وعده وأورثنا الارض تبوأ منها حيث نشاء فطبيي نفسا وقرى عينا وسيجزى الله الظالمين بما اقترفت أيديهم أتريدن بعد هذا هوانا ارحلي الى بلد آمن ، ثم اجتمع عليها نساء بني هاشم وما زلن بها حتى اختارت مصر .

وظلت الامور تتفاعل في المدينة ومصرع الحسين واخوته وبنيه وسبني نسائه وما رافق ذلك حديث العامة والخاصة والنقمة على يزيد وبني أمية تزداد يوما بعد يوم ، وأحس المسلمون بالمسؤولية لتخاذلهم عن نصرته وتلبية ندائه مما أثار في نفوسهم مشاعر الحقد والكراهية لبني أمية وراح الناس يفكرون فيمن يخلفهم فلم يجدوا لهم بديلا غير ابن الزبير وكان قد لاذ بالبيت الحرام واعتصم به وأظهر الزهد والتنسك حتى اصبح يعرف بالعائذ بالبيت الحرام ، وكان التعبير الطبيعي للكراهية والحقد على

الامويين هو العصيان المسلح وخلصهم لتلك البيعة الغادرة التي فرضها معاوية على المسلمين بالمال والسلاح وهكذا كان فقد كان الحكم الاموي هدفا لاتتفاضات كثيرة بعد مجزرة كربلاء أججها مصرع الحسين وكان باعثها التكفير عن خذلانه وعدم مناصرته ، وجاءت ثورة المدينة في طليعة تلك الاتفاضات وهي وان لم تتخذ الطابع الشيعي الا ان دوافعها الاساسية لم تكن سوى تلك الجريمة التي ارتكبتها الحزب الاموي مع الحسين وأصحابه .

وأحسن يزيد بن معاوية بذلك الشعور المتأجج في نفوس اكثر المسلمين من اجل الحسين وما جرى له فراح يتنصل من تلك الجريمة ويحاول تغيير سياسته التي اتسمت بالعنف والقسوة واللامبالاة فسي مختلف الميادين بسياسة اقرب الى اللين والتساهل من تلك التي كان يتعامل بها مع المسلمين وجعل يتودد الى العلويين ويوصي بهم خيرا .
لقد خاف يزيد بن معاوية من الحسين مرتين خافه على ملكه فطاش عقله وقتله مع اخوته وبنيه وخافه المرة الثانية بعد القتل فغير سياسته مع المسلمين ورجع الى اهله يتوددهم ويتظاهر بالرفق بهم ، وهكذا يجمع الخوف بالنفس فيدفعها الى الغلو فتفعل المتناقضات وتأتي بالاضداد والغرائب .

لقد لس يزيد بأن أسلوبه الاول في معاملته مع الناس قد جر عليه الكوارث وهيج عليه الرأي العام فعزل الوليد بن عتبة عن المدينة وولاه عثمان بن محمد بن ابي سفيان وأوصاه بالاحسان الى الناس والرفق بهم، وأراد الوالي الجديد ان يتبع تلك السياسة التي ارتآها ابن ميسون فأرسل وفدا من اهل المدينة الى عاصمة الدولة الاموية بناء لطلب يزيد بن معاوية وهو يحسب بأن حفاوة يزيد بهم واکرامه لهم يخفف من نقتهم عليه وانهم سيرجعون من الشام وهم مقتنعون بأن النتائج التي انتهت

اليها معركة الطف لم تكن برأيه ولم يكن ينتظرها وانهم سيعتبرون عن ابن الزبير ، وسار الوفد المؤلف من أشرف المدينة وعلى رأسه عبد الله ابن حنظلة الفسيل والمنذر بن الزبير وعبد الله بن ابي عمرو بن خوص يقطع المسافة من المدينة الى الشام لضيافة ابن ميسون ، وظلت المدينة تنتظر وفدها بفارغ الصبر لتتخذ بعد رجوعه الموقف الحاسم من الخليفة وجلاديه ، وعندما حط الوفد رحاله في قصر الخضراء بالغ الخليفة في الحفاوة به وأكرمه اكراما لا حدود له ونال الوفد وقادته العطاء الجزيل وخص زعماء الوفد برعايته وأكبر مبلغ من المال وهو واثق من ان الوفد سيرجع بغير الروح التي كان يحملها عندما خرج من المدينة ولكن سهامه قد طاشت وظنونه قد خابت فلم يحصل منهم على غير السباب والهجاء وقالوا لاهل المدينة : لقد وفدنا على رجل لا يعرف الدين ولا الاسلام يشرب الخمر ويتعاطى جميع انواع الفجور ويسامر الفلمان والقيان وينكح البنات والاخوات وانا نشهدكم باننا قد خلعناه فاخلعوه ، وقال ابن حنظلة الفسيل : والله لو لم يكن معي احد لقاتلته بنفسي وولدي ومن معي من اهلي ، واجتمع عليه اهل المدينة يابعونه على قتاله .

ولما بلغت أخبارهم يزيد بن معاوية استبد به الغضب وعاد الى طبيعته الاولى وأرسل النعمان بن بشير والمختار يومذاك متزوج من ابنته أرسله الى المدينة ليتدارك الموقف قبل ان يتأزم بنحو لم يعد بالامكان تداركه فأقدم عليهم وحذرهم من الخلاف والفتنه وما يترتب عليهما من المفسد فلم يستجيبوا لطلبه فرجع الى الشام فاشلا وقص على يزيد ما سمع وما رأى .

وهاجم اهل المدينة دور الامويين وأنصارهم فالتجأ نساؤهم وأطفالهم الى بيوت العلويين ودار الامام علي بن الحسين زين العابدين فعاملوهم كما يعاملون انفسهم وقال النسوة بعد ذلك : والله انا لم نجد مع اهلنا

وفي بيوتنا معاملة كالتي وجدناها من الامام زين العابدين وبقية العلويين^(١) واستغاث الامويون يزيد بن معاوية فأتدب عمرو بن سعيد الاشدق ليرسله على رأس جيش يتولى تأديبهم فاعتذر عن ذلك وأشار عليه هو وجماعة من حواشي ومعاوية بارسال مسلم بن عقبة فأرسله الى المدينة على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف فارس وخمسة عشر الف راجل، وقيل اكثر من ذلك وأوصى قائده مسرفا بقتالهم والفتك بهم وإباحة المدينة لمدة ثلاثة ايام لجيشه ان هو استطاع التغلب عليهم كما أمره بغزو مكة بعد الفتك بأهل المدينة وأخذ البيعة منهم على انهم عبيد له ولاسرتة وأكد عليه ان يصنع بمكة وأهلها ما يصنعه بالمدينة .

وجاء في رواية ابن كثير في المجلد الثامن من البداية والنهاية ان معاوية قال لولده يزيد : سيكون لك يوم من اهل المدينة فان فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة ، وسار ابن عقبة بالجيش وكان اهل المدينة قد حفروا خندقا لاتقاء جيش الشام وحتى لا تكون المعركة في شوارعها كما فعل النبي (ص) في وقعة الاحزاب حينما جمع ابو سفيان المشركين لغزوها ، ولما وصل الجيش الى مشارف المدينة اشار عبد الملك على الغزاة ان ينزلوا في الجهة الشرقية منها في مكان يدعى الحرة ، وأصر اهل المدينة على موقفهم من حكومة ابن ميسون وكانت المعركة التي انتهت بهزيمة اهلها لعدم تكافؤ القوتين فقد بلغ جيش الغزاة نحو من ثلاثين الفا وعدد المقاتلين من المدينة لم يتجاوز الالفين وقتلوا من صحابة الرسول (ص) اكثر من ثمانين صحابيا وسبعمائة من اولاد المهاجرين والانصار وأكثر من عشرة آلاف من سائر الناس كما أكدت ذلك اكثر المصادر التي احصت أحداث تلك المعركة وأباحها مسرف لجيشه ثلاثة ايام بلبايلها كما أمره حفيد

١ - انظر ج ٨ من البداية والنهاية لابن كثير .

هند وأبي سفيان فلم يترك أولئك الغزاة حرمة من حصرم الاسلام الا واتهكوها حتى ان المرأة والفتاة كاتتا تلوزان بمحراب رسول الله (ص) فلا يتورع الغزاة من ان يرتكبوا معهم في مسجد الرسول ومحرابه ما يشتهون .

ودخل شامي على امرأة من نساء الانصار حديثة العهد بالولادة وهي تحتضن طفلا لم يتجاوز خمسة عشر يوما من عمره فلم يجد في بيتها شيئا وطلب منها ما لا فقالت له : والله ما ترك لنا القوم شيئا ، فجذب الطفل من على ثديها وضرب به الحائط فتناثر لحمه ودماغه في انحاء البيت ، الى كثير من أمثال هذه الجرائم التي ارتكبتها خليفة المسلمين في مدينة الرسول مع المهاجرين والانصار وبناتهم باسم الاسلام وباسم محمد رسول الاسلام والعدل والرحمة والانسانية .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ يعقوبي وغيرهما ان الف امرأة اولدت في تلك السنة من غير ازواج وطلب من المسلمين ان يجددوا بيعتهم ليزيد على انهم عبيد له ولأسرته لا يملكون من امرهم شيئا ، ومن امتنع عن قبول هذه البيعة كان جزاؤه القتل صحايا كان او من اولاد الصحابة والانصار وأحفادهم الذين احتضنوا الرسول ودعوته وناصروه على قريش وطواغيتها في بدر وأحد والاحزاب وغيرها من معاركه مع الشرك والوثنية .

ومن غير المستبعد ان يكون ما فعله ابن ميسون حفيد الشرك والوثنية مع الحسين وبنيه واخوته وأنصاره ونسائه في كربلاء وما فعله في المدينة مع الانصار وشيوخهم ونسائهم من قتل ونهب واباحة للاعراض قد كان للتنفيس عما كان يكنه من كره وحقد للعلويين من ذرية محمد وللمهاجرين والانصار الذين وتروه في أعمامه وأخواله وأسرته في بدر وغيرها من المعارك التي خاضوها الى جانب محمد وعلي (ع) لحماية الاسلام من

الشرك والوثنية والجاهلية يوم كان ابو سفيان وأسرته من ابرز المناوئين للإسلام ومسيرته ، ويزيد بحكم تربيته ونشأته الى جانب أمه ميسون في البادية والصحاري قد تملكته عادات القبيلة وأطباع اهل البادية الذين يقدمون الثأر على جميع مهماتهم وأولوياتهم ولا يتفاضون عنه عندما تتوفر لديهم الظروف بحال من الاحوال كما اشرنا الى ذلك خلال الفصول السابقة .

ان الجرائم التي ارتكبتها حفيد هند وابن ميسون ومعاوية في كربلاء مع الحسين وأسرته وفي مدينة الرسول مع المهاجرين والانصار ونسائهم لا لشيء الا لانهم انكروا عليه جوره واستخفاه بالاسلام وقيمه ومقدساته وبكرامة الانسان لا تختلف عما كانت ترتكبه جنود الامويين في حروبهم وغزواتهم لبلاد الشرك والكفر ، ولم يعد غريبا على موسى بن نصير الذي رجع من الاندلس يجر وراءه ثلاثين الف عذراء ومئات الالوف من الاسرى والاباعر من تلك البلاد ، ولا بد وأن يكون وراء سبي كل فتاة قصة طويلة من النهب وسفك الدماء وانتهاك الحرمات ، ومع كل تلك الجرائم التي لم يحدث التاريخ بأسوأ منها ولا بمثلها فقد كانوا يدعون حماية الاسلام وانهم ينشرون دين العدل والرحمة والانسانية ، ومن المؤسف ان نرى اكثر الكتاب العرب يبجدون بني أمية وفتوحاتهم التي استعبدوا فيها الشعوب واتهكوا فيها الحرمات وتركوا للإسلام صورا مخزية فيها لم يحدث التاريخ بأسوأ منها وما عرف الانسان في تاريخه الطويل أقبح منها كما تحدثنا عن هذه الناحية خلال الفصول السابقة .

ومهما كان الحال فلما انتهى مسلم بن عقبة من حرب المدينة خرج منها كما أمره يزيد بن معاوية باتجاه مكة المكرمة لحرب ابن الزبير وكان قد اعتصم بها والتف الناس حوله ، وفي الطريق اليها ساءت حالته الصحية فاستدعى الحصين بن نمير وولاه أمر الجيش وأوصاه بمقاومة ابن الزبير

وأن يصنع بالمكين ما صنعه بأهل المدينة ثم خرجت نفسه فدفعه الحصين حيث توفي ، فجاءت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة فنبشته من قبره وصلبته في ذلك المكان واجتمع عليه الناس يرجمونه بالحجارة ، ولما بلغ الحصين بن نمير ما فعلوا به رجع وواراه في قبره وقتل جماعة ممن رجموه كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه •

ولما أشرف ابن نمير بجيشه على مكة استعد ابن الزبير لمقاومته واشتبك بمن معه مع الغزاة في الحرم وخارجه وقذف أهل الشام الكعبة بالنيران فأحرقوها ، وكان عبد الله بن عمير الليثي قاضي ابن الزبير إذا توافق الفريقان ينادي أهل الشام بأعلى صوته : يا أهل الشام هذا حرم الله الذي كان مأمنا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتقوا الله في حرمة ، فيردون عليه الطاعة الطاعة الكرة الكرة فلم يزالوا يقذفون الكعبة بنيرانهم حتى أحرقوها وكان ذلك سنة ٦٣ للهجرة •

وقال المسعودي في المجلد الثاني من مروج الذهب : أن الحصين بن نمير ومن معه من أهل الشام نصبوا المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج وابن الزبير ومعه المختار بن أبي عبيدة الثقفي قد بايعه على شروط شرطها عليه كان من جملتها أن لا يعصي له أمرا ولا يخالف له رأيا فانهاالت أحجار المنجنيق والعرادات والنيران والنفط وغيره من المحرقات على الكعبة وما زالوا يقذفونها حتى تهدمت واحترقت واشتد الأمر على ابن الزبير وأهالي مكة وفي ذلك يقول أبو حرة المدني :

ابن نمير بس ما تولى قد أحرق المقام والمصلى

وكان ذلك ثلاث خلون من ربيع الأول قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوما على حد تعبير المسعودي في مروجه •

وخلال أيام من معارك جيش الشام مع ابن الزبير في مكة هلك يزيد ابن معاوية في موضع من بلاد الشام يقال له حوارين في صفر من سنة ٦٤ وانهى خبر وفاته لقائده الحصين بن نمير فحاول عبثا ان يستره عن الجيش لئلا يدب فيه الفتور والتخاذل ولكن خبر وفاته انتشر وشاع ولم يعد سرا يمكن الاحتفاظ به ، وما ان بلغ امره الجيش حتى دب فيه التخاذل ورأى الحصين بن نمير ان يرجع بمن معه الى الشام ليرى مصير الخلافة وحاول مع ابن الزبير ان يذهب معه الى الشام وتعهده له بالبيعة فرفض ابن الزبير طلبه وبقي متمصا في مكة وانتشر دعائه في البلاد وبايعته اكثر الامصار ، كما بايع اهل الشام معاوية بن يزيد وكان شابا لم يتجاوز العشرين من عمره ، وبعد ايام قلائل من بيعته وقف خطيبا بين الجماهير من الامويين وغيرهم وقال : لقد نازع جدي معاوية من هو أولى منه بالخلافة وأحق بها لقربته من رسول الله وركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته وصار رهينا في قبره بذنوبه وأسيرا لاطغائه وجرائمه ، وقبل ان يرحل عن هذه الدنيا قلد الامر ابي فصار اسيرا بجرمه وذنوبه وان من اعظم الامور علينا سوء مصرعه وقبح منقلبه وقد قتل عترة الرسول وأباح مدينته وهدم الكعبة ، ومضى يقول : لقد وليت عليكم وتقلدت امرا ليس لي فسان احببتم تركتها لرجل قوي كما تركها ابو بكر لعمر بن الخطاب وان شئتم تركتها بينكم شورى كما تركها ابن الخطاب وليس فيكم من هو صالح لها ، ثم ترك المنبر ودخل منزله ، فاتهم بنو أمية عمر القصوص بأنه هو الذي زين له الزهد وتفضيل علي بن ابي طالب على غيره ولم يقبلوا له عذرا ودفنوه حيا .

وظل ابن يزيد مصرا على رأيه بالرغم من اصرار اهله وذويه عليه بالمداول عن موقفه من الخلافة وكان رده الاخير عليهم ان الدنيا لو كانت مغنا فقد لقينا منها حظا وافرا وان لم تكن كذلك فحسب آل ابي سفيان

منها ما اصابوا ، ثم دخل منزله ولم يخرج منه الى ان مات بعد اربعين يوما على وفاة ابيه وقيل اربعة اشهر ، وقد اتاح موقفه هذا لدعوة ابن الزبير ان تنطلق وتتسع في مختلف العواصم لاسيما بعد الخلاف الذي ظهر في اوساط الامويين عليها واتهى باستيلاء مروان بن الحكم عليها ، ولم يكن لمروان في ماضيه وحاضره ما يجعله مقربا من المسلمين فأبوه الحكم كان طريد رسول الله ولعيته وهو لم يكن في اوساط المسلمين يتمتع بصفة تؤهله لمثل هذا المركز ، ولم ينس له المسلمون انه كان المحرك لسياسة عثمان بن عفان التي هيجت عليه الراي العام وأثارت غضب الجماهير الذي اودى بحياته . كما لم ينس له اهل العراق بالذات مواقفه من امير المؤمنين في البصرة وصفين وقتله لحليفه طلحة في البصرة بعد انتهاء المعركة بتهمة التحريض على عثمان ، وفي الوقت ذاته فانهم يرون بيعتهم لمروان استمرارا للحكم الاموي الذي عانوا منه الامرين على يد معاوية وجلاديه ويزيد وعبيد الله بن مرجانة ، وفي نفس الوقت فقد كان ابن الزبير معروفا في اوساطهم بأطماعه وبما كان يضمره من سوء وشر للعلويين والهاشميين وأشياهم ولم تغب عنهم مواقفه في البصرة وانحيازه السافر لمعاوية خلال الاعوام العشرين التي قضاها في الحكم ، ومع ذلك فقد كانوا يرونه أهون الشرين وبيعته أهون البيعتين ويقدرّون بأنه سيعتبر وقوفهم الى جانبه في تلك الفترة تفضلا منهم يمتنون بها عليه ، في حين انهم لو بايعوا مروان ابن الحكم سيعتبر بيعتهم له امتدادا للدولة الاموية التي أسسها معاوية ومن الواجبات التي يجب عليهم الالتزام بها .

لقد توالى الاحداث وتراكمت في تلك الفترة من تاريخ الاسلام ومات معاوية الثاني تاركا الدولة مفككة الاوصال تتجاذبها الاطماع والمصالح من جميع الجهات ، فالشيعة يريدون لو يتاح لهم ان تكون بقيادة العلويين ، وأكثر المسلمين في الحجاز والبصرة وغيرهما يريدونها لابن الزبير وقد بايعوا وانقادوا لطاعته ولم يبق الى جانب الامويين سوى

الشام وجهاتها ، وقد انقسم الحزب الاموي على نفسه فالفرع السفيفاني
 يريد لها لخالد بن يزيد ، والفرع المرواني يريد لها لزعيمة مروان بن الحكم
 وفي الوقت نفسه تعرض البيت الاموي لبعض الصراعات القبلية في بلاد
 الشام وأدى انحياز الامويين لفئة دون اخرى الى وقوف بعض القبائل
 الى جانب ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس ، وكان الرابع الاول من كل
 ذلك هو ابن الزبير واستقامت له الامور في اكثر المناطق والعواصم
 الاسلامية بما في ذلك العراق ، ولكن موقف العراقيين وبخاصة الشيعة
 لم يكن عن اقتناع بسلامة موقفه واخلاصه ، بل كان كما يبدو للتخلص من
 حكم الامويين كما ذكرنا وبانتظار الوقت المناسب ، ولذا فقد رفضوا
 بيعته عندما خرج المختار بن ابي عبيدة في الكوفة يدعو الى آل علي (ع)
 وجعل يتتبع قتلة الحسين وبايعوا المختار والتفوا حوله ، ثم لم يلبثوا بعد
 ان خابت آمالهم بمقتل المختار ان راسلوا عبد الملك بن مروان وساعدوه
 على مصعب بن الزبير الذي كان يقود المعركة ضد المختار وأنصاره ، وقتل
 منهم حينما حاصر المختار ستة آلاف في مجزرة واحدة الفان من العرب
 وأربعة آلاف من الموالي الذين كانوا يناصرون الحركات الشيعة بالاضافة
 الى مئات القتلى الذين سقطوا خلال المعارك التي دارت بينهم وبينه .
 وجاء في تاريخ الطبري وغيره ان عبد الله بن عمر قال لمصعب بن
 الزبير : انت القاتل في غداة واحدة ستة آلاف مسلم عش ما استطعت ،
 فقال له : انهم كانوا كفرة سحرة ، فقال ابن عمر : والله لو قتلت عددهم
 غنما من تراث ابيك لكان ما اتيت به سرفا وعظيما .

ثورة النهديين

لقد تنفس الشيعة بهلاك يزيد بن معاوية ومواقف ابنه معاوية من الخلافة وإدائته الصريحة الفاضحة لآبيه وجده وبكائه على مصيرهما السيء جزاء لما اقترفته أيديهما كما أكدت ذلك جميع المصادر التي وصفت حاله عندما وقف فوق منبر الشام ليعلم بأن الخلافة ليست له ولا لاسرته. وكان العراق الذي يمثل الشيعة غالبية سكانه بعد أن هزته مجزرة كربلاء قد مال إلى ابن الزبير بصفته أقوى المعارضين لحكم الامويين والتجأ ابن زياد إلى البصرة لكثرة من فيها ممن بقي ملتزماً ببيعة الامويين ، ولكن موت يزيد وخليفته معاوية كانا صدمة عنيفة له فخفت قبضته ولانت سطوته وأصبح الموقف فيها مضطرباً كغيرها من الاقطار ، ومع ذلك فقد ظل فيها اميراً لفترة قصيرة ثم اخذ سلطانه في الضعف فكان يأمر بالشيء ولا يقضى ويرى الرأي فيرد عليه ويأمر بحبس المخطئ فيحال بين أعوانه وبينه ، وبلغ من استخفافهم به انه كان اذا صعد المنبر يحصبونه بالحجارة ويسبونونه^(١) ولم يجمع رأي اهل البصرة الا على نبذ طاعة ابن الزبير ،

١ - المجلد الثاني من الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٩ .

ورأت عامة الناس ان في بقاء حكم ابن زياد الضعيف ما يهددهم بخطر
الخوارج •

وقصدت الشيعة الى الاحنف بن قيس لينهض بهم فأبى عليهم ، فقالوا:
انت سيدنا ، فقال : لست بسيدكم ان سيدكم الشيطان ، وكان ابن زياد
قد عين عمر بن سعد اميرا على الكوفة ، فوقفت الكوفة في الطريق
وخرج نساءها باكيات نائحات يندبن الحسين ومن قتل معه في كربلاء
فألهب بكاؤهن شعور اهل الكوفة فأسرعوا الى طرده من القصر وقالوا
بلسان واحد : لا حاجة لنا في بني أمية ولا في امارة ابن مرجانة واختاروا
اميرا على الكوفة عامر بن مسعود وكتبوا بذلك الى ابن الزبير فأقرهم على
اختيارهم وظل ابن مسعود اميرا عليها حتى عزله ابن الزبير وولى مكانه
عبد الله بن يزيد •

وكانت الحركة الزيرية تتلمس قيام اي حركة تهدف الى مناوأة
الامويين ، وقد شاء الله لها ان تجد أميتها في حركة التوايين وكان
الشيعة قد أحسوا بالخطأ الفادح بخذلانهم الحسين (ع) ورأوا ان هذا
الخذلان لا يفعله الا قتل من قتله او القتل في سبيله وأكثروا من البكاء
على الحسين وسموا انفسهم التوايين ، وكان الندم قد سيطر عليهم منذ
دخل موكب الرؤوس والسبايا الى الكوفة وشاهدوا رأس الحسين
ورؤوس اخوته وأنصاره على الرماح وزينب وأخواتها ناديات صائحات
وزين العابدين (ع) مكبلا بالحديد وسمموا يومذاك على الثورة والانتقام
من قتله وساعد عليه ، ولما أحس ابن زياد بذلك وقف على منبر الكوفة
يتحدثهم ويصف الحسين بصفات لا تليق الا به وبمن استعمله وسلطه
على المسلمين، فوقف عبد الله بن عفيف الاسدي من بين تلك الجموع وقال
له : الكذاب ابن الكذاب انت وأبوك ومن استعملك وأبوه يا عدو الله
تقتلون النبيين وأبناء النبيين وتكلمون بكلام الصديقين ، فأمر ابن

مرجانة باعتقاله وقتله .

واجتمع زعماء الشيعة بعد ذلك يتشاورون فيما بينهم واستقر رأيهم اخيرا ان يركنوا الى الهدوء تجنباً لشر ابن زياد الى ان يتهيأ الظرف المناسب على ان يستمر العمل في جو من السرية التامة .

وكان الذين تزعموا حركة التوايين خمسة من زعماء الشيعة المعروفين بولائهم لعلي وآل علي (ع) وهم سليمان بن صرد الخزاعي وهو صحابي قد ادرك النبي (ص) كما جاء في ترجمته والمسيب بن نجبة الفسزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الازدي وعبد الله بن وال التيمي ورفاعة بن شداد البجلي ، وكلهم عاصروا عليا (ع) واشتركوا معه في معاركه مع التاكثين والقاسطين والمارقين وكانوا يجتمعون بين الحين والآخر في منتدى التكتّم والحذر ويكون على الحسين ويطنون ندمهم على تخاذلهم في نصرته ويعاهدون الله على الاخذ بثأره ولو أدى ذلك الى ابادتهم عن آخرهم ، وانضم اليهم عبد الله بن عبد الله المري وكان كلما اجتمعوا يقول : ما عذرنا وقد خذلنا ابن اول القوم اسلاماً وابن بنت رسول الله حينما قلت حماته وكثرت عداته من خذله وليه وقتله عدوه فويل للقاتل وملامة للخاذل ان الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة الا ان ينصح الله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين فعسى الله عند ذلك ان يقبل التوبة ويقل العثرة انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء اهل بيته والى جهاد المحلين والمارقين فان قتلنا فما عند الله خير للابرار وان ظهرنا رددنا هذا الامر الى اهل بيت نبينا .

وكان هؤلاء الزعماء يجتمعون في الغالب مع من يأوي اليهم ويطمئنون الى وفائه واخلاصه في منزل سليمان بن صرد ويتناوبون على الكلام ويطنون بلهجة واحدة ندمهم على تخاذلهم وعدم وفائهم بما عاهدوه عليه في رسائلهم التي ارسلوها اليه يعدونه فيها بالنصر والتضحية في سبيله .

وبالرغم من ان حركتهم قد بدأت خلال الاشهر الاولى من السنة التي قتل فيها الحسين (ع) ولكن ظهورها قد تأخر ولم يعلنوها في وقتها لعدم توفر الاجواء المناسبة لها ، وبقيت في طي الكتمان الى شهر ربيع الاول من سنة ٦٤ هجرية بعد ان بلغهم نبأ وفاة يزيد بن معاوية وخلال تلك الفترة كانوا يستعدون للحرب ويجمعون الاموال والاسلحة ويهيئون الرجال والانصار ، وقد وصف الطبري حالهم بقوله : كان اول ما ابتدعوا من امرهم سنة احدى وستين السنة التي قتل فيها الحسين هو جمع السلاح وأدوات الحرب ودعوة الناس في السر الى الطلب بدم الحسين والاخذ بشاره ، وكان يجيبهم القوم بعد القوم والثغر بعد الثغر ولم يزالوا على ذلك الى ان هلك يزيد بن معاوية ، فكتب سليمان بن صرد الى شيعة المدائن وكانوا قد اتقلوا اليها من الكوفة والى شيعة البصرة يستنهضهم للاخذ بشار الحسين والثورة على بني امية فأجابوه الى ما دعاهم اليه وأظهروا استعدادهم لذلك ، واعتبر التوابون وفاة يزيد وما تبعها من انقسام الامويين وتناحرهم على السلطة فرجا وفرصة تتيج لهم التحرك والتجاهر بدعوتهم فبشوا دعائهم في الكوفة وراح زعماء الثورة يجتمعون بالناس يدعونهم للخروج معهم والتوبة الى الله من خذلانه وظلوا يتوافدون عليهم حتى اجتمع حولهم ١٦ الف رجل كانت روح كربلاء تدفعهم الى التكفير عن تخاذلهم والاستماتة في هذا السبيل .

وكان من المفروض ان يرتاح ابن الزبير لهذه الحركة ويتظاهر بتأييدها ومناصرتهم لان حركة من هذا النوع ضد الامويين ستصرفهم عنه ، وسينصرف هو بدوره لتقوية جيشه وتوطيد دعائم نفوذه استعدادا للمعركة المقبلة معهم .

وكان قد تولى امر الكوفة لابن الزبير يومذاك عبد الله بن يزيد الانصاري وتولى جباية خراجها ابراهيم بن محمد بن طلحة ، والفرقان

يشارك في مقاومة الامويين ويختلفان في الهدف والغاية ، فالشوار ينادون بشارت الحسين وابن الزبير وأنصاره ينددون بقتلة الحسين ولكنهم يعملون للتخلص من الامويين وتوطيد الحكم لمصلحتهم وكانوا يرون ان الشيعة اذا نجحوا في ثورتهم سيكونون أهون عليهم من الامويين ، ومع ذلك فقد رجح جماعة من وجهاء الكوفة المناوئين للشيعة ومن اشتركوا في مجزرة كربلاء رجحوا لعبد الله بن يزيد الانصاري الذي كان يعمل لمصلحة ابن الزبير ان يهاجم التوايين ولا يسمح لهم باعلان الثورة ولكنه كان حكيما فسي تصرفه وموقفه من الشوار فرد عليهم بقوله : الله بيننا وبينهم ان هم قاتلونا قاتلناهم وان تركونا لم نطلبهم وليس لدينا ما يمنع من خروجهم على من قاتل الحسين لعن الله قاتليه وظالميه ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأمائلكم قد توجه اليكم من الشام وأصبح على مسيرة يوم من جسر منبج فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من ان تجعلوا بأسكم بينكم ليقتل بعضكم بعضا فيلقاكم عدوكم غدا وقد انهككم القتال وتلك والله أميته .

لقد نجح ابن يزيد عامل ابن الزبير في موقفه هذا لانه يعلم بأن ابن زياد لم يكن يقصد الكوفة لقتال الشيعة ولا لحرب التوايين ، بل يقصدها لارجاعها الى حظيرة الدولة الاموية وطرد الزيريين منها ومن العراق بكامله ، وهو لا يضمن فيما لو دخل ابن زياد العراق او الكوفة واشترك معه في حرب ان تكون المعركة لصالحه لعدم استقرار الامور في الكوفة لصالحهم وأنصار الامويين لا يقلون عن أنصارهم ، فكانت حركة التوايين فرصة لصد ابن زياد عن الكوفة بدون ان يحرك هو وأنصاره ساكني والرابح الوحيد من لم يشترك بها لاسيما وان الزيريين وأنصارهم ينظرون الى الشيعة والامويين بعين واحدة وفي الوقت ذاته يرون الامويين أشد خطرا عليهم من الشيعة من حيث انهم يملكون من القوة

ما لا يملكه الشيعة .

لقد عزم قادة الثورة على الخروج وأخذوا يستعرضون ما تيسر لهم من المقاتلين فوجدوه قليلا لا يتفق مع ما شاهدوه وسمعوه من الناس فبعثوا دعائهم الى الشيعة يدعونهم الى الخروج فلم يستجب لهم سوى اربعة آلاف مقاتل فخرجوا بهم الى النخيلة وأقاموا بها ثلاثة ايام وأنصارهم يجوبون الكوفة يطالبون من عاهدتهم وبايعهم على الخروج الى النخيلة فلم يلحق بهم سوى الف مقاتل آخرين فتردد سليمان بن صرد بالخروج بهم، ولكن المسيب بن نجية قال له: رحمك الله انه لن ينفعك الكاره للقتال ولا يقاتل معك الا من اخرجته النية فلا تنتظر احدا وجد في امرك ، فأخذ ابن صرد بنصيحته وترك الخيار لمن معه في الخروج او الرجوع السى الكوفة .

واقترح عليه احد زعماء الثورة عبد الله بن سعد بن نفييل ان يرجع الى الكوفة لقتال من باثروا القتال مع عمر بن سعد بدلا من المجازفة بهذا العدد والسير به الى قتال اهل الشام فرفض سليمان بن صرد رأيه وخرج بسن معه وساروا باتجاه كربلاء لزيارة مثنى الحسين (ع) فأقاموا بها يوما وليلة يكون ويندبون ويطلبون من الله سبحانه التوبة فما رئي في يوم اكثر باكيا منه وهم يقولون : ربنا لقد خذلنا ابن بنت نبينا فاغفر لنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين فان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، وكان الزخام علسى القبر أشد منه عند الحجر الاسود بمكة على حد تعبير بعض المؤرخين . ومن كربلاء اتجه التوابون عبر الفرات حتى انتهوا الى مدينة هيت وخرجوا منها باتجاه قرقيسيا وكان فيها ظفر او زفر بن الحارث الكلابي وكان يعمل لمصلحة ابن الزبير فساعدهم ووضع لهم سوقا ليأخذوا منه ما يحتاجون اليه في طريقهم وأخبرهم بتحركات ابن زياد في ثلاثين الف مقاتل

من الشام ونصحهم بأن يسبقوه الى عين الوردة وينزلوا غريها ويجملوها من ورائهم لتحمي ظهورهم ، وعندما التقى الجيشان في عين الوردة بعد خسة ايام من نزولهم بها طلب منهم ابن زياد ان يستسلموا ويأيموا لعبد الملك بن مروان حيث اتهمت السلطة بموت ابيه مروان بن الحكم اليه ، فرفض قادة التوايين هذه الفكرة وطلبوا من جند الشام ان يخلعوا عبد الملك وينضموا الى التوايين لقتال الامويين والزبيريين وتسليم الخلافة لآل الرسول كما جاء في انساب الاشراف للبلاذري ، فرفض اهل الشام هذا الرأي وقابلوه بنوع من السخرية وأصر كل منهم على القتال في سبيل الغاية التي خرجوا من اجلها .

وبدأت المعركة بين فريقين غير متكافئين لا في العدد ولا في العتاد، ومع ذلك فقد صمد التوابون لاهل الشام وقاتلوا قتال الاسود الضواري وقتلوا بهم فتكا ذريعا وكادت المعركة ان تنتهي لصالحهم لولا النبال التي انتهالت عليهم من كل جانب وأصيب قائدهم سليمان بهم كانت به نهاية حياته ، وأخذ الراية من بعده المسيب بن نجبة وكان من أبطال الكوفة فحمل بمن معه على اهل الشام وهو يقول :

قد علت مياسة الذوائب واضحة اللبسات والترائب
انسي غداة السروع والمقائب أشجع من ذي لبدة موائب

فقاتل القوم قتال الابطال ولما قتل استمات اصحابه وهاجموا اهل الشام هجوم من لا طمع له في الحياة ، وهاجمتهم جنود ابن زياد من جميع الجهات وهم ينادون : الجنة الجنة الى البقية من اصحاب ابي تراب الجنة الجنة الى الترابية ، وتقدم نحوهم عبد الله بن سعيد بن نفيل بمن بقي من التوايين ولكن جنود ابن زياد كاثروهم وثبتوا لهم ، وفي المراحل

الآخيرة من المعركة وبعد ان صرع اكثرهم جاءهم من البصرة والمدائن خمسمائة فارس بقيادة المتقي بن محرمة وسعيد بن حذيفة وهم يقولون: ربنا اقلنا تفريطنا في نصره ابن بنت نبيك فقد تبنا اليك ، فقيل لعبد الله ابن سعيد وهو يصول ويجول بمن بقي معه من الشيعة : لقد جاءك المدد ولحق بنا اخواننا من البصرة والمدائن ، فقال : يا حبيذا لو كان مجيئهم ونحن من الاحياء ، فاشتركوا في المعركة وباشروا القتال بقلوبهم العامرة بالتقوى ونفوسهم المطمئنة لما أعدده الله للشهداء وكان اول من استشهد منهم كثير بن عمرو المدني كما أصيب منهم جماعة ، ولما قتل عبد الله بن سعيد بن نفيل وصرع اكثرهم انسحب رفاعه بن شداد من المعركة وبقي الحويرث العبدي بمن بقي منهم فطلب منهم اهل الشام ان ينسحبوا من المعركة ويكفوا عن القتال ، وانهت المعركة لصالح اهل الشام ورجع من بقي من التوابين وهم قلة كل الى مصره وهم يكون لانهم لم يحققوا الهدف الذي حاربوا من اجله وكانوا يفضلون الموت على رجوعهم سالمين .

وأسدل الستار على هذا الفصل من جهاد الشيعة ، وكان من المفروض على قادة الحركة ان يعملوا برأي عبد الله بن سعيد بن نفيل الذي اشار عليهم بملاحقة قتلة الحسين في داخل الكوفة الذين باشروا معركة الطف ومارسوا جميع فصولها ، ولو فعلوا ذلك وانتظروا الوقت المناسب لمهاجمة اهل الشام لكان أجدى لهم من الخروج بهذا العدد اليسير لمقاومة جيش مجهز بكل ما تحتاجه الحرب من اجهزة وأعتدة وأموال ووراء دولة كانت على استعداد لان تمده بعشرات الالوف من المقاتلين وبكل انواع الاعتدة . لقد كانت حركة التوابين كما يبدو من ظروفها وملابساتها حركة عاطفية أدت بهم الى الاتحار بدافع التكفير عن تخاذلهم ووقوفهم مكتوفي الايدي من تلك المجزرة الرهيبة في كربلاء على يد اهل الكوفة انفسهم ،

وما يرجح ان التوايين لم يضعوا في حسابهم غير الموت لاعتقادهم بأنه هو الطريق الوحيد للتكفير عن موقفهم المتخاذل من اهل بيت نبهم (ص) هو ذلك العدد القليل الذي استجاب لهم من اصل ١٦٠٠٠ كانوا قد اظهروا استعدادهم للانضمام اليهم ، ذلك لان الاعمال الانتحارية لا يقدم عليها الا القليلون في كل زمان ومكان .

وكما يمكن ان يعزى فشل تلك الحركة الى عدم التخطيط والاستعداد الذي يتناسب مع ضخامة المعركة وشراسة العدو بالاضافة الى تغلب النواحي العاطفية على قادتها ومديريها مما جعلهم يجازفون بحياتهم وحياة أنصارهم ويقاثلون بأربعة آلاف مقاتل ثلاثين الفا ووراءهم عشرات الالوف من جند الشام ، كما يمكن ان يعزى فشلها لذلك كله يجب ان لا ننسى ان التكتلات الشيعية كانت ثقيلة على الزيريين وأنصار الامويين في داخل الكوفة والفريقان كانا يحاذران من قوتها واتساعها فليس من البعيد ان يكون لهما ضلع في تخدير الجماهير عن الانضمام لتلك الحركة لان الزيريين لا يرون الشيعة أقل خطرا على ابن الزير من الامويين ويعلمون بأنهم لا يرون للعلويين بديلا وأنصار الامويين في الكوفة كانوا يرون نجاح حركة التوايين من أشد الاخطار عليهم لانهم اشتركوا مع الامويين في جوهرهم ومطاردتهم للشيعة منذ ان تأسست دولة الامويين وحتى مجزرة كربلاء التي قامت على سواعد أنصارهم من اهل الكوفة ، فليس بغريب ولا ببعيد على أنصار الامويين والزيريين في العراق ان يتغلغلوا في اوساط الشيعة لبعث روح التخاذل وتحذيرهم عن المضي فيما كان يخطط له قادة التوايين .

ولا أحسب ان للمختار الثقفي صلة فيما انتهى اليه مصير تلك الحركة ولا في بعث روح التخاذل بين أنصارها كما يرى بعض الباحثين من العرب والمستشرقين ولعلنا سنحاول معالجة هذه الناحية خلال حديثنا عن ثورة المختار الآتية .

ثورة المختار بن عبيدة الثقفي

لقد تركت مجزرة كربلاء وما رافقها من الجرائم التي ارتكبتها الامويون من تمثيل بالقتلى وسلب ونهب وسبي لبنات رسول الله (ص) اثرا في نفس كل مسلم وعبأت الجماهير للثورة ودفعت بهم في الطريق الدامي الطويل طريق النضال بعد ان كان الامويون بقيادة معاوية يحاولون ان ينتزعوا الروح النضالية التي بعثها وغرسها الاسلام في نفوس المسلمين فجاءت ثورة الحسين (ع) اغنى ثورة بالعزم والتصميم في المضي بالنضال الدامي الى نهايته وحتى النصر او الشهادة .

لقد رفض الثائرون في كربلاء جميع العروض والمغريات التي بذلت لهم من اجل تحرير الامة من الظلم والعسف والجور ولم يستهدفوا من ثورتهم ان يحكموا الناس ولا مغنا لانفسهم وانما استهدفوا تحرير مجتمعهم من اولئك الطغاة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ، وبلا شك فان جميع الانتفاضات والثورات التي حدثت بعد مصرع الحسين كان مبعثها تلك الروح الجديدة التي بثتها ثورته الدامية في نفوس الجماهير وقد استفاد منها حتى اعداء اهل البيت كابن الزبير وأمثاله وان لم تكن ثورته امتدادا لثورة الحسين ومن تلك الفصيلة ، لانه كان يعد العدة

ويعمل للسلطة قبل مصرع الحسين (ع) وكانت أطماعه الشخصية هي التي دفعته على التحرك ، وكان يرى الحسين منافسا خطيرا على تحركاته كما ذكرنا خلال الفصل السابق ، فلما بلغ مقتل الحسين اهالي مكة اتجه اليه اهله وقالوا له : اظهر بيعتك فلم يبق احد ينافسك ويخاف منه عليك ، فقال لاصحابه : لا تعجلوا ، وظل معتصما بالكعبة يتظاهر بالزهد والتقوى ، ولم يكن منه هذا الموقف الا ليأخذ مقتل الحسين اثره الدامي في نفوس المسلمين وتستمر النقرة على الحكم الاموي من اجله ، ولما وجد ان المسلمين بكل فئاتهم يتململون من تلك الجريمة ويرون فيها حدثا يهدد مضير الامة وكيانهم وأحس بأن الكثيرين من المسلمين اصبحوا يفتشون عن بديل للامويين أظهر دعوته ووجد ان الحديث عن الحسين والتباكي عليه من أشد الاسلحة فتكا راح يتباكى عليه ويندد بقاتليه ويث دعاة في انحاء الحجاز والعراق وأوصاهم بالترحم على الحسين والتنديد بقاتليه فكان لثورة الحسين وما نتج عنها اكبر الاثر في ايقاظ الجماهير المسلمة والقضاء على روح التواكل والخنوع والتسليم للحاكمين وأصبح الشعب المسلم قوة معبأة للانفجار بين الحين والآخر وكانت ثورة المدينة وما رافقها من الجرائم والاستخفاف بمقدسات الاسلام ، وجاءت بعدها ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي الانتحارية ، وكان المختار في جميع هذه المراحل يعد العدة للثورة ويعمل بحكمة وروية لنجاحها ، وقبل الحديث عنها لا بد من الاشارة الموجزة عن نشأته والمراحل التي مر بها قبل ان يتولى قيادة الثورة على الحكم الاموي .

فقد جاء في الحلقة السادسة من اعلام العرب للدكتور علي الخرطبولي ان والده ابا عبيدة بن مسعود قد اعتنق الاسلام وأخلص له وكان شقيقه عروة بن مسعود من السابقين للاسلام خلال حصار الطائف وان ابا عبيدة قد اشترك في معارك المسلمين مع الفرس واختاره عمر بن الخطاب للقيادة

فأبدى في ميادين القتال شجاعة واستبسالا قل نظيرهما في تاريخ المعارك ومات ابو عبيدة شهيدا على شاطئ الفرات في سبيل الاسلام بعد ان هجم عليه فيل ايض من الفيلة التي كان الفرس يستخدمونها في معاركهم يومذاك وداسه الفيل بأقدامه وتولى القيادة بعده سبعة من ابناء ثقيف على التوالي كان اولهم ولده جبر وقتلوا من بعده ، وأضاف الى ذلك ان أم جبر زوجة ابي عبيدة كانت قد رأت في منامها ان رجلا نزل من السماء ومعه اناء فيه شراب من الجنة فشرب منه ابو عبيدة وابنه جبر وجماعة من اهلهم . اما ابنه المختار فلم يتحدث المؤرخون عنه في مطلع حياته ولم يهتموا بتاريخه الا بعد ان ظهر على مسرح الاحداث في العراق خلال الحكم الاموي مما جعل مهمة الباحث عن حياته في طفولته وشبابه صعبة وعسيرة .

وبلا شك ان ولادته كانت في مدينة الطائف حيث كانت موطن اهلهم وعشيرته ، ويمكن ان نستنتج من المصادر التي تعرضت لتاريخ وفاته بأن ولادته كانت في السنة الاولى للهجرة ، لان اكثر المصادر تدعي انه قتل سنة ٦٧ وهو في السابعة والستين من عمره ولازم ذلك ان ولادته كانت في السنة الاولى من هجرة الرسول (ص) وأمه دومة امرأة عربية قد اشتركت مع زوجها في المعارك خلال معاركه للفرس وتلفت مصرعه ومصرع ولدها جبر بصبر وثبات واحتسبتهما عند الله ، وكان المختار يومذاك في الثالثة عشرة من عمره ، وقد بدت عليه علائم النجابة وهو في حداثة سنه ، ويروي بعض المؤرخين بهذه المناسبة ان اياه جاء به الى امير المؤمنين (ع) وهو صبي فأجلسه في حجره ومسح رأسه وهو يقول : يا كيس يا كيس .

وقد استنتج بعض الباحثين من هذه الكلمة ان عليا (ع) كان يعبر بها عن مخبات المستقبل وبما يظهر له من بطولات وحنكة سياسية وآراء

وتصرفات سديدة رشيدة كالاخذ بثارات اهل البيت ومناوأة المفتصين
لحقوقهم وتراثهم ، وليس ذلك ببعيد ان صح ان امير المؤمنين قد وصفه
بذلك ، كما استنتج منها فريق اخر بأنها تشير الى فرق الكيسانية التي
وضع المختار نواتها كما يدعون .

لقد كان المختار معاصرا للمغيرة بن شعبة الثقفي وكانا من ابرز من
انجبتهم تلك القبيلة واشتركا في الدهاء والذكاء ولكن المغيرة سخر دهاءه
وذكاءه للمكر والخداع والنفاق كما وصفه اكثر المؤرخين ، وقد جاء في
تاريخ الخلفاء للسيوطي في وصفه : لو ان مدينة لها ثمانية ابواب لا يمكن
الخروج من باب منها الا بمكر واحتيال لخرج المغيرة من ابوابها كلها ،
ومع انه كان يملك القدرة على المكر والمراوغة والاحتيال فقد عاش تابعا
لحاكمين يستعمل طموحه ودهاءه ودينه ليكون مقربا منهم او متوليا لهم
على بعض المقاطعات ورافق معاوية خلال الفترة التي حكم فيها الناس
وجاراه في كل مواقفه من امير المؤمنين وكان من مستشاريه المفضلين ،
ولم يحدث التاريخ عنه انه وقف موقفا شريفا مع أخصامه وأخصام أسياده،
ولم يكن يهتم الا برضاهم ليعهدوا اليه بحكم بعض العواصم الاسلامية
يرز من خلالها على رؤوس الجاهير .

وقد وصفه المستشرق (فلهوزن) في كتابه احزاب المعارضة في صدر
الاسلام بقوله : لم يكن المغيرة يعمل على استئصال الشر في بدايته وقبل
ان يستفحل بل كان يتركه يشتد ويعظم لانه كان يعرف بأنه لا يعيش حتى
يواجه هذا الخطر بعد استفحاله ، ويهتم مع ذلك بحياته تاركا الاخطار
ليتداركها من يخلفه .

ويعزو المستشرق (بركلمان) مواقف المغيرة الى انه كان رجلا انتهازيا
لا ذمة له ولا ذمام ، فقد رجح لمعاوية ان يعهد بالخلافة لولده يزيد ليولى
الكوفة وكان طامعا بها وهي العقبة الاولى التي يجب تذليلها لنجاح هذه

الفكرة ، وعندما اشار على معاوية بذلك كان معاوية يحب ان يسمع من أنصاره ومعاونيه رأيا من هذا النوع فرجحه له المغيرة وقال : لقد وضعت رجلي معاوية في غرز يتخبط فيه ومع ذلك فقد تعهد له بتذليل ما يعترضه من الصعوبات في الكوفة .

اما المختار الثقفي فقد اختار لبلوغ اهدافه طريق الكفاح والثورة بدلا من النفاق والمراوغة واعتمد في كل ما كان يطمح اليه على ذكائه وسيفه وجهوده فكان طريقه طويلا وشاقا ومحفوفا بالمخاطر والاهوال وظل يحمل سيفه يجاهد به حتى اللحظات الاخيرة من حياته شأن الاباة والابطال في مختلف العصور .

لقد كان معارضا للحكم الاموي وسياسة الامويين وتسلطهم منذ دخل معترك السياسة ، هذا بالإضافة الى تشييعه وولائه لاهل البيت (ع) ووقف الى جانب مسلم بن عقيل في الكوفة ودعا الناس الى الالتحاق بالحسين ونصرته ، وتعرض بسبب ذلك لسجون الامويين ومعتقلاتهم وتعذيبهم ، ولقد حارب الامويين مع ابن الزبير حينما فر من ابن زياد من الكوفة والتحق به في مكة وفيها اشترك مع المكيين في صدهم عن الكعبة التي كانت هدفا لنيرانهم ووسائل الدمار التي استعملوها للاجهاز على حركة ابن الزبير قبل ان يستفحل امرها ، وحارب قتلة الحسين والجيش الاموي الذي قاده ابن زياد لاسترجاع العراق الى الحكم الاموي ، كما حارب الزبيريين ولقي مصرعه في ميدان القتال على أيديهم ، وكان قد ناصرهم بالامس القريب على الامويين بالحجاز وغيره من المناطق .

لقد كان المختار بن ابي عبيد يعمل بمهارة وتخطيط محكم فسي ميادين السياسة وكان سياسيا ناجحا وموهوبا وبطلا من أبطال التاريخ لم يحترف سياسة اللف والدوران والمراوغة والنفاق وغيرها من الصفات التي اشتهر بها معاوية بن هند وقريبه المغيرة بن شعبة وأمثالهما ، واختار

العراق لمخططاته السياسية حيث كان اكثر اهلها يوالون البيت العلوي الذي شب ونشأ على موالاته ومناهضة اعدائه ، ولانه كان علويا ومطبوعا على الولاء لهذا البيت فقد حكت حوله مجموعة من الاساطير والاكاذيب اشترك في وضعها وصياغتها ونسبتها اليه اعداء العلويين من الامويين والزييريين ، كما وضعوا مئات الاحاديث في فضل الصحابة ووضعوا في مقابلها المئات من الاحاديث والتهم التي نسيء الى علي وبنه ، فكانت مصانع الحديث العاملة لمصلحة الحاكمين تنتج لهم ما يشاؤون ويشتهون، وكان عروة بن الزبير احد أبطال تلك المصانع وأحيانا كان يسند موضوعاته لخالته عائشة .

لقد حارب المختار دولة الامويين منذ مطلعها بقيادة معاوية وظل يحاربها حتى قضى على ابن زياد في معاركه معه في الموصل وعلى أعوانه ممن اشتركوا في معركة كربلاء وحارب ابن الزبير وقضى على نفوذه في الكوفة وغيرها وكانت نهايته على يد الزييريين وقتلوا معه نحواً من سبعة آلاف من المسلمين ، وحينما عاتبهم عبد الله بن عمر كان جواب قائد المجزرة مصعب بن الزبير انهم سحرة كفر .

لقد نسبوا اليه السحر والكفر وانه كان يخاطب الملائكة ويدعي انهم كانوا يحاربون معه الى جانب جنوده وان جبرائيل كان ينزل عليه بشكل طائر ، الى غير ذلك من المقالات التي ظهرت بعد عصره كما ألصقوا به الفرقة الكيسانية لان عليا (ع) مسح على رأسه وهو في مطلع صباه ووصفه بالكياسة .

ان الذين يضمنون عشرات الاحاديث في فضل معاوية ويروون عن النبي (ص) انه كان يقول : ان الله يدني معاوية منه يوم القيامة ويجلسه الى جانبه ويغلفه بيده ثم يجلوه الى الناس كالعروس لانه حارب علي بن ابي طالب ليس بغريب ولا يبعد ان ينسبوا للمختار الكفر والسحر وادعاء

النبوة والربوبية لانه حارب أنصار معاوية الذي يدينه الله اليه ويجلوه للناس وأعداء علي وآل علي وقتل قتلة الحسين وحارب ابن الزبير الذي لم يختلف عن معاوية والامويين في شيء وبخاصة فيما يعود الى العلويين، وقد اضطهدهم خلال الفترة التي حكم بها العراق والحجاز وأعلن البراءة من علي وآل علي وترك الصلاة على النبي (ص) في خطبة الجمعة محتجا لذلك بأن اهله يشمخون بأنوفهم عند ذكره والصلاة عليه .

لقد كان المختار من أقطاب الشيعة في عصره ولم يكن عثمانيا كما نسب اليه ذلك بعض الباحثين لا لشيء الا لانه وقف موقفا سليما من الحسن بن علي (ع) حينما صالح معاوية وطلب من عمه سعد بن مسعود الثقفي ان يسلمه لمعاوية كما تزعم بعض الروايات ، ولو افترضنا صحة الرواية فهي لا تثبت كونه عثمانيا مواليا للامويين لان اكثر الشيعة يومذاك وقفوا من الحسن موقفا يتسم بالصلاية والقسوة بما فيهم حجر بن عدي وسليمان بن صرد الخزاعي وأمثالهما وكانوا يسمنونه مذل المؤمنين وقال له بعضهم : ليتك مت ومتنا ، الى غير ذلك من مقالاتهم التي لو صحت لا تتعارض مع تشييعهم وولائهم الاكيد لاهل البيت (ع) ولا تعدو ان تكون نزوة من نزوات الغضب على صلحه لمعاوية وتنازله عن الحكم للامويين اعداء الاسلام ، فلو صح عنه ذلك يكون كغيره من زعماء الشيعة الذين استبد بهم الغضب وجرهم الى الاسراف في اللوم والعتاب المر الذي لا يصدر الا من المحب في الغالب .

ومما يؤكد صلابته في التشيع ان زياد بن ابيه حينما كتب الى معاوية بشأن حجر وأصحابه وانهم خلموا الطاعة وكفروا كفره صلحاء كما جاء في كتابه اليه وأشهد على ذلك جماعة من وجوه الكوفة مما يؤيد صلابته في تشييعه ان المختار رفض التوقيع على الكتاب بالرغم من تهديد زياد ووعيده .

لقد اشتهر المختار بالتشيع لاهل البيت منذ نعومة اظفاره ولكنّه انصرف عن السياسة والمعارضة السلبية لمعاوية لانه كان قويا واستعمل سياسة البطش والقتل والتنكيل بالشيعة وحتى بمن يتهم بالتشيع بعد ان وجد ان المعارضة لا تجدي شيئا ، وقد كان الامامان الحسن والحسين يوصيان الشيعة بالخلود الى السكينة بانتظار الوقت المناسب ، وخرج من الكوفة الى ضيعة له خارجها ، ولم يرجع الى الكوفة الا بعد ان دخلها مسلم بن عقيل موفدا من الحسين (ع) لشيعتها وحينما دخلها مسلم بن عقيل نزل عليه ضيفا فرحب بقدمه ومضى يدعو الناس الى البيعة للحسين ولزوم طاعته ، وكان مسلم كلما اجتمع عليه جماعة في دار المختار قرأ عليهم كتاب الحسين وجاء فيه انه قد اجابهم الى ما يريدون ان التزموا بالمهود التي قطعوها على انفسهم وتذرعوا بالصبر الجميل على مكافحة اعدائهم ، وفي اجتماع حاشد في دار المختار وقف عابس بن ابي شبيب الشكري احد زعماء الشيعة وقال لمسلم بن عقيل : أما بعد فاني لا اخبرك عن الناس ولا أعلم ما ينطوون عليه ولا أغرك فيهم ولا أتحدث اليك الا عن نفسي ، فوالله لاجيبنكم اذا دعوتوني ولأقاتلن معكم عدوكم ولأضربن بسيفي دونكم حتى القى الله لا أريد بذلك الا ما عند الله ^(١) وتتابع الخطباء يعلنون عن تأييدهم للحسين ويحثون مسلم بن عقيل على الكتابة اليه ليعجل القدوم عليهم ، ومضت الوفود تتوالى بالقدوم الى دار المختار مرجبة برسول الحسين يبايعونه على الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله وجهاد الظالمين ومساعدة المستضعفين والمحرومين وقسمة الفيء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم الى اهلها ونصرة اهل البيت على من نصب لهم العداوة والبغضاء ، وبلغ عدد من بايعه خلال ايام معدودات في

دار المختار خمسا وعشرين الفا او اربعين الفا كما في رواية الشعبي (١) .
 لقد اختار مسلم بن عقيل مبعوث الحسين الى الكوفة دار المختار
 الثقيفي ونزل عليه ضيفا وانطلق من داره يث الدعوة للحسين ويتقبل
 البيعة له ، مع العلم ان الكوفة كانت تخضع للحكم الاموي وتحت
 سيطرة الامويين ، وفي الكوفة من الزعماء الذين كاتبوا الحسين يطلبون
 منه التعجيل في القدوم اليهم ويعاهدونه على نصرته وقتال اعدائه ، وبين
 هؤلاء من هم أعز من المختار وأمنع جانبا منه لاتسابهم الى العنائس
 القوية عددا وعتادا ولم يكن المختار ممن كاتبه بهذا الخصوص فلماذا
 والحال هذه قد اختار دار المختار على دور اولئك الزعماء وفضله عليهم؟
 هذا السؤال ربما يفترض الباحث وهو يستعرض اوضاع الكوفة الحرجة
 خلال حديثه عن ابن عقيل وموقف الكوفة منه يومذاك .

ويعزو بعض الباحثين في هذا الموضوع اختيار مسلم لدار المختار
 الى ما كان بينهما من روابط المودة والصداقة القديمة منذ نعومة أظفارهما
 والى تشيع المختار وولائه الاكيد لاهل البيت (ع) واخلاصه لمبادئ
 التشيع بالاضافة الى مصاهرة المختار لوالي الكوفة النعمان بن بشير حيث
 كان زوجا لعمرة بنة النعمان مما يجعله في مأمن من الوالسي ما دام
 مقبلا في دار صهره (٢) .

والذي اراه ان الدافع الرئيسي لنزول مسلم بن عقيل ضيفا على
 المختار هو ولاؤه الاكيد للعلويين وعمله الثوب الصامت في سبيل انتقال
 السلطة اليهم بالاضافة الى ما اشتهر به من الكياسة وبعد النظر والمقدرة

١ - انظر الحلقة السادسة عشرة من اعلام العرب للدكتور علي
 الخرطوبلي .

٢ - حياة المختار للدكتور الخرطوبلي ص ٦٣ .

الفائقة على ادارة شؤون الثورة بحزم وروية ، اما الصداقة والمودة البعيدة الامس بينهما منذ نعومة أظفارهما اي منذ الطفولة كما يدعني الخربولسي فليس في المصادر التي نعرض لتاريخهما ما يشير الى ذلك ، هذا بالاضافة الى الفارق الكبير بينهما في السن ، فلقد كان المختار في الستين من عمره يومذاك ومسلم ابن عقيل في حدود الاربعين ، وكان ابن عقيل يعيش في الحجاز وابن عبيدة الثقفي في العراق .

ومهما كان الحال فلقد استمرت الوفود تتدفق على دار المختار مرحبة بقدوم رسول الحسين مما دعا انصار الامويين في الكوفة الى التخوف من حدوث بعض المفاجآت التي تسيء اليهم واتهموا النعمان بالضعف لعدم وقوفه في وجه المد الشيعي الذي كان يتدفق الى دار المختار ، وحينما راجعوه بتدارك الموقف قبل ان يفلت الزمام من يده رد عليهم بقوله : لان اكون ضعيفا في طاعة الله أحب الي من ان اكون قويا في معصيته وما كنت لأهتك سترًا ستره الله .

وبعد ان وجدوه مصرا على التفاوضي عما يجري داخل الكوفة لمصلحة العلويين كتبوا الى يزيد بن ميسون يشكون اليه تخاذل النعمان وتفاضيه عن مسلم وأنصاره ودعائه وحددوا له نقاط الضعف في سياسة النعمان وتصرفاته ، فقرر ابن معاوية عندما أحيط علما بواقع الحال استبدال النعمان بن بشير بغيره واقصائه عن الكوفة ، ولم يكن ابن مرجانة داخلا في حسابه وكان يكرهه على حد تعبير بعض المؤرخين ، واستشار انصاره فأشاروا عليه بعييد الله وقالوا له : لو كان ابوك حيا لا يعدوه ، وبعد حوار طويل بينه وبين مستشاريه نزل عند رغبتهم وتفاوضي عما كان يجده عليه في نفسه وولاه الكوفة مع البصرة وأمره بأن يضرب بيد من حديد على المناوئين لسياستهم وأنصار العلويين ، وخرج ابن مرجانة من البصرة

يجد السير في طريقه الى الكوفة فدخلها متنكرا فظنه الناس وهو فسي
طريقه الى القصر الحسين بن علي (ع) فتعالت اصواتهم بالهتاف لـه
والترحيب بقدومه وأينما اتجه يبصره لا يجد سوى الاوجه المستبشرة
والاصوات تتعالى من هنا وهناك: مرحبا بك يا ابن رسول الله قدمت
خير مقدم على اهلك وأنصارك وشيعتك ، فهاله هذا المشهد واغتاظ منه
ولكنه استطاع ان يكبت غضبه وعندما اشرف على باب القصر ازاح اللثام
عن وجهه وقال : شأنت الوجوه فانفرج عنه الناس وتفرقوا عنه ، وبعد ان
حط رحاله في القصر اجتمع اليه أنصار الامويين وجمع من الناس فأخذ
يهدد ويتوعد وبث دعاته وأنصار الامويين في الكوفة يخوفون الناس
من شره وحينما بلغت اخباره الى ابن عقيل رحمه الله غادر بيت المختار
والتجأ الى دار هاني بن عروة المرادي وكان من ابرز أشرف الكوفة
وزعمائها وله ولعشيرته وحليفاتها منزلة في الكوفة ليست لاحد سواهم،
وكان مع ذلك من المعروفين بالتشيع والولاء لاميير المؤمنين (ع) وقد
شاركه في جميع مواقفه من معاوية وغيره كما يصفه المؤرخون وانه
المأسة بما جرى لمسلم وهاني بن عروة وبالتالي بمصرع الحسين (ع) في
كربلاء على يد اهل الكوفة من كاتبوه ومن لم يكاتبوه بقيادة ابن زياد
وأنصاره .

ويبدو من اكثر المصادر القديمة ان المختار لم يشترك مع المناصرين له
في كربلاء بالرغم من انه كان متحمسا للدعوة الى الحسين (ع) والظاهر
انه كان يرى ان مناصرته لا تجديه نفعا وان جميع العوامل والظروف قد
تجمعت لترسم تلك المأساة على صعيد كربلاء فآثر ان يتروى ليعمل للانتقام
من قاتليه .

ويدعي اليعقوبي في المجلد الثاني من تاريخه ان المختار قد جمع
جماعة من الشيعة واتجه بهم قاصدا نصرة الحسين (ع) فأخذته الشرطة

التي كلفها ابن زياد بملاحقة الخارجين لنصرة الحسين (ع) فاعتقلته الشرطة وحينما أدخلوه على ابن مرجانة تناول قضيبا وانهال به يضربه على وجهه ورأسه فأصاب عينه وشرها ثم القاه في السجن مع من اعتقلهم من الشيعة .

ويروي ابن ابي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج حديثا جرى بين المختار وميثم النمار وكان معتقلا في سجن ابن زياد يومذاك ، ومن بين المعتقلين عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث ، وكان المختار وابن الحارث يعتقدان ان ابن زياد سيقتلهما لا محالة فجعلا يستمدان للقاء الله ، ولكن ميثم النمار بما انتهى اليه من امير المؤمنين (ع) من الغيبات التي كان النبي (ص) يختص بها اخبرهما بما يجري لهما فقال لابن الحارث : انك ستخرج من سجن هذا الطاغية وتحكم البصرة ، وقال للمختار : انك ستخرج وتولى الثار من قتلة الحسين وأنصاره وتطأ بقدملك على وجنتيه ، بهذا اخبرني امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) كما اخبرهما بما يجري عليه من الحجاج بن يوسف فتبدد ما كان يساورهما من الخوف وارتاحا لخبره لاسيما بعد اسناد نبوءته الى امير المؤمنين . وبقي المختار في السجن لفترة من الزمن ، ولما علمت اخته زوجة عبد الله ابن عمر بخبره طلبت من زوجها عبد الله بن عمر ان يتدخل ويكلف يزيد باطلاق سراحه ، فكتب عبد الله بن عمر الى يزيد بن معاوية يطلب منه الافراج عنه فاستجاب يزيد لطلبه وكتب الى ابن مرجانة يأمره باطلاق سراحه فأطلقه من سجنه وأمره بأن يفادر العراق خلال ثلاثة ايام ، وان وجده بعدها ضرب عنقه .

المختار - عبد الله بن الزبير

لقد خرج المختار من سجن ابن زياد في الكوفة الى الحجاز وهمسوا يقول : والله لأقطعن انامل ابن زياد ولاقتلن بالحسين بن علي عدد من قتل بدم يحيى بن زكريا ، وكان ابن الزبير قد رفع رأسه وعادت اليه كل أمانيه وأحلامه بخروج الحسين الى العراق ومصرعه على ثرى الطف والحجاز هو البلد الاول الذي حمل لواء المعارضة للدولة الاموية بعد مقتل الحسين بن علي الذي أثار غضب الجماهير من اولاد المهاجرين والانصار والسجادة وعناته وأخواته يمدون روح الثورة بمواقفهم الملتهبة لأحاسيس الجماهير وغضبهم فكانت ثورة المدينة من ابرز ما أنتجت تلك المواقف بالرغم من انها لم تأخذ الطابع الثأري ، وتركزت معارضة الحجاز للحكم الاموي بشخص ابن الزبير الذي اصبح سيد الموقف يومذاك بعد مجزرة كربلاء التي اصبحت سلاحا ماضيا بيده يصول بها ويجول على الامويين كما كان معاوية يصول ويجول بقميص ابن عفان ، وخلا له ميدان السياسة ، ولم يكن المختار ممن يجهل نوايا ابن الزبير وأطماعه وحقده على البيت العلوي ، ولكنه لم يجد سبيلا لمحاربة الامويين والانتقام من قتل الحسين الا بالالتجاء الى اقوى المعارضين لدولتهم ، اما العراق فمجال

العمل فيه متعذر في تلك الفترة بعد تلك الصدمة العنيفة التي هزت كيانهم وقضت على أعز آمالهم وأعلى امانهم لاسيما وان ابن زياد في تلك الفترة كان يقبض بيد من حديد على العراق بأجمعه ، واتبع سياسة القتل والتعذيب والاعتقالات بدون رحمة مما أدى بأهل العراق الى ان يخلدوا الى الهدوء ولو لفترة يستردون فيها أنفاسهم اللاهبة ويجمعون فيها شتاتهم وقلوبهم الضائعة .

لقد كان المختار عميقا في تفكيره بعيدا في نظراته السى مجاري الاحداث وتناجها يعرف ابن الزبير اكثر من اي انسان اخر ولكن المخطط الذي وضعه في حسابه قد فرض عليه ان يلتجئ الى ابن الزبير سيد الموقف يومذاك ، لإضعاف الامويين وخلق جو من الاضطرابات والفوضى في مختلف المناطق وبخاصة العراق معقل التشيع ، وذلك لا يكون بدون التحرك ولو في الحجاز ونشر الدعاة في بقية الامصار وقبل مضي بعض الوقت الذي يتهاى فيه للعراق وللکوفة بالذات التي يمثل الشيعة غالبية سكانها ان تستعيد أنفاسها وتجمع شملها وقلوبها ليشب بمن فيها على الامويين والزيريين في صفة واحدة ليحقق ما عاهد الله عليه من الاخذ بثار الحسين وأهل بيته واعادة الحكم العلوي الى المسراق اذا تيسر له ذلك .

لقد لازم المختار الثقفي ابن الزبير في الحجاز وحشه على الخروج وعلان نفسه حاكما وأن يقود الحجاز في طريق الثورة وتعهد بمساندته، فامتنع ابن الزبير من اجابته وطلب منه التريث وظل يراقب ويتظاهرسر بالتقوى والزهد في الخلافة ويتباكى على الحسين ويلعن قاتليه ليستدر عطف الجماهير ويعمق الصراع بينها وبين السلطات الحاكمة في الحجاز . وظلت الامور تميز لصالحه وبخاصة بعد جريمة الامويين في المدينة وما تلاها من الهجوم على مكة واستخفافهم بالكعبة ، وحينما رأى ان

الجماهير المسلمة قد اصبحت معبأة لصالحه وافق على البيعة وطلب من المختار بالذات ان يبايعه وأظهر حرصه على بيعته لانه كان يعرف ميول المختار كما كان المختار يعرفه ، وفي الوقت ذاته كان يرجو ان يسخره لاقتناع صهره عبد الله بن عمر بالعدول عن بيعة يزيد والانضمام اليه . وبالفعل لقد طلب المختار من شقيقته صفية ان تقنع زوجها بابن الزبير ولكنها لم تنجح كما ذكرنا من قبل ووافق المختار على البيعة لابن الزبير بشروط رفضها ابن الزبير اولاً ، وأخيراً وافق عليها وكان من ابرزها ان لا يقضي ابن الزبير امراً دونه وأن يكون اول داخل عليه ويستمين به على افضل اعماله ، وأصبح وزيراً لابن الزبير في جميع أموره .

وحدث ابن الاثير في المجلد الرابع من الكامل : ان المختار لازم ابن الزبير وشهد معه معاركه مع الحصين بن نمير وأبلى معه احسن البلاء وقاتل أشد قتال كما وصفه ابن كثير في البداية والنهاية بذلك وأضاف : انه كان وفياً لابن الزبير ، ولكن ابن الزبير لم يف ببا وعده به فحقد عليه ولكنه لم يجهر بمشاعره نحوه وفي الوقت ذاته كان على صلة بأهل الكوفة ، ولما تبين له ان الشيعة في الكوفة على استعداد للاخذ بشأر الحسين (ع) لو تيسر لهم الزعيم الذي يجمعهم تحت لوائه توجه الى الكوفة وكان سليمان بن صرد ومن معه من التوابين يستعدون لقتال الامويين قتلة الحسين فلم يشترك معهم وانتهت حركتهم على النحو الذي ذكرناه وعادت فلولهم تبحث عن زعيم جديد فوجدت أمنيته في شخص المختار فانضموا اليه واستمر المختار في تحركه حتى استقطب اكثر الشيعة وكان يترحم على سليمان بن صرد في مجالسه ويقول : لقد قضى ما عليه وقد توفاه الله وجعل روحه مع ارواح الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

وقد جاهر المختار في الدعوة الى العلويين وأخذ البيعة لهم وجعل

يتصل بهم بين الحين والآخر ولكن اكثر المصادر تشير الى ان الامام علي ابن الحسين قد رفض عروض المختار ، ففقد جاء في مروج الذهب للمسعودي انه اتصل بعلي بن الحسن بصفته من سلالة الرسول وابن الحسين الذي يطالب بثأره وكتب اليه كتابا بخصوص البيعة له وأرسله اليه مع أموال كثيرة على حد تعبير المسعودي ، ولكن الإمام علي بن الحسين رفض عروض المختار وأمواله فاتجه الى محمد بن الحنفية ، فكان جوابه : اني احب ان ينصرنا الله ويهلك من سفك دماءنا ولست آمنس بحرب ولا باراقة الدماء ، كما جاء ذلك في أنساب الاشراف للبلاذري ايضا .

وعلى تقدير صحة الرواية فان امتناع الإمام السجاد عن تلبية طلب المختار ورفضه للاموال التي ارسلها اليه يمكن ان يكون لعدم اطمئنائه لمواقف العراق كما يمكن ان يكون لحراجه موقفه الواقع بين عدوين من أشرس خلق الله وعلى ما بينهما من عدااء وتزاحم على السلطة فكلهما يكيدان للملويين ، والامام يعيش في الحجاز منطلق الدعوة الزيرية كما وان جواب ابن الحنفية الذي تمنى فيه الانتقام ممن قتلهم وأراق دماءهم وفي الوقت ذاته تنصل من اراقة الدماء والحرب لا مصدر له الا الخوف من ابن الزبير ، ومن الجائز ان يكون المختار قد اشاع في اوساط الشيعة ان ابن الحنفية قد ارسله وزيرا او اميرا ليجمع الشيعة على مساعدته في القضاء على من اشترك في قتل الحسين وأصحابه .

وبعد ان استفحل امر المختار في الكوفة عزل ابن الزبير عنها عامله عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة وولاهما لعبد الله بن مطيع ، ولكن ابن مطيع لم يكن خيرا من سلفيه فسار في الكوفة مسيرة اغضبتهم فحققوا عليه وعلى ابن الزبير والتفوا حول المختار وما لبث ان اتسع نفوذه فأخرج منها ابن مطيع ، وجاء في المرويات انه دفع اليه مائة ألف درهم

فخرج من الكوفة واعتزل السياسة ، وانضم الى المختار ابراهيم بن الاشر
وخضع العراق وسائر الامصار عدا الحجاز والجزيرة وبلاد الشام للمختار
الثقيفي كما جاء ذلك في ص ٣٠٠ من الاخبار الطوال للدينوري .
ودخل المختار قصر الامارة لأول مرة وبسط يده يطلب البيعة من
الناس على كتاب الله والطلب بئار اهل البيت ومناصرة من يناصرهم ،
وفرق ما وجده من الاموال في بيت المال بالسوية من غير ان يفرق بين
عربي وعجمي مما جعل الموالي يلتفون حوله ويتفانون في طاعته ، هذا
بالاضافة لسياسة التي تطوي على التودد لبني هاشم والعلويين وقد اثارت
سياسة الاقتصادية غضب الاشراف عليه واعتبروا مساواتهم بالموالي اغتصاباً
لحقوقهم ، فانتهمز الاشراف ومن التف حولهم خلو الكوفة من الجند
والمقاتلين الذين سرحهم بقيادة ابراهيم بن الاشر الى الموصل لقتال جيش
الشام بقيادة ابن زياد فثاروا عليه وتكلم شيب بن ربعي مع المختار وعرض
عليه مطالبهم فوعده المختار بتفضيلهم على الموالي اذا عاهدوه على قتال
الامويين والزيريين ومناصرة العلويين فرفضوا اقتراح المختار واتهمزوا
فرصة وجود الجيش خارج الكوفة بقيادة ابن الاشر فزحفوا على المختار
وحاصروه في قصر الامارة واحتلوا المراكز الرئيسية في الكوفة وسيطروا
على اكثر احيائها ، فبعث المختار برسول الى ابن الاشر وكان لا يزال
قريباً من الكوفة ليخبره بكل ما حدث ويأمره بالرجوع بمن معه مسن
الجيش الى الكوفة بأقصى ما يمكن من السرعة ، وفي مساء اليوم الثاني
كان ابراهيم الاشر وجيشه يحجب شوارع الكوفة وعسكر بجسوار
مسجدها ودارت المعركة بين الفريقين وكانت تتيحها لصالح المختار خلال
ساعات معدودات وقتل منهم خمسمائة وأمر نحو من مائتين وفسر
الباقون لخارج الكوفة ، وكان السبب في هذه المعركة تعصب العرب على
الموالي التي استغلها الامويون وقتله الحسين (ع) .
وجاء في الاخبار الطوال للدينوري صفحة ٣١٦ ان الامويين وقتله

الحسين كانوا السبب في هذه الفتنة وان شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد ومحمد بن الاشعث وأخاه قيس بن الاشعث كانوا قد فروا من الكوفة عندما دخلها المختار ودعا الشيعة للانتقام من قتلة الحسين وعندما بلغهم خروج الناس على المختار في الكوفة رجعوا اليها وجعلوا يحرضون الناس وقادوا المعركة مع الامويين ضده وكان مصير معركتهم الفشل كما ذكرنا (١) .

١ - انظر الخوارج والشيعة للمستشرق فلهوزن والاخبار الطوال وغيرها .

المختار وقتله الحسين (ع)

لقد رأى المختار بعد ان تبين له ان الامويين وقتله الحسين (ع) كانوا وراء تلك المعركة التي انتهت بانتصاره على عرب الكوفة رأى ان يعجل بالقضاء على من اشترك في مجزرة كربلاء فأعلن الحرب عليهم وسار هو ومعه فرقة من الجيش في جهة وابراهيم بن الاشتر ومعه بقية الجيش في جهة اخرى ونادى مناديه في الكوفة: من اغلق بابه فهو آمن الا من اشترك في قتل الحسين، وأطلق العنان لهم لينتقموا من قتلته وقال لاصحابه : اطلبوا لي قتلة آل بيت الرسول فانه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أظهر الارض والمصر منهم ، وتعالى الصياح من كل جانب : يا لثارات الحسين ، وصاح أنصار الامويين : يا لثارات عثمان ، وكان هذا النداء سببا في تفرق بعض أنصارهم وفي مقدمة من انسحب من المعركة رفاعة بن شداد وقال : مالنا ولعثمان والله لا أقاتل مع قوم يطالبون بدم عثمان ، واستطاع المختار ان يأسر في اليوم الاول من المعركة خمسمائة رجل ولما عرضوا على المختار وجد ان من اشترك منهم في معركة الطف مائتين وثمانية وأربعين رجلا فقتلهم عن آخرهم وأطلق سراح من بقي منهم ، وذهب رجال المختار يمينا وشمالا يبحثون عن بقية القتلة ، وكان كل واحد

منهم قد هيا لنفسه مخبأ واختفى فيه ، ولكن الموالي كانوا يراقبون تحركاتهم وتنقلاتهم فاستخرجوهم من مخابئهم وقتلوهم وحتى ان بعض النسوة كن يخبرن عن أزواجهن ، ومن هؤلاء زوجة خولسي بن يزيد الاصبحي الذي اجتز رأس الحسين وفصله عن جسده الشريف ، وحينما ادخلوا الرؤوس الى الكوفة ادخله عليها فنفرت منه وقالت : والله لا يجتمع رأسي ورأسك على وسادة واحدة ، وقد اختبأ في داره في محل بعيد عن الانظار ، ولما هاجم أنصار المختار داره ولم يجدوه فيها سألوا عنه زوجته فقالت : لا ادري اين هو ، وأشارت لهم يدها الى مكانه فاستخرجوه من المكان الذي ارشدتهم اليه وأقبلوا به الى المختار فرده في بيته فقتله الى جانب اهله وهم ينظرون اليه ثم دعا بنار وأحرقه ولم يبرح المكان حتى صار رمادا ، ثم قبض على عمر بن سعد وقتله واحتز رأسه ووضعه بين يديه وأحضر ابنه حفصا ووضع الرأس بين يديه ، وقال له : أتعرف هذا الرأس ؟ فقال : نعم ولا خير في العيش بعده ، فقال له : ومن انباك انك تعيش من بعده ، وأمر بقتله ووضع الرأسين بين يديه وبكى ، ثم قال : هذا برأس الحسين وهذا برأس علي الأكبر ، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قریش ما وفوا انملة من أنامله (١) .

وجاء في الاخبار الطوال للدينوري ان المختار أمر ابا عمرة بأن يجمع له ألف عامل من العمال ويتبع دور من خرج لقتال الحسين (ع) ويهدمها ، وكان ابو عمرة عارفا بهم فجعل يتبعهم في أحياء الكوفة ويهدم ويقتل من وجده منهم ، ومضى المختار يطاردهم حتى لم يبق منهم احد الا فر او قتل ، والتجأ الفارون الى ابن الزبير والى الامويين ، ثم استأجر المختار نوادب من نساء الكوفة يندبن الحسين (ع) ومن قتل معه على باب عمر

ابن سعد ليحرك عواطف الشيعة ضد الامويين وأنصارهم ويعبئهم حوله لنيل اهدافه ، وبعث المختار في طلب حكيم النسبي وكسان قد سلب العباس بن علي بعد مصرعه فقبض عليه انصار المختار وقتلوه قبل رجوعهم اليه مخافة ان يتشفع به احد ويسلم من القتل وطلب زيد بن ورقاء قاتل عبد الله بن مسلم فقتلوه وأحرقوه ، كما قتلوا شمر بن ذي الجوشن وقد قبضوا عليه بعد ان انهزم من الكوفة قاصدا مصعب بن الزبير وحاول ان يقاومهم ولكنهم تغلبوا عليه وأردوه صريعا ثم أحرقوه وقبضوا على ابن انس وكان قد انتزع برنس الحسين عنه فقال لهم المختار : اقطعوا يديه ورجليه ، وتركوه يضطرب حتى مات .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان المختار كان يعاقب كل انسان حسب جريمته وبقي عليه رأس الافعى عبيد الله بن زياد ، وكان قد اتجه لتحرير العراق من الزبيريين والشيعة عن طريق الموصل بقيادة جيش كبير من جند الشام قد أعده عبد الملك بن مروان لهذه الغاية ، وحينما بلغت اخباره المختار جهز جيشا مؤلفا من سبعة آلاف مقاتل لمقابلته قبل ان يجتاز حدود العراق ، واضطر الى ارجاعه لاختياد الفتنة التي افتعلها أشراف الكوفة بسبب مواقف المختار من الموالي وانصافه لهم كما ذكرنا، وبعد ان قضى على الفتنة كر راجعا لملاقاة ابن زياد وكان قد احتل الموصل وخرج المختار مع الجيش الى المدائن وبقي فيها يتلقى أخبار المعركة وتائجها ، وعندما التقى الجيشان على ضفاف نهر الخازر في ضواحي مدينة الموصل ، تقدم عمر بن الحباب السلمي احد القادة الكبار في جيش ابن زياد من ابراهيم بن الاشر وعرض الانضمام اليه بمن معه ، وكان قيسيا حاقدا على الامويين لانهم يومذاك كانوا يقربون ويجارون الكلبيين اليمنيين ويتجاهلون أخصامهم القيسيين ، وأخبر ابن الاشر بأنه على مسيرة ابن زياد واتفق وياه على ان ينهزم بن معه من المعركة

عندما يلتقي الجيشان • ونفذ ابن الحباب خطته عندما احتدمت المعركة بين الطرفين وذلك في مطلع سنة ٦٧ هجرية وجعل الاشر يحرض جيشه على القتال ويذكرهم بما فعل ابن زياد بالحسين وأصحابه وأهل بيته من القتل والسبي والاسر وما الى ذلك من الجرائم •

وزحف الطرفان بضراوة بالغة واستمر القتال حتى امتلات ساحة المعركة بالقتلى من الطرفين ، وكان اكثرهم من جند الشام ، واستطاع ابن الاشر ان يهزم بجيشه جموع اهل الشام بالرغم من انهم كانوا يلبغون عشرة أضعاف جنود المختار على حد تعبير المؤرخين ، وذلك بفضل مهارة القائد وحماس جنده الشيعي في غالبيته بعد ان كان خصمهم اللدود الذي تولى قتال الحسين وكانت المجزرة بتوجيهاته ، في ساحة المعركة وسقط في ميدان القتال اكثر قادتهم ومنهم ابن مرجانة وفر الباقون بعدما شاع نبأ مصرعه ومضى جيش العراق في اثرهم أينما حلوا واتجهوا وبلغ الحال بهم انهم كانوا يلقون انفسهم في نهر الخازر على امل النجاة من العراقيين فيموتون غرقا ، وانهت المعركة بتلك الهزيمة المنكرة التي لم يحدث التاريخ بأسوأ منها ، وطلب الاشر جثة ابن زياد واجتز رأسه وأحرقها ووزع القادة من أنصاره على المدن المتاخمة للموصل لادارة شؤونها وملاحقة فلول الامويين ودخل المدينة فاستقبله اهلها استقبال الفاتحين وأرسل للمختار يشره باتتصار جيشه ومصرع ابن مرجانة وأرسل الرأس معه وبقيّة رؤوس القادة •

وجاء في حياة الامام زين العابدين للساعدي عن المنهال بن عمر انه قال : حججت في السنة التي ظهر فيها المختار ودخلت على الامام زين العابدين ، فقال لي : يا منهال ما فعل حرملة بن كاهل ؟ فقلت: تركته حيا يرزق ، فرفع الامام يديه وقال : اللهم أذقه حر الحديد اللهم أذقه حر النار ، ومضى المنهال يقول : فلما رجعت الى الكوفة ذهبت لزيارة المختار

وكان لي صديقا فوجدته قد ركب دابته فركبت معه حتى اتى الكناسة فوقف ينتظر شيئا وكان قد وجه الشرطة في طلب حرملة بن كاهل فلما وقف بين يديه قال : الحمد لله الذي امكنني منك ، ثم دعا بالجزار وأمره بأن يقطع يديه ورجليه وبخزمة قصب فقطع يديه ورجليه وأحرقه بمسد ذلك ، فقلت بعدما رأيت ذلك : يا سبحان الله ، فالتفت الي المختار وقال : مم سبحت يا منهل ؟ فقصصت عليه ما سمعته من الامام زين العابدين (ع) ودعائه على حرملة فقال لي : بالله عليك لقد سمعت ذلك ، فقلت : اي والله ، فنزل وصلى ركعتين وصام نهاره شكرا لله على استجابة دعاء الامام علي بن الحسين على يديه .

وجاء في تاريخ اليعقوبي وغيره ان المختار الثقفي أرسل رأس ابن زياد ورأس ابن سعد الى علي بن الحسين في المدينة وقال للرسول : اذا دخلت المدينة وبلغت دار علي بن الحسين ورأيت ابوابه قد فتحت ودخلها الناس فادخل عليه بالرأسين فانه في ذلك الوقت يوضع له الطعام ليأكل هو ومن يدخل عليه .

فأقبل الرسول نحو المدينة يجد السير فلما انتهى اليها مضى الى بيت الامام (ع) ولما فتحت الابواب ودخل الناس لتناول الطعام نادى بأعلى صوته : يا اهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي انا رسول المختار بن ابي عبيدة ومعي رأس ابن مرجانة وعمر بن سعد ، فضج من في الدار وتعالى الصراخ منه وانتشر الخبر بسرعة في دور بني هاشم ولم تبق امرأة في دورهم الا صرخت ، ثم دخل ووضع الرأسين بين يدي الامام (ع) فلما رآهما قال : أبعدهما الله الى النار ، وأضاف اليعقوبي الى ذلك ان علي بن الحسين لم ير يوما قط ضاحكا منذ قتل ابوه الا في ذلك اليوم .

وكان له ابل تحمل الفاكمة من بلاد الشام الى الحجاز فأمر بتلك

الفاكمة ووزعها على اهل المدينة ثم خر لله ساجدا يدعو للمختار ولكل من
ناصرهم على قتال اعدائهم .

وعندما علم ابن عباس بذلك قال : جزاه الله عنا وعن رسول الله خير
جزاء المحسنين لقد اخذ بئارنا وأدرك وترنا ، كما خر محمد بن الحنفية
ساجدا شكرا لله وقال : جزاه الله خير الجزاء لقد ادرك لنا ثأرنا ووجب
حقه على كل من اولده عبد المطلب بن هاشم ، ومضى يقول : اللهم
احفظ ابراهيم بن الاشر وانصره على الاعداء ووفقه لما يحب وترضى
واغفر له في الآخرة والاولى .

وجاء عن فاطمة بنت علي (ع) كما في كتاب محمد بن الحنفية
للهاشمي انها قالت : ما تخضبت امرأة من العلويات ولا اجالت في عينها
مرودا ولا ترجلت حتى بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد الى المدينة،
وأكد مضمون هذه الرواية الامام الصادق (ع) كما جاء في رواية المرزباني
عنه (١) .

وبلا شك فان المختار قد أدخل السرور على اهل البيت وترحم عليه
الامامان الباقر والصادق ونزهه الامام الصادق من كل ما نسب اليه ، وجاء
عن عبد الله بن شريك العامري انه قال : دخلنا على ابي جعفر الباقر (ع)
يوم النحر وهو متكئ وقد ارسل الى الحلاق فقمعت بين يديه اذ دخل
عليه شيخ من اهل الكوفة فتناول يده ليقبلها فمنعه وقال له : من انت ؟
قال : انا الحكم بن المختار وكان متباعدا من ابي جعفر (ع) فمد يده اليه
حتى كاد يقعده في حجره فقال له الحكم : أصلحك الله ان الناس قد
أكثروا في ابي وقالوا والقول كثير يقولون انه كذاب ولا تأمرني بشيء الا
قبلته ، فقال الامام : يا سبحان الله لقد اخبرني ابي ان مهر امي كان مما

بعث به المختار : أولم يبين دورنا وقتل قاتلينا وطلب دماءنا رحمه الله .
ومضى يحدث عن خصائصه وقال في ختام حديثه : رحم الله أباك
رحم الله أباك ما ترك لنا حقا عند أحد إلا طلبه ، أما ما جاء عن زين
العابدين (ع) في حقه فلا مصدر له أن صح سوى التحاشي من شر الأمويين
والزبيريين الذين كانوا يلاحقون الشيعة وأئمتهم ويسومونهم سوء
العذاب (١) .

مهقف المختار من الزيريين نهائيه

لقد ارتفعت اسم المختار كثيرا في الاوساط الاسلاميه وبخاصة بعد نجاحه في معركة الموصل والقضاء على ابن زياد وقادة جيشه واحتلال الموصل ومناطقها ، وأصبح مستهدفا للامويين والزيريين وكلاهما يحاذران من نفوذه المتزايد واتساع سلطته ، ولكن الزيريين كانوا يرونه أخطر على مطامعهم وأمانهم من الامويين في العراق لانه كان يعمل من اجل الدولة العلوية وعاصمتها الكوفة ، والتف حوله الشيعة والموالي جنبا الى جنب ، وهم يشكلون العدد الاكبر من سكانه ، وكان ابن الزير ينظر الى معارك المختار مع الامويين في الموصل بعين مليئة بالسرور ، لان الحرب الضروس التي وقعت بينهما ستؤدي في النهاية الى إضعاف الفريقين ، وأيهما كان المهزوم او المقتول فهو من أخصامه الألداء .

وحيثما علم بمصرع ابن زياد وهزيمة الامويين قرت عينه لان ابن زياد كان من اعظم قادتهم وأشرسهم ، وأصبح الصراع بينه وبين المختار على العراق في تلك الفترة من الزمن لان عودة الامويين الى العراق بعد تلك النكسة التي منيت بها جيوشهم في الموصل ليست بالامر اليسير الذي يمكن تجاهله .

وبالرغم من الانتصارات الواسعة التي حققها المختار في العراق على من تمرد عليه من زعماء العرب كرها بالموالي الذين قربهم وسأواهم بغيرهم ، وعلى الامويين في معاركهم معهم في الموصل فقد كان يحاذر من الزبيريين ويراقب تحركاتهم ورأى نفسه في أمس الحاجة الى مهادنتهم ولو لفترة من الزمن يستعيد فيها قوته وينال فيها جنده قسما من الهدوء والراحة حتى لا يمل من القتال ويدب الوهن والتخاذل في صفوفه ويصنعوا معه كما صنعوا مع علي والحسن وابن عقيل بالامس لاسيما وان فريقا من الزعماء الذين يمثلون المعارضة لسياسته لا يزالون في الكوفة يترقبون الفرصة للوثوب عليه ، والتجأ بعضهم الى ابن الزبير وانضموا الى أنصاره يعدون العدة للثورة ورأى ان يبعث برسالة الى ابن الزبير جاء فيها : فان ترد مراجعتي ومناصحتي لك فعلت ، وكان المقصود منها كما جاء في الكامل لابن الاثير ان يهادنه لاتمام ما كان يعمل لتحقيقه وانجازه وتحسبا من ان يرسل جيشا الى الكوفة ويضطره الى حرب طاحنة ليست من مصلحته في ذلك الوقت (١) .

وكان رد ابن الزبير ان ارسل عمر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ليتأكد من صدق نوايا المختار عاملا له على الكوفة وأعطاه اربعين الف درهم ، ولما دخل الكوفة استقر رأي المختار ان يصرفه عنها بالحسنى كما اخرج منها عبد الله بن مطيع من قبل فاستدعى زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين الف درهم وأمدّه بخمسمائة فارس وطلب منه ان يعرض على والي الجديد هذا المبلغ لقاء انصرافه من الكوفة ، وان رفضه أخرجه بقوة السلاح ، فتردد ابن عبد الرحمن اولا في قبول المبلغ وأخيرا آثر السلامة عندما أحس بأن زائدة بن قدامة مستعد لمقاومته ورجع الى

١ - انظر الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ١٠٣ وانساب الاشراف ج ٥ ص ٢٤٥ .

البصرة فأقام فيها الى جانب ابن مطيع .

وعاد المختار الى محاولة ثانية لخداع ابن الزبير كما جاء في الكامل لابن الاثير فأرسل اليه يخبره بأنه قد مهد سلطانه على العراق وطلب منه ان يقره على حكمه نزولا عند الامر الواقع واقترح عليه ان يهبه بمليون درهم ليستعين بهذا المبلغ على الزحف الى الشام لقتال الامويين ، ولكن ابن الزبير وكأنه قد ادرك ما يهدف اليه المختار من محاولاته هذه فرفض اقتراحه وظل المختار يترقب الفرص ليعيد على ابن الزبير طلب الهدنة ، وصادفته الفرصة بعد ان ارسل عبد الملك جيشا بقيادة عبد الملك بن الحرث لمهاجمة وادي القرى في الحجاز فاستغلها المختار وأعاد الكرة على ابن الزبير يعرض عليه المساعدة فاضطر ابن الزبير الى الترحيب بذلك بشرط ان يأخذ له البيعة في العراق فاستدعى قائده شرحبيل بن ورس الحمداني وأمدّه بثلاثة آلاف جندي وأمره بالزحف الى المدينة واتزاعها من ابن الزبير ، وبما ان ابن الزبير لم يكن مطمئنا للمختار ويخاف غدره اتخذ جميع الاحتياطات لاحباط محاولاته فأعد جيشا من الفتي مقاتل بقيادة العباس بن سعد للدفاع عن المدينة وأمره بأن يستدعي السبدو والأعراب ويتقدم بهم نحو المدينة وأن ينضم الى جند المختار اذا تيقن من اخلاصهم ويشتركوا جميعهم في حرب الامويين في وادي القرى ، والا قاتلهم ومنعهم من احتلال المدينة ، ولما وصل ابن ورس قائد المختار بن معه المدينة والتقى بابن سهل قائد ابن الزبير طلب منه الانضمام اليه لمساعدته على الامويين الغزاة فرفض ابن ورس طلبه واستمهله ليكتب الى المختار بهذا الخصوص فادرك العباس بن سهل اهداف المختار من ارسال جيشه وبقي يراقب تحركاتهم بدقة وحذر شديدين كما يدعي المؤرخون ، وخلال اقامة جيش المختار في المدينة نفذ ما كان معهم من المؤن فاضطروا الى طلب المساعدة من الزبيريين فأمدوهم بالمؤن والاغنام

وبما يحتاجون اليه وانصرف جماعة من الجند الى ذبح الاغنام وسلخها
تأريكين اسلحتهم وراهم ، فاتهز العباس بن سهل هذه الفرصة وفاجأهم
بالهجوم عليهم على حين غفلة فانتدب شرحبيل بن ورس اصحابه فلم
يجتمع اليه في تلك اللحظات اكثر من مائة منهم ودارت معركة بين
الفريقين وانفجرت عن مقتل سبعين ممن كانوا مع ابن ورس ومائتين من
بقية الجند ، وفر الباقيون الى هنا وهناك لا يدرون اين يتوجهون وهلك
معظمهم من الجوع على حد تعبير ابن الاثير في المجلد الرابع من الكامل .
واتجه ابن الزبير بعد هذه المحاولة من المختار الى اضطهاد العلويين
وبخاصة محمد بن الحنفية للتشغي من المختار ومثل أدوار الامويين معهم
بنفس الروح والاسلوب وحصرهم في شعب رضوى وضيق عليهم كما
فعلت قریش مع الهاشميين والمسلمين الاوائل في مطلع الرسالة ، واتجه
المختار لنجدتهم حينما علم بذلك بواسطة جيش ارسله من الكوفة بقيادة
عبد الله الجدلي فاستخرجوا العلويين وابن الحنفية من الشعب وحاولوا
الاقتصاص من الزبيريين وأنصارهم فرفض ابن الحنفية ذلك تخرجاً من
الفتن وإراقة الدماء .

وظلت الامور تتأزم بين المختار وابن الزبير وتسير من سيء الى اسوأ
وأصبح المختار ينظر ابن الزبير أشد خطراً عليهم من الامويين ، ورأى
عند ذلك ان يرسل الى البصرة واليا قويا من خلص انصاره ومعاونيه وبعد
توطيد الامور فيها يتجه الى الكوفة وجهاتها من المناطق التي تخضع لحكم
المختار ، ولم يجد لهذه المهمة غير اخيه مصعب بن الزبير فأرسله الى
البصرة سنة ٦٧ من هجرة الرسول (ص) وعندما دخلها خطب الناس
وأعلن بحضور حشد كبير من اهلها عن انتهاء عصر الضعف والتساهل
وهاجم المختار هجوما عنيفا صاعقا ولم يترك لقبا من القاب السوء الا
والصقها به ، والتفت الى اهل البصرة قائلاً : بلغني انكم تلقبون أمراءكم

وقبل ان تلقبوني فاني قد لقت نفسي بالجزار ، واستغل شدته وقسوته الهاربون من الكوفة فالتفوا حوله يستفيثون به ويطلبون منه ان يخرج بهم لقتال المختار وبعد ان وجد الاجواء مهيأة لذلك استدعى المهلب بن ابي صفرة وكان وجهه لقتال الخوارج فهادنهم وأقبل بمن معه الى البصرة فأرسله الى الكوفة في جيش قد أعده لذلك وأحسن عدته وضم اليه اولئك الذين نزحوا من الكوفة هربا من المختار ، ولما بلغت أخبارهم المختار جمع جنده وأنصاره وولى عليهم احمد بن شमित ولما التقى الجيشان على مشارف الكوفة وأصبحا وجها لوجه طلب منهم قائده الكف عن اراقة الدماء والتسليم للمختار على ان تكون الخلافة فيمن يتفقون عليه من آل الرسول (ص) .

وكان من الطيعي ان يرفض ابن الزبير هذا العرض وأمر قائده المهلب بالهجوم فهاجموهم وهم يقولون لاهل الكوفة : كفوا عن القتال ولا تقتلوا انفسكم من اجل هؤلاء العبيد يعنون بذلك الموالي ، وتقدم الزيريون في الهجوم حتى كادوا ان يلحقوا الهزيمة بأهل الكوفة ، واستعاد الموالي والشيعة نشاطهم ودب فيهم الحماس في تلك اللحظات وانهالوا عليهم بسيوفهم ورماحهم وسهامهم كالسيل الجارف وعاد الموقف لصالح المختار وجيشه وانهزم أنصار ابن الزبير ولم يثبت منهم سوى الفرسان ، وكانوا لا يدركون منهزما الا قتلوه ولم يقبضوا على اسير الا الحقوه به ، ولكن سرعان ما دارت الدائرة على جيش المختار واستطاع ابن الزبير ان يجمع فلول جيشه المشاة والفرسان ويهاجم بهم جماعة المختار واستولى الحماس على عرب الكوفة الذين التحقوا بابن الزبير وقاتلوا قتالا شديدا واستمر القتال الضاري حتى ساخت الارض بالدماء ، وامتلات ارض المعركة بجثث القتلى وكان اكثرهم من الموالي وأبدى المختار شجاعة فائقة بعد ان قتل قائده ابن شमित ، ولما أحس أنصاره بأن المعركة تسير بسرعة لمصلحة ابن

الزبير وان الهزيمة لاحقة بهم لا محالة اخذوا يتسللون الى ابن الزبير الواحد بعد الواحد يطلبون منه الامان لهم ولأسراهم ، ودخل ابن الزبير بجيشه حتى اصبح على ابواب الكوفة وأخذوا يضيقون على المختار ويمنعون عنه المدد والمؤن ، ولم يبق معه الا عدة آلاف من الموالي ومئات قليلة من العرب ، وكان اكثر من معه من العرب والزعماء قد تسللوا الى اسرهم واعتصموا في بيوتهم كما هي عادتهم مع العلويين وأصبحت حالة المختار تزداد سوءا لحظة بعد لحظة ، وبلغ الحال بالناس انهم كانوا اذا خرجوا من القصر يرمونهم من فوق السطوح بالماء والالوساخ ، وكانوا يقتاتون على ما يأتيهم من النساء في منتهى التكتم والسرية .

واستمرت الحرب في الشوارع كحرب العصابات لمدة اربعة اشهر كما يدعي بعض المؤرخين ، فكان يخرج بمن معه من القصر بين الحين والآخر فيصطدم بجماعة ابن الزبير ثم يرجع اليه ، وعندما تقدم ابن الزبير نحو القصر وأصبح في جواره نذب المختار اصحابه وقال لهم : ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفا فانزلوا بنا حتى نموت كراما ، فامتنعوا عن الخروج معه ، وأخيرا خرج ومعه سبعة عشر رجلا لا غير ومضى يضرب بسيفه حتى قتل وكان مصرعه في ١٤ رمضان من سنة ٦٧ .

وجاء في مروج الذهب للمسعودي انه خرج من القصر وركب بغلة شهباء ومضى يضرب بسيفه حتى قتل منهم جماعة ثم حمل عليه رجل من بني خيفة فصرعه وتكاثر عليه اصحاب مصعب وقطعوه بسيوفهم ، وأمر ابن الزبير بقطع كفه وسرها بسمار الى جانب المسجد على حد تعبير الراوي وبقيت الى ان جاء الحجاج بن يوسف واليا عليها لعبد الملك بن مروان فأمر بنزعها ، ودخل مصعب القصر فاستسلم كل من فيه مسن مقاتلين ونزلوا على حكمه ومع ذلك فقد قتلهم عن آخرهم ومضى يتتبع الشيعة وأنصار المختار حتى قتل في ضحوة يوم واحد سبعة آلاف من

الشيعة والموالي والتقى بعد ذلك بعبد الله بن عمر فقال له : انت القاتل
سبعة آلاف انسان في ضحوة يوم واحد ؟ فقال له : انهم سحرة كفره ،
فقال له ابن عمر : لو قتلت عدتهم من غنم ابيك لكان سرفا (١) .

وجاء في تاريخ اليعقوبي انهم كانوا قد حاصروا في القصر ولم يتمكن
ابن الزبير من احتلاله فأعطاهم اليهود والمواثيق وكتب لهم كتابا عاهد الله
فيه ان لا يمسهم بسوء فمكنوه من القصر فدخله ولما استسلموا قتلهم عن
آخرهم وكانوا سبعة آلاف رجل من الشيعة والموالي ومضى يتبع الشيعة
فقتل منهم عددا كبيرا ولم تشاهد الكوفة حتى في عهد زياد وابنه عبيد الله
فترة اسوأ من تلك الفترة التي عاشتها خلال الاشهر الاولى من احتلال
الزبيرين لها (٢) .

وبلغ به الحال انه بعد ان قتل المختار وقتك به حاول قتل نساءه
فقد استدعاهن اليه وطلب منهن البراءة منه وهددهن بالقتل ان لسن
يستجبن الى طلبه فاستجابت له احداهن وتبرأت منه لما رأت السيف فوق
رأسها وامتنعت اثنتان منهن وهما بنت سمره بن جندب وابنة النعمان بن
بشير الانصاري وقالتا : كيف تبرأ من رجل يقول ربي الله كان صائما
نهاره وقائما ليله قد بذل دمه لله ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول
الله (ص) وأصرتا على موقفهما فأودعهما في السجن وكتب الى اخيه بشأنهما
فكتب اليه : ان رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه فخلّ سبيلهما والا
فاقتلها ، ولما هدهما بالقتل ترجعت ابنة سمره خوفا من القتل وأصرت
ابنة النعمان بن بشير على موقفها وقالت : شهادة ارزقها في سبيل الله خير
من الدنيا وما فيها انها مودة ومن ورائها الجنة والله لا أفضل على

١ - انظر ص ١٥٧ من المجلد السابع تاريخ الطبري .

٢ - اليعقوبي ج ٣ ص ١٠ طبع النجف .

ولايتي لعلي بن ابي طالب شيئا اللهم اشهد اني متبعة لنبيك وابن بنته
وأهل بيته وشيعته ، ثم ترحمت على زوجها ولم تتبرأ منه فقتلها مصعب
ابن الزبير وكانت كما يقول اليعقوبي اول امرأة ضربت عنقها صبورا وقال
عمر بن ابي ربيعة المخزومي في رثائها :

ان من أعجب الاعاجيب عندي قتل يضاء حرة عطبول
قتلوها بغير جرم اتته ان لله درهما من قتييل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الفانيات جر الذبول

لقد قتل ابن الزبير سبعة آلاف في غداة يوم واحد من شيعة علي (ع)
بالاضافة الى ألوف القتل الذين صرعهم في ضواحي الكوفة وشوارعها
لانهم سحرة كفرية كما جاء في جوابه لعبد الله بن عمر حينما لامه على
اسرافه في اراقه الدماء ، فبأي شيء يعتذر عن قتله لامرأة أشهدت الله
ورسله على نفسها والسيف مسلط على رأسها انها على دين محمد بن
عبد الله ومتبعة له ولاهل بيته ومع ذلك لم يحترم الاسلام الذي نهى عن
ترويع النساء وان شتمن أعراض القادة وسببن الامراء كما كان النبي (ص)
يؤكد على قادة جيوشه بذلك .

لقد كان المختار ومن معه من الشيعة سحرة كفرية بنظر ابن اخت عائشة
لانهم كانوا موالين لاهل البيت وقتلوا قتلة الحسين وبنيه واخوتهم
وأنصاره ، وكذلك زوجة المختار لانها كانت تحمل هذه الروح البريئة
الطيبة فهي ساحرة وكافرة تستحق القتل والتعذيب .

ان ابن هند وابن ميسون وجلادهم كزياد ابن ابيه وعبيد الله
وأمثالهما لم يصنعا مع الشيعة اكثر مما صنعه الجزارون الزيريون ولو كان
الحسين في الكوفة حينما دخلها ابن الزبير لكان ساحرا كافرا بنظره
مستحقا للقتل وأسوأ انواع التمثيل والتعذيب .

ولا فرق بين ابن الزبير والامويين الا ان ابن الزبير كان يصدر الاوامر لجلاديه بقتل الصلحاء من الرجال والنساء وابادة الشيعة من احدى زوايا الكعبة وهو متقمص لباس العباد والزاهدين ، وأولئك يصدرون الاوامر لجلاديهم بالقتل والظلم والجور من على موائد الخمر وندوات القمار ومن بين أحضان البغايا والراقصات •

لقد تنفس الشيعة خلال تلك الفترة القصيرة التي ظهر فيها المختار بن عبيدة الثقفي وذاقوا طعم الراحة وأحسوا بوجودهم وبخاصة بعد ان اصابوا ثأرهم من قتلة الحسين (ع) وبنيه وأنصاره وسطح نجم المختار في جميع الاوساط الاسلامية بعد ان قتل ابن زياد ومن اشترك معه في مجزرة الطف التي هزت العالم الاسلامي على اختلاف اتجاهات المسلمين ونزعاتهم وبرز كبطل من أبطال التاريخ الذين حاربوا الظلم والظالمين من اجل الحق والعدل وكرامة الانسان •

لقد تنفس الشيعة في عهد المختار بعد خمسة وعشرين عاما من حكم معاوية وولده وأسرته ذاقوا فيها كل انواع الاذى والشر والجور ، وخيم في اوساطهم جو من التفاؤل الحذر بعودة الحكم العلوي الى العراق بواسطة جهود المختار وتفانيه في هذا السبيل ، وسرعان ما تبددت آمالهم وخيم التشاؤم في اوساطهم محل التفاؤل بعد ان تكتلت قسوى الشر والبغي من هنا وهناك لاجباط محاولاته والقضاء عليه ، وطويت بمصرعه صفحة ناصعة من صفحات الانتفاضات الشيعية لتحل محلها صفحة سوداء عاتية بقيادة ابن الزبير شقيق العائذ بالبيت الحرام لا تختلف في ظلامها الدامس عن تلك الصفحات التي كانت تخيم عليهم في عهد زياد وابنه وغيرهما من الجلادين والفراعنة •

وبغياب المختار عدو الامويين والزبيريين عن ساحة الصراع استمر بضراوة بالغة بين الامويين بقيادة عبد الملك وريث العرش الاموي وبين الزبيريين بقيادة عبد الله بن الزبير وكانت الاحداث تتلاحق بينهما بأقصى

حدود السرعة واتجه الحزب الاموي بكل قوته لانتزاع العراق مسن ابن الزبير واستطاع عبد الملك بدهائه وكياسته ان يشتري زعماء العراق بالوعود والاموال كما كان يصنع أسلافه من قبله ، وعندما التقى عبد الملك بمن معه من جنود الشام بمصعب بن الزبير ومن معه من اهل العراق في دير الجائلق القريبة من الانبار واستمرت الحرب بينهما تفرق عن مصعب اكثر اصحابه وكانت ربيعة في طليعة المنشقين عليه وهجموا عليه وهو جالس على سريره وقتلوه واجتز رأسه عبيد الله بن زياد بن طبيان وقدمه لعبد الملك ومضى بجيشه حتى دخل الكوفة وجلس في قصر الامارة مزهوا ورأس مصعب بين يديه وذلك في اواخر سنة ٧٢ هجرية كما نص على ذلك اليعقوبي في تاريخه ودخل عليه عبد الملك بن عير اللخمي وقد اخذته نشوة النصر والظفر ، فأراد كما يبدو ان يضع حدا لنشوته وغروره ، فقال له : لقد دخلت هذا القصر ورأيت رأس الحسين بن علي بن ابي طالب ، ثم دخلته فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار ودخلته مرة ثالثة فوجدت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير وها انا ارى رأس مصعب بين يديك ، فارتاع عبد الملك من حديثه وبدا عليه الانفعال ثم خرج مسرعا منه وأمر بهدمه ^(١) وبحلول سنة ٧٣ أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي في عشرين الف مقاتل الى ابن الزبير في الحجاز واشتدت المعارك بينهما على مشارف مكة ولم يزل يرميهم الحجاج بالمنجنق حتى تهدمت الكعبة ودب التخاذل بين أنصار ابن الزبير وراحوا يتفرقون عنه ولما ايقن ان الحرب ستكون لصالح جيش الشام وانه لم يعد يملك السيطرة على جيشه دخل على امه واستشارها فيما يصنع ، ويروي المؤرخون انها لم ترجح له الاستسلام ما دام يعتقد بأنه محق في مواقفه

وبددت جميع مخاوفه فرجع الى المعركة ومضى يقاتل بمن بقي معه حتى قتل^(١) وانهى بمصرعه دور الزبيريين الذي اعترض مسيرة الدولة الاموية التي أسسها معاوية بن ابي سفيان لتبقى لاهفاد أمية ينزون على منبر الرسول نزو القردة كما أخبر عنهم الرسول (ص) •



١ - المصدر السابق ص ١٣ و ١٤ •

موقف الحجاج بن يوسف من الشيعة

لقد انتهت معارك الامويين مع ابن الزبير بمصرعه على يد الحجاج بن يوسف وولاه العراق وحاول عبد الملك ان يقف من العلويين موقفا يختلف عن موقف أسلافه الامويين فأوصاه بأن يحقن دماء بني عبد المطلب ويتجنبها ولا يسيء اليهم وقال له ، كما يروي المؤرخون : اني رأيت آل ابي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا الا قليلا وقد اشتد البلاء على الشيعة في عهده ووصف الامام الباقر حال الشيعة في عهده كما جاء في المجلد الثالث من شرح النهج بقوله : ثم جاء دور الحجاج فقتلهم كل قتلـة وأخذهم بكل ظنة وتهمة حتى ان الرجل كان يتمنى ان يقال له زنديق او كافر ولا يقال له شيعي ، وجاءه الشرطة برجلين من الشيعة فقال لاحدهما: تبرأ من علي بن ابي طالب ، فقال له : وماذا فعل حتى أتبرأ منه ؟ فرد عليه بقوله : قتلني الله ان لم اقتلك فاختر لنفسك قطع يديك او رجلك ، فقال له الرجل : اختر انت لنفسك اي قتلة تريد ان تقتل بها غدا فاقولني بمثلها فان الله سيجعل لي القصاص منك وسأفعل بك ما تفعله بي الان ، فأمر الحجاج بقطع يديه ورجليه وصلبه ، وأمر ان تضرب عنق الثاني بعد ان رفض البراءة من علي وآل علي (ع) .

وطلب من اصحابه ان يأتوه بأحد اصحاب علي (ع) فقالوا له : لا نعلم احدا اطول صحبة له من مولاه قنبر ، فأرسل في طلبه وقال له : انت قنبر؟ قال : نعم ، فقال له : تبرأ من دين علي ، فرد عليه بقوله : ان دللتني على دين افضل من دينه تبرأت منه ، ثم قال له : اختر أي قتلة أحب اليك ، فقال : اخبرني امير المؤمنين علي (ع) بأني سأقتل ذبعا على يد أشقى البرية ، فأمرهم ان يذبحوه كما تذبح الشاة .

وطلب كميل بن زياد وكان شيخا كبيرا ومن خواص امير المؤمنين ففر منه فجعل يعاقب عشيرته وحرهم من العطاء حتى ساءت حالتهم ، فلما رأى كميل ذلك وطن نفسه على الموت واستسلم له وقال : لقد اخبرني سيدي امير المؤمنين بأنك قاتلي فاقض ما انت قاض يا عدو الله وبعد القتل الحساب ، فأمر جلاديه بقتله فقتلوه .

وطلب سعيد بن جبير وكان تابعا معروفا بين الصلحاء بالعفة والزهد وعلم التفسير ويسمى جهذ العلماء ولا يصلي الا خلف الامام زين العابدين فأخذه خالد بن عبد الله القسري وأرسله الى الحجاج فلما رآه سأله عن اسمه قال : سعيد بن جبير ، فقال : بل شقي بن كسير ، ثم سأله عن ابي بكر وعمر أهما في الجنة او النار ؟ فرد عليه بقوله : لو دخلت الجنة علمت من فيها ، ولو دخلت النار ورأيت اهلها لعلمت من فيها .

فقال له : ما تقول في الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل ، فقال له : أيهم أحب اليك ؟ فقال : أرضاهم لله ، فقال : أيهم أرضى لله ؟ قال : علم ذلك عند ربي يعلم سرهم ونجواهم ، فأمر جلاديه بقتله .

وقال ابن الاثير في الكامل : لما سقط رأس سعيد بن جبير الى الارض هلل ثلاثا افصح بواحدة ولم يفصح بالثانية والثالثة ، ومضى يقول : لقد التبس عقل الحجاج بعد قتله لسعيد بن جبير ، فكان يقول : قيدوننا قيدونا ، واذا نام يرى سعيدا في منامه آخذا بمجامع ثوبه وهو يقول : يا عدو الله فيم قتلتي .

وجاء في مروج الذهب للمسعودي ان الحجاج بن يوسف قد زوج عبد الله بن هاني احد خواصه بنت اسماء بن خازجة وابنة سعيد بن قيس الهمداني وكان دميما شديدا لادمه مجدورا مائل الشدق أحول العينين، فقال له الحجاج يوما : لقد زوجتك ابنة سيد فزارة وابنة سيد اليمانية ولست اهلا لذلك ، فقال له : ان لنا مناقب ليست لاحد من العرب سوانا ، فرد عليه الحجاج بقوله : وما هي مناقبكم ؟ فقال : ما سب عثمان احد في نوادينا ، فقال : منقبة والله ، قال : وشهد منا مع معاوية في صفين سبعون رجلا وما شهد منا مع ابي تراب الا واحد ، فقال الحجاج : منقبة والله ، وما تزوج منا احد من امرأة تحب ابا تراب ، فقال منقبة والله ، وما منا امرأة الا ونذرت ان قتل الحسين ان تنحر عشر جزر ، قال الحجاج : منقبة والله ، ومضى يقول : وما منا رجل عرض عليه شتم ابي تراب الا شتمه وزاد عليه الحسن والحسين وأمهما فاطمة بنت رسول الله فقال الحجاج : منقبة والله .

وأضاف الى ذلك المسعودي : لقد تأمر الحجاج على المسلمين عشرين عاما وأحصي من قتله صبورا من المسلمين عدا من قتل في حروبه فبلغ مائة وعشرون الفا ، وكان في حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة منهن ستة عشر الفا كن مجردات عاريات ، وكان يحبس النساء والرجال في حبس واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من حرارة الشمس ولا من المطر والبرد في الشتاء ، وكان السجين في حبسه يسود ويصبح كأنه زنجي ، وحبس غلاما فجاءت امه بمد مدة تتفقدده ، فلما قدم اليها انكرته وقالت : انه ليس بولدي ، وحينما تأكدت منه شهقت وماتت كمدا لسوء حاله (١) .

وكان اكثر القتلى والمساجين من الشيعة ولا ذنب لهم الا اصرارهم على تشيعهم ومولاتهم لاهل بيت نبهم (ص) وقد اعترف هو نفسه بهذه الحقيقة حيث قال لهم حينما اراد ان يذهب الى الحجاز كما جاء في شرح النهج : يا اهل الكوفة اني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ولدي محمدا وأوصيته ان لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ويكفي دليلا على ذلك ان الرجل من اهل الكوفة كان يفضل ان يتهم بالكفر والزندقة ولا يوصف بالتشيع ، ومن اجل تلك الفظائع التي ارتكبتها مع الشيعة كان مكروما ومعظما عند عبد الملك والامويين وقد ولاه بالاضافة الى العراق وبلاد فارس وكرمان وخراسان وسجستان وأوصى به اولاده من بعده كما جاء في تاريخ ابن الاثير فقال لاولاده : اوصيكم بتقوى الله وإكسرام الحجاج فانه وطد لكم المناير ودوخ البلاد وأذل الاعداء .

بهذا المنطق كان الحاكمون يحكمون البلاد ويقتلون العباد فابن الزبير وهو في الكعبة يتظاهر بالعبادة ويصدر الاوامر لاخيه مصعب ليقتل عشرات الالوف من الشيعة لانهم لم يتبرأوا من علي بن ابي طالب ويأمره بقتل زوجة المختار لانها أصرت على ولائها لعلي وآل علي ولم تكفر زوجها ، وعبد الملك يفتتح وصيته لاولاده بتقوى الله ثم يأمرهم باكرام الحجاج الذي قتل مائة وعشرين الفا من صلحاء المسلمين ووضع في حبسه خمسين الفا من الرجال وثلاثين الفا من النساء ، فالتقوى عند الحكام والطفاة وفراغة العصور هي ان يقتل ويسلب ويسجن ويصلب كل من أنكر عليهم جورهم وطفيتانهم واذلالهم لعباد الله واستهتارهم بالقيم والمقدسات ، ومضى اولاد عبد الملك وأحفاده على الخط الذي رسمه لهم فأكروموا العجاج وأمثاله من الجلادين لانهم يوطدون لهم المناير ويقتلون ويصلبون كل من لم يبارك تصرفاتهم وجورهم ويتبرأ من علي وأبناء علي (ع) .

ومع كل ذلك فلقد استمرت الانتفاضات واستهان الكثيرون من

الناس بحياتهم في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة فثاروا على الظلم والطغيان وخلعوا طاعة الامويين وجلادهم ، كثورة عبد الله الجارود التي اشترك فيها الموالي ضد الحجاج وقادته الامويين بالاضافة الى عدد كبير من رجالات العراق بما في ذلك الفقهاء والقراء كما جاء في المجلد الثالث من العقد الفريد لابن عبد ربه وغيره من المجاميع .

وثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث التي انضم اليها الشيعة والقراء والعباد وحتى الخوارج والمسيحيون كما نص على ذلك الدينوري في الاخبار الطوال وقد سمي نفسه بناصر المؤمنين وبلغ عدد المقاتلين معه مائة الف مقاتل نصفهم من الموالي ، ويظهر من الاصبهاني في الاغاني ان الكوفة خرجت معه عن بكرة ابيها ولم يبق من وجوههم وقراءهم احد الا خرج معه لكثرة ما عانوه من جور الحجاج وظلمه وكان عامر الشعبي احد الفقهاء يومذاك وأعشى همدان احد الشعراء ممن خرج معه وكان في شعره يمدح ابن الاشعث ويحرض اهل الكوفة على القتال والمضي فسي الحرب بلا هوادة ، وقد ألحقوا بالحجاج وجيشه الهزيمة وكبدوه مئات القتلى ولولا جيش الشام الذي أمده به عبد الملك والمغريات التي بذلها لبعض زعماء الكوفة لقضى على نفوذ الامويين وعلى الحجاج وجيشه ، وكانت المعركة الحاسمة بين الطرفين في دير الجماجم بعد ان استغاث الحجاج بعبد الملك وأمدّه بجيش كبير من الشام لمصلحة الحجاج بعد ان تولى جند الشام ادارة المعركة ودب التخاذل في صفوف العراقيين ، فكانت الهزيمة نقمة على الموالي وبدأت فترة جديدة من التعذيب والاضطهاد اقلقت عبد الملك واضطرته الى ان يبدي استياءه من تصرفاته ويبحث اليه يلومه ويوبخه كما جاء في مروج الذهب للمسعودي والتنبيه والاشراف للطبري .

وثورة يزيد بن المهلب وكان قد تغلب على البصرة وانضم اليه بطبيعة الحال الموالي والمضطهدون وأعداد كبيرة من الشيعة الذين كان الارهاق

والظلم يدفعان بهم الى الانضمام لكل نائر على الامويين وجلادهم •
وثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة التي قام بها سنة ٧٧ من الهجرة وكان
قبلها واليا للحجاج على المدائن ، وفي الوقت ذاته كان كما يبدو من مواقفه
أشرف من ابيه المغيرة الذي كان يحابي الامويين على دينه وقومه ويخدمهم
بكل ما لديه من الوسائل حتى النفس الاخير من حياته لقاء مصالحه
الخاصة •

اما ولده مطرف فلم يستطع ان يصبر على الظلم الفادح الذي انزله
الحجاج بالمسلمين فترك المدائن وأعلن الثورة بمن معه ومن اجابه من
اصحابه وكتب الى سويد بن سرحان الثقفي وبكير بن هارون البجلي :
أما بعد فانا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والى جهاد من انحرف عن
الحق واستأثر بالقيء وترك حكم الكتاب فاذا ظهر الحق ومنع الباطل
وكانت كلمة الله هي العليا جعلنا هذا الامر شورى بين الامة ليختار
المسلمون لانفسهم فمن قبل هذا منا كان اخانا في ديننا وولينا فسي
محيانا ومماتنا ومن رد علينا ذلك جاهدناه واستنصرنا الله عليه •

وقد اراده الخوارج ان ينضم اليهم فامتنع عن ذلك ودعاهم الى كتاب
الله وسنة نبيه والثورة على الظلم والظالمين ، ومضى يدعو الى كتاب الله
والثورة على الظلم والظالمين وخلع الامويين^(١) ، الى غير ذلك من الانتفاضات
التي كانت تحدث بين الحين والآخر منذ مجزرة كربلاء وحتى لفظت
الدولة الاموية اخر أنفاسها على يد ابي مسلم وأعوانه دعاة العلويين
يومذاك وكانت تلك الانتفاضات على اختلاف اهداف قادتها تقوم على
سواعد الشيعة من العرب والموالي الذين يشكلون العدد الاكبر من
جنودها ومقاتليها •

١ - انظر الطبري ثورة مطرف بن المغيرة ومروج الذهب والبدابة
والنهاية وغيرهما من المجاميع •

وبلا شك فان استجابة الجماهير المسلمة من الشيعة وغيرهم لثورة ابن
الاشعث وابن الجارود وابن المهلب وابن المغيرة وغيرهم وان لم يكن لتلك
الاتفاضات نفس الطابع الشيعي الذي كان لثورة التوابين والمختار الا
ان الباعث لاستجابة الجماهير لها لم يكن سوى تلك الروح الثورية التي
ثبتتها ثورة الحسين الدامية في نفوس الجماهير لتقضي على روح
التواكل والخنوع والاستسلام للحاكمين ، ولتصنع من بني الانسان قوة
معجزة وعلى أهبة الانفجار في وجه الظلمة والجائرين وفراعنة المصور
في كل ارض وزمان ، فقد قوضت عروش الامويين وأقلقت العباسيين
وبقيت مستمرة تعبر عن نفسها في انفجارات عاصفة مرة هنا ومرة هناك
ولا تزال وستبقى غنية بالمعطاء والمثل وحديثا طيبا على لسان الاجيال الى
ان يرث الله الارض ومن عليها .

ثورة زيد بن علي بن الحسين

لقد كان زيد بن علي من الدعاة الى الحق والعدل ومحاربة الظلم والجور والتسلط فكانت دعوته امتدادا لدعوة جده الرسول (ص) ونورته قبا من ثورة جده الحسين (ع) .

لقد قال حينما خرج لجهاد الطغاة والظالمين : اني ادعوكم الى كتاب الله وإحياء السنن وامامة البدع فان تسمعوا يكن خيرا لي ولكم وان تأبوا فلست عليكم بوكيل .

وقال لجماعة من اصحابه : أما ترون الى هذه الثريا أترون ان احدا ينالها ؟ فقالوا له : لا يا ابن رسول الله ، فقال : وددت ان يدي ملصقة بها فاقع الى الارض او حيث اقع وآتقطع قطعة قطعة وأن يجمع الله بين امة محمد على الحق والهدى ^(١) .

من اجل هاتين الخصلتين كان يعمل حفيد سيد الشهداء زيد بن علي وعلى خطا جده المصطفى وآبائه الاطهار كان يسير ليجمع امة محمد على الحق والعدل وإمامة البدع التي حاربها الاسلام وقضى عليها لفترة من الزمن وأعادها الامويون بأسوأ مما كانت في جاهلية هند وأبي سفيان وأبي جهل وغيرهم من طغاة قريش وبني أمية . من اجل ذلك كان يتحرك

حفيد علي (ع) ويتمنى ان يصلح الله أمة محمد ويجمعها على الحق ولو بسقوطه من على الثريا وتقطيع جسمه قطعة قطعة .

ان هذه الروح الخيرة السخية بالبذل في سبيل امة محمد ليست الا قبا من روح جده ابي الحسن علي (ع) الذي كان يقول يوم كانت قوى الشر تتكالب على اغتصاب حقه : والله لأسألن ما سلمت أمسور المسلمين ولم يكن جور الا علي خاصة ، ولم يكن يعني بسلامة أمور المسلمين سوى اجتماعهم على الحق والعدل ومحاربة الظلم والعدوان ، وبالحق والعدل واستقامة الامور وانتظامها تنتظم المجتمعات ويعم الخير والامن والسلام جميع الناس بلا استثناء ويتحقق الهدف الاسمى مسن رسالة محمد الذي بعث رحمة للعالمين .

ان محاولة الاصلاح هذه التي حمل عبأها زيد بن علي بن الحسين سليل العترة الطاهرة هي التي اضطرته ان يستجيب لشيعه الكوفة ليقاتل بهم اولئك الذين احيوا البدع المستنكرة الكريهة وأماتوا السنن المشرقة النيرة ، ولكن هؤلاء الذين نزل عند رغباتهم خذلوه وأسلموه وأولئك قتلوه ليذهب مع قافلة الشهداء التي خرجت من بيت علي وفاطمة لتضعض كبرياء الحاكمين وفراغة العصور في كل ارض وزمان .

وقبل الحديث عن ثورته وما رافقها من الجرائم لا بد من الاشارة ولو بأقصى ما يمكن من الايجاز الى نشأته ومكاته العلمية والاجتماعية التي أهلته لان يكون مصدرا لفرقة من فرق المسلمين لا تزال تقدسه وتتسب اليه مدعية بأنه هو الذي اختط لها هذا المذهب العقائدي ووضع أصوله ومبادئه وترك مجموعة من علمه الفزير في أصول الاسلام وفروعه كما يدعون لا تزال من أوفر مصادرهم حظا بعد كتاب الله .

لقد ولد زيد بن علي حفيد علي والحسين والبضعة الزهراء سنه ثمانين من هجرة الرسول (ص) كما يستفاد من اتفاقهم على تاريخ وفاته

وعمره يوم استشهاده ، فلقد اجمعوا على انه قتل في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ للهجرة وان عمره يوم مصرعه اثنان وأربعون عاما ولازم ذلك ان يكون مولده سنة ٨٠ من الهجرة .

وجاء في مقدمة المجموعة التي جمعها الواسطي من آثاره ونسبها اليه ان ولادته كانت سنة خمسة وسبعين من الهجرة ولازم ذلك انه حين وفاته كان في السابعة والاربعين ، وأضاف انه حينما ولد جاء البشير الى الامام السجاد يخبره بولادته فأخذ المصحف يتفاهل فيه عن مصيره فكانت الآية: «ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» ، وفتحته مرة ثانية فكانت الآية الاولى من الصفحة «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» ، وفتحته مرة ثالثة فجاءت الآية «وفضل الله المجاهدين على القاعدين» فطواه وقال : عزائي عن هذا المولود الجديد انه من الشهداء في سبيل الله .

اما والدته فهي سندية اشتراها المختار بن ابي عبيدة من السبي الذي غنمه المسلمون من حروبهم لتلك البلاد وأهداها الى الامام علي بن الحسين (ع) فتزوجها وأولدت له زيدا رحمه الله ، في ظل هذه الدوحة الكريمة ترعرع زيد بن علي (ع) وفي البيت الذي انتشر منه العلم وتوارثه المسلمون خلفا عن سلف نشأ وورث العلم عن ابيه وجده وروى عن آبائه في مختلف المواضيع وظل يتابع دراسته منصرفا بكله الى العلم حتى سطع نجمه وأصبح بعد ابيه وأخيه الباقر (ع) من اكبر المراجع في شتى الميادين وأحاط بمختلف الاتجاهات والنزعات الفقهية والعقائدية ، وكان عصره بداية لانطلاقة جديدة في التفسير والمعتقدات والآراء الفرية التي كانت وليدة اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم التي غزاها الحاكمون وأخضعوها لسلطانهم ، ولازم اخاه الباقر مؤسس جامعة اهل البيت التي رحل اليها طلاب العلم والحديث من مختلف الجهات وتولت الدفاع عن

الاسلام ومعتقداته وتصفياتها مما أدخله عليها أنصار الحاكمين والشعوبيين الذين وجدوا الفرصة مهيأة لهم بمساعدة الحكام لبث سمومهم وأفكارهم التي تسيء الى الاسلام ولا تخدم سوى مصالح الحاكمين ، فاستفاد من علمه وأفكاره وآرائه في شتى المواضيع .

قال الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه زيد بن علي : لقد اجمع الذين عاصروه على انه كان عالما غزير العلم محيطا بشتى العلوم الاسلامية كالفقه والتفسير وغيرها وراويا لحديث اهل البيت وغيرهم ، و اضاف الى ذلك ان شيوخ الفقه في الكوفة تتلمذوا عليه بما فيهم ابو حنيفة الذي تتلمذ عليه سنتين .

وجاء في الروض النضر عن ابي حنيفة انه كان يقول : شاهدت زيد ابن علي فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا اسرع جوابا ولا أئين قولاً وكان منقطع النظر .

وقال عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط للحسين بن زيد وهو يعظه وينصحه بأن يسلك طريق سلفه من آبائه وعشيرته : وانه قد توالى لك آباء وان أدنى آبائك زيد بن علي الذي لم أر فينا ولا في غيرنا مثله ^(١) ، وجاء عن الامام الرضا (ع) المعاصر للمأمون ان زيد بن علي كان من علماء آل محمد (ص) وكان سفيان الثوري يحدث الكوفة وواعظها كما جاء في حياة الامام زيد لابي زهرة اذا ذكر زيدا بكى على ما فقدته العلم بفقدته وعلى ما فقدته التقى والفضل باصابته الى غير ذلك مما جاء عن الأئمة (ع) وغيرهم حول مكانته العلمية في جميع الاوساط الاسلامية . وكان على اتصال بواصل بن عطاء شيخ المعتزلة يناظره في بعض افكارهم وشطحاتهم ويجله ابن عطاء بصفته واسع الافق محيطا بأكثر

الافكار والآراء الجديدة ، ولم يكن معتزليا في آرائه وأفكاره كما يذهب لذلك بعض الباحثين والمؤلفين في الفرق والمذاهب الاسلامية ومجرد الالتقاء معهم في بعض الافكار والآراء لا يعني انه قد انخرط بين صفوفهم لان زيد بن علي قد اخذ عن ابيه وأخيه الباقر وعن أجداده الذين وضعوا أصول العقائد قبل ظهور المعتزلة بآرائهم ومعتقداتهم التي تختلف في اكثرها عما تلقاه الشيعة عن أئمتهم (ع) .

لقد كان زيد بن علي يتنقل في البلدان ويلتقي بعلمائها فالتقى بواصل بن عطاء في البصرة اكثر من مرة وكان لقاءؤه به لقاء مذاكرة لا لقاء تلمذة ودراسة كما يدعي بعض المؤلفين كما التقى بغيره من الفقهاء والمحدثين في البصرة والكوفة وأخذوا عنه من مختلف المواضيع .

العمل في ميدان السياسة

لقد كانت الدعوة الى العلويين في عصر زيد بن علي تنمو وتزداد في جو من التكتّم والسرية بعد فشل الانتفاضات التي ظهرت في عهد عبد الملك بن مروان وخليفته يزيد بن عبد الملك واتسعت في عهد هشام ابن عبد الملك ، وكانت الكوفة المقر الرئيسي من بين مدن العراق للدعوة ومنها انتقلت الى خراسان وذهب اليها الدعاة متسترين بالتجارة حتى لا ينكشف حالهم لانصار الامويين في تلك البلاد .

وقد جاء في الكامل لابن الاثير ان ميسرة داعي الهاشمين وجه في سنة ١٠٢ هجرية رسله الى خراسان للدعوة الى العلويين فترامت أخبارهم الى الوالي فقبض عليهم فأنكروا التهم الموجهة اليهم وادعوا بأنهم دخلوا البلاد للتجارة ولا شأن لهم بالسياسة ولم يطلق سراحهم الا بعد ان تمهد له جماعة من ربيعة بكل ما يصدر منهم ^(١) .

وما كانت عين هشام بن الحكم لتغفل عن كل ما يجري في العراق

وغيره من المناطق الاسلامية وقد اوصى عامله على العراق خالد القسري بأن يراقب وفود العلويين الى الكوفة بدقة بالغق وينظر اليهم نظرة الحريص المتيقظ والعدو المتربص وهو يعرف حب الناس لهم وتأثيرهم البالغ على الجماهير ولا يزال موقف وفود الحجاج في الطواف من زين العابدين يحز في نفسه ولا يكاد ينساه ، فقد رآه يطوف حول الكعبة والجماهير تنشق بين يديه صفين خاشعة لير في طوافه بدون ازعاج ويستلم الحجر الاسود وكان الكعبة خالية الا منه ، وهو واقف لا يستطيع الحركة من كثرة الزحام لم يستفد من امارته ولا من جنده وجلاوزته المحيطين به ، وظلت عينه يومذاك تراقب السجاد وتنظر الى خشوع تلك الحشود لهذا البيت بآلم وحقد بالغين ، ولم يستطع حتى بعد ان تسلم العرش الاموي ان ينسى تلك الصورة التي اربعته يومذاك وأخرجته عن اتزانه ومروته فراح يسأل عنه بلغة الحاقد الذي يمزق الحقد أحشاءه ، فرد عليه الفرزدق وعرفه به في قصيدته المشهورة •

لقد كان هشام بن الحكم مطمئنا لسير الامور في العراق بسبب الرقابة الشديدة التي فرضها ولاته في البصرة والكوفة مصدر التحركات الشيعية وعندما علم ان زيد بن علي المرموق في جميع الاوساط الاسلامية يتردد على الكوفة بين الحين والآخر ، والناس يلتفون من حوله يشكون اليه ظلم الامويين وما لاقوه من عسف وجور وتشريد من ولاتهم ويدعونه اليهم ، تبدد اطمئنانه وحل محله الخوف والقلق وأصبح كل همه ان يراقب زيدا وتصرفاته ويتابع تحركاته وتمنى لو انه يجد سبيلا لالقاء القبض عليه وزجه في احد سجون ومعتقلاته ، ولكنه لم يجد سبيلا لذلك ما دام لم يتظاهر بالخروج عن الطاعة فاتجه الى التشنيع على العلويين واثارة القالة فيهم بالمدينة ووجد سبيلا لذلك بالخلاف الحاصل بينه وبين بني عموته على ولاية الاوقاف والصدقات •

فقد جاء في الكامل لابن الاثير ان زيدا كان بينه وبين جعفر بن الحسن السبط خلاف على نظارة أوقاف علي (ع) في المدينة ؛ ولكنه لم يكن حادا بينهما وحينما انتقل الخلاف بعد وفاة جعفر الى خلاف بين اخيه عبد الله وبين زيد بن علي (ع) اتهم خالد بن عبد الملك بن الحارث الوالي على المدينة لهشام الفرصة ليزيد النزاع احتداما وترى المدينة الشتائم يتبادلها زيد وابن عمه وكان عليه ان يتولى الفصل بينهما في هذا الخلاف ، ولما اجتماعا واحتدم النزاع بينهما اندفع عبد الله بن الحسن وقال لزيد بن علي : ما انت وذاك يا ابن السندية ، فضحك زيد وقال : قد كانت ام اسماعيل امة ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها اذ لم يصبر غيرها يعني بذلك فاطمة بنت الحسين (ع) لانها تزوجت بعد وفاة زوجها الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع) ، ثم ندم على جوابه هذا لان فاطمة عمته وامتنع من الدخول عليها حياء منها فأرسلت اليه وقالت : يا ابن اخي اني لأعلم ان امك عندك كأم عبد الله عنده ، وقالت لابنها عبد الله : بسما قلت في أم زيد أما والله لنعم دخيلة القوم كانت .

اما خالد بن عبد الملك فلقد اراد ان يستمر النزاع بينهما ويستحكم ويزداد تعقيدا وطلب منهما ان يحضرا مجلسه في اليوم الثاني وقال : لست لعبد الملك ان لم افصل بينكما ، وباتت المدينة تغلي كالمرجل على حد تعبير الراوي والناس يتحدثون بهما وجلس خالد والناس من حوله فدعا بهما على امل ان تشتد الازمة بينهما وراح يمهّد لهذه الغاية ، فأدرك زيد بن علي غايته والتفت الى عبد الله بن الحسن وقال : اعتق زيد كل ما يملك ان خاصمك الى خالد بن عبد الملك ، وأقبل على خالد وقال له : لقد جمعت ذريسة رسول الله (ص) على أمر ما كان ليجمعهما عليه ابو بكر وعمر بن الخطاب .

لقد كان من المفروض على الوالي ان يقف عند هذا الحد بعد ان

تنازل زيد عن حقه لابن عمه ولكنه بقي مصرا على موقفه من التحرش بهما ليبقى الباب مفتوحا لقالة السوء في آل الرسول ، والتفت الى الناس وجعل يحرضهم على زيد قائلا : أما لهذا السفية احد ؟ فتكلم رجل من اولاد الانصار وقال لزيد : يا ابن ابي تراب ويا ابن الحسين السفية أما ترى للوالي عليك حقا ولا طاعة ؟ فرد عليه زيد بقوله : انا لا نجيب مثلك ، فقال له الانصاري : ولم لا تجيبني وأبي خير من ابيك وأمي خير من امك ؟ فتضاحك زيد عند ذلك وقال : يا معشر المهاجرين والانصار هذا الدين قد ذهب ، فانبرى اليه عبد الله بن واقد وكان من ذرية عمر بن الخطاب وقال له : كذبت يا ابن القحطاني فوالله لهو خير منك نفسا وأبا وأما ، ثم اخذ كفا من الحصى وضرب به الارض وقال : والله ما لنا على هذا من صبر (١) .

وجاء في كامل ابن الاثير في معرض حديثه عما كان يحاوله هشام بن الحكم من امتهان زيد وإذلاله : ان زيد بن علي وداود بن عبد الله بن العباس ومحمد بن عمر بن علي (ع) ذهبوا الى العراق وكان الوالي عليه خالد بن عبد الله القسري فأكرم وفادتهم وأجازهم بما لديه من الاموال كما جرت على ذلك العادة ، ثم عادوا الى المدينة ، ولما علم هشام بذلك عزله عن الكوفة وولاهها ليوسف بن عمر الثقفي ، فادعى ان خالدا ابتاع ارضا من زيد في المدينة بعشرة آلاف درهم ثم ردها عليه فكتب هشام ابن الحكم الى عامل المدينة وأمره بأن يسيرهم اليه فاستدعاهم وطلب منهم المسير الى الشام لمقابلة هشام وكان عليهم ان يطلبوا طلب الوالي حتى لا يتعرضوا للعقوبة وحينما دخلوا على هشام بن عبد الملك اعترفوا بالجائزة وأنكروا البيع الذي ادعاه ابن عمر الثقفي واستحلفهم فحلفوا له ثم

ارسلهم الى الكوفة لمقابلة خالد القسري بقصد التحرش بهم وإهاتهم
وايذائهم فصاروا على كره منهم فقابلوه ورجعوا الى المدينة .

وفي رواية ثانية ان يوسف بن عمر ادعى بأن خالد القسري قد أودعهم
أموالا من بيت المال فأحضرهم هشام بن الحكم الى الشام ثم سيرهم الى
العراق ، وفي العراق قال يوسف بن عمر لزيد : ان عليك ان تسرد
الاموال التي استودعك اياها خالد القسري ، فقال له : كيف يودعني
الاموال وهو يسب آبائي على منبره ، فأرسل الى خالد القسري وأحضره
لمقابلة زيد بن علي ، فقال ليوسف بن عمرو : أتريد ان تجمع اثما الى اثمك
كيف أستودعه وأنا أشتم آباءه وأشتمه على المنبر وأوالي اعداءهم .

وجاء في رواية المقرئ في خطه : ان زيد بن علي اقام في الكوفة
اياما بعد ان اتضحت براءته ولم يجدوا سبيلا عليه ، وكان فيها يتصل
بالشيعة وهم يناشدونه في خلواتهم ان يسير اليهم ويعدونه بالتفاني في
سبيله فقتل راجعا الى المدينة وفيما هو بالقادسية لحق به جماعة من اهل
الكوفة واستجاروا به من جور الامويين وظلمهم الذي لا يطاق وأعادوا
الكرة عليه يطلبون منه الرجوع الى الكوفة ويؤكدون له ان اربعين الف
مقاتل سيضربون بسيفهم بين يديه حتى النفس الاخير من حياتهم وأعطوه
العهود والمواثيق على ذلك ، فقال لهم : اني اخاف ان تفعلوا معي كما
فعلتم مع آبائي ، فحلفوا له الايمان المغلظة على ان يجاهدوا بين يديه
ويسالموا من سالم فاستسلمهم ومضى في طريقه الى المدينة .

ولما اشتد اذى خالد بن عبد الملك له ذهب الى الشام يشكوه لهشام
ابن عبد الملك ، وفي الشام بقي اياما يستأذن هشاما للدخول عليه فلم
يأذن له ، وكان يكتب له في اسفل الاوراق التي كان يرسلها اليه ، يكتب
له في اسفلها : ارجع الى خالد بن عبد الملك في المدينة ، وأخيرا وبعد
الالاحاح والتمني عليه وافق على دخوله عليه فأوصى هشام بن الحكم من في

مجلسه بأن لا يفسحوا له ليقضى واقفا بين يديه يقصده
بذلك اذلاله واحتقاره ، وعندما رآه في مجلسه بادره بقوله :
ما فعل اخوك البقرة ؟ يعني بذلك الامام محمد بن علي الباقر ، فرد عليه
زيد بقوله : انت تسميه البقرة ورسول الله لقد سماه الباقر لشدة ما
اختلفتما لتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا وسترده النار وسترده
الجنة ، فالتفت اليه هشام وقال : بلغني انك تذكر الخلافة ولست هناك
وأنت ابن امة ، فرد عليه زيد بحضور ذلك الحشد من اهل الشام بقوله :
ان الامهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات لقد كانت أم اسماعيل امة لأم
اسحاق فلم يمنع ذلك ان بعث الله منها نبيا وجعله ابا للعرب وأخرج من
صلبه خير الانبياء وأخرج من اسحاق القردة والخنازير ، فغضب هشام
وأمر بضربه ثمانين سوطا ، ولما خرج زيد من مجلسه قال : ما أحب امرؤ
الحياة الا ذل ، وتمثل بالآيات التالية :

شرده الخوف وأزرى به كذاك من يكره حر الجلال
منخرق الكفين يشكو الجوى تنكبه اطراف مر حداد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد
ان يحدث الله له دولة يترك آثار العسدي كالرماد

ويروي ابن الاثير ان هشام بن الحكم لما أمره بالخروج من مجلسه
وشتمه امة قال له زيد بن علي : سأخرج ولا اكون الا حيث تكره (١) .

١ - انظر تاريخ الشام لابن عساكر وكامل بن الاثير والعقد الفريد وتذكرة
الخواص ومروج الذهب للمسعودي .

الاعداد للمعركة التي كانت بها نهايته

لقد خرج زيد بن علي من مجلس هشام بن عبد الملك الى العراق بعد ان أخرج وأوذي في كرامته ومروءته وأيقن ان هشاما وجلاديه سيلاحقونه أينما ذهب ويتحدونه بكل انواع الاذى والاهانة حتى ولو جلس في بيته وأغلق عليه بابه .

وكان قد نصحه جماعة من الهاشمين والعلويين بعدم الركـسـون والاطمئنان لاهل الكوفة والى وعودهم ومغرياتهم وعهودهم وذكره بما فعلوه مع جديه علي والحسين وعنه الحسن السبط (ع) ومع غيرهم من الثائرين ، وقال له داود بن علي بن عبد الله بن العباس : يا ابن العم ان هؤلاء يعرفونك من نفسك أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك عليا والحسن من بعده بعد ان بايعوه ، ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه ومنعوه في فخذه ، أوليس قد ضربوا جدك الحسين ثم خذلوه وأسلموه ولم يكتفوا بذلك حتى قتلوه فلا تأت الكوفة اني اخاف عليك ان ذهبت اليهم ان لا يكون احد أشد عليك منهم .

كما نصحه غيره من العلويين بمثل ذلك ولكن تعرشات الامويين به وملاحقتهم له من مكان الى مكان واصرار اهل الكوفة عليه ، ومغرياتهم

التي بذلوا له وعهودهم التي ألزموا انفسهم بها كل هذه العوامل مجتمعة جعلته يستهين بالعيادة في سبيل الحق والمبدأ والعقيدة كما صنع جسده الحسين من قبله ويستجيب لطلبهم ويذهب الى الكوفة لاعداد العدة لقتال الطغاة والظالمين .

لقد دخلها متخفيا وكان ينتقل من منزل لآخر والشيعة يختلفون اليه بنفس الروح والعزيمة التي كانوا يقابلون بها مسلم بن عقيل رسول الحسين ، وكما بايعوا مسلما للحسين (ع) على كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين وانصاف المحرومين والدفاع عن المستضعفين ونصرة الحق وأهله بايعوه على ذلك ايضا وأخذ علي كل واحد منهم عهد الله وميثاقه ليفين بيعته له بكل بنودها حتى بايعه على ذلك اربعون الفا في الكوفة وانضم اليهم جماعة من واسط والمدائن وغيرها كما نص على ذلك ابن الاثير في تاريخه والاصفهاني في مقاتل الطالبين .

وفيما هو يعد العدة للمعركة ويهيئ أنصاره لها جاءه كتاب مسن عبد الله بن الحسن المثنى ، وكان اكبر منه سنا يقول فيه : أما بعد فإن اهل الكوفة نفخ في العلانية خور السريرة هزع في الرخاء جزع عند اللقاء تتقدمهم السنتهم ولا تشايهم قلوبهم ولقد تواترت الي كتبهم بدعوتهم فصمت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسا منهم واطراحا لهم ، وهم كما قال لهم امير المؤمنين علي بن ابي طالب : ان اهلتم خضتم وان حوربتم خرتم وان اجتمع الناس على امامة طعنتم وان اجبتم الى مشقة نكصتم (١) .

ومع توالي تلك النذر والتحذيرات عليه من القريب والبعيد فلم يتراجع عن موقفه ومضى يعد العدة للمعركة ويقول : اني امرؤ سأموت

ان لم أقتل مقتديا بجده الحسين (ع) الذي توالى عليه النذر والتحذيرات من غدر اهل الكوفة من كل جانب فرفضها وقال : لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما .

وبقي زيد بن علي يجمع الناس ويعبئهم للمعركة بضعة اشهر على حد تعبير بعض المؤرخين واتفق مع زعماء اصحابه على الخروج في مستهل صفر من سنة ١٢٢ ولكن الانباء بعد ان توالى على هشام بن الحكم بما انتهى اليه الحال في الكوفة كتب الى يوسف بن عمر الثقفي كتابا جاء فيه : انك لغافل عن زيد بن علي الفارز ذنبه في الكوفة يبايعه اهله غير عابىء بك ولا بجندك ، فاذا اتاك كتابي فالح في طلبه واعطه الامان وان ابى عليك فاقتله ان ظفرت به فانه لذلك مستحق .

فأتجه الوالي لطلبه والبحث عن مكانه ، وكان لا بد لزيد ان يظهر ويتخلى عن تكتمه مخافة ان يؤخذ على حين غرة فدعا أتباعه الذين بايعوه بالامس القريب على الموت ولكنهم ما ان رأوا الوالي يشتد في طلبهم وسمعوا التهديد والوعيد حتى دب الوهن والضعف والتخاذل بينهم وراحوا يتلصسون مخرجا من بيعته ومن عهدهم التي عاهدوا الله عليها ، فأثاروا عجاجة في تلك الساعات الحرجة والظروف القاسية صاغتها كما لا أستبعد عقول اناس قد اندسوا في صفوفهم لتشتيت شملهم وتفتيت تكتلهم وتضامنهم واغراء الجهة الموالية له بأنه يرى رأي المعتزلة فيمن سبق جده من الخلفاء .

ان اهل الكوفة يعرفون جيدا رأي زيد بن علي وآبائه في الصحابة وأبي بكر وعمر بالذات ويعرفون انه ليس من أخلاقهم الاساءة الى زعماء الصحابة بالقول او الفعل وقد اقام بينهم مدة من الزمن ولم يتحدثوا معه في هذه النواحي الجانبية ، ويعلمون ان الذين يقاتلهم زيد ويقاتلونهم والذين قاتلهم من قبله جده الحسين ليسوا كأبي بكر وعمر ، ولم يقف منهم

هذا الموقف من اجل الخلافة والسلطة بل من اجل الحق والعدالة والمستضعفين ومن اجل كرامة المسلمين التي داسوها بأقدامهم .

لقد اجتمعوا عليه وهو في أخرج الظروف وأدقها يسألونه عن ابي بكر وعمر بن الخطاب وما عساه ان يقول فيهما يومذاك والعالم الاسلامي يجلبها ويقدر سيرتهما بعد ان وجد من الامويين ما وجده ولاقى من ظلمهم وجورهم واستثأرهم ما لاقاه ، وكل كلمة تصدر منه بحقهما يستغلها الامويون للتشيع عليه وتبرير مواقفهم المعادية له ولآبائهم وأجدادهم .

لقد كان رحمه الله متزنا وحكيما في اجوبته لهم وهم يلحون عليه لاتزاع كلمة منه تسيء اليهما فقال لهم : اني ما سمعت احدا من آباائي يتبرأ منهما وأشد ما اقله فيمن ذكرتم : انا كنا أحق الناس بهذا الامر ولكن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا كفرا وقد نولوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة وان هؤلاء الذين نقاتلهم ليسوا كأولئك ، واني ادعوك الى العمل بالكتاب وإحياء السنة وامانة البدع فان تسمعوا بك خيرا لي ولكم وان تأبوا فلست عليكم بوكيل ، فرفضوه ونقضوا بيعته (١) .

هذا الاحراج لزيد بن علي في تلك الساعات الحرجة وسيوف الامويين مشهورة فوق رأسه يبدو كما ذكرنا انه كان مقصودا لتفتت الجبهة الموالية له اذا رفض تكفير الخليفتين او تفسيقهما وان استجاب لطلبهم استغل جوابه الامويون وأنصارهم لتبرير ملاحقته وقلته ، لان الرأي العام الاسلامي وان كان الى جانبه ولا يساند الامويين فلا يتحمل الطعن في

١ - انظر ابن الاثير وابن كثير ج ٥ ص ٣٣٠ ، ومن اجل ذلك كان الرفض من صفات الشيعة عند غلاة السنة ولا يزالون يصفونهم بالرفض لانهم رفضوا الانقياد لزيد .

الخليفتين والاساءة اليهما •

ومهما كان الحال فلقد كان هذا الموقف المشين من اصحابه والعدو متأهب للمعركة بجنود الشام والموالين للامويين من اهل العراق هو الذي اضطر زيدا الى مقابلة القوم قبل الموعد الذي كان قد عينه للثورة ودعا الذين بايموه على الموت الى الخروج وأخذ مناديه ينادي : يا منصور يا منصور وهو الشعار الذي كان قد اتفق عليه مع الشيعة فلم يستجب لدعوته من الاربعين الف مبايع سوى ٢١٨ رجلا وقيل اربعمائة وجعل أنصاره ينادون : يا اهل الكوفة اخرجوا من الدل الى العز والى الدين والدنيا فانكم لستم في دين ولا دنيا ، فلم يسمعوا لهم وبقي زيد بن علي بمن معه في ساحة المعركة لم يتضعع وهو يقول : لقد فعلوها حسينية أما والله لأقاتلن حتى الموت •

وتقدم حفيد علي (ع) بهذا العدد اليسير الذي لا يساوي عدد اصحاب جده في معركة بدر الى مقارعة تلك الحشود التي ارسلها هشام من الشام لقتاله فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت لهم زيد بن علي وأنصاره حتى هزموهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وأخيرا تجمعت فلولهم المنهزمة وجعلوا يرمونهم بالسهام والحجارة كما فعل أسلافهم مع جده الحسين في كربلاء ، وبينما زيد يطاردهم بمن معه اذ انفصل رجل من اصحاب يوسف بن عمر من بني كلب وتقدم من زيد حتى اصبح قريبا منه فشتم عليا والزهراء فاطمة بضعة المصطفى فغضب زيد وبكى حتى ابتلت لحيته الكريمة والتفت الى من كان معه وقال : أما فيكم احد يفضب لفاطمة بنت محمد ، فالتفت سعيد ابن خيثم الى مولى له كان معه سيف صغير يستره تحت ثيابه فأخذه منه ومضى يستر خلف النظارة ^(١) حتى اصبح خلف الكلبى ، وكان قد تحول

١ - النظارة فرقة من الجيش كانت تسمى بهذا الاسم •

عن فرسه وركب بغلة على حد تعبير الراوي فجرد السيف وضربه على عنقه فسقط رأسه بين يدي البغلة ، فلما رأى ذلك اصحاب زيد حملوا على القوم واستنقذوه من أيديهم وجاءوا به سالما فقبله زيد بن علي بين عينيه وقال : جزاك الله خيرا لقد ادركت ثأرنا ونلت شرف الدنيا والآخرة وذخرهما .

وسار زيد بمن معه وهو يقول : والله لو كنت أعهد عملا ارضى الله من قتال هؤلاء لفعلته وقد كنت نهيتكم ان تتبعوا مدبرا وتجهزوا على جريح وتفتحوا بابا ، ولكني بعد ان سمعتهم يسبون عليا فاقتلوهم من كل وجه وحيث وجدتموهم فوالله لا ينصروني رجل عليهم اليوم الا اخذت يده وأدخلته الجنة .

لقد وعدهم زيد بن علي (ع) بذلك بعد ان سمع الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الانصاري يروي عن النبي (ص) انه كان يقول : ان زيد بن علي وأصحابه يتخطون رقاب الناس يوم القيامة ويدخلون الجنة بغير حساب .

واستمر القتال يشتد بين الفريقين وأصحاب زيد على قلة عددهم وكثرة عدوهم يكرون على تلك الحشود فيفرون من بين أيديهم وزيد رحمه الله في مقدمة اصحابه يمثل بقول القائل :

أذل الحياة وعز الممات وكلا اراه طامما ويسلا

فان كان لا بد من واحد فسيري الى الموت سيرا جميلا

وفيما هو يقاتل ويشد عليهم وينهزمون بين يديه اصابه سهم في جبهته ونفذ فيها فتراجع هو وأصحابه وظن اصحاب يوسف بن عمر الثقفي انهم ارجأوا القتال الى الليل فأدخله اصحابه بيتا من بيوتهم واستدعوا له طيبا يقال له شقير كان يعالج الجرحى فقال له : ان نزع السهم من رأسك اخاف عليك الموت ، فرد عليه زيد بن علي قائلا : الموت أهون علي مما أفاقيه من الآلام ، فلما اترع السهم من جبهته فاضت روحه الكريمة

وانتهت المعركة بوفاة •

لقد استشهد زيد رحمه الله في المعركة ومات في ميدان القتال ومرمى السهام شجاعا أيما من أجل الحق والمستضعفين وكرامة الانسان وإحياء السنن وإماتة البدع واختار الموت على الحياة مع الظالمين ونال بذلك درجة لا ينالها الا الصديقون والشهداء المقربون ، وساهم مصرعه في نجاح الدعوة التي قضت على الامويين بعد عشرين عاما من مصرعه كما كان لجده الحسين الدور الاكبر في كل ما حدث بعد مجزرة كربلاء من ثورات وانتفاضات أقضت مضاجع الظالمين من امويين وعباسيين •

لقد كانت ثورة زيد بن علي ثورة الفقهاء والقراء والمحدثين وأهل التقوى والصلاح على حد تعبير الشيخ ابو زهرة في كتابه الامام زيد بن علي ، وأضاف الى ذلك ان بعض المؤرخين يقول : ان الذين قاتلوا مع زيد بن علي كانوا من القراء والفقهاء ، وكان ابو حنيفة يقول : لقد ضاهى خروجه خروج جده رسول الله (ص) يوم بدر ، ولما قيل له : لماذا تخلفت عنه ما دمت ترى ان ثورته كانت بهذا المستوى اجاب : لقد حبستني عنه ودائع الناس لقد عرضتها على ابن ابي ليلى فلم يقبل فخفت ان اموت وتضيع الودائع على اصحابها •

وفي رواية ثانية عنه انه قال : لو علمت ان الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لخرجت معه وقد أعتته بمالي وأرسلت اليه عشرة آلاف درهم (١) •

وجاء في مقاتل الطالبين انه ارسل مع احد الفقهاء الذين خرجوا مع زيد رسالة لزيد وقال له : قل لزيد لك عندي معونة وقوة على جهاد عدوك لتستمين بها انت وأصحابك في الكراع والسلاح (٢) •

١ - مناقب ابي حنيفة لابن البزاري ج ١ ص ٥٥ •

٢ - مقاتل الطالبين ص ١٤٦ •

كما جاء في مقاتل الطالبين حول مدفنه ان اصحابه كانوا في حيرة من ذلك وأخيرا اتفقوا على دفنه في جدول ماء يعرف بالعباسية فانطلقوا به اليها ودفنوه بها وأجروا عليه الماء وكان معهم عبد سندي فأخبر الحكم ابن الصلت بذلك وانهى الخبر الى يوسف بن عمر فبعث الحجاج بن القاسم في جماعة الى ذلك المكان فاستخرجوا منه زيدا ووضعوه على ظهر بعير وحملوه الى القصر فلما وصلوا اليه ألقوه عن ظهره فخر كأنه جبل على حد تعبير الراوي فصلبه يوسف بن عمر بالكناسة بعد ان فصل رأسه عن بدنه وأرسل الرأس الى الشام لهشام بن عبد الملك فصلبه هشام على مدخل قصره كما صلب معاوية بن اسحاق وزيد الهندي ونصر بن خزيمة العبسي وبقي مصلوبا الى ايام الوليد بن يزيد فلما ظهر يحيى بن زياد بالجوزجان كتب الوليد بن يزيد الى يوسف بن عمر كتابا يقول فيه: اذا أتاك كتابي فانظر عجل اهل العراق فاحرقه وانسفه في اليم نسفا ، فأمر يوسف بن عمر فأنزله عن الجذع وأحرقه ثم حمل رماده في سفينة وذراه في الفرات وصدقت فيه نبوءة جده رسول الله حيث روى الرواة عنه انه قال : يقتل رجل من اهل بيتي ويصلب لا ترى الجنة عين رأت عورته ، كما روى الرواة عن علي(ع) انه اخبر عنه ووصف مصرعه وما يجري عليه بعد القتل وما أعد له الله له ولانصاره يوم القيامة من الاجر العظيم والدرجات الرفيعة (١) .

انتفاضة يعيم بن زيد

يقول السيد عبد الرزاق في كتابه زيد بن علي ان زيدا لم يتخلف الا بأربعة اولاد ، هم يحيى وأمه ريطة بنت ابي هاشم ، وعيسى امه أم ولد نوية واسمها سكن والحسين ذو الدمة ومحمد وهو اصغرهم ، وريطة أم يحيى هي التي عنها ابو ثيالة الانباري بقوله وهي تلهف على ولدها بعد ان اختفى على أثر مصرع ابيه :

فلعل راحم أم موسى والذي نجاه من لجج خضم مزبد
سيسر ريطة بعد حزن فؤادها يحيى ويحيى في الكتاب مرتدي

لقد اتفق الرواة على ان يحيى حين مصرع ابيه كان شابا في مطلع شبابه ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره وهو اكبر اخوته الاربعة كما يبدو من ترجمة ابيه وقد اشترك مع ابيه في معاركه مع الامويين في الكوفة وحينما قتل ابوه ضاقت عليه الكوفة واشتد به الوجد والالام من موقف اهلها مع ابيه فعزم على الخروج ولم يبق معه من اهل الكوفة سوى عشرة ، فقال له سلمة بن ثابت : النجاة قبل الصبح .

ومضى سلمة يقول : فخرجنا من الكوفة قبل مطلع الفجر ، فلمسا تجاوزنا الكوفة سمعنا الأذان فأسرعنا في السير مخافة ان يدركنا الطلب وكنت كلما استقبلت قوما استطعتمهم فيطمعوني الارغفة فأطمعه وأصحابه اياها ، ومضى يحيى بمن معه من المدائن وهي اذ ذاك طريق الناس الى خراسان وبلغ ذلك يوسف بن عمر فسرّح في طلبه جيشا بقيادة حريث ابن ابي جهم الكلبي وخرج منها يحيى متجها الى الري قبل ان يدركه الطلب ، وانتقل من الري الى سرخس فنزل ضيفا على يزيد بن عمرو التيمي وأقام عنده نحو من ستة اشهر ، واجتمع اليه اناس من الخوارج يسألونه ان يخرج بهم لقتال بني أمية ووجد من تصميمهم على القتال ما يشجعه على موافقتهم لولا ان يزيد بن عمرو التيمي نهاه عن ذلك وقال له : كيف تقاتل بقوم تريد ان تستظهر بهم على بني أمية وهم ييراؤون من جدك علي وأهل بيته ، فرفض طلبهم وردهم ردا جميلا وخرج من سرخس الى بلخ ونزل فيها على الخريش بن عبد الرحمن الشيباني وبقي عنده الى ان هلك هشام بن عبد الملك وتولى السلطة من بعده الوليد بن يزيد وعندما علم يوسف بن عمر بتحركات يحيى كتب الى عامله على خراسان وطلب منه ان يرسل الى الخريش لاعتقال يحيى وقتله ، فأرسل نصر بن سيار عامل خراسان الى عقيل بن معقل الليثي وهو عامله على بلخ ان يأخذ الخريش ولا يفارقه حتى تزهق نفسه او يأتيه يحيى بن زيد ، فاستدعاه عقيل بن معقل وضربه ستمائة سوط وقال له : والله لأزهقن نفسك او تأتيني يحيى ، فرد عليه بقوله : والله لو كان تحت قدمي هاتين ما رفعتهما عنه ، فاصنع ما انت صانع ، فوثب قریش بن الخريش وقال لعقيل بن معقل حينما وجد منه التصميم على قتل ابيه : لا تقتل ابي وأنا آتيك يحيى ، فوجه معه جماعة فدلهم عليه وكان في بيت في جوف بيت فاعتقلوه واعتقلوا معه يزيد بن عمرو ومولى لعبد القيس كان قد رافقه من الكوفة وأرسلهم عقيل بن معقل لنصر بن سيار فوضعه في السجن مقيدا بسلسلة

من الحديد ، ولما اطلق سراحه نصر بن سيار اجتمع جماعة من مياسير الشيعة الى الحداد الذي فك القيد من رجله وسأله ان يبيعهم الحديد الذي كان مقيدا به وتنافسوا على شرائه حتى بلغت قيمته عشرون الف درهم ففصله قطعة قطعة ووزعه عليهم فاتخذوه خواتيم يتبركون بها .
واستدعى نصر بن سيار يحيى اليه بعد ان اطلق سراحه وأوصاه بتقوى الله وحذره من الفتنة ، فقال له يحيى : وهل في أمة محمد (ص) فتنة اعظم مما اتمم عليه من سفك الدماء وأخذ ما لستم له بأهل ؟ فلم يجبه ابن سيار بشيء وأمر له بألقي درهم ونعلين وطلب منه ان يلتحق بالوليد بن يزيد في الشام .

وخرج يحيى من خراسان قاصدا سرخس ومنها الى ايرشهر ومنها الى يهق ورجع منها يحيى الى ايرشهر ومعه سبعون رجلا من اصحابه وفيها حصلت معركة بينه وبين أنصار الامويين بقيادة عمرو بن زرارة كما جاء في مقاتل الطالبين اشترك فيها عشرة آلاف مقاتل وخرج اليهم في سبعين فارس فهزمهم بهذا العدد اليسير وقتل قائدهم ابن زرارة وغنم كل ما كان في معسكرهم ومضى في طريقه الى الجوزجان ، فأرسل نصر بن سيار سلم ابن احوز في ثمانية آلاف من جيش الشام لقتال يحيى وأصحابه وعليه الجوزجان يومذاك حماد بن عمر السعدي والتحق يحيى بن زيد ابو العجارم الحنفي والخشخاش الازدي ، واحتدمت المعارك بين الطرفين لمدة ثلاثة ايام بلياليها حتى قتل اصحاب يحيى بأجمعهم وأصيب يحيى بنشابة في جبهته أردته صريحا وجاءه سورة بن محمد احد القادة في جيش الامويين فاحتز رأسه وصلب يحيى على باب مدينة الجوزجان وبقي مصلوبا حتى خرج ابو مسلم الخراساني فأنزله وكفنوه ودفنوه وتبع ابو مسلم قتلته ولم يدع احدا قدر عليه ممن حضر مع ذلك الجيش يومذاك الا قتله . اما رأسه فقد أرسل الى نصر بن سيار وأرسله ابن سيار الى الوليد بن يزيد في الشام ، فأرسله الوليد الى امه ريطة في المدينة

فصاحت حينما نظرت قائلة : شردتموه عني طويلا وأهديتموه الي قتيلا،
وكادت ان تموت كمدا وغما وكان مصرعه سنة ١٢٥ بعد مضي خمس
سنوات على مصرع ابيه وفي تلك السنة التي قتل فيها لم يولد مولود في
خراسان وجهاتها الا وسمي يحيى ولما تقلص ظل ابن سيار عن خراسان
اقام نسوتها النياحة عليه لمدة سبعة ايام^(١) .

١ - انظر زيد بن علي لعبد الرزاق المكرم ومقاتل الطالبين للاصفهاني
وعمدة الطالب في انساب آل ابي طالب وينابيع المودة ومروج الذهب في
اخبار الوليد بن يزيد .

ثورة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر أبي مسلم الخراساني

لقد جاء في تاريخ ابن واضح اليعقوبي ان زيد بن علي لما قتل في الكوفة وكان من امره ما كان تحركت الشيعة بخراسان وظهر امرهم وكثر من يأتيهم ويميل معهم وجعلوا يذكرون للناس أفعال بنسي أمية وجرائمهم وما نالوا من آل الرسول (ص) حتى لم يبق بلد الا فشا فيه هذا الخبر وظهر في كل مكان واتسع بمصرع ولده يحيى بن زيد وظهر الدعاة في كل بلد لاهل البيت ^(١) وظهر على المسرح السياسي احد أحفاد ابي طالب وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار وقاد الشيعة ضد الامويين .

لقد دخل الكوفة حفيد جعفر الطيار هو واخوته سنة ١٢٦ ليطلب العطاء من واليها يوسف بن عمر وأقام في الكوفة مدة من الزمن وتزوج بابنة حفيد شيب بن ربيعي التميمي ، وانتهاز شيعة الكوفة اضطراب شؤون

١ - تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٦ طبع النجف .

الخلافة في الشام بعد وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك فاجتمعوا على عبد الله بن معاوية وبايعوه كما بايعه سائر اهل الكوفة وخرجوا معه بعد ذلك لقتال اهل الشام الذين كانوا مع يوسف بن عمر في الحيرة وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٧ كما جاء في تاريخ الطبري ، وحينما نشب القتال بين الطرفين واشتدت المعارك تخطى اكثرهم عنه ولم يثبت معه سوى ربيعة وجماعة ممن اشتركوا في المعارك مع زيد بن علي فقاتلوا بشجاعة وبسالة عدة ايام في شوارع الكوفة الى ان جاءهم الامان من يوسف بن عمر وأذن لعبد الله بن معاوية بالانسحاب من الكوفة ، فارتحل عنها مارا بالمدائن الى بلاد فارس وانضم اليه جماعة من الموالي والعييد من الكوفة وغيرها واستقر به المقام اولاً في اصفهان ، ثم ارتحل عنها سنة ١٢٨ الى اصطخر في اقليم فارس وسيطر على منطقة واسعة وتجمع حوله جماعات مختلفة الميول والاتجاهات كالشيعة والعباسيين والخوارج وحتى من الامويين الطامعين في عطاياه ، ولكن دولته هذه صاحبة الجنسيات المختلفة ما لبثت ان انهزمت امام جنود مروان الثاني اخر حكام الامويين في معركة جرت بين الطرفين في سنة ١٣٠ وفر هو الى كرمان ومنها الى هراة وهو يأمل ان يجد ترحيباً من ابي مسلم الخراساني ولكن ابا مسلم أمر بالقبض عليه ومن معه فأرسل اليهم وهم نيام من وضع على وجوههم غطاء وضغط عليه حتى ماتوا وكان له في هراة قبر تزوره الناس كما يدعي فلهوزن في كتابه احزاب المعارضة السياسية (١) .

وجاء من بعد جميع تلك الثورات الفاشلة شيعة كانت او غيرها التي سفكت فيها دماء الشيعة جاء العباسيون ليجنوا فوائدها وثمارها على

١ - انظر احزاب المعارضة السياسية في صدر الاسلام عن تاريخ الطبري وابن الاثير .

حساب العلويين بمنتهى السرعة والسهولة •

لقد كان العباسيون يطمحون الى الحكم ويهينون الجماهير للشورة عندما بدأ الضعف والانحيار يدب في جسم الدولة الاموية من جراء تلك الثورات المتلاحقة وجرائمهم التي انتهكت الشعوب. وشحنتها بالكراهية لهم والحقد عليهم ولكن دعائهم لم يجدوا المجال مهياً لهم بدون الشيعة فحاولوا استمالة الشيعة من العرب والموالي الى جانبهم فأعلنوا انهم لا يسعون الى الخلافة ولا يطمعون بها وانهم يعملون للتخلص من الحكم الاموي واعادة الخلافة لاحد افراد البيت النبوي وكانوا يرمزون الى ذلك بالرضا من آل محمد (ص) فاستجاب لهم الشيعة ، واختار الموالي لنشر دعوتهم خراسان وجهاتها لعدم ثقتهم بشيعة العراق بعد غدرهم بعلي والحسن والحسين وزيد بن علي والمختار الثقفي وغيرهم ، هذا بالاضافة الى ان موالي خراسان كانوا اكثر تضامنا واتحادا من شيعة العراق ، وكانت منطقة خراسان من اهم مواطن الموالي في عهد الامويين ومن اكثر المناطق تدمرا من الحكم الاموي وتطلعا الى منقذ يخلصهم مما يعانون من ظلم وجور واستغلال وأصبحت تلك المنطقة من بلاد فارس كالهشيم المهياً للاشتعال بين لحظة وأخرى •

وقد انتهز هذه الفرصة الحارث بن سريح فقام بثورة عنيفة سنة ١١٦ وافضم اليه كثير من الموالي وجعل يدعو الى العمل بالكتاب والسنة ومناهضة الامويين ويتظاهر بأنه صاحب الرايات السود والمنقذ المنتظر، وأدرك نصر بن سيار خطورة الموقف فأرسل اليه يعرض عليه ان يمنحه خمسمائة رأس من الغنم ومائتي بعير بالاضافة الى الاموال والسلاح مقابل التزامه السكنية، ولكنه رفض هذا العرض لان انصاره كانوا جادين في ثورتهم ولم يتمكن من اقناعهم ، وعاد ابن سيار ليعرض عليه ان يوليه ما وراء النهر ويدفع له ثلاثمائة الف درهم فأصر على موقفه ، وتناظر هو وابن

سيار واتفقا على تحكيم مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان ليفصلا بينهما
فحكما على نصر بأن يعتزل ويترك الامر للمسلمين شسورى ليختاروا
لانفسهم ، ومن غير المعقول ان يخضع نصر بن سيار لحكما وجهاز جيشا
لقتاله وانتهت حركته بقتله سنة ١٢٨ (١) .

وكان من نتائج هذه الثورة انقسام العرب على انفسهم واثارة روح
العصية القبلية بالاضافة الى انها بعثت الآمال في نفوس الموالي بالقضاء
على الامويين فازداد نشاطهم في هذا السبيل .

وكان انتشار العصية القبلية بين عرب خراسان من العوامل التي
ساهمت في إضعافهم مما شجع الموالي على المضي في الثورة ، فقد تولى
نصر بن سيار الحكم في خراسان وكان مضريا وظل اربع سنين لا يستعمل
في خراسان الا المضربين ويقربهم اليه فأثار تصرفه هذا حقد اليميين عليه
ومساعدتهم لكل نائر ، وفي وسط هذه الصراعات والتقلبات ظهر ابو مسلم
الخراساني فقام بالدعوة لآل البيت متخذا من هذه الدعوة ستارا يخفي
من ورائها آماله الفارسية وارجاع مجدهم بالانتقام من العرب كما يدعي
بعض الباحثين وان كنت في شك من ذلك وأرجح
انه كان يعمل للعلويين ، ومهما كان الحال فلقد سارع
موالي خراسان الى الانضواء لحركته منذ البداية ، وكان من أقطاب دعوته
قحطبة بن شبيب الطائي احد الدعاة للهاشميين فخطب في موالي خراسان
بقصد اثارتهم على الامويين وتحريك النعرة الفارسية ضد العرب ، مثال:
يا اهل خراسان هذه البلاد بلادكم وكانت لابائكم فكانوا ينتصرون على
عدوهم بعدلهم . وحسن سيرتهم فلما غيروا وبدلوا وضلوا سخط الله
عليهم واتزعها منهم وسلط عليهم اذل أمة كانت عندهم فغلبوهم على

١ - انظر العراق في ظل المهدي الاموي للخرطوبلي ص ١٨٦ عن الطبري
ج ٨ ص ٢١٩ و ج ٩ ص ٧٦ و ص ٧٣ نفس المصدر .

بلادهم واستنكحوا نساءهم واستعبدوا اولادهم وكانوا يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم ، فلما غيروا وبدلوا وأخافوا اهل البر والتقوى من عترة الرسول (ص) سلطكم عليهم لينتقم منهم بكم وينالوا جزاء ما جنته ايديهم بسيفكم ورماحكم .

وهذه المبادرة من قحطبة تؤكد ان الذين حبلوا لواء الثورة كانوا من الموالي الشيعة ولو كانوا من غيرهم لما خاطبهم بهذه اللغة ولا بهذه القسوة الجارحة ، وفي الوقت الذي ظهرت فيه الثورة في خراسان الداعية الى آل بيت النبي (ص) لقيت تأييدا وقبولا من موالي العراق لأن زعيمها ابا مسلم من الموالي ويرجع اصله الى بلدة بسواد الكوفة كما يدعي ابو الفداء في كتابه المختصر في اخبار البشر ^(١) ، والكوفة كانت قبل ظهوره مركزا لجميع الانتفاضات الشيعية الداعية الى العلويين ضد الحكم الاموي لانها لاقت من جورهم ما لم تلاقه اي بلد غيرها وظلت مصدرا لجميع الانتفاضات حتى لفظت الدولة الاموية اخر أنفاسها فسي معركة الزاب في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ ، وكان لحركة الشيعة فسي اواخر العصر الاموي اكبر الاثر في زوالها ، وأصبحوا يركنون الى كل ثائر ويباعونه على اعادة الخلافة للعلويين بعد الصدمات العنيفة التي اعترضتهم بمصرع الحسين وأصحابه وفشل التوايين والمختار الثقفي ومبصرع زيد وغيره من الثائرين .

وكان زعماء الثوار على ما بينهم من خلاف في النزعات والاتجاهات يتخذون آل بيت النبي (ص) رمزا او ستارا لحركاتهم وانتفاضاتهم التي كانت تقوم على سواعد الشيعة من العرب والموالي ، كما فعل اخر الدعاة

ابو مسلم الخراساني الذي استطاع بهم ان يمهّد الطريق لثورته ويسيطر على خراسان وجهاتها بمن معه من الموالي وشيعة العراق الذين أخرجوا من العراق قسرا في عهد زياد والحجاج وغيرها من الولاة الذين اخرجوهم ليتخلصوا من جميع العناصر التي كانت تشكل خطرا عليهم بالاضافة الى من فروا من الظلم والجور الى تلك البلاد .

لقد استطاع ابو مسلم ان يتغلب على بلاد خراسان وأن يهزم ابن سيار هذا ونصر بن سيار يكاتب مروان الملقب بالحمار ويستنجده وهو لا يجيبه لانه كان في شغل عنه بالحروب والفتن التي انتشرت هنا وهناك ، وظل يلح بأن يمهّد بالجيش حتى اجابه بجواب بدت عليه دلائل اليأس ، فعاد ابن سيار يستنجد بعمر بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق، فلم يجبه عمر على كتابه وكان في شغل عنه بأحداث العراق ، فاضطر ابن سيار اخيرا الى التخلي عن خراسان وانسحب منها بمن معه قاصدا بلاد الري ومنها الى ساوى بين همدان والري فمات فيها كمدا على حد تعبير المسعودي في مروجه وسلمت بلاد ايران لابي مسلم .

ولما اطمأن ابو مسلم الى نجاح تحركاته وخلت البلاد من الامويين وأنصارهم عين الولاة في المناطق التي احتلها واتجه الى العراق وكان شعاره الطلب بدم الحسين ودماء اهل بيته والدعوة الى الرضا من آل محمد (ص) ويخفي وراء دعوته هذه الدعوة الى العباسيين على حد تعبيرهم لانه كان على يقين من انه لو تجاهر بما كان يخفيه لكان مصير دعوتيه الاخفاق والفشل كغيرها من الاتفاضات كما يدعي بعض الباحثين ، هذا وأبو سلمة خلال احد قادة الثورة الكبار كان يعمل باخلاص للعلويين وفوجيء حينما وقف ابو مسلم يبايع لابي العباس الملقب بالسفاح وكان مختفيا بالكوفة ولم يظهر الا بعد ان نضجت الدعوة وأينمت ثمارها وتمت البيعة في العاشر من المحرم والشيعة يحتفلون بمصرع الحسين (ع) يومذاك كما جاء

فسي الاخبار الطوال للدينوري ^(١) ، ووقف داود بن علي ابن عبد الله بن العباس يلقي خطابه على حشود الشيعة الذين يعملون ويجاهدون لمصلحة العلويين لا للعباسيين ، يقول : يا اهل الكوفة لم يقيم فيكم بعد رسول الله (ص) الا علي بن ابي طالب (ع) وهذا القائم بينكم يعني بذلك ابا العباس السفاح كما خدع ابو مسلم ورفاقه من القادة والموالي ايضا ودهشوا لهذه المفاجأة لان ولاءهم لآل بيت النبي (ص) هو الذي حركهم وجعلهم يتفانون في حروبهم مع الامويين ، وراح العباسيون ودعاتهم بعد ان تكشفوا نواياهم يتظاهرون بخدمة العلويين وانهم سيردون الحق لاهله من آل بيت النبي خوفا من تراجع الشيعة من العرب والموالي قبل القضاء على الامويين مما يسر لهم اقبال الموالي والشيعة على تأييدهم من غير ان يفكروا بأنهم يناصرون قوما سيضطهدون العلويين ويلاحقونهم بكل انواع الاذى في كل صقع كما فعل الامويون معهم من قبل ، وأصبح الشيعة يعتقدون اعتقادا راسخا كما يقول فلهوزن في كتابه احزاب المعارضة السياسية في صدر الاسلام ان ارجاع الحق لاصحابه الشرعيين لا يمكن ان يكون ويتم الا في المضي بالثورة الى نهايتها وان الحق لا بد وأن يرجع لاهله ، وفي الوقت ذاته كانوا يرون ان العباسيين أهون عليهم من الامويين الذين كانوا يحكمون بروح ابي جهل وأبي سفيان وغيرهما ممن وقفوا للدعوة منذ ان بزغ فجرها بقيادة محمد بن عبد الله (ص) بالمرصاد ولم تكن تلك الحركة التي كان البعض من قادتها يضمرون غير ما يظهرون بنظر الشيعة الا حلقة جديدة في سلسلة الحركات الشيعة التي كانوا يؤازرونها منذ مطلع العهد الاموي وحتى ذلك التاريخ.

١ - وعندما نجحت الثورة كان اول ما قام ابو العباس هو ملاحقة القادة الكبار الذين يعملون لصالح العلويين وكان ابو سلمة الخلال الضحية الاولى من اولئك القادة قتله مزار بن انس الضبي بأمر السفاح وأخيه المنصور كما قتلوا ابا مسلم لهذه الغاية كما لا استبعد .

ومهما كان الحال فلقد قامت ثورة ابي مسلم على سواعد الشيعة لاعادة الحق لاصحابه والانتقام ممن قتل الحسين وبنيه واصحابه وروع نساءهم وأطفالهم وأباد الالوف من شيعتهم واصحابهم لا لشيء الا لولائهم لعلي وآل علي (ع) وكان هذا الشمار يمددا بالزخم والعزيمة الصادقة حتى بعد ان تكشفت نوايا قادتها واستمرت المعارك بين الشيعة بقيادة ابي مسلم وغيره من الدعاة ، وبين فلول الامويين تتلاحق والهزائم تتوالى على الامويين في جميع الجبهات ، وخلال تلك الفترة استطاع مروان بن محمد الحاكم الاموي الملقب بالحمار ان يعقل ابراهيم بن محمد ابن علي بن عبد الله الملقب بالامام بعد ان عثر على كتاب منه لابي مسلم الخراساني يحثه على المضي في الثورة والاسراع في الاجهاز على من بقي من الامويين وقادتهم فوضعه في سجنه لفترة قصيرة مع بعض الهاشميين ، وأخيرا وضع على رؤوس الهاشميين الوسائد وأجلس عليها جماعة من جلاديه الى ان ماتوا ، اما ابراهيم بن محمد فقد وضع رأسه في جراب فيه نورة مسحوقة وظل يضطرب الى ان خمدت أنفاسه وفارق الحياة على حد تعبير المسعودي في مروجه .

وكانت معركة الزاب بعد سلسلة من المعارك اخر محاولة قام بها الامويون وحشدوا لها جميع ما لديهم من عدد وعتاد سنة ١٣٢ ولكنها لم تكن أنجح من غيرها وانفجرت عن هزيمة مروان بن محمد بمن بقي معه هزيمة لم يحدث التاريخ بأسوأ منها .

ولنستمع الى المسعودي وابن واضح اليعقوبي وهما يتحدثان عن تلك الهزيمة التي كانت بها نهاية دولة بنيت عروش حكامها بدماء العلويين ومن كان يدين بالولاء لهم من صلحاء المسلمين وانهارت بسيوف شيعتهم لتحل محلها دولة مثلت مع أحفاد علي وشيعتهم ومحبيهم نفس الادوار التي مثلها الحزب الاموي الحاكم مع علي والحسين وشيعتهم وأنصارهم

من قبل •

فقد جاء في مروج الذهب وتاريخ اليعقوبي وغيرهما ان مروان بن محمد قد انهزم في معركة نهر الزاب بعد ان قتل اكثر من معه من الجيش وغرق في نهر الزاب خلق كثير ممن كانوا معه وكان فيمن غرق من بني أمية ثلاثمائة غير من غرق من سائر الناس، واتجه مروان فيمن بقي معه نحو الموصل فمنعه اهلها من دخولها فاتجه الى حران وكانت داره بها وعياله يقيمون فيها •

ومضى المسعودي يقول : انه حين أزيل لعن علي بن ابي طالب عن المنابر في يوم الجمعة كما كانت العادة أصر اهل حران على سبه ولعنه وقالوا : لا صلاة الا بلعن ابي تراب ، وأقاموا على ذلك الى ان كانت هزيمة الامويين وظهور المسودة ، وأضاف الى ذلك انه خرج مع اهله ونسائه وسائر بني أمية من حران الى نهر ابي فطرس من بلاد فلسطين وعبد الله بن علي يسير في اثره ، وفي طريقه حاصر دمشق وفيها الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين الف مقاتل ففتحها وأسر جماعة من أحفاد عبد الملك بن مروان وأرسلهم الى ابي العباس في الحيرة فقتلهم وصلبهم فيها كما قتل من بني أمية وغيرهم خلقا كثيرا على حد تعبير المسعودي في مروجه ، ومضى في طريقه الى نهر ابي فطرس فقتل جماعة ممن كانوا مع مروان الحمار وأسر من بني أمية بضعا وثمانين رجلا وكان قد جمعهم في مكان خاص وأمرهم بالدخول عليه وأعد لكل رجل منهم رجلين يحملان العمدة ، وحينما دخلوا عليه اطلق مليا فقام احد الشعراء وأنشد أبياتا جاء فيها :

اما الدعاة الى الجنان فهاشم وبنو أمية من كلاب النار
وكان النعمان بن يزيد بن عبد الملك جالسا الى جانب عبد الله بن علي،
فالتفت الى الشاعر وقال : كذبت يا ابن اللخناء ، فرد عبد الله بن علي

قائلا : بل صدقت يا ابا محمد امض لقولك ، ثم التفت عبد الله بن علي الى الامويين وجعل يذكرهم بمقتل الحسين وبنه واخوته وأنصاره وما جرى لاهل بيته من الاهانة والسبي والاذلال وصفق بيديه ف ضرب القوم رؤوس الامويين بالعمد التي أعدوها لذلك فماتوا عن آخرهم فناداه رجل من اقصى القوم :

عبد شمس ابوك وهو ابونسا لا تناديك من مكان بعيد
فالقربات بيننا واشجيات محكمات القوى بعقد شديس

فقال له عبد الله : هيهات هيهات لقد كان ذلك ولكن قطعه قتل
الحسين بن علي وسبسي نسائه وأطفاله ، ثم امر بهم فسحبوا وطرحوا
عليهم البسط وجلس بن معه عليها ودعا بالطعام فأكلوا وقال : يوم كيوم
الحسين ولا سواء ، ثم دعا بذلك الرجل الذي أشد البيتين وقال :

ومدخل رأسه لم يدنه احد بين الفريقين حتى لزه القرن

وأمر بضرب عنقه .

وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان عبد الله بن علي عندما احتل دمشق اباح القتل فيها ثلاث ساعات وانه قتل جمعا كبيرا من الامويين يقدر بعشرات الالوف عند نهر بالرملة وبسط عليهم الانطاع ومد عليها ساطا وأكل هو ومن معه وهم يختلجون تحتها وتبع قبور حكامهم فنبشها وأحرق ما وجده فيها من العظام غير انه لم يجد في قبر يزيد شيئا من العظام وغيرها سوى خط اسود على مساحة القبر كأنه خط بالرماد ووجد جسد هشام بن الحكم على حاله وكان قد طلي بمعدن خاص يحفظه من الاهتراء فجلده ثمانين جلدة ثم احرقه ، ويمثل بعض المؤرخين جلده بأنه

فعل ذلك به لانه كان قذف أم زيد بن علي بالزنا حينما وقف بين يديه وقال له : اخرج يا ابن الزانية ، وقيل انما فعل به ذلك انتقاما لايه علي بن عبد الله لان هشاما كان قد جلده ثمانين سوطا .

وجاء في تاريخ اليعقوبي عن عبد الله بن علي انه قال : لقد كان ابي يصلي في بعض الايام وعليه ازار ورداء فسقط الرداء عن ظهره فرأيت في ظهره آثار السياط فلما فرغ من صلاته قلت له : يا أبت جعلني الله فداك ما هذا الذي اراه في ظهرك ؟ فقال : ان الاحول يعني هشاما اخذني ظلما وعدوانا وجلدني ستين سوطا ، ومضى عبد الله يقول كما يدعي الراوي : فعاهدت الله ان ظفرت به ان اضربه بكل سوط سوطين ^(١) .

وكان مروان قد انسحب من نهر ابي فطرس باتجاه مصر فمضى في اثره صالح بن علي بن عبد الله فأدركه في قرية بوسير من بلاد مصر وجرت بين الفريقين معارك طاحنة كانت بها نهاية مروان وأكثر من كان معه من الامويين وغيرهم .

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان ولديه عبيد الله وعبد الله ليلة قتل توجها مع جماعة من أنصارهما والامويين نحو الصعيد ومنه الى بلاد النوبة فأكرمهم ملك النوبة ولكنه لم يوافق على بقاءهما في بلاده فخرجها منها باتجاه اليمن وفيما هم يسرون اليها ومعهم بعض عائلات الامويين ضلوا عن الطريق ومات اكثرهم من الجوع والعطش ، حتى كان الرجل يبول في كفيه ويشرب من بوله ولم يبق على النساء ما يستر أجسامهن ، الى غير ذلك مما جاء في تاريخ اليعقوبي وغيره في وصفه للحالة السيئة التي اعترضت مسيرتهم وكانت بها نهايتهم ، ومضى عامر بن اسماعيل احد

١ - انظر المجلد الثاني من تاريخ اليعقوبي طبع النجف ص ٩٢ و ٩٣ والمجلد الثاني من مروج الذهب .

القادة الذين كانوا مع صالح بن علي يتتبع فلول الامويين وعائلاتهم فأسر نساء مروان وبناته ومن كان معهم من الامويات والجواري وأرسلهن لعبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، وعندما دخلن عليه طلبت منه ابنة مروان الكبرى العفو والصفح فأخذ يستعرض لهن جرائم الامويين مع الهاشمين والعلويين مارا بجريمتهم مع ابن اخيه ابراهيم الامام وزيد ابن علي وولده يحيى بن زيد ومسلم بن عقيل حتى انتهى الى الحسين بن علي فأسهب في عرض جرائمهم معه ومع ابنائه وبني اخوته وعمومتهم وأنصارهم وسبي نساءهم من كربلاء الى الكوفة ومنها الى الشام وما جرى لهن من تحقير وتعذيب واستخفاف واذلال وما الى ذلك من الاهانة والاساءة لجدهم الرسول الامين (ص) .

وأضاف الى ذلك : لو اردنا ان نعاملكم بأعمالكم لا نستبقي منكم احدا صغيرا كان او كبيرا ، فبكى بنات مروان وطلبن العفو عما مضى فعفا عنهن وردهن الى حران حيث كانت مقرا لمروان بن محمد الملقب بالحمار (١) .

وتقلص بمصرع مروان الحمار ظل دولة أسسها معاوية بن ابي سفيان قبل تسعين عاما لتبقى ارثا لأحفاد امية ، ويدعي بعض الرواة ان الآية من سورة القدر (ليلة القدر خير من الف شهر) تشير الى الزمان الذي تعيشه تلك الدولة التي لم تترك حرمة من حرمت الاسلام الا وداستها ووطنتها بأقدامها ولا لونا من ألوان التعذيب والتنكيل بالعلويين والابرياء من صلحاء المسلمين الا ومارسته وحقت لابي سفيان وحزبه جميع ما كان يحلم به ويعمل من اجله ولكن الله الذي يهمل احيانا ولا يهمل كان لهم بالمرصاد .

١ - انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٤٥ والمصادر السابقة .

لقد تقلص ظلها بعد تسعين عاما على انشائها لتحل محلها دولة كان قاداتها ودعاتها يلبسون المسوح ويتباكون على الاسلام وآل بيت الرسول (ص) ليستقطبوا الجماهير ويحققوا اكبر الانتصارات وتم لهم ذلك على حساب العلويين وحينما استتبت لهم الامور مثلوا نفس الإدوار وأسوأ منها مع الاسلام ومقدساته ، ومع آل الرسول بالذات الذين كانوا يتباكون عليهم ويتظاهرون بالدعوة اليهم وينادون في معاركهم يا لثارات الحسين ، وكاد الناس ان يتجاهلوا جور الامويين وظلمهم بجانب ما لاقوه من الظلم والجور والاستهتار بالقيم والمقدسات وتقتيل العلويين ومطاردتهم حتى قال قائلهم :

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ومنه سبحانه نستمد التوفيق والعون لخراج الحلقة الثانية من الانتفاضات الشيعية انه قريب مجيب •

مصادر الكتاب

للطبرسي	القرآن الكريم
للقمي	مجمع البيان
الرازي	تفسير الميزان
لابن الاثير	تفسير
ابن الاثير	الكامل
الطبري	تاريخ
المسعودي	تاريخ
اليقوبي	تاريخ
للاصفهاني	مقاتل الطالبين
لابن كثير	البداية والنهاية
للقرشي	الامام الحسن
للمؤلف	سيرة الاثني عشر
للدكتور علي الخرطبول	العراق في ظل العهد الاموي
من سلسلة أعلام العرب	المختار الثقفي
للدكتور علي الوردي	وعاظ السلاطين

للشيخ محمد ابو زهرة
للشيخ محمد مهدي شمس الدين
للبيгдаي
لمحمود اسماعيل
للسيد محمد جواد فضل الله
لابن البزاي

للدينوري

لطيفور

لابن قتيبة
للشيخ محمد مهدي شمس الدين
للمرحوم الشيخ محمد جواد
مغنية

للسيد عبد الرزاق المقرم
للمؤلف

لصدر الدين شرف الدين
للدكتور عبد الحسين طه
للمستشرق آدم متر
لعبد العزيز سيد الاهل
للشيخ فرج القطيني

المذاهب الاسلامية
الحكم والادارة في الاسلام
الفرق بين الفرق
الحركات المرية في الاسلام
حجر بن عدي الكندي
مناقب ابي حنيفة
يتاييع الموردة
أنساب آل ابي طالب
الاخبار الطوال
احزاب المعارضة السياسية في
صدر الانلام
بلاغات النساء
صبح الاعشى
الامامة والسياسة
ثورة الحسين
الشيعة والحاكمون
زيد الشهيد
بين التصوف والتشيع
حليف مخزوم
ادب الشيعة
الحضارة الاسلامية
زينب الكبرى
وفاة زينب

لاحمد امين	ضحى الاسلام
لابي زهرة	الامام زيد بن علي
للمقرزي	الخطط
للذهبي	ميزان الاعتدال
لمعروف الدواليبي	المدخل الى علم أصول الفقه
للدكتور محمد يوسف موسى	تاريخ الفقه الاسلامي
للفزالي	المستصفى
لابي زهرة	حياة ابي حنيفة
لتوفيق ابو علم	اهل البيت
لجرجي زيدان	تاريخ التمدن الاسلامي

للمؤلف

- ١ - عقيدة الشيعة الامامية
 - ٢ - تاريخ الفقه الجعفري
 - ٣ - المبادئ العامة للفقه الجعفري
 - ٤ - الشيعة بين الاشاعة والمعتزلة
 - ٥ - نظرية العقد في الفقه الجعفري
 - ٦ - دراسات في الكافي للكليني والصحيح للبخاري
 - ٧ - المسؤولية الجزائية في الفقه الاسلامي
 - ٨ - الاحاديث الموضوعية
 - ٩ - الولاية والشفعة والاجارة من الفقه الاسلامي
 - ١٠ - سيرة المصطفى الطبعة الثالثة
 - ١١ - سيرة الأئمة الاثني عشر
 - ١٢ - بين التصوف والتشيع
 - ١٣ - أصول التشيع
- طبعة ثالثة دار القلم
- الطبعة الثانية دار القلم
- طبع مرتين دار القلم
- نقد من الاسواق
- الطبعة الثانية دار التعارف
- نقد من الاسواق
- طبعة ثانية دار القلم
- دار القلم
- دار القلم
- الطبعة الثالثة دار القلم
- دار القلم
- دار القلم

- ١٤- الوصايا والاقواف وإرث الزوجين
 ١٥- الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ
 ١٦- من وحي عاشوراء
 ١٧- نظرات جديدة في الفرق والمذاهب الاسلامية
 ١٨- أصول الفقه الجعفري
- دار القلم
 دار القلم
 تحت الطبع
 تحت الطبع
 تحت الطبع

الفهرس

٥	الاتفاضات الشيعة في التاريخ
٦	المقدمة
١٠	أصالة التشيع ومرافقه للدعوة منذ مظلمها
٢٩	التشيع الروحي والتشيع السياسي
٣٥	الخلافة بين النص والاختيار
٤٣	مصير الخلافة
٤٩	المصير المحتوم على يد الهدامين
٥٢	مهزلة الشورى
٧٨	شروط الخلافة في المذاهب الاسلامية
٩٧	موقف المسلمين من الحاكم الجائر
١١١	الاسباب التي ساعدت على بقاء التشيع
١٢٦	التيارات الجاهلية الجديدة
١٣٢	الارجاء
١٣٨	سلاح الجبر
١٤١	عدالة الصحابة

١٥١	مواقف أئمة الشيعة من تلك الاسلحة
١٦١	المراحل التي مرت بها الانتفاضات الشيعية
١٦٦	أبو ذر الغفاري
١٨٨	بين الخلافة والثورة
٢٠٥	عزل الولاية واستبدالهم بغيرهم
٢٠٩	المساواة بين جميع الناس
٢٤٠	الانتفاضات الشيعية بعد عام المحنة
٢٧٧	المعركة بين معاوية وقادة الشيعة
	مصرع حجر بن عدي الكندي وأصحابه سيقتل في عذراء أناس
٢٨١	يفض الله لهم وأهل السماء
٢٩٧	صيفي بن قسيل
٢٩٨	قييحة بن ربيعة
٢٩٩	صدي الفاجعة
٣٠٢	رشيد الهجري ورفاقه
٣٠٥	عمرو بن الحنق الخزاعي
٣١٠	أوفى بن حصن
٣١٢	جويرية بن مسهر العبدي
٣١٤	عبد الله بن يحيى الحضرمي
٣١٦	محمد بن ابي حذيفة
٣١٩	عبد الله بن هاشم المرقال
٣٢٣	عبد الله بن خليفة الطائي
٣٢٨	جارية بن قدامة
٣٣٠	الزرقاء بنت عدي
٣٣٣	أم الخير البارقية

٣٣٦	أم البراء بنت صفوان
٣٣٨	بكارة الهلالية
٣٤٠	أروى بنت الحارث
٣٤٤	ثورة الحسين (ع) على الظلم والظالمين
٣٥٦	موقف الحسين من البيعة ليزيد وهو في طريقه للثورة
٣٦٥	الحسين يعلن اسباب الثورة وأهدافها
٣٧٥	هجرة ثمان في صدر الاسلام
٣٨٧	شباب كربلاء
٣٩٤	بطلة كربلاء زينب بنت علي (ع)
٤٠٧	ماذا بعد مجزرة كربلاء
٤١١	استغلال ابن الزبير لمصرع الحسين
٤٢٠	انتفاضة المدينة
٤٣١	ثورة التوابين
٤٤٠	ثورة المختار بن عبيدة الثقفي
٤٥٢	المختار وعبد الله بن الزبير
٤٥٨	المختار وقتل الحسين (ع)
٤٦٥	موقف المختار من الزبيريين ونهايته
٤٧٦	موقف الحجاج بن يوسف من الشيعة
٤٨٣	ثورة زيد بن علي بن الحسين
٤٨٨	العمل في ميدان السياسة
٤٩٤	الاعداد للمعركة التي كانت بها نهايته
٥٠٢	انتفاضة يحيى بن زيد
٥٠٦	ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر وأبي مسلم الخراساني
٥١٩	مصادر الكتاب
٥٢٣	للمؤلف